السيرة النبوية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع القانونى:
الترقيم الدولى:

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

السيرة النبوية

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

في

غـــزوة أحـــــد

١ - اجتماع قريش وأحلافهم على غزو المسلمين

قال الإمام محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالى- : وكان من حديث أُحد كما حدثني محمد بن مسلم الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدَّث بعض الحديث عن يوم أحد.

وقد اجتمع حديثهم كله فيما سقتُ من هذا الحديث عن يوم أحد، قالوا، أو من قاله منهم:

لما أُصيب يوم بدر من كفار قريش أصحابُ القليب، ورجع فَلُّهم[١] إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره[٢]، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رِجَال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير من قُريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتركم، وقتل خياركم، فأعينوا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منَّا. ففعلوا.

فاجتمعت قريشٌ لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب، وأصحاب العير بأحابيشها[٣]، ومن أطاعها من قبائل كنانة، وأهل تهامة.

وقال محمد بن عمر الواقدي في روايته: وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى إليهم، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل، وخرجوا بعدة وسلاح كثير، وقادوا مائتي فرس، وكان فيهم سبعمائة دارعٍ وثلاثة آلاف بعير[٤].

وذكر ابن إسحاق أنهم حينما وصلوا المدينة نزلوا حول جبل عَيْنين ببطن السبخة على شفير الوادي[٥]، وذلك جهة جبل أحد.

(١) أي: بقيتهم المهزومة.
(٢) بكسر العين والراء، يعني: القافلة.
(٣) الأحابيش: قبائل تحالفت على النصرة وحالفت قريشاً على ذلك، وقيل: إنها سميت بذلك؛ لأنها تحالفت عند جبل حبشي بأسفل مكة، وقيل: سميت بذلك؛ لاجتماعهم، والتجمع في كلام العرب هو التحبش، عيون الأثر: ٢/ ٢٥.
(٤) مغازي الواقدي: ١/ ٢٠٣.
(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣- ٧.

تبين لنا من هذا الخبر أن كفار قريش ومن حالفهم قد اجتمعوا على محاربة المسلمين في المدينة.

وسبق لنا بيان ما حصل على الكفار في معركة بدر من الهزيمة وفَقد عدد كبير من سادتهم، ووقوع عدد آخر أسير بأيدي المسلمين.

وكان من نتائج ذلك أن صمم هؤلاء الكفار على غزو المسلمين في عُقر دارهم في المدينة، وكان قصدهم استئصالهم والقضاء على دينهم.

ولو نظرنا إلى الموضوع بنظرة مجردة عن اعتبار العقيدة، وأن المسلمين يدافعون عن دينهم الحق وأن الكفار يدافعون عن دينهم الباطل، فإن تذكر ما فعله المشركون بالمسلمين من الأذى وهم في مكة على مدى عشر سنوات منذ أن جهر النبي ﷺ بدعوته، وما قاموا به عند هجرتهم؛ من تجريدهم من أموالهم والاستيلاء على مساكنهم.. يجعل هؤلاء المسلمين في نظر العقلاء مظلومين ظلمًا منكرًا من الكفار، وأن ما أصاب قوافل المشركين التجارية أو أصابهم في بدر يُعد قليلاً بالنسبة لما أصابوا من المسلمين قبل ذلك وهم مجرَّدون من القوة، فكانت النظرة الصحيحة والتفكير السليم -لو كانوا يعقلون- أن يقوموا بتصحيح خطئهم الفادح الذي ارتكبوه مع المسلمين الذين أصبحت لهم دولة قوية في المدينة، وذلك بعقد الصلح معهم وتعويض المهاجرين عن كل ما فقدوه من أموالهم.

ولكنهم مازالوا على عنجهيتهم واستكبارهم وجهلهم؛ حيث لم يعترفوا بخطئهم الذي ارتكبوه ضد المسلمين، ومازالوا يعدُّون المسلمين ضعفاء وأنهم ليس لهم كيان قوي يُخشى منه؛ فلذلك كان عزمهم على غزو المسلمين في المدينة.

*****

٢- بعث الحباب بن المنذر لمعرفة جيش المشركين

قال محمد بن عمر الواقدي في سياق رواية له: فلما نزلوا: [يعني المشركين]، وحلُّوا العُقد واطمأنوا، بعث رسول الله ﷺ الحُباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم وحَزَر ونظر إلى جميع ما يريد، وبعثه سرًّا، وقال للحباب: «**لا تُخبرني بين أحدٍ من المسلمين إلا أن ترى قلَّة**».

فرجع إليه فأخبره خاليًا، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيتَ؟**» قال: رأيت يا رسول الله عدداً، حزرتهم ثلاثة آلاف، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعًا ظاهرة، حزرتها سبعمائة درع، قال: «**هل رأيتَ ظُعُنًا؟**» قال: رأيت النساء معهن الدِّفاف والأكبار -الأكبار يعني الطبول- فقال رسول الله ﷺ: «**أردْن أن يحرِّضن القوم ويُذكرنهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم، لا تذكر في شأنهم حرفًا، حسبُنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجولُ وبك أصولُ**»(١).

في هذا الخبر بيان اهتمام النبي ﷺ بمعرفة حجم جيش الكفار ومدى استعدادهم وقوتهم، وهذا أمر ضروري للاستعداد ووضع الخطط المناسبة.

وقوله ﷺ للحباب: «**لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلَّة**» بيان لأهمية المحافظة على القوة المعنوية المجاهدين وارتفاعٍ حماسهم.

وفي هذا الخبر موقفان للحُباب بن المنذر رضي الله عنه:

الأول: في شجاعته؛ حيث استطاع أن يدخل في جيش المشركين ويقوم بمهمة تقدير عددهم وعدَّتهم، وهذه المهمة لا يكفي فيها أن يجول حولهم من بعيد؛ لأن ذلك لا يتيح له فرصة الاطِّلاع الكافي، والأرقام التي قدمها للنبي ﷺ تدل على أنه قد دخل في جيشهم، وتلك مغامرة جريئة لا يقوم بها إلا من كانوا يجمعون بين الشجاعة والحذر.

والموقف الثاني: في دقة رصده الحربي؛ حيث أفاد عن عددهم وعدد خيولهم وأدراعهم بما يوافق الإحصاءات التي تمت بعد ذلك أو يقاربها، وهذه خبرة حربية عالية، ولقد أحسن النبي ﷺ الاختيار حينما اختار الحُباب لهذه المهمة.

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٠٧، ٢٠٨.

وأخيرًا موقف جليل، وذلك في جواب النبي ﷺ للحباب؛ حيث قال: «**حسبُنا الله ونعمَ الوكـيل، اللهم بك أجُول وبك أصُـول**»، وهذا يدل على قوة التوكل على الله - تعالى- حيث لم يذكر في ذلك الموقف الرهيب غير الله -جل وعلا- وهذا هو أهم عوامل النصر.

إن عوامل النصر المادية يشترك فيها المؤمنون والكفار، ولكن العامل الوحيد الذي يختص به المؤمنون هو التوكل على الله -عز وجل- وبهذا العامل القوي العظيم انتصر رسول الله ﷺ على أعدائه وانتصر المؤمنون من بعده على أعدائهم.

*****

٣- موقف ثبات لسلمة بن سلامة بن وَقش

قال محمد بن عمر الواقدي في سياق رواية له: وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى العرْض[(١)] إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس، فركضوا في أثره، فوقف لهم على نشز من الحرَّة، فراشقهم بالنبل مرة وبالحجارة مرة حتى انكشفوا عنه، فلما ولَّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض، فاستخرج سيفًا كان له ودرع حديد كانا دُفنا في ناحية المزرعة، فخرج بهما يعدُو حتى أتى بني عبد الأشهل فخبر قومه بما لقي منهم، وكان مقْدَمُهم يوم الخميس لخمس ليالٍ خلون من شوال، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلون من شوال[(٢)].

هذا الخبر يدل على شجاعة سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري رضي الله عنه وقوة احتماله؛ حيث ثبت أمام عشرة من الفرسان، ولقد أعطى المشركين بذلك درسًا بليغًا في الصبر والثبات، وهذا شاهد على أن الكفار لا يبذلون في الحرب إلا جزءًا يسيرًا من طاقتهم؛ لأنهم يهتمون قبل كل شيء بالدفاع عن أنفسهم واستبقاء حياتهم، وأن المؤمن الحق يبذل طاقة كبيرة تعادل طاقة عشرة من الكفار أو أكثر.

*****

(١) العرض بكسر العين: مكان يزرع فيه أهل المدينة ما بين الوطاء بأُحد إلى الجرف إلى العرضة، مغازي الواقدي: ١/ ٢٠٧.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٠٨.

٤- مواقف إيمانية فدائية

خبر رؤيا رسول الله ﷺ ومشورة أصحابه

قال محمد بن عمر الواقدي: فحدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: ظهر النبي ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا؛ رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت كأنَّ سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظُبته**(١)**، ورأيت بقرًا تُذبح، ورأيت كأني مردفٌ كبشًا**».

فقال الناس: يا رسول الله، فما أولتَها؟ قال: «**أمَّا الدِّرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأما انفصام سيفي من عند ظُبته فمصيبة في نفسي، وأما البقر المُذبَّح، فقتلَى في أصحابي، وأما مُردفٌ كبشًا، فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله**».

قال: وحدثني عمر بن عقبة، عن سعيد، قال: سمعت ابن عباس يقول: قال النبي ﷺ: «**وأما انقصام سيفي: فقتل رجلٍ من أهل بيتي**».

ثم قال: حدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن عروة، عن المسْور بن مخرمة، قال: قال النبي ﷺ: «**ورأيت في سيفي فلاً، فكرهته**»، فهو الذي أصاب وجهه ﷺ.

وقال النبي ﷺ: «**أشيروا عليَّ!**» ورأى رسول الله ﷺ ألاَّ يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، فرسول الله ﷺ يُحب أن يوافق على مثل ما رأى وعلى ما عبَّر عليه الرؤيا، ثم ذكر رأي عبد الله بن أبي بن سلول الموافق لرأي النبي ﷺ إلى أن قال: فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرًا، وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوِّهم، ورغبوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدوِّ: اخرج بنا إلى عدوِّنا! وقال رجالٌ من أهل السنِّ وأهل النِّيَّة؛ منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، في غيرهم من الأوس والخزرج: إنا نخشى يا رسول الله أن يظنَّ عدوُّنا أنَّا كرهنا الخروج إليهم جبنًا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثيرٌ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به،

---

(١) أي: من طرفه.

فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا، ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم، يتسامون[1] كأنهم الفحول.

وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحسنيين؛ إما يُظفرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، فيُذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله، ما أبالي أيهما كان، إنَّ كلاًّ لفيه الخير! فلم يبلغنا أن النبي ﷺ رجع إليه قولاً، وسكت.

فقال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارجًا من المدينة، وكان يقال: كان حمزة يوم الجمعة صائمًا، ويوم السبت صائمًا، فلاقاهم وهو صائم.

قالوا: وقال النُّعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم: يا رسول الله، أنا أشهد أن البقر المذبَّح قتلى من أصحابك وأنهم منهم، فلمَ تحرمنا الجنة؟ فوالذي لا إله إلا هو لأدخلنها، قال رسول الله ﷺ: «**بم؟**» قال: بأنِّي أحبُّ الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقتَ!**» فاستُشهد يومئذ.

وقال إياس بن أوس بن عتيك: يا رسول الله، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبَّح، نرجو يا رسول الله أن نذبح في القوم ويذبح فينا، فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار، مع أني يا رسول الله، لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمدًا في صياصي يثرب وآطامها! فيكون هذا جُرأة لقريش، وقد وطئوا سَعَفَنا فإذا لم نذُب عن عرضنا[2] لم نزرع، وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا، ولا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبهم عنَّا، فنحن اليوم أحق؛ إذ أيدنا الله بك، وعرفنا مصيرنا، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا.

وقام خيثمة أبو سعد بن خَيثمة، فقال: يا رسول الله، إن قريشًا مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاءونا قد قادوا الخيل

---

(١) يتسامون: يتبارون، القاموس المحيط: ٤/ ٣٤٤، عن هامش المغازي.

(٢) العرضُ: مكان يزرعون فيه، كما تقدم.

وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يُكْلموا[1]، فيُجرئهم ذلك علينا حتى يشنُّوا الغارات علينا، ويصيبوا أطرافنا، ويضعوا العيون والأرصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا، ويجترئ علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم، فنذُبُّهم عن ديارنا، وعسى الله أن يظفرنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى فهي الشهادة، لقد أخطأتْني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصًا، لقد بلغ من حرصي أن ساهمتُ ابني في الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة، وقد كنت حريصًا على الشهادة، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة، يسرحُ في ثمار الجنة وأنهارها، وهو يقول: الحقْ بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني، ورق عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة. فدعا له رسول الله ﷺ بذلك، فقُتل بأحد شهيدًا.

وقالوا: قال أنس بن قتادة: يا رسول الله، هي إحدى الحسنيين؛ إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر في قتلهم، فقال رسول الله ﷺ: «**إني أخافُ عليكم الهزيمةَ**».

قال: فلما أبوا إلا الخروج صلَّى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس، ثم وعظ الناس وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا.

ففرح الناس بذلك؛ حيث أعلمهم رسول الله بالشخوص إلى عدوهم، وكره ذلك المخرج بشرٌ كثيرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ثم صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس وقد حشد الناس، وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء في الآطام، فحضرت بنو عمرو بن عوف ولفُّها والنبيت ولفها وتلبَّسوا السلاح.

فدخل رسول الله ﷺ بيته، ودخل معه أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- فعمَّماه ولبَّساه، وصُفَّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره، ينتظرون خروجه، فجاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فقالا: قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء، فرُدوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأي فأطيعوه.

---

(١) أي: لم يجرحوا.

فبينا القوم على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد وبعضهم على البصيرة على الشخوص، وبعضهم للخروج كاره؛ إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته[1]، وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمال سيف من أدم[2]، كانت عند آل أبي رافع مولى رسول الله ﷺ بعد، واعتمَّ، وتقلَّد السيف، فلما خرج رسول الله ﷺ ندموا جميعًا على ما صنعوا، وقال الذين يلحون على رسول الله ﷺ: ما كان لنا أن نلح على رسول الله ﷺ في أمر يهوى خلافه، وندَّمهم أهلُ الرأي الذين كانوا يشيرون بالمقام، فقالوا: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله، ثم إليك، فقال: «**قد دعوتُكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمتَه أن يضعَها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه**».

وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبي لأمتَه لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، ثم قال رسول الله ﷺ: «**انظُروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله، فلكم النصر ما صبرتم**»[3].

وقد يقال: لماذا لم يعمل النبي ﷺ بالرؤيا التي رآها والتي مفادها الإقامة بالمدينة وعدم الخروج منها لقتال الأعداء مع أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام حق ووحي؟ ولماذا فتح باب الشورى مع وضوح الأمر في هذه الرؤيا؟

ويمكن أن يقال في الجواب على ذلك: إن تلك الرؤيا تشتمل على الأمرين: البقاء في المدينة مع قتال الأعداء فيها، والخروج لقتالهم، ويمثل الأمر الأول من الرؤيا قول رسول الله ﷺ: «**رأيتُ كأنِّي في درع حصينة**»، ويمثل الأمر الثاني قوله: «**ورأيتُ كأن سيفي ذا الفقار انقصَم من عند ظُبته، ورأيت بَقرًا تُذبح**»، فكأن هذه الرؤيا تخيير للنبي ﷺ بين الأمرين، وكان ﷺ رحيمًا بالمؤمنين، ولم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما

---

(1) أي: سلاحه. (2) أي: من جلد.

(3) مغازي الواقدي: ١/ ٢٠٩- ٢١٤، وأخرجه ابن إسحاق باختصار: سيرة ابن هشام: ٣/ ٥-٨، وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام أحمد مختصرًا، قال: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٦/ ١٠٧، وأخرجه الحاكم مختصرًا، وصحَّحه وأقرَّه الذهبي، المستدرك: ٢/ ١٢٨، ١٢٩، وأخرج الإمامان البخاري ومسلم خبر الرؤيا فقط من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٧٤، رقم: ٤٠٨١، صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، رقم: ٢٢٧٢، ص١٧٧٩.

لم يكن إثمًا؛ فلذلك رأى البقاء في المدينة إشفاقًا على أصحابه، ثم استشار أصحابه في أحد الأمرين، فلما رأى كثرة المشيرين بالخروج وشدة حماسهم وقوة اندفاعهم كره مخالفتهم ورغب في تلبية مطالبهم وتحقيق طموحاتهم، فعدل عن رأيه وأخذ برأيهم.

فالنبي ﷺ لم يخالف أمر الله -تعالى- في الرؤيا، وإنما أخذ بأحد أمرين خُيِّر فيهما بعدما استشار أصحابه، فلا حاجة إلى القول بأن الرؤيا نسخت كما قال بعض العلماء؛ لأن ذلك لم يثبت، ولأن الرؤيا ليس فيها أمر صريح بأحد الأمرين.

وفي هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ باستشارة أصحابه مع أنه قد رأى في الرؤيا ما يؤيد أحد الأمرين اللذين استشارهم فيهما، وهو الإقامة في المدينة، وقتال الأعداء من داخلها، وهذا يبين لنا أهمية الشورى في أمور المسلمين، خاصة المهمة منها.

ومما يزيد هذا الموقف بهاءً وعظمة أن النبي ﷺ نزل على رأيه إلى رأي المخالفين له، المتحمسين للقتال خارج المدينة، وهو بذلك يضرب مثلاً عاليًا للمسؤولين من أمته بألا يصروا على رأيهم وإن رأوا أنه الأقرب إلى الصواب.

ثانيًا: في هذا الخبر تصوير لشجاعة المسلمين واندفاعهم القوي نحو الجهاد الذي هو مظنة ذهاب النفوس أو بعض الأعضاء، وحينما تأتي الأوامر من النبي ﷺ بالخروج للقتال فإن الاستجابة قد تكون من باب الطاعة وتنفيذ الأمر، ولكن حينما يكون رأي النبي ﷺ في لزوم المدينة والتحصُّن بها، ثم يندفع هؤلاء المتحمسون إلى طلب الخروج فإن ذلك لا يفسر إلا بأنه شوق بالغ إلى الجهاد في سبيل الله -تعالى- ومن وراء ذلك الشوق العظيم إلى الظفر برضوان الله -تعالى- والجنة.

ونجد أن هؤلاء الصحابة يندفعون إلى الجهاد مع ما ظهر لهم في تأويل النبي ﷺ لرؤياه بأن جماعة من صحابته سيقتلون، والصحابة يعلمون أن رؤيا الأنبياء -عليهم السلام- حقٌّ، فلم يكن ذلك مثبطًا لهم عن الخروج، بل كان بضد ذلك حافزًا قويًا لهم على الخروج للجهاد؛ لأن الشهادة في سبيل الله -تعالى- هي أسمى أمانيهم.

ثالثًا: في هذا الخبر موقف حازم قوي لرسول الله ﷺ؛ حيث قال: «**لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعَها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه**»، فالمشورة وتبادل الرأي قبل

العزم الأخير الذي يصل إلى حدِّ التصميم، والذي تمثَّل في هذا الموقف بلبس النبي ﷺ آلة الحرب واستعداده لذلك، وفي هذا درس بليغ للقادة؛ ليجتنبوا حياة التردُّد الذي يفضي إلى الشقاق وفتور الحماس، وإذا وقع الشقاق ضاع أهم عامل من عوامل القوة وهو اجتماع الكلمة، وإذا فتر الحماس ضعف مستوى الأداء وبذل الطاقة.

ففي هذا الخبر يتعلم القادة أمرين مهمين:

أحدهما: التخلق بخلق التواضع الذي من آثاره إتاحة الفرصة للأفراد من أهل الرأي أن يدلوا بآرائهم عن طريق الشورى، ثم الوصول بعد ذلك إلى الرأي الذي يتم ترجيحه.

والأمر الآخر: استعمال الحزم والثبات على القرار الذي يتم اتخاذه أثناء مجلس الشورى.

وهذان الأمران بينهما تناقض في الظاهر؛ حيث إن أحدهما يأخذ جانب اللين، والآخر يأخذ جانب الشدة، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لاختلاف الحالين في الأمرين، فاللِّين كان سائغًا في مجال الشورى لاستخراج آراء أهل الرأي ثم التوصل إلى أفضلها، والشدة أصبحت سائغة بعد اتخاذ القرار؛ لضمان وحدة الجماعة والحفاظ على معنويات الأمة في أرقى مستوياتها.

*****

٥- خروج النبي ﷺ إلى أحد وما فيه من مواقف

١ - قال محمد بن عمر الواقدي في سياق رواية له: ومضى رسول الله ﷺ حتى أتى الشيخين[١]، فعسكر به، وعُرض عليه غلمان: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج، فردهم، قال رافع بن خديج: فقال ظُهير بن رافع: يا رسول الله، إنه رام! وجعلت أتطاول وعليَّ خُفان لي، فأجازني رسول الله ﷺ، فلما أجازني، قال سمرة بن جندب لربيبه مُرَي بن سنان الحارثي، وهو زوج أمه: يا أبة، أجاز رسول الله رافع بن خديج وردَّني، وأنا أصرَع رافع بن خديج، فقال مُرَيُّ بن سنان الحراثي: يا رسول الله، رددت ابني، وأجزت رافع بن خديج، وابني يصرعه، فقال رسول الله ﷺ: «**تصَارعَا!**» فصرع سمرة رافعًا فأجازه رسول الله ﷺ، وكانت أمه امرأة من بني أسد[٢].

في هذا الخبر مثل جيِّد على حب الصحابة رضي الله عنهم للجهاد، وارتفاع مستواهم التربوي؛ حيث حببوا الجهاد لأبنائهم، فأصبح غلمانهم يتسابقون إلى ميادين الجهاد.

وتتبدى هذه المظاهر المتأصلة في نفوس هؤلاء الغلمان في خروجهم مع جيش المسلمين، وكلهم أملٌ في أن يجيزهم رسول الله ﷺ، وأن يشاركوا في الجهاد، كما تتبدى في إلحاح رافع بن خديج على ولي أمره؛ ليقنع النبي ﷺ بالسماح له بالجهاد، بحجة أنه يجيد الرماية، ويشفق على نفسه من ردِّ النبي ﷺ بالرفض فينتصب قائمًا على أصابع قدميه؛ ليبدو طويلاً قد بلغ مبلغ الرجال مخفيًا هذا التطاول بخفيه السابغين اللذين يخفيان عقبيه، ويتم فوزه بإجازة النبي ﷺ إياه.

وتأخذ الحسرة سمرة بن جندب الذي رُدَّ مع الغلمان، ويعصف به الشوق إلى الجهاد فيدلي بمسوغ آخر للقبول، أوَليس يصرع رافعًا؟ فهو إذًا أقوى منه وما دام الأمر كذلك فهو أحق منه بالإجازة، ويهمس بذلك في أذن وليه، فينطلق بها إلى النبي ﷺ فرحًا

(١) هو موضع بين المدينة وجبل أحد.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢١٦، وأخرجه ابن هشام في السيرة: ٣/ ١٢ .

مسروراً بظفر ابنه بذلك المسوغ ويتصارعان بأمر النبي ﷺ، ويتم لسمرة ما أراد من تلك الإجازة.

إن فرحة هذين الغلامين وأمثالهما بالمشاركة في الجهاد تفوق كل ما يخطر على بال أقرانهم من أسرى المباهج الدنيوية والأهداف القريبة، وذلك شاهد على ارتفاع مستوى المجتمع الإسلامي آنذاك في المُثل السامية والقيم العالية.

٢- قال الواقدي في سياق روايته:

واستعمل رسول الله ﷺ على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً، يطوفون بالعسكر حتى أدلج رسول الله ﷺ[١]، وكان المشركون قد رأوا رسول الله ﷺ؛ حيث أدلج ونزل بالشيخين، فجمعوا خيلهم وظَهْرهم، واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبي جهل في خيل من المشركين، وباتت صاهلة خيلهم لا تهدأ، وتدنو طلائعهم حتى تلصق بالحرة، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم، ويهابون موضع الحرَّة ومحمد بن مسلمة[٢].

وهذا موقف يُذكر لمحمد بن مسلمة ومن معه من الحرس رضي الله عنهم؛ حيث حفظوا الجيش الإسلامي من أعدائهم تلك الليلة.

٣- قال الواقدي في سياق روايته:

وقد كان رسول الله ﷺ قال حين صلَّى العشاء: «**من يحفظُنا هذه الليلة؟**» فقام رجل، فقال: أنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**من أنتَ؟**» قال: ذكوان بن عبد قيس، قال: «**اجلس**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**من رجل يحفظنا هذه الليلة؟**» فقام رجل، فقال: أنا، فقال: «**من أنت؟**» قال: أنا أبو سبع، قال: «**اجلس**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**من رجُل يحفظنا هذه الليلة؟**»، فقام رجل، فقال: أنا، فقال: «**ومن أنت؟**» قال: ابن عبد قيس، قال: «**اجلس**»، ومكث رسول الله ﷺ ساعةً، ثم قال: «**قوموا ثلاثتكم**»، فقام ذكوان بن عبد قيس، فقال رسول الله ﷺ: «**أين صاحباك؟**» فقال ذكوان: أنا الذي كنت أجبتك الليلة، قال: «**اذهب، حفظك الله!**» قال: فلبس درعه، وأخذ دَرَقَته، وكان يطوف بالمعسكر تلك الليلة، ويقال: كان يحرس رسول الله ﷺ لم يفارقه[٣].

---

(١) أي: سار ليلاً.

(٢)، (٣) مغازي الواقدي: ١/ ٢١٧.

وهذا يعني أن النبي ﷺ قد كلَّف ذكوان بن عبد قيس بمهمة الحراسة داخل معسكر المسلمين، وهي تختلف عن مهمة محمد بن مسلمة وصحبه الَّذين كانوا يحرسون المعسكر من خارجه، رضي الله عنهم أجمعين، وكون هذا الصحابي الجليل ذكوان بن عبد قيس يجيب نداء النبي ﷺ ثلاث مرات معلنًا اسمه في الأولى، ومتنكرًا في الأخيرتين دليل على اهتمامه البالغ بتقديم تلك الخدمة العسكرية لرسول الله ﷺ وأصحابه، وذلك من التسابق إلى الخير والتنافس في العمل الصالح.

٤- قال الواقدي في سياق روايته:

ونام رسول الله ﷺ حتى ادَّلج[١]، فلما كان في السَّحر قال رسول الله ﷺ: «**أين الأدلاَّء؟ منْ رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم من كثب؟**»[٢]، فقام أبو حثمة الحارثي، فقال: أنا يا رسول الله، ويقال: أوس بن قيظي، ويقال: مُحَيِّصة، وأثبتُ ذلك عندنا: أبو حثمة.

قال: فخرج رسول الله ﷺ، فركب فرسه، فسلك به في بني حارثة، ثم أخذ في الأموال[٣]، حتى يمر بحائط مرْبَع بن قيظي، وكان أعمى البصر منافقًا، فلما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه حائطه قام يحثي التراب في وجوههم، وجعل يقول: إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطي، فيضربه سعد بن زيد الأشهلي بقوس في يده، فشجَّه في رأسه، فنزل الدم، فغضب له بعض بني حارثة ممن هو على مثل رأيه، فقال: هي عداوتكم يا بني عبد الأشهل، لا تدعونها أبدًا لنا، فقال أسيد بن حضير: لا والله، ولكنه نفاقكم، والله لولا أني لا أدري ما يوافق النبي ﷺ من ذلك لضربت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه! فأُسكِتوا[٤].

في هذا الخبر موقفان:

الأول: ما كان من سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه، حينما غضب لله -تعالى- ولرسوله ﷺ، فقام بتأديب ذلك المنافق.

---

(١) ادَّلج بتشديد الدال: سار آخر الليل. (٢) أي: قرب.

(٣) أي: البساتين.

(٤) مغازي الواقدي: ١/ ٢١٨، وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠.

والموقف الثاني: لأسيد بن حُضير رضي الله عنه، حينما قضى على ذلك الجدال القبلي الذي أثاره أحد المنافقين؛ وذلك بالتهديد باستعمال القوة في القضاء على ذلك المنافق وأمثاله لو سمح النبي ﷺ بذلك.

٥- قال ابن إسحاق: حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأُحد، انخزل عنه عبد الله ابن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة يقول: يا قوم أُذكِّركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال.

قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه(١).

في هذا الخبر مواقف وعبر، فمنها:

أولاً: إن فيه درسًا بليغًا للمسلمين؛ ليأخذوا العبرة مما جرى من أولئك المنافقين الذين خذلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين وهم في أحرج المواقف، وأمام هذا الحادث المهم ترد بعض التساؤلات حول تصرفات المنافقين الغريبة في هذه المعركة؛ فقد خرجوا مع المؤمنين أوَّلاً، ثم لما كانوا في أثناء الطريق رجعوا إلى المدينة بصورة تثير الشبهة عليهم، وتبعث على الشك فيهم، فلماذا خرجوا مع المؤمنين ماداموا لا يريدون نصرة الإسلام والمسلمين؟ ولماذا رجعوا من أثناء الطريق؟ والجواب أن يقال: يحتمل أنهم خرجوا من أجل الغنائم فيما إذا كان النصر للمسلمين، فلما رأوا ضخامة جيش الكفار أصيبوا بالرعب، وامتلأت قلوبهم ذعراً، فرجعوا ولم يدخلوا المعركة.

ويحتمل أنهم خرجوا مبالغة منهم في ستر نفاقهم، ثم أصيبوا بالرعب فلم يستطيعوا الاستمرار في تمثيل هذا النفاق الذي سيكلفهم تضحيات كبيرة، فرجعوا إلى المدينة مفضلين مواجهة نقمة المؤمنين المحتملة فيما إذا بقى لهم كيان بعد المعركة على مواجهة الموت المحقق في نظرهم على يد الكفار.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٩ .

ويحتمل أنهم كانوا يسيرون على خطة مرسومة، وذلك في أن يخرجوا مع المؤمنين، فإذا ما شارفوا على الوصول إلى الأعداء رجعوا محاولين بذلك التخذيل عن النبي ﷺ بإثارة الفزع والخوف بين المؤمنين.

كل ذلك محتمل، ولكن الذي يظهر: أنهم لم يتفقوا على خطة مرسومة وهم في المدينة؛ لأن النبي ﷺ حينما استشار الناس في الخروج أو البقاء وسمع رأي الفريقين دخل بيته ولبس لأمته وأمر الناس بالخروج، فليس هناك وقت كاف لاجتماع المنافقين واتفاقهم على مثل هذه الخطة، فالظاهر أنهم خرجوا نفاقًا، وربما كان لهم أو لبعضهم هدف في الغنيمة، فلما رأوا جيش الكفار أصيبوا بالرُّعب فانسحب زعماؤهم وتبعهم من هو على شاكلتهم في النفاق ومن لم يتمكن الإسلام من قلبه، فافتتن في ذلك اليوم ونافق، وربما كانوا يدبرون خطة الانسحاب في تلك الليلة التي بات فيها جيش المؤمنين قريبًا من جيش الكفار على نحو يثير الفزع والاضطراب في جيش المؤمنين حتى يرجع معهم أكبر قدر ممكن منهم؛ ليحصل الفشل في المسلمين، فينهزموا أمام أعدائهم، وليتفادوا نقمة المؤمنين بهم فيما إذا انتصروا إذا كان عددهم كبيرًا.

وقد حصل لهم بعض ما أرادوا؛ حيث رجع ثلث الجيش الإسلامي في ذلك اليوم، وليس من المقطوع به أن جميع أولئك الذين رجعوا كانوا منافقين قبل ذلك، بل يحتمل أن بعضهم كفروا في ذلك اليوم، ثم أخفوا كفرهم عن المؤمنين.

وعلى أي حال فرجوع عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين في ذلك اليوم يُعد خيانة مكشوفة ودليلاً واضحًا على نفاقهم، وهذا من أوضح الأدلة على ما يُبيته المنافقون للمؤمنين من الشر والنوايا السيئة[1].

ولقد تبين من الحوار الذي جرى بين عبد الله بن عمرو بن حرام والمنافقين أن هؤلاء المنافقين متناقضون، فبينما يقول عبد الله بن أُبي لحزبة من أهل النفاق في بيان سبب انسحابه: «أطاعهم وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس»، نراه يقول هو وجماعته لعبد الله بن عمرو بن حرام: «لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتال»، وهذا كلام لا يقوله عاقل يزن كلامه؛ لأن أي عاقل

(١) من كتاب: المنافقون في القرآن للمؤلف: ١٢٤.

يدرك أن قريشًا لم يخرجوا إلا لقتال، ثم إنه إذا كان يغلب على ظن هؤلاء المنافقين أنه لن يكون قتال، فلماذا رجعوا وقال بعضهم لبعض: علام نقتل أنفسنا؟ . . وما أجابوا به عبد الله بن عمرو بن حرام قد أثبته الله -عز وجل- على سبيل التوبيخ لهم بقوله: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٦٧، ١٦٨].

ثانيًا: موقف جليل لعبد الله بن حرام رضي الله عنه؛ حيث سار خلف عبد الله بن أُبي بن سلول ومن تبعه من المنافقين يُرغبهم في الجهاد في سبيل الله -تعالى- ويبعث فيهم النخوة والشهامة للدفاع عن بلدهم وأعراضهم وأموالهم إن لم تكن بهم رغبة في الجهاد في سبيل الله -تعالى- ومازال يلح عليهم بالرجوع حتى وصلوا إلى المدينة، فدعا عليهم دعاء المعتز بدينه الواثق بنصر الله -تعالى- لأوليائه، مظهرًا لهم حقارة أمرهم وعدم احتياج المسلمين لنصرتهم.

وهكذا كان عبد الله بن عمرو بن حرام حكيمًا، عظيم التقدير للأمور، فحينما دعاهم إلى الرجوع ذكَّرهم بوجوب النصرة وفظاعة الخذلان، فلما أن أصروا على الانسحاب بيَّن لهم استغناء المؤمنين عنهم وأشعرهم بهوان أمرهم حتى لا يحملهم الغرور على تحقير المؤمنين وإثارة القلق والرعب في الذراري والنساء وأهل الأعذار.

٦- قال ابن هشام: وذكر غير زياد عن محمد بن إسحاق عن الزهري أن الأنصار يوم أحد قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال: «**لا حاجة لنا فيهم**»(١).

وهذا الموقف الحذر من رسول الله ﷺ من اليهود يدلنا على بُعد نظره؛ فهو يعلم من عداوة اليهود للمسلمين ما لا يعلمه الأنصار الذين يظنون أن حلف اليهود لهم وهم في جاهليتهم قد بقى على ما هو عليه بعد إسلامهم، والحال أن اليهود أشد عداوة لهم من المشركين، ولكنهم يبطنون العداوة ويتربصون بالمؤمنين الفرص المناسبة؛ ليفتكوا بهم،

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٩، وزياد هو البكائي، شيخ ابن هشام.

وقد أبانت الأيام بعد ذلك بُعد نظر النبي ﷺ وصدق تقديره للأمور، كما سيأتي بيان صورٍ من غدر اليهود.

٧- قال ابن إسحاق في سياق روايته: ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعب من أُحد في عُدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: «**لا يقاتلنَّ أحدٌ منكم حتى نأمره بالقتال**»، وقد سرَّحت قريش الظهر والكراع[1] في زروع كانت بالصمغة من قناة للمسلمين، فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ﷺ عن القتال: أتُرعَى زروع بني قيلة[2] ولمَّا نضارب!

وتعبَّى رسول الله ﷺ للقتال، وهو في سبعمائة رجل، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير، أخا بني عمرو بن عوف وهو مُعلَم يومئذ بثياب بيض، والرماة خمسون رجلاً، فقال: «**انضَح الخيل عنَّا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانكَ لا نؤتينَّ من قِبلك**».

وظاهَرَ رسول الله ﷺ بين درعين[3]، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار[4].

في هذا الخبر مواقف وعبر منها:

أولاً: حسن اختيار رسول الله ﷺ لمكان المعركة وبُعد نظره في التخطيط الحربي، فالمسلمون كانوا مشاة، بينما يتفوق عليهم المشركون بسلاح الفرسان الذين يبلغون مائتين وهم الذين يتقدمون في الهجوم عادةً، فالمشركون قد اختاروا الأرض الصالحة للطراد والكر والفر، فأبعدوا عن الجبل حتى يستفيدوا من فرسانهم، لكن الرسول ﷺ اختار الأرض المجاورة لجبل أحد؛ ليعوق من سرعة الخيل ويحرم المشركين من الاستفادة الكاملة من فرسانهم.

---

(١) الظهر: الإبل، والكراع هنا: الخيل.
(٢) يعني: الأوس والخزرج.
(٣) أي: لبس درعًا فوق درع.
(٤) سيرة ابن هشام: ١٠/ ١١، وأخرج الإمام البخاري خبر الرماة ضمن خبر رواه البراء بن عازب رضي الله عنه عن غزوة أحد، صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٠٤٣، ٧/ ٣٤٩.
وخبر مظاهرة الرسول ﷺ بين درعين أخرجه الحافظ أبو يعلى، ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٦/ ١٠٨.

هذا إلى جانب كون جبل أحد بارتفاعه ومنعرجاته يعد حصنًا وملجأ للمسلمين فيما لو أصيبوا من أعدائهم.

ولما كان ذلك الموقع الحصين يشتمل على ثغرة خطيرة يمكن للأعداء أن ينفذوا منها إلى جيش المسلمين، فإن رسول الله ﷺ قد رتَّب فيها أمر الحماية؛ حيث أمر خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير بالمرابطة فوق جبل عينين الصغير المطل على تلك الثغرة؛ ليصدوا جيش الأعداء فيما لو جاؤوا المسلمين من خلفهم.

ثانيًا: كون النبي ﷺ تحصَّن بدرعين دليل على مشروعية الاحتياط للنفس، وأن أخذ الأسباب لا ينافي التوكل على الله - جلَّ وعلا.

وقد فعل النبي ﷺ ذلك مع أن الله -تعالى- قد عصمه من الأعداء؛ لأنه مشرع لأمته، فهو يفعل ما يشرع لكل مسلم أن يفعله؛ حيث إنه قدوة عليا لكل المسلمين.

*****

موجز في تلخيص أحداث المعركة

حيث إن الاستفادة الكاملة من مواقف النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم تترتب على تصور أحداث المعركة، ونظرًا لأن المعركة مرت بمرحلتين فإني رأيت تقديم موجز يبين أحداثها الأساسية بمرحلتيها.

فالمرحلة الأولى هي مرحلة انتصار المسلمين على المشركين، وقد بدأت بالمبارزة؛ حيث برز من المشركين طلحة بن أبي طلحة، فبرز إليه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله.

ثم بدأت الحرب بين الفريقين، وركَّز أبطال المسلمين من المهاجمين والرماة على حمَلة لواء المشركين وهم سبعة من بني عبد الدار حتى قتلوهم متتابعين، فسقط اللواء وحمله «صؤاب» وهو غلام لبني عبد الدار.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن اللواء لم يزل صريعًا حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش، فلاثوا به، وكان اللواء مع صؤاب غلام لبني أبي طلحة حبشي، وكان آخر من أخذه منهم، فقاتل به حتى قطعت يداه، ثم برك عليه يقاتل، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قُتل عليه، وهو يقول: اللهم هل أعزرت -يقول: أعذرت- فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فخرتم باللواء، وشرُّ فخر ... لواء حين رُدَّ إلى صُؤاب
جعلتم فخركم فيه لعبد ... وألأم من يطا عفر التراب[1]
ظننتم، والسفيه له ظنون ... وما إن ذاك من أمر الصواب
بأن جلادنا يوم التقينا ... بمكة بيعكم حمر العياب[2]

وفي هذا الخبر إشادة بجهاد الصحابة رضي الله عنهم يسجله بشعره حسان بن ثابت رضي الله عنه مع هجاء المشركين وتوبيخهم على موقفهم الانهزامي في بداية المعركة.

---

(١) العفر: ظاهر التراب.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٧، ٢٨.

وشعْر شعراء المسلمين -خاصة حسان- له أثر كبير في إغاظة المشركين بعد انقضاء المعركة؛ لأنه تسير به الركبان، ويتسامع به العرب، وكان العرب آنذاك شديدي الحساسية من الاتهام بالجبن والفرار من المعارك.

ومازال المسلمون يطاردون المشركين حتى هزموهم وأبعدوهم عن نسائهم وأثقالهم، على الرغم من كون المسلمين جميعًا مشاة، بينما كان المشركون يتفوقون بالفرسان.

وقد جاء في رواية أخرجها الإمام الطبري من حديث ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ابن قتادة.. واقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس وحمزة بن عبد المطلب وعليُّ بن أبي طالب في رجال من المسلمين، فأنزل الله -عز وجل- نصرَه وصدَقهم وعده فحسُّوهم[1] بالسيوف حتى كشفوهم، وكانت الهزيمة لا شك فيها[2].

وهذا الخبر يبين عظمة الصحابة رضي الله عنهم وبلاءهم العظيم في الجهاد في سبيل الله -تعالى- فقد كانوا أقل من ثلث الكفار، وكانوا مشاة فتصدوا لفرسان الكفار حتى هزموهم في بداية المعركة.

وقد جاء في هذا الخبر الإشادة بجهاد أبي دجانة وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهؤلاء ليسوا إلا نماذج من أبطال الصحابة الذين كان لهم دور كبير في سرعة كسب المعركة لصالح المسلمين، وقد أفردت لهؤلاء الصحابة وغيرهم مواقف خاصة تدل على شجاعتهم ومواقفهم البطولية.

ولقد ذكر الله -تعالى- انتصار الصحابة هذا بقوله: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ**﴾ [آل عمران: ١٥٢]، والمراد بهذا الوعد هو ما وعدهم الله -تعالى- به من النصر على لسان رسوله ﷺ، وهو قوله لهم حينما عزم على الخروج للقتال: «**انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله، فلكم النصر ما صبرتم**»[3].

---

(١) يعني: استأصلوهم.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥١٣.

(٣) مغازي الواقدي: ١/ ٢١٤.

المعني: ولقد صدقكم الله ما وعدكم به رسوله ﷺ من النصر إذا صبرتم؛ إذ تستأصلونهم قتلاً بحكمه تعالى وقضائه وتسليطه إياكم عليهم(١).

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة إصابة المسلمين، وتبدأ هذه المرحلة من الخلل الذي أحدثه أكثر الرماة.

وقد تبين لنا أن النبي ﷺ أمر خمسين من الرماة بأن يقفوا فوق جبل عينين؛ ليحولوا بين الكفار والهجوم على المسلمين من خلفهم وأنه قال لهم: «**إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا**»، وأنهم لما رأوا المسلمين انتصروا واشتغل بعضهم بجمع الغنائم اختلفوا، فرأى أكثرهم النزول بحجة أن المعركة انتهت لصالح المسلمين ولم يطيعوا قائدهم عبد الله بن جبير الذي ذكَّرهم بعهد النبي ﷺ لهم بأن لا يبرحوا الجبل على أي حال كان عليها المسلمون، فنزل منهم أربعون، فلما رأى المشركون قلة من بقي من الرماة على الجبل أغاروا على المسلمين بخيولهم من خلفهم، فارتبك المسلمون والْتبس الأمر عليهم حتى صار بعضهم يواجه بعضًا وهم لا يدرون.

يقول رافع بن خديج: فكنا أتينا من قبل أنفسنا ومعصية نبينا، واختلط المسلمون، وصاروا يُقْتلون ويضرب بعضهم بعضًا وما يشعرون بما يصنعون من العجلة والدهش، ولقد جُرح يومئذ أسيد بن حضير جرحين، ضربه أحدهما أبو بردة وما يدري، يقول: خذها وأنا الغلام الأنصاري! قال: وكرَّ أبو زعنة في حومة القتال فضرب أبا بردة ضربتين ما يشعر، إنه ليقول: خذها وأنا أبو زعنة! حتى عرفه بعد، فكان إذا لقيه قال: انظر إلى ما صنعت بي، فيقول له أبو زعنة: أنت ضربت أسيد بن حضير ولا تشعر، ولكن هذا الجرح في سبيل الله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**هو في سبيل الله يا أبا بردة، لك أجره حتى كأنك ضربك أحد من المشركين؛ ومن قُتل فهو شهيد**»(٢).

وأخرج الواقدي من حديث أبي بشير المازني، قال: لَمَّا صاح الشيطان أزَبّ العقَبة(٣): إن محمداً قد قُتل، لما أرد الله -عز وجل- من ذلك، سُقط في أيدي المسلمين وتفرقوا في كل وجه، وأصعدوا في الجبل(٤).

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٢٧. (٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٣.

(٣) تقدم ذكره في بيعة العقبة حينما صاح بالمشركين يخبرهم باجتماع المسلمين.

(٤) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٥.

ولما رأى المنهزمون من مشاة الكفار فرسانهم قد أغاروا من خلف المسلمين تراجعوا إلى ميدان المعركة، وأصبح المسلمون بين فرسان المشركين من خلفهم ومشاتهم من أمامهم، وكان يمكن أن يقع المسلمون في طوق رهيب داخل معسكر المشركين لولا أن المسلمين أدركوا الخطر فهجموا بقوة وضراوة على فرسان المشركين فعقروا بعض خيولهم، وقتلوا منهم عدداً، وسقط من المسلمين شهداء، ولكنهم استطاعوا الإفلات من تطويق الكفار.

وفي أثناء ذلك أشيع بأن النبي ﷺ قد قُتل، وكان الشيطان قد نادى بذلك كما جاء في بعض الروايات، فدهش المسلمون وتحيَّروا، واضطرب أمرهم، وتعددت اجتهاداتهم.

وقد تصور الشيطان بصورة أحد الصحابة، وفي ذلك يقول رافع بن خديج رضي الله عنه: وأقبل جعال بن سراقة وأبو بردة بن نيار، وكانا قد حضرا قتل عبد الله بن جبير وهما آخر من انصرف من الجبل حتى لحقا القوم؛ وإن المشركين على متون الخيل، فانتقضت صفوفنا.

ونادى إبليس وتصوَّر في صورة جعال بن سراقة: إن محمداً قد قتل ثلاث صرخات، فابتلي يومئذ جعال بن سراقة ببلية عظيمة؛ حين تصور إبليس في صورته، وإن جعال ليقاتل مع المسلمين أشد القتال، وإنه إلى جنب أبي بردة بن نيار وخوات بن جبير؛ فوالله ما رأينا دولة كانت أسرع من دولة المشركين علينا.

وأقبل المسلمون على جعال بن سراقة يريدون قتله يقولون: هذا الذي صاح: «إن محمداً قد قتل»، فشهد له خوات بن جبير وأبو بردة بن نيار أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح، وأن الصائح غيره، قال رافع: وشهدت له بعد(١).

١- قال ابن إسحاق: وانكشف المسلمون، فأصاب فيهم العدو، وكان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ فدُثَّ(٢) بالحجارة حتى وقع لشقِّه، فأصيبت رُباعيتُه، وشُجَّ في وجهه، وكُلمت شفتُه(٣)، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص.

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٢.
(٢) أي: رُمي.
(٣) أي: جرحت.

قال ابن إسحاق: فحدثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: كُسرَت رباعية النبي ﷺ يوم أحد، وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «**كيف يفلح قومٌ خضَّبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم!**»، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)].

٢- قال ابن هشام: وذكر ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجَّه في جبهته، وأن ابن قمئة جرح وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر؛ ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ عليٌّ بن أبي طالب بيد رسول الله ﷺ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا، ومصَّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري الدَّم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده، فقال رسول الله ﷺ: «**من مسَّ دمي دمه لم تصبه النار**»[(٢)].

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**من سرَّه أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان**»[(٣)].

وأخرج الإمام البخاري عددًا من الأحاديث في خبر إصابة النبي ﷺ؛ فمن ذلك ما رواه بإسناده عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ، فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح النبي ﷺ، ومن كان يسكب الماء وبما دُوْوِيَ، قال: كانت فاطمة -عليها السلام- بنت رسول الله ﷺ تغسله وعليٌّ يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذتْ قطعة من حصير

---

(١) وأخرجه الإمام البخاري مختصرًا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، صحيح البخاري، المغازي، باب رقم: ٢١، الفتح: ٧/ ٣٦٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٠.

(٣) المستدرك: ٣/ ٥٦٤، وذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه هذا الخبر من رواية ابن أبي عاصم والبغوي وابن السكن بأسانيد متصلة إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقد ذكر الحافظ أن مالك بن سنان استشهد يوم أحد، الإصابة: ٣/ ٣٢٥، رقم: ٧٦٣٧، فيكون استشهاده في نهاية المعركة بعد هذه الحادثة رضي الله عنه.

فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم، وكُسرت رباعيته يومئذ، وجُرح وجهه، وكُسرت البيضة على رأسه(١).

وقال الحافظ ابن حجر: ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه ﷺ شُجَّ وجهه وكُسرت رباعيته وجُرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، ورُمي منكبه من ضربة ابن قمئة، وجُحشت ركبته(٢).

وقال ابن إسحاق: وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وقول الناس: قُتل رسول الله ﷺ -كما ذكر لي ابن شهاب الزهري- كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديتُ بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ. فأشار إليَّ رسول الله ﷺ أن أنصت.

قال ابن إسحاق: فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، معه أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعليٌّ بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام -رضوان الله عليهم- والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين(٣).

وقال الواقدي: حدثني ابن سبرة، عن خالد بن رباح، عن يعقوب بن عمر بن قتادة، عن نملة بن أبي نملة -واسم أبي نملة: عبد الله بن معاذ، وكان أبو معاذ أخًا للبراء بن معرور لأمه- فقال: لما انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله ﷺ وما معه أحد إلا نُفَير، فأحدق به أصحابه من المهاجرين والأنصار وانطلقوا به إلى الشِّعب، وما للمسلمين لواء قائم، ولا فئة، ولا جمع، وإن كتائب المشركين لتحوشهم مقبلة ومدبرة في الوادي، يلتقون ويفترقون، ما يرون أحدًا من الناس يردُّهم، فاتبعت رسول الله ﷺ فأنظر إليه وهو يؤم أصحابه، ثم رجع المشركون نحو عسكرهم وتآمروا في المدينة وفي طلبنا، والقوم على ما هم عليه من الاختلاف، وطلع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فكأنهم لم يصبهم شيء حين رأوا رسول الله ﷺ سالمًا(٤).

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٠٧٥، الفتح: ٧/ ٣٧٢، انظر صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٧٩٠، ص: ١٤١٦.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٧٢.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٤، ٣٥.
(٤) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٨، ٢٣٩.

وقال الواقدي: وحدثني موسى بن يعقوب، عن عمته، عن أمها، عن المقداد، قال: لَمَّا تصافَفنا للقتال، جلس رسول الله ﷺ تحت راية مصعب بن عمير، فلما قُتل أصحاب اللواء وهُزم المشركون الهزيمة الأولى، وأغار المسلمون على عسكرهم فانتهبوا، ثم كرُّوا على المسلمين فأتوا من خلفهم تفرَّق الناسُ، ونادى رسول الله ﷺ في أصحاب الألوية، فأخذ اللواء مصعب بن عمير ثم قتل، وأخذ راية الخزرج سعد بن عبادة، ورسول الله ﷺ قائم تحتها، وأصحابه محدقون به، ودفع لواء المهاجرين إلى أبي الروم العبدري آخر النهار، ونظرتُ إلى لواء الأوس مع أسيد بن حضير، فناوشوهم ساعة واقتتلوا على الاختلاط من الصفوف، ونادى المشركون بشعارهم: يا للعزى، يا لهبل! فأَوْجعوا والله فينا قتلاً ذريعًا، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا، لا والذي بعثه بالحق، إن رأيت رسول الله ﷺ زال شبرًا واحدًا، إنه لفي وجه العدو، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتتفرق عنه مرة، فربما رأيته قائمًا يرمي عن قوسه أو يرمي بالحجر حتى تحاجزوا.

وثبت رسول الله ﷺ كما هو في عصابة صبروا معه، أربعة عشر رجلاً؛ سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار: أبو بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام. ومن الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، ويقال: ثبت سعد بن عبادة، ومحمد بن مسلمة، فيجعلونهما مكان أُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وبايعه يومئذ ثمانية على الموت؛ ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار: عليٌّ، والزبير، وطلحة، وأبو دجانة، والحارث بن الصمة، وحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، فلم يُقتل منهم أحد.

ورسول الله ﷺ يدعوهم في أخراهم، حتى انتهى من انتهى منهم إلى قريب من المهراس(١).

---

(١) قال السمهودي: مهراس الماء بجبل أحد، قاله المبرد، وهو معروف، أقصى شعب أحد، يجتمع من المطر في نُقَر كبار وصغار، والمهراس اسم لتلك النقر: «وفاء الوفا: ٢/ ٣٧٨٩»، وعن هامش مغازي الواقدي.

قال: وحدثني عتبة بن جبيرة، عن يعقوب بن عمرو بن قتادة، قال: ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلاً كلهم يقول: وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودع[1].

وقال الواقدي -فيما يرويه عن شيوخه-: وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، وعرفهم المشركون بذلك: عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وابن قمئة، وأُبَي بن خلف، ورَمى عتبة يومئذ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار وكسر رباعيته -أشظى[2] باطنها، اليمنى السفلى- وشُج في وجنته حتى غاب حلق المغفر في وجنته وأصيبت ركبتاه فجُحشتَا.

وكانت حُفَرٌ حفَرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين، وكان رسول الله ﷺ واقفًا على بعضها ولا يشعر به.

والثبت عندنا أن الذي رمى وجْنتي رسول الله ﷺ: ابن قمئة، والذي رمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص، وأقبل ابن قمئة، وهو يقول: دُلوني على محمد، فوالذي يحلف به، لئن رأيته لأقتُلنه! فعلاه بالسيف، ورماه عتبة بن أبي وقاص مع تجليل السيف، وكان عليه ﷺ درعان، فوقع رسول الله ﷺ في الحفرة التي أمامه فجُحشت ركبتاه، ولم يصنع سيف ابن قمئة شيئًا إلا وَهْن الضربة بثقل السيف، فقد وقع لها رسول الله ﷺ، وانتهض رسول الله ﷺ وطلحة يحمله من ورائه، وعليٌّ آخذ بيديه حتى استوى قائمًا[3].

وأخرج الحافظ أبو داود الطيالسي بإسناده عن أم المؤمنين عائشة قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك يوم كله يوم طلحة، ثم أنشأ يحدث، قال: كنت أول من فاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد، فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله دونه -قال: أراه يحميه- قال: فقلت: كن طلحة؛ حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي أحب إليَّ، وبيني وبين النبي ﷺ رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد كُسرت رباعيته، وشُج في وجهه، وقد دخل في وجنتيه حلقتان من حِلق

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) أي: كسر من باطنها كسرة.
(٣) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤٣، ٢٤٤.

المغفر؛ فقال رسول الله ﷺ: «**عليكُما صاحبكما**»، -يريد طلحة- وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، وذهبت لأنزع ذلك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، فتركته، وكره أن يتناولها بيده فيؤذي النبي ﷺ، وأزمَّ عليه[1] بفيه، فاستخرج إحدى الحلقتين ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، ففعل كما فعل المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتمًا[2]، فأصلحنا من شأن النبي ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض الجفار فإذا به بضعٌ وسبعون أو أقل أو أكثر بين طعنة وضربة ورمية، وإذا قد قطع إصبعه، فأصلحنا من شأنه[3].

وأخرج الحافظ أبو يعلى من حديث عكرمة قال: قال لي عليٌّ: لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحد نظرت إلى القتلى فلم أر رسول الله ﷺ فيهم، فقلت: والله ما كان ليفرَّ وما أراه في القتلى، ولكني أرى أن الله غضب علينا بما عصينا، فرفع نبيه فما لي خير من أن أقاتل حتى أُقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم، فأفرجوا لي، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم[4].

وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن المسلمين أصيبوا بانتكاسة كبيرة في أثناء المعركة بعد أن حصل لهم النصر المؤزر على أعدائهم، فتفرقوا واستشهد منهم من استشهد وأُفرد النبي ﷺ بعددٍ قليل من أصحابه.

وتتلخص أسباب هذه الانتكاسة في أمرين: الأول: هجوم فرسان المشركين عليهم من خلفهم، والثاني: إشاعة مقتل النبي ﷺ.

ولا شك أن خبر إشاعة مقتل النبي ﷺ كان له أثرٌ كبير في نفوس الصحابة، يدل على ذلك ما سيمر علينا من أخبارهم التي تفيد أنهم لما رأوا الرسول ﷺ حيًّا نسوا جميع ما أصابهم.

---

(١) أي: عضَّ عليه. (٢) الهتم: هو انكسار الثنايا من أصلها.

(٣) المطالب العاليه: ٤/ ٢٢٤، ٢٢٥، رقم: ٤٣٢٧، وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث عائشة -رضي الله عنها- وصححه المستدرك: ٣/ ٤٦٦، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية الطيالسي، البداية والنهاية: ٤/ ٣١، وأخرجه الواقدي من حديث عائشة -رضي الله عنها- المغازي: ١/ ٢٤٦.

(٤) المطالب العالية: ٤/ ٢٢٣، رقم: ٤٣٢٣، وقال المحقق: قال البوصيري: رواه أبو يعلى بإسنادٍ حسن.

وقد انقسم المسلمون إزاء هذه المصيبة إلى خمسة أقسام تقريبًا:

القسم الأول: الذين فرُّوا من ساحة المعركة ضعفًا، وقصدهم النجاة بأنفسهم، وهؤلاء قليل جدًا، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٥٥].

القسم الثاني: الذين فرُّوا نفاقًا، وقصدهم النجاة بأنفسهم والإرجاف بالمؤمنين، وقد نزل من الآيات القرآنية ما يثبت وجود المنافقين مع المسلمين في المعركة؛ حيث لم يرجعوا جميعًا مع ابن أبي بن سلول، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا**﴾ [آل عمران: ١٥٤].

القسم الثالث: الذين انسحبوا إلى الخلف في وادي أُحد؛ ليتدبروا أمرهم على بصيرة، وكان أكبر همهم البحثُ عن رسول الله ﷺ، ثم اجتماع كلمة المسلمين واتحاد قوتهم، وهؤلاء هم معظم الجيش الإسلامي، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

ولقد فاء هؤلاء سريعًا على تفاوت بينهم منذ أن علموا بحياة النبي ﷺ ومقر وجوده وكوَّنوا مع من بقي من أفراد القسمين الرابع والخامس التشكيل الأخير للجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ.

القسم الرابع: قوم رأوا أن واجبهم يقضي بالاستمرار في قتال الأعداء في ميدان المعركة حتى الموت، وإن غلب على ظنهم عدم الانتصار عليهم، وقد كانوا ينادون بالموت على ما مات عليه رسول الله ﷺ على فرض أنه قد استُشهد.

وهؤلاء قد رُويت أخبار بعضهم -كما سيأتي- ومنهم حمزة بن عبد المطلب، وأنس ابن النضر، وسعد بن الربيع.

القسم الخامس: قوم كانوا قريبين من رسول الله ﷺ، فعلموا بمكانه، فكان همُّهم الكبير القيام بحمايته والدفاع عنه، ونالوا شرف ذلك، ومنهم طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وأبو طلحة، كما سيأتي في أخبارهم.

المواقف والعبر في هذه الأخبار:

الأول: مواقف لبعض الصحابة رضي الله عنهم في العناية بالنبي ﷺ وخدمته بعدما أصيب، ومنهم طلحة بن عبيد الله، وعلي بن أبي طالب اللذان رفعاه من الحفرة التي سقط فيها، وأخذا بيده حتى وصل إلى المكان الآمن في الجبل، ومنهم أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح اللذان تسابقا على نزع الحديد من وجه النبي ﷺ، فنزعه أبو عبيدة وسقطت بذلك ثنيتاه، ومنهم مالك بن سنان الخدري الذي مصَّ الدم من وجه النبي ﷺ، ثم ابتلعه تعبيراً عن حبه الكبير لرسول الله ﷺ، فكانت بشراه النجاة من النار، وما أعظمها من بشرى، وما أبلغه من ثمن!!

الثاني: ما جاء في هذه الأخبار من أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في غمٍّ شديد مما أصابهم من المشركين وما يتوقعونه منهم لو عادوا إلى متابعتهم والهجوم عليهم، وأنهم لما طلع عليهم رسول الله ﷺ وهم في ذلك الغم الشديد نسوا كل شيء أصابهم وأهمَّهم، فكأنهم لهم يصبهم شيء حين رأوه سالمًا، وهذا تعبير عن منتهى ما يمكن تصوره من المحبة البالغة والشوق العظيم.

الثالث: الإشارة إلى جهود الفئة الذين دافعوا عن رسول الله ﷺ في ساعات القتال الحرجة وفدوه بأنفسهم رضي الله عنهم.

الرابع: ما حصل للمسلمين في بداية المعركة ونهايتها فيه عبرة عظيمة، فلقد ابتدأت بنصر الله إياهم ذلك النصر العظيم السريع الذي أثبته الله -تعالى- بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ** ﴾، كما سبق، وانتهت بخذلان الله -تعالى- إياهم؛ كما جاء في هذه الآية في قوله: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فما أسباب ذلك النصر؟ وما أسباب ذلك الخذلان؟!

أما أسباب الخذلان فقد ذكرها الله تعالى في هذه الآية بقوله: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم** ﴾، فهي:

أولاً: الفشل وهو الضعف والجبن.

ثانيًا: التنازع في الأمر، وهو اختلاف الكلمة والتفرق.

ثالثًا: العصيان.

وقد حصل الفشل حينما اصطدم فرسان الكفار بجيش المسلمين من خلفهم، فضعف بعضهم وفرُّوا عن ميدان المعركة.

وحصل التنازع مرتين:

الأولى: حينما تنازع الرماة، فرأى أكثرهم النزول وترك الموقع، ورأى أميرهم ومن ثبت معه البقاء.

الثانية: حينما تفرق المسلمون بعد الهجوم عليهم ولم تتحد كلمتهم.

وحصل العصيان من الرماة الذين رفضوا طاعة أميرهم، وذلك بالتالي يعتبر معصية للنبي ﷺ الذي أمره، كما قد يكون حصل ممن سمعوا نداء النبي ﷺ بالالتفاف حوله وعرفوه فلم يطيعوه، وهؤلاء لا يُتصور أن يكونوا من المؤمنين، بل هم من المنافقين الذين لم يرجعوا مع عبد الله بن أبي بن سلول.

أما أسباب النصر فهي بضد أسباب الخذلان؛ فالفشل ضده: الشجاعة والصبر، والتنازع ضده: اتفاق الرأي واتحاد الكلمة، والعصيان ضده: الطاعة.

وقد سبق ذكر العنصر الأول في قول رسول الله ﷺ: «**امضُوا على اسم الله، فلكم النصر ما صبرتم**».

وقد صبر المسلمون في بداية المعركة، وكانوا مجتمعين على كلمة واحدة، وأطاعوا رسول الله ﷺ، فكان الله -تعالى- معهم، فنصرهم نصرًا حاسمًا سريعًا.

فلما فشل بعضهم وتنازعوا وعصوا صرفهم الله عن المشركين وقدَّر إصابتهم؛ ليختبرهم، فيظهر المؤمنون على درجاتهم في الإيمان، وليتميزوا عن المنافقين.

فالأمر لله -جل جلاله- من قبل ومن بعد، والنصر والخذلان بيده وحده سبحانه.

حكم جليلة في إصابة المسلمين يوم أحد:

قال الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

ويتبين لنا من هاتين الآيتين أن الله -جل وعلا- قدَّر إصابة المسلمين يوم أحد؛ لتظهر الحكم الآتية:

أولاً: ليظهر الله -تعالى- المؤمنين على درجاتهم في الإيمان بقدر بلائهم في الثبات والصبر واحتمال الشدائد: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ثانيًا: اصطفاء نخبة من المؤمنين يختارهم الله -جل وعلا- للاستشهاد في سبيله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ أنهم شهداء على عظمة هذا الدين وصدقه وأثره الكبير في الدنيا والآخرة؛ حيث قدموا أنفسهم فداء له، إن النفوس هي أغلى ما يملك الناس في هذه الحياة، فإذا قدموها فداءً لأمر، فإن ذلك دليل واضح على خطر هذا الأمر وفخامته.

ثالثًا: تمحيص المؤمنين: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي ليطهرهم مما قد يكون علق في بعض القلوب من الشوائب بعد الانتصار الكبير يوم بدر، فقد يظن بعض المؤمنين أنهم أصبحوا بعد الانتصار قوة لا تُقهر، فيدفعهم ذلك إلى عدم الالتزام الكامل بتحقيق أسباب النصر، وهذا ما حدث في معركة أحد؛ حيث أخل بعض الرماة بطاعة قائد المعركة رسول الله ﷺ، فتركوا موقعهم، فكان ذلك أهم أسباب إصابة المسلمين، وليطهرهم أيضًا مما قد يكون صدر من بعضهم من ذنوب، فإن البلاء يُطهر الله به المسلم من الخطايا.

رابعًا: محْق الكافرين: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، وفي معنى هذه الجملة يقول الحافظ ابن كثير: أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٧.

وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا**﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

وهذه هي الحكمة الخامسة، وهي أن يتميز المؤمنون الصادقون فيظهروا بإخلاصهم وصفائهم، ويتميز المنافقون فيظهروا بنفاقهم وغشِّهم.

وفي هذه الحكمة يقول الله -تعالى- أيضًا: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ أي ما صح وما استقام في حكمة الله -تعالى- أن يترككم أيها المؤمنون على الحال التي أنتم عليها؛ من التباس المؤمن منكم بالمنافق حتى يظهر المنافق الذي خبثت نفسه فنزعت إلى الشر ولم تقبل الخير من المؤمن الصادق الذي زكَت نفسه فنزعت إلى الخير ورفضت الشر؛ لأن بقاء المنافقين داخل المجتمع الإسلامي له أثرٌ بالغ في إيقاع الفتنة بين المؤمنين وإحداث الخلل في صفوفهم، وصرف الناس عن الدخول في الإسلام؛ فلهذا قدَّر الله سبحانه وقوع المحن؛ ليظهر الصادق منهم في إيمانه من المنافق.

وما كان هناك من وسيلة لكشف المنافقين وتمييزهم عن المؤمنين غير المحن التي يبتلي بها الله المسلمين إلا أن يطلع المؤمنين على غيبه، فيعين لهم المنافقين بأشخاصهم، وهذا ما لا سبيل إليه إلا لمن يصطفيه الله من رسله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ**﴾؛ أي ما صح وما استقام في حكمة الله -جل وعلا- أن يطلعكم على الغيب؛ لأنكم في دار تكليف وابتلاء، وليس ذلك لأحد من البشر إلا لمن اختاره الله من رسله فيطلعه من غيبه على ما يشاء، وقد أطلع الله -تعالى- نبيه ﷺ على كثير من أخبار المنافقين وأقوالهم التي صدرت من بعض أفرادهم، ولكن حكمته -جل وعلا- اقتضت أن يكشفهم بشكل جماعي عن طريق المحن، وذلك بتكليفهم بالجهاد في سبيل الله تعالى(١).

---

(١) عن كتاب: المنافقون في القرآن الكريم، للمؤلف، ص: ١٣٨.

وقال الحافظ بن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى- في بيان ما يستفاد من إصابة المسلمين في أُحد: قال العلماء: وكان في قصة أُحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة، منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ألا يبرحوا منه.

ومنها: أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، كما تقدم في قصة هرقل مع أبي سفيان، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا دخل في المؤمنين مَن ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين؛ لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مَخْيًّا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحًا، وعرف المسلمون أن لهم عدوًّا في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضمًا للنفس وكسرًا لشماختها؛ فلما ابتُلي المؤمنون صبروا وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيَّض لهم أسباب الابتلاء والمحن؛ ليصلوا إليها.

ومنها: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء، فساقها إليهم.

ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيَّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك في كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحَّص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين[1].

*****

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٤٧.

مثل من الحرص على الشهادة
عمر بن الخطاب وأخوه زيد

أخرج الطبراني بإسناده عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن عمر قال لأخيه: خذ درعي يا أخي. قال: أريد من الشهادة مثل الذي تريد، فتركاها جميعًا.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله رجال الصحيح[1].

وهذا مثلٌ يضاف إلى الأمثلة السابقة التي تبين حرص الصحابة -رضي الله عنهم- على الشهادة في سبيل الله -تعالى- فقد أعطى عمر بن الخطاب أخاه زيدًا -رضي الله عنهما- درعه؛ ليَلقى العدو حاسرًا، فينال الشهادة، فأجابه زيد بأنه هو أيضًا يريد الشهادة.

وقد علم الله -تعالى- صدق نيتهما في ذلك، فمنحهما الشهادة بعد عُمْرٍ قضياه في إعلاء كلمة الله -تعالى- وخدمة المسلمين؛ حيث استشهد زيد بن الخطاب في معركة اليمامة، وساق الله -جل وعلا- الشهادة لأمير المؤمنين عمر في مسجد رسول الله ﷺ.

*****

(١) مجمع الزوائد: ٥/ ٢٩٨.

موقف إيماني جليل
الأنصار يردون عَرْض أبي سفيان

جاء في رواية للإمام الطبري من حديث ابن إسحاق قال: حدثني جعفر بن عبد الله ابن أسلم مولى عمر بن الخطاب، عن رجل من الأنصار من بني سلمة قال: قد أرسل أبو سفيان رسولاً، فقال: يا معشر الأوس والخزرج، خلُّوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم، فإنه لا حاجة لنا بقتالكم، فردُّوه بما يكره[1].

وهكذا ظهر لون من ألوان خداع المشركين للمسلمين؛ حيث أرادوا تفريق كلمتهم بمحاولة إقناع الأنصار بالتخلي عن رسول الله ﷺ، وقد كان الكفار في غاية السذاجة في التفكير حينما تقدَّموا بهذا الطلب؛ لأن من خَبَر حال المؤمنين في ارتباطهم برسول الله ﷺ علم أنهم جميعًا يفدونه بأرواحهم، وأنه من المستحيل أن يستجيبوا لهذا الطلب.

ولقد كان موقفًا جليلاً للأنصار -رضي الله عنهم- حينما ردوا على المشركين بما يكرهون وأبانوا لهم قوة ارتباطهم برسول الله ﷺ واهتمامهم بحماية دينهم.

وهذا الموقف يُعدُّ تَبْكيتًا للمشركين وتحطيمًا لمعنويتهم؛ حيث أظهر الأنصار تصلبهم في حماية الإسلام مع ما يكلفهم ذلك من حرب شعواء تظهر للمتأمل المتجرد من الإيمان بتغليب كفة المشركين؛ لكونهم أكثر عددًا وأقوى عدة، ولكونهم موتورين جاءوا لطلب الثأر، ولكون المدينة تشتمل على أعداء للمسلمين من اليهود والمنافقين.

*****

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٥١١.

مثل من الأماني السامية
خبر عبد الله بن جحش

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: روى البغوي من طريق إسحاق بن سعد بن أبي وقاص: حدثني أبي، أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تأتي فندعو! قال: فخلَونا فى ناحية، فدعا سعد، فقال: يا رب إذا التقينا اليوم أو غداً فلقِّني رجلاً شديداً حَرْده أقاتله فيك ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، قال: فأمن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرْده أقاتله فيك حتى يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت: هذا فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: فكانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط[1].

وهكذا كانت أمنية عبد الله بن جحش -رضي الله عنه- أن ينال الشهادة وأن يمثّل به الكفار؛ لينال أجر ذلك بعد أن يقارع الأقران الأشداء، وقد استجاب الله تعالى دعاءه فنال الشهادة على الصورة التي أحبها.

لقد وفقه الله -تعالى- لهذا الدعاء؛ لأنه سبحانه أراد أن يتخذ منه شهيداً مع إخوانه الشهداء الأبرار، ووفَّق سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- إلى الدعاء المذكور الذي لم يشتمل على طلب الشهادة؛ لأنه سبحانه أراد منه أن يعز الإسلام وأهله وأن يذل الكفر وأهله على يديه، ولقد تأخر أجله حتى فتح الله -تعالى- به مملكة الفرس، وأعز به دولة الإسلام.

*****

(١) الإصابة: ٢/ ٢٧٨، رقم: ٤٥٨٣، وأخرجه الحاكم من حديث سعيد بن المسيب، قال: قال عبد الله بن جحش: ... وذكر نحوه، وقال: قال سعيد بن المسيب: إني لأرجو أن يبرَّ الله آخر قسمه كما برَّ أوله، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، وقال الذهبي: مرسل صحيح، المستدرك: ٣/ ١٩٩- ١٠٠، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني، وقال: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٩/ ٣٠١، ٣٠٢.

مواقف قيادية وبطولية

رسول الله ﷺ يعطي سيفه أبا دجانة

أخرج الحافظ البزار بإسناده عن الزبير بن العوام قال: عرض رسول الله ﷺ سيفًا يوم أحد، فقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقِّه؟**»، فقام أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: يا رسول الله، أنا آخذه بحقِّه، فما حقه؟[١] قال: فأعطاه إياه، فخرج واتبعته، فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وهتكه حتى أتى نسوة في سفح الجبل ومعهن هند[٢]، وهي تقول:

نحن بنات طارق[٣] ... نمشي على النمارق
والمسك في المفارق ... إن تُقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق[٤]

قال: فحملت عليها فنادت بالصخْر[٥] فلم يجبها أحدٌ فانصرفت عنها، فقلت له: كل صنيعك رأيته فأعجبني غير أنك لم تقتل المرأة، قال: فإنها نادت فلم يجبها أحد فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة لا ناصر لها[٦].

---

(١) جاء جواب هذا الاستفهام في رواية ابن إسحاق، وفي رواية الطبراني الآتية؛ حيث قال رسول الله ﷺ: «**أن تضرب به العدو حتى ينحني**»، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، سيرة ابن هشام: ٣/ ١٢ .

(٢) يعني: هند بنت عتبة.

(٣) قيل: إن هذه الأبيات لهند بنت بياضة بن طارق الإيادي، قالته حين لقيت إياد جيش الفرس، وقد تمثلتْ به هند بنت عتبة هنا، عيون الأثر: ٢/ ٢٥ .

(٤) أي: غير محب.

(٥) جاء في المطبوع من مجمع الزوائد: «فنادت بالصحراء»، والتصويب من رواية ذكرها الصالحي -رحمه الله- في «سبل الهدى والرشاد: ٤/ ١٩٢»، وصخر هو اسم زوجها أبي سفيان بن حرب.

(٦) ذكره الحافظ الهيثمي من رواية البزار، وقال: ورجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٠٩، وأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه :صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم: ٢٤٧٠، ص١٩١٧، وأخرجه الحاكم من حديث أنس والزبير -رضي الله عنهما-، وصححه وأقره الذهبي، المستدرك: ٣/ ٢٣٠، ٢٣١، وأخرجه الطبري من حديث الزبير رضي الله عنه: تاريخ الطبري: ٢/ ٥١٠ .

وقال محمد بن يوسف الصالحي الشامي: وعند الطبراني عن قتادة بن النعمان: إن عليًا قام فطلبه، فقال له: اجلس، ثم قال رسول الله ﷺ: «**من يأخذه بحقه؟**» فقام أبو دجانة -بضم الدال المهملة وبالجيم والنون- فقال: يا رسول الله، وما حقه؟ قال: «**أن تضرب به في العدو حتى ينحني**»، قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، قال: «**لعلك إن أعطيتكه تقاتل في الكيُّول**»(١)، فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب، وكان له عصابة حمراء يُعْلم بها عند الحرب، يعتصب بها، فإذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول إذا اعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن**».

قال الزبير: ولما أعطى رسول الله ﷺ السيف لأبي دجانة وجدت في نفسي حين سألته فمنعني وأعطاه إياه(٢)، وقلت: أنا ابن صفية عمة رسول الله ﷺ، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع به، فاتبعته، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاَّ أقوم الدهر في الكيُّول ... أضربْ بسيف الله والرسول

قال: فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وفتكه، وفلق به هام المشركين، وكان إذا كلَّ شحذه بالحجارة، ثم يضرب به العدو كأنه منجل، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله -تعالى- أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله(٣).

(١) الكيول: هو آخر الصفوف.

(٢) جاء ذكر الزبير في رواية أخرى ذكرها الصالحي.

(٣) سبل الهدى والرشاد: ٤/ ١٩٢.

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: ما قام به النبي ﷺ من شحْذ الهمم والتحريض على القتال بصورة مؤثرة؛ حيث رفع السيف، فقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**»، فكان من نصيب أبي دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه، وكان من آثار ذلك أن عصب رأسه بعصابة الموت . . معلنًا أنه سيبذل كل طاقته في القتال، ثم كان منه ما ذكره الزبير بن العوام وقتادة بن النعمان -رضي الله عنهما- وذلك بما قام به من التنكيل بالأعداء والإثخان فيهم.

وهكذا يضرب الرسول ﷺ مثلاً عاليًا للقادة من بعده في محاولة استخراج كل الطاقات الكامنة في النفوس والاستفادة منها في قضايا الدعوة والجهاد، والتشهير بذوي البأس والنجدة؛ ليتأسى المسلمون بهم، وإنزال الناس منازلهم في الإشادة بما لديهم من مواهب، وعدم مجاملة الآخرين وإن كانوا يقاربونهم في هذه المواهب أو يتفوقون عليهم في مواهب أخرى، أو يشاركونهم في نفس المواهب، ولكن الموطن يتطلب أناسًا بأعيانهم لهم أثر في استجاشة المشاعر وإلهاب الحماس، وهكذا كان مقام أبي دجانة في قومه وأثره في الحرب وإن كان الزبير وعلي لا يقلان عنه بأسًا ونجدة رضي الله عنهم.

ثانيًا: اشتمل هذا الخبر على مواقف بطولية لأبي دجانة رضي الله عنه؛ حيث فتك بالأعداء وتعرَّض لذوي البأس منهم، ولقد حقق بهذه المواقف العالية أمل النبي ﷺ فيه حينما اختصه بذلك السيف.

*****

موقف للأنصار في البراءة من الكفار
(الأوس يردون على أبي عامر)

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن أبا عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان أحد بني ضُبَيعة، وقد كان خرج حين خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله ﷺ، معه خمسون غلاماً من الأوس، وبعض الناس كان يقول: كانوا خمسة عشر رجلاً، وكان يعدُ قريشاً أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أولَ من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالو: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، وكان أبو عامر يسمَّى في الجاهلية الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثم قاتلهم قتالاً شديداً، ثم راضخهم بالحجارة[1].

في هذا الخبر موقف من مواقف الولاء والبراء؛ فقد ظهر ولاء الأنصار رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين من المهاجرين وبراءتهم من سيد من ساداتهم في الجاهلية كان موضع السمع والبصر في قومه الأوس؛ حيث لم يبقَ من السادة الكبار بعد حرب بُعاث إلا هو من الأوس وعبد الله بن أُبي ابن سلول من الخزرج، فكان لما له من شرف سابق فيهم يَعدُ المشركين بأن قومه سيطيعونه وينضوون إليه إذا التقى الصفان، ولكن الله تعالىَ خيَّب أمله بهذا الرد القوي الذي لقيه من قومه.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٣، وأخرجه الواقدي في مغازيه بنحوه، مغازي الواقدي: ١/ ٢٢٣.

قال محمد بن سعد :

فصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب اللواء : من يبارز؟ فبرز له عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فالتقيا بين الصفين ، فبدره عليٌّ فضربه على رأسه حتى فلق هامته فوقع ، وهو كبش الكتيبة ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك وأظهر التكبير ، وكبر المسلمون وشدُّوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى نغضت صفوفهم ، ثم حمل لواءهم عثمان بن أبي طلحة أبو شيبة وهو أمام النسوة يرتجز ويقول :

إن علَى أهـل اللـواء حـقّـًا ... أن تُخْضَبَ الصَّعدة أو تندقَّا

وحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره ، ثم رجع وهو يقول : أنا ابن ساقي الحجيج . ثم حمله أبو سعد بن أبي طلحة فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فأدلع لسانه إدْلاع الكلب فقتله ، ثم حمله مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله ، ثم حمله الحارث بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، ثم حمله كلاب بن طلحة بن أبي طلحة فقتله الزبير بن العوام ، ثم حمله الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله[١] ، ثم حمله أرطأة بن شرحبيل فقتله عليُّ بن أبي طالب[٢] .

في هذا الخبر مواقف بطولية لعدد من الصحابة رضي الله عنهم ؛ وهي :

الأول: موقف علي بن أبي طالب الذي قتل طلحة بن أبي طلحة العبدري مبارزة وكان مشهوراً بالشجاعة ، وهو كبش الكتيبة الذي جاء في رؤيا النبي ﷺ السابقة ، وكان قتله فاتحة خير على المسلمين ؛ حيث فرحوا بذلك وهجموا على أعدائهم .

الثاني: مواقف الصحابة الآخرين الذين تتابعوا على قتل حمَلة اللواء ، وقد تبين لنا من هذه المواقف شجاعة حمزة بن عبد المطلب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وبراعة سعد بن أبي وقاص ، وعاصم بن ثابت في الرماية .

وهذا التركيز الجيد من هؤلاء الصحابة على قتل حملة لواء المشركين كان المقصود منه تحطيم معنوية المشركين وإحداث الخلل في صفوفهم إذا سقط لواؤهم .

(١) جاء في رواية لابن إسحاق أن الذي قتل الجُلاس هو عاصم بن ثابت ، سيرة ابن هشام : ٣/ ٢٢ .
(٢) طبقات ابن سعد : ٢/ ٤٠ ، ٤١ .

موقف لأبي بكر في تحقيق الولاء والبراء

قال الواقدي في سياق رواية له:

وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس، مدججًا لا يرُى منه إلا عيناه، فقال: من يبارز؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق، قال: فنهض إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله، أبارزه، وقد جرَّد أبو بكر سيفه، فقال رسول الله ﷺ: «**شمْ سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتِّعنا بنفسك**»[1].

فهذا موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في تحقيق مبدأ الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين وإن كانوا من أقاربه الأدنين، فقد كان مصمما على مبارزة ابنه عبد الرحمن الذي كان آنذاك مع الكفار، لولا أن الرسول ﷺ منعه من ذلك، وهذا دليل على وضوح العقيدة وصدق اليقين عند أبي بكر رضي الله عنه.

ولقد أسلم بعد ذلك عبد الرحمن وحسُن إسلامه وأصبح من أكابر المسلمين رضي الله عنه.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥٧ .

مثل من شجاعة الحُبَاب بن المنذر[1]

أخرج الواقدي من حديث عمارة بن خزيمة قال: حدثني من نظر إلى الحباب بن المنذر بن الجموح وإنه لَيحُوشُهم يومئذ كما تحاش الغنم، ولقد اشتملوا عليه حتى قيل: قد قتل. ثم برز والسيف في يده وافترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه إلى جمع منهم، وصار الحباب إلى النبي ﷺ، وكان الحباب يومئذ معلمًا بعصابة خضراء في مغفره[2].

هذا الخبر يدل على شجاعة الحباب بن المنذر رضي الله عنه ورباطة جأشه؛ حيث استطاع الصمود لفئة من الكفار وإلجائهم إلى الفرار منه؛ لسرعة هجومه ومقدرته على التحرك في القتال في عدة اتجاهات.

إن وجود مثل هذا البطل في جيش المسلمين يفزع الكفار ويملأ قلوبهم رعبًا، ويجعلهم يترددون كثيراً قبل التفكير في مواجهة المسلمين.

*****

(١) هو أبو عمرو الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي السلمي، الإصابة: ١/ ٣٠٢، رقم: ١٥٥٢.
(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥٧.

١- قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاقُ بن يسار، عن أشياخ من بني سلمة أن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إنَّ الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**أمَّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك**»، وقال لبنيه: «**ما عليكم، لعل الله أن يرزقه الشهادة**». فخرج معه فقتل يوم أحد[١].

وأخرج خبره الإمام أحمد من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ -وكانت رجله عرجاء- فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، فقُتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولًى لهم، فمرَّ عليه رسول الله ﷺ، فقال: «**كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة**»، فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعلوا في قبر واحد[٢].

وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن نصر الأنصاري وهو ثقة[٣].

في هذا الخبر موقف لعمرو بن الجموح، وذلك في إظهار شوقه الشديد للجهاد في سبيل الله -تعالى- مع أن الله -سبحانه- قد عذره في القعود بعرجه الشديد، ومن كان كذلك فإنه لا يستطيع أن يجاهد بطاقة كاملة، وإن كان الدافع الإيماني لديه قويًا، مع كونه مصابًا بهذا العذر، ومع كونه قد قدَّم للجهاد بنين أربعة في غاية الشجاعة، فإنه لم يقبل عرض بَنيه عليه بالقعود ورجا الله -تعالى- أن يطأ بعرجته تلك في الجنة، وذلك بما يرجوه من نَيل الشهادة.

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٥.
(٢) مسند أحمد: ٥/ ٢٩٩.
(٣) مجمع الزوائد: ٩/ ٣١٥.

ولما ذكر هذا الأمل لرسول الله ﷺ أبان له بأنه ممن عذر الله -تعالى- ولكنه أشار على بنيه بتمكينه من الخروج؛ لعل الله تعالى أن يحقق له تلك الأمنية الغالية، وقد تحقق له ما رجاه؛ حيث قتل شهيداً رضي الله عنه.

ومع كونه شديد العرج فإنه قد أبلى في المعركة بلاءً حسنا كما ذكر أبو طلحة، وكان لا يفارقه شعوره بالشوق إلى الجنة حتى استُشهد رضي الله عنه.

٢- قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد، رُفع حُسيل بن جابر، وهو اليمان أبو حُذيفة بن اليمان وثابت بن وقش في الآطام(١) مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبالك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منّا من عمره إلا ظمء(٢) حمار، إنما نحن هامةُ اليوم أو غد(٣)، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعلّ الله يرزقنا شهادةً مع رسول الله ﷺ؟

فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يُعلم بهما، فأمَّا ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حُسيل بن جابر فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إنْ عرفناه، وصدقوا، قال حذيفة: يغفرُ الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يديهُ، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً(٤).

في هذا الخبر مواقف منها:

الأول: ما كان من ذينك الشيخين الكبيرين: حُسَيل بن جابر «اليمان» وثابت بن وقش الأنصاريين -رضي الله تعالى عنهما- حيث اشتاقت نفوسهما إلى الاستشهاد في

---

(١) يعني: الحصون. (٢) أي: مقدار ما بين شربتي الحمار.

(٣) أي: نموت اليوم أو غداً.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٠، وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق بإسناده، وصححه على شرط مسلم، المستدرك: ٣/ ٢٠٢، وأخرجه الإمام البخاري باختصار من حديث عائشة -رضي الله عنها-، صحيح البخاري، المغازي رقم: ٤٠٦٥، فتح الباري: ٧/ ٣٦١.

سبيل الله -تعالى-، فخرجا إلى الجهاد مع كونهما ممن عذرهم الله -سبحانه- بالقعود؛ لكبر سنهما، لكن دفعهما إلى الخروج رغبتهما في الشهادة التي هي غاية أماني المؤمنين المتقين، وقد حصل لهما ما أرادا من ذلك، رضي الله عنهما.

الثاني: موقفٌ لحذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- حينما سامح المسلمين الذين قتلوا أباه خطأ، وتصدق بديَّته على المسلمين، مما أثار إعجاب النبي ﷺ به وزاد في مكانته عنده.

*****

موقف جهادي لعاصم بن ثابت

قال ابن إسحاق: وقاتل عاصمُ بن ثابت بن أبي الأقْلح فقتل مسافع بن طلحة وأخاه الجلاس بن طلحة، كلاهما يُشعره سهمًا(١)، فيأتي أمَّه سُلافة فيضع رأسه في حجرها، فتقول: يا بُني من أصابك؟ فيقول: سمعتُ رجلاً حين رماني وهو يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقْلح، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر.

وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمسَّ مشركًا أبدًا، ولا يمسه مشرك(٢).

فهذا الخبر يبين براعة عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري رضي الله عنه في الرماية، فقد أصاب اثنين من حملة لواء المشركين، هما: مسافع والجلاس ابنا طلحة بن أبي طلحة العبدري، وقتْلُ حملة اللواء له أثره الكبير في النكاية بالأعداء وتفريق صفهم.

قول الراوي: وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك أبدًا. إشارة إلى خبر سيأتي -إن شاء الله تعالى- بيانه في قصة استشهاده في سرية الرجيع.

*****

---

(١) أي: يصيبه بسهم.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢.

مثل من أثر الجهاد في الإيمان

إسلام الأصيرم وجهاده

قال ابن إسحاق: وحدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد عن أبي هريرة قال: كان يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يُصلِّ قطُّ، فإذا لم يعرفه الناسُ سألوه: من هو؟ فيقول: أصيرم بني عبد الأشهل، عمرو بن ثابت بن وقش.

قال الحصين: فقلت لمحمود بن لبيد: كيف كان شأن الأصيرم؟ قال: كان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم خرج رسولُ الله ﷺ إلى أُحد، بدا له في الإسلام فأسلم ثم أخذ سيفه فعدا حتى دخل في عرض الناس، فقاتل حتى أثبتته الجراحة.

قال: فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إن هذا للأصيرمُ، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لَمُنْكر لهذا الحديث، فسألوه ما جاء به، فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ أحَدَبٌ على قومك أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمتُ ثم أخذت سيفي فغدوتُ مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني، ثم لم يلبث أن مات في أيديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: «**إنه لمن أهل الجنة**»[(١)].

وأخرجه الإمامان أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن عمرو بن أقيش كان له ربًا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه.. ثم ذكر خبر مجيئه إلى أُحد[(٢)].

في هذا الخبر مثل واضحٌ على أثر الجهاد في الإيمان بالله -تعالى-، فهذا الأُصيرم عمرو بن ثابت الأشهلي كان قبل يوم أحد منكرًا للإسلام مباعدًا لقومه من المسلمين، فلما حضر ما حضر من غزو الكفار للمسلمين في بلادهم، لا طمعًا في بلادهم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٤.

وذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة عمرو بن ثابت من رواية ابن إسحاق وحسَّن إسناده، الإصابة: ٢/ ٥١٩، رقم: ٥٧٨٧.

(٢) سنن أبي داود، الجهاد، باب فيمن يسلم ويقتل، رقم: ٢٥٣٧، ٣/ ٤٣، المستدرك: ٣/ ٢٨.

وأموالهم وإنما فقط ليصرفوهم عن دينهم، عظُم هذا الدين في نظر الأصيرم فدخل قلبه الإسلام، وكان إيمانه قويًا إلى الحد الذي حمله على المشاركة في الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، فلحق بقومه في أُحد وقاتل الأعداء حتى استشهد رضي الله عنه.

لقد كان في حسِّ الأُصيرم وأمثاله أن دينًا يحمل معتنقيه على التضحية بالأنفس والأموال من أجله، ويحمل أعداءه على تجييش الجيوش من أجل القضاء عليه. . أنه دين عظيم في غاية الجلال والعظمة، وأن أدنى ذلك أن يسارع المقتنعون بعظمته إلى اعتناقه، ثم أن يبذلوا وُسعهم وطاقتهم في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.

*****

إسلام مخيريق وجهاده

قال ابن إسحاق: وكان من حديث مُخيريق، وكان حبرًا عالمًا، وكان رجلاً غنيًّا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلفُ دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يومُ أُحد وكان يومُ أُحد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون إن نصر محمد عليكم لحَقٌّ. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأُحد، وعهد إلى منْ وراءه من قومه: إن قُتلت هذا اليوم، فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ -فيما بلغني- يقول: «**مخيريق خيرُ يهودٍ**»، وقَبض رسولُ الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها[1].

في هذا الخبر بيان إسلام مخيريق أحد علماء اليهود، وإنفاقه جميع ماله في سبيل الله -تعالى- وجهاده مع المسلمين واستشهاده.. مواقف عالية من هذا العالم الحَبْر تتابعت كلها في يوم واحد، فقد كان يعلم أن رسول الله ﷺ هو الرسول الذي بشر به أنبياؤهم وأمرهم بالإيمان به ونصره إذا ظهر، وقد تيقظ ضميره يوم أُحد وتذكر وجوب نصر النبي ﷺ الذي تكالب عليه أهل الباطل، فكان ذلك دافعًا له إلى إعلان إسلامه.

ومثل هذا العالم يكون عادة مترددًا بين قناعته بصدق دعوة النبي ﷺ ووجوب اتباعه، وبين مداراة قومه الذين كفروا به وناصبوه العداء، ويكون الفكر المهيمن على هذا وأمثاله هو تأجيل البتِّ في الأمر رجاء أن يقتنع علماء قومه بالإسلام فيدخل معهم ويجمع بين إرضاء ضميره وإرضاء قومه.

ولكن نزول ذلك البلاء بالمسلمين واحتياجهم الشديد للنصرة عجَّل بموضوع البتِّ في القضية، فأعلن مخيريق إسلامه أمام قومه وأمرهم بذلك.

ولقد كان إسلام هذا الرجل إسلام العالم الموقن، فلم يكتف بمجرد الإسلام، وإنما قام بإنفاق جميع أمواله في سبيل الله -تعالى- والمال من أعز المحبوبات لدى

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٢، ٣/ ٤٢.

الإنسان، فالخروج من المال دليل على قوة الإيمان بهذا الدين الذي خرج من أمواله في سبيله.

ثم لم يكتف بذلك، وإنما خرج بنفسه للجهاد في سبيل الله -تعالى- وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان عنده؛ حيث حمله على بذل نفسه بعد ماله في سبيل الله -جل وعلا- ولقد أكرمه الله -تعالى- بالشهادة في ذلك اليوم، فنال أجرًا عظيمًا في وقت قصير جدًّا.

*****

مثل من تعظيم الشهادة والشوق إليها

خبر حنظلة الغسيل

أخرج محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن شيوخه قالوا: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فأدخلتْ عليه في الليلة التي في صبحها قتال أُحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلمَّا صلى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ، ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأنَّ السماء فرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة! فأشهدتْ عليه أنه قد دخل بها، وتَعْلَق بعبد الله بن حنظلة، ثم تزوجها ثابت بن قيس بعدُ فولدت له محمد بن ثابت بن قيس.

وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه، فلحق برسول الله ﷺ بأُحد وهو يُسوي الصفوف، قال: فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة بن أبي عامر لأبي سفيان بن حرب، فضرب عرقوب فرسه فاكتسعت الفرس، ويقع أبو سفيان إلى الأرض، فجعل يصيح: يا معشر قريش، أنا أبو سفيان بن حرب! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسمع الصوت رجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة حتى عاينه الأسود بن شَعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، فمشى حنظلة إليه بالرمح وقد أثبته، ثم ضربه الثانية فقتله، وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه فلحق ببعض قريش، فنزل عن صدر فرسه وردف وراء أبي سفيان.

إلى أن قال: وقال رسول الله ﷺ: «**إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة**».

قال أبو أُسيد السَّاعديُّ: فذهبنا فنظرنا إليه فإذا رأسُه يقطُر ماءً، قال أبو أسيد: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرَته أنه خرج وهو جُنب(١).

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٧٣.

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق ابن إسحاق قال: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله عن أبيه عن جده رضي الله عنه مختصراً، وجاء في آخره: فقال رسول الله ﷺ: «**لذلك غسلته الملائكة**»[1].

في الخبر مواقف وعبر، منها:

الأول: في تعلُّق جميلة بنت عبد الله بن أُبي بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخُطَّاب، لكنها تعلقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولداً ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عليا في الصلاح باستقامته أوَّلا، ثم بما ترجوه من نيله الشهادة.

ولقد حصل لها ما أمَّلت به فحملت منه وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله، وكان له ذكرٌ بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

وهكذا نجد ارتفاع مستوى الصحابة في النظر إلى رفعة الدين والعُلو في الآخرة واعتبار الأمور الدنيوية أموراً ثانوية خاضعة لأمر الدين.

الثاني: في شوق حنظلة القوي إلى الجهاد في سبيل الله -تعالى- الذي يتمثل في سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذي لم يتمكن معه من غُسل الجنابة؛ حيث عَدَّ ذلك مما يعوقه عن الجهاد.

والذي يغلب على الظن أن امرأته جميلة قد أخبرته برؤياها، وأنها قد جعلت من تلك الرؤيا مسوّغًا لإقناعه باللَّبث معها ذلك الوقت رجاء أن تَعْلَق منه بابن ينسب لذلك الشهيد الصالح؛ إذ إنه يبعد أن تخبر بتلك الرؤيا الأباعد ولا تخبر بها زوجها، خصوصًا أن رجاء الشهادة كان هدفًا ساميًا ومقصداً عاليًا عند الصحابة رضي الله عنهم، فيكون إسراعه بالخروج مع علمه بتلك الرؤيا شاهداً على قوة إيمانه ورسوخ يقينه، وتكون استجابته لها لتغليب هذا المقصد السامي؛ ليكون له عقبٌ يرجو صلاحه ودعاءه الصالح، لا لمجرد قضاء شهوة لا تخطر له على بال في الغالب وقد نزل بالمسلمين ما نزل.

---

(١) المستدرك: ٣/ ٢٠٤، عبد الله المذكور في السند هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

الثالث: موقف جهادي كبير حينما تصدى حنظلة لقائد المشركين أبي سفيان بن حرب والقائد غالبًا يكون حوله من يحميه، وهو فارسٌ وحنظلة راجلٌ، ولقد كاد أن يقضي عليه لولا معاجلة الأسود بن شعوب له بطعنة من خلفه، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً؛ لينال حنظلة الشهادة، وليبقى أبو سفيان على قيد الحياة حتى يوفقه الله - تعالى- للإسلام بعد ذلك.

الرابع: عبرة عظيمة في نزول الملائكة -عليهم السلام- لتغسيل حنظلة بمياه المُزن في صحاف الفضة، فإن هذا الخبر يدل على عظمة المؤمن ومنزلته العالية عند الله -تعالى- حيث أمر -جلَّ وعلا- ملائكته بالنزول؛ لتطهير حنظلة لتصعد روحه إلى الملأ الأعلى وجسمه طاهر.

الخامس: في إخبار النبي ﷺ الصحابة بذلك معجزة بالغة؛ حيث لم ير الصحابة الملائكة وما قاموا به من تغسيل حنظلة، فرؤية النبي ﷺ ذلك من المعجزات النبوية.

*****

موقف جليل في ثبات عبد الله بن جبير وأصحابه

أخرج الإمام البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلَس النبي ﷺ جيشًا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله[1]، وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرْنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا هربوا، حتى رأيتُ النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سُوقهن قد بدت خلاخلهنَّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ، فقال عبدُ الله: عهد إليَّ النبي ﷺ ألا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوْا صُرِف وجوهُهم، فأصيب سبعون قتيلاً[2].

تقدم في رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ أمَر خمسين من الرماة أن يبقوا فوق جبل عينين وأن يحرسوا المسلمين حتى لا يأتيهم الأعداء من خلفهم، فلما رأى الرماة انتصار المسلمين واشتغال بعضهم بحيازة الغنائم نادى بعضهم بعضًا للنزول من الجبل ومشاركة المسلمين في جمع الغنائم، فنهاهم قائدهم عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري، فأطاعه تسعة منهم وظلُّوا معه مرابطين ونزل الآخرون إلى ساحة المعركة.

قال الواقدي: وحدَّثني صالح بن خوَّات، عن يزيد بن رومان، قال: قال خوات بن جبير: لما كرَّ المشركون انتهوا إلى الجبل، وقد عَرِيَ من القوم، وبقي عبد الله بن جبير في عشرة نفر، فهم على رأس عينين، فلما طلع خالد بن الوليد وعكرمة في الخيل، قال لأصحابه[3]: ابسطوا نشَرًا[4]؛ لئلا يجوز القومُ! فصفوا وجه العدوِّ، واستقبلوا الشمس، فقاتلوا ساعة حتى قُتل أميرهم عبد الله بن جبير، وقد جُرح عامَّتهم[5].

وقال رافع بن خديج: فلمَّا انصرف الرُّماة وبقي من بقي، نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلَّة أهله، فكرَّ بالخيل وتبعه عكرمة في الخيل، فانطلقا إلى بعض الرُّماة فحملوا عليهم، فراموا القوم حتى أصيبوا، ورامى عبدُ الله بن جُبير حتى فنيت نبله، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كُسر جَفن سيفه، فقاتلهم حتى قُتل رضي الله عنه[6].

---

(١) هو عبد الله بن جبير، كما في رواية زهير عند البخاري، الفتح: ٧/ ٣٥٠.

(٢) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٤٩، رقم: ٤٠٤٣.

(٣) يعني: عبد الله بن جبير.

(٤) أي: منتشرين.

(٥) مغازي الواقدي: ١/ ٢٨٤.

(٦) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٢.

في هذين الخبرين بيان ثبات أمير الرماة عبد الله بن جبير هو ومن بقي من الرماة، وكانوا كما جاء في رواية خوَّات بن جبير عشرة، ولقد حاول عبد الله جهده منع خيل المشركين من الاقتحام على المسلمين، فنشر أصحابه في طريقهم، ولكنهم كانوا أقل من أن يقفوا في وجه أولئك الفرسان، فدخلوا معهم في معركة غير متكافئة كانت نتيجتها القضاء على أولئك الرماة والانطلاق نحو جيش المسلمين.

ولقد ضرب ابنُ جبير وصحبه في ذلك مثلاً عاليًا في طاعة رسول الله ﷺ والتضحية بالنفس في سبيل حماية المسلمين.

لقد استعمل رضي الله عنه كل ما في جعبته من سلاح، فرماهم بالنبل حتى فنيت سهامه ثم طاعنهم بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جَفن سيفه مشعرًا أعداءه بأنه سيستقتل هو وأصحابه حمايةً للمسلمين، وهذا يُصور لنا قوة المقاومة التي شنها ابن جبير على الأعداء.

وقد يقال: ما قيمة عشرة مشاة في مقابل جيش من الفرسان؟ أفلا انحازوا إلى جيش المسلمين؛ ليحموا أنفسهم وليكثِّروا الجيش الإسلامي؟!

فيقال: إن هؤلاء أولاً: من قوم لا يلقون بالاً لحماية أنفسهم، بل إن أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة في سبيل الله -تعالى- وثانيا: هم ينفذون أمر النبي ﷺ، فهم لا يلتفتون إلى أي سلوك آخر يتعارض مع طاعة الأمر النبوي، وثالثًا: فإن وقوفهم في وجه الأعداء يؤخر هجومهم بعض الوقت، وربما تنبه لهم المسلمون فيقومون بهجوم مضاد عليهم، فوقوف هؤلاء النفر في وجه الأعداء المهاجمين كان هو عين الحكمة لهذه الوجوه المذكورة وغيرها.

*****

بعد أن داهم فرسان المشركين المسلمين من خلفهم، وصاح الشيطان بهم: ألا إن محمداً قد قُتل، حصل ما حصل على المسلمين من الاضطراب والارتباك ففرَّ منهم من فرَّ، وانسحب منهم إلى سفح الجبل من انسحب، وثبت من ثبت في ميدان المعركة.

أما رسول الله ﷺ فإنه لم يفر ولم ينسحب، ولقد ضرب بنفسه أروع الأمثال في الشجاعة ورباطة الجأش والإقدام على المكاره، فلقد أُفرد في نفر من أصحابه فثبت وقاتل الكفار هو ومن ثبتوا معه، بل أعظم من ذلك أنه نادى المسلمين المنسحبين إلى أعلى الوادي من خلفهم يقول: «**إليَّ عباد الله.. إليَّ عباد الله**».

وقد نزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وأخرج الإمام ابن جرير الطبري من طريق ابن جُريج عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في قوله تعالى: ﴿**وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ**﴾: إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله(١).

وقوله تعالى: ﴿**فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ**﴾، معناه: أن الله -تعالى- جازاهم بغمٍّ جديد وهو إشراف جيش الكفار عليهم بعد توقف المعركة على غمِّهم السابق بالإصابة وفوات النصر، كما أخرج الإمام ابن جرير من طريق أسباط بن نصر عن السدي الكبير إسماعيل بن أبي كريمة قال: فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ حين ذهب عنهم الحزن -يعني برؤيتهم رسول الله ﷺ حيًّا- فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا، فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه وهمَّهم أبو سفيان(٢).

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٣٤.

(٢) تفسير الطبري: ٤/ ١٣٦.

فكون النبي ﷺ يرفع صوته بنداء أصحابه يُعدُّ منتهى الشجاعة والبطولة؛ لأنه هو مقصود المشركين الأول وهم يعرفون صوته، وهو بهذا النداء يغري المشركين بنفسه، لكنه لم يلتفت إلى ذلك؛ لأن عودة المؤمنين واجتماعهم تحت قيادته أهمُ من أمر سلامته مع بقائه منفردًا عن أصحابه وتفرقهم بغير قيادة ولا نظام.

وقد أقبل المشركون إلى النبي ﷺ وقاتلهم وقاتل دونه عددٌ قليل من أصحابه حتى قُتل بعضهم بين يديه وأثخن بعضهم بالجراح، إلى أن فاء المسلمون بعدما عرفوا مكان النبي ﷺ كما سيأتي.

إن مشاركة النبي ﷺ في الجهاد وثباته العظيم في وجه العدو دليلٌ واضح على اهتمامه الكبير بأصحابه وترفُّعه عن النظر إلى الذَّات، فلقد كان بوسعه ﷺ أن يبقى في مكان حصين، وأن يجعل حوله حرسًا يحمونه من هجمات الأعداء، وسيجد أن جميع الصحابة سيتنافسون على حمايته ووقايته بأرواحهم، ولكنه واجه حرَّ المعركة وتعرض لاستهداف العدو؛ لأنه يشرع لأمته ويرسم للقادة من بعده الطريق الأمثل، وعلى هذا الطريق سار قادة المسلمين من الصحابة رضي الله عنهم، هذا وقد جاءت روايات تبين جهود النبي ﷺ في الجهاد، فمن ذلك ما أخرجه الواقدي في سياق رواية له قال: وباشر رسول الله ﷺ القتال، فرمى بالنبل حتى فنيت نبله وتكسَّرت سيةُ قوسه، وقبل ذلك انقطع وتَره، وبقيت في يده قطعة تكون شبرًا في سية القوس، وأخذ القوس عُكَّاشة بن محصن يُوتره له، فقال: يا رسول الله ﷺ، لا يبلغَ الوتر، فقال رسول الله ﷺ: «**مُده، يبلغْ!**» قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحقِّ، لمددتُه حتى بلغ وطويتُ منه اثنين أو ثلاثة على سبة القوس، ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسه، فمازال يرمي القوم، وأبو طلحة أمامهم يستره مُترسًا عنه، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطَّمت، فأخذها قتادة بن النعمان(١).

فهذا الخبر فيه بيان شيء من الجهد الذي بذله رسول الله ﷺ في قتال الأعداء؛ حيث لم يكن عمله قاصرًا على إدارة المعركة، وإنما تجاوز ذلك إلى الإسهام في القتال، ولقد كان الجهد الذي بذله في الرمي كبيرًا؛ حيث بلغت كثافة الرمي إلى الحد الذي أتلفت قوسه.

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤٢.

مواقف من جهاد حمزة بن عبد المطلب واستشهاده

١ - أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال: «خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار، فلما قدمنا حمص قال لي عبيد الله بن عدي: هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم. وكان وحشيُ يسكنُ حمص، فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظل قصره كأنه حَميت[١].

قال: فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير، فسلَّمنا، فرد السلام، قال: وعبيد الله معُتجرٌ بعمامته ما يرى وحشيُ إلا عينيه ورجليه، فقال عبيد الله: يا وحشي أتعرفني؟ قال: فنظر إليه، ثم قال: لا والله، إلا أني أعلمُ أن عدي بن الخيار تزوج امرأة يقالُ لها أم قتال بنت أبي العيص، فولدت له غلامًا بمكة فكنتُ أسترضع له، فحملتُ ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياهُ، فلكأني نظرت إلى قدميك.

قال: فكشف عبيد الله عن وجهه، ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طُعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر. قال: فلما أن خرج الناسُ عام عينين -وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد- خرجتُ مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال، خرج سباع، فقال: هل من مبارزٍ؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباعُ، يا بن أم أنمار مقُطعة البُظور[٢]، أتحادُّ الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شدَّ عليه، فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّته[٣] حتى خرجتْ من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به.

فلما رجع الناسُ رجعتُ معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلامُ، ثم خرجتُ إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رُسلا، فقيل لي: إنه لا يهيج الرسُّل. قال:

---

(١) حَميت بوزن رغيف؛ أي زقٌّ كبير، قاله الحافظ ابن حجر، وقال: وفي رواية لابن عائذ «فوجدناه رجلاً سَمينا محمرة عيناه» الفتح: ٧/ ٣٦٨.

(٢) يعني: الختَّانة، قال الحافظ ابن حجر: قال ابن إسحاق: وكانت أمه ختانة بمكة تختن النساء. ا. هـ.

قال: والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم، وإلا قالوا: خاتنة، الفتح: ٧/ ٣٦٩.

(٣) أي: في عانته.

فخرجتُ معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «**أأنت وحشي؟**» قلت: نعم. قال: «**أنت قتلت حمزة؟**» قلتُ: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: «**فهل تستطيع أن تُغَـيِّب وجهك عني؟**» قال: فخرجت، فلما قُبض رسولُ الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذابُ قلت: لأخرجن إلى مسيلمة؛ لعلي أقتله فأكافيء به حمزة، قال: فخرجتُ مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائمٌ في ثلمة جدار كأنه جملٌ أورق ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب رجلٌ من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

قال: قال عبدُ الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: «فقالت جاريةٌ على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين، قتله العبدُ الأسود»(١).

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: بيان شجاعة حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه- العظيمة، فلقد ذكر وحشي قتله لأحد المبارزين من المشركين بصورة تدل على قوة حمزة وشجاعته الخارقة ومقدرته الحربية الفائقة.

وذكر الحافظ ابن حجر عن رواية الطيالسي لهذا الخبر: «فإذا حمزة كأنه جمل أورق ما يرفع له أحد سيفه إلا قمعه بالسيف فهبته»، قال: وعند ابن عائذ: «فرأيت رجلاً إذا حمل لا يرجع حتى يهزمنا، فقلت: من هذا؟ قالوا: حمزة، قلت: هذا حاجتي»(٢).

وهذا يعني أنه كان متلثمًا فلم يعرفه وحشي، لكن أهل الخبرة الحربية يعرفونه بجلاده؛ لتميزه عن غيره في الحرب.

وجاء في رواية ابن إسحاق: «ويهدُّ الناس بسيفه هدًا ما يقوم له شيء»(٣).

وهذا يدل على مقدار شجاعة حمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ، ومبلغ النكاية التي أوقعها بالكفار في تلك المعركة.

ثانيًا: موقف رسول الله ﷺ من وحشي قاتل حمزة حينما أسلم، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ذلك روايات أخرى، منها رواية الطيالسي وفيها يقول وحشي عن نفسه:

---

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٠٧٢، الفتح: ٧/ ٣٦٨.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٦٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩.

«فأردت الهرب إلى الشام، فقال لي رجل: ويحك، والله ما يأتي محمداً أحد بشهادة الحق إلا خلَّى عنه. قال: فانطلقت فما شعر بي إلا وأنا قائم على رأسه أشهد شهادة الحق.. فقال: «ويحك حدثني عن قتل حمزة»، قال: فأنشأت أحدثه كما حدثتكما»(١).

وقد قبَل منه النبي ﷺ إسلامه؛ لأن الإسلام يجبُّ ما قبله، ولم يصل إليه من رسول الله ﷺ ولا مجرد عتاب، وهذا منتهى ما يتصوره الإنسان من السماحة والعفو والإحسان.

ولابد لنا هنا من أن نقف وقفة تأمل أمام هذا المشهد العظيم، فهذا حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ يُقتل غدراً من هذا الرجل الحبشي ويمثل الكفار بجسده ويحزن عليه الرسول ﷺ حزنًا بالغًا، ومع ذلك ينطلق قاتله؛ ليعيش في مكة حُرًّا طليقًا لا يخشى من كيد المسلمين ولم يخطر بباله أن رسول الله ﷺ يمكن أن يدبر خطة للانتقام منه؛ لأنه لم يسبق له أن فعل ذلك مع أمثاله، ولو فعله مع ذلك الرجل لم ينتطح في قتله عنزان، فهو رجل كان مملوكًا فلا قوم له بمكة ولا عشيرة، ومع ذلك فإن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ لأن رسول الله ﷺ -وهو الإمام الأول للمسلمين- لم يكن يتصرف بدافع من الانتصار للنفس، وإنما كان يُقْدم أحيانًا على تدبير المكائد للكفار إذا كانوا من الزعماء الذين يكيدون للمسلمين، فالقضاء عليهم قبل ذلك يوفر على المسلمين معارك قد تضعف من قوتهم، أما أن يفكر في قتل رجل لا قوة له ولا عشيرة لمجرد الانتقام منه فإن ذلك لا يفيد شيئًا في نصر الإسلام ولا يوهن من كيد الكافرين.

وكون ذلك الرجل أغاظ النبي ﷺ وأحزنه صحيح، ولكن الذي يرفع هذا الحزن والغيظ هو احتساب الأجر عند الله -تعالى- والإيمان بأن أمد هذه الحياة قصير، وأن هناك لقاءً خالداً في الآخرة، ورسول الله ﷺ هو أعظم من يمثل هذا المبدأ السامي.

أما قول رسول الله ﷺ لوحشي: «**فهل تستطيع أن تُغيِّب وجهَك عني؟**» فهذا لا يعني شيئًا من المؤاخذة والتأثيم، وإنما هو تذكير له بأن رؤيته إياه تجلب له شيئًا من المتاعب النفسية؛ لأن ذلك يُذكِّره بتلك المصيبة العظيمة التي كان لها في نفسه أثر بالغ، فأشار عليه النبي ﷺ بأن يغيب وجهه حتى يفقد مصدر التذكير بتلك المصيبة.

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٧٠.

إن الرجال الكُمَّل من صفاتهم أن نفوسهم مرهفة الإحساس، يتأثرون إذا أخطأ عليهم أحد خطأً كبيرًا، ولكنهم مع ذلك يكتمون مشاعر نفوسهم فلا يتصرفون إلا بما يوافق العقل السليم، وإذا أخطأوا على غيرهم تأثروا كثيرًا وسارعوا إلى الاعتذار ومحو آثار ذلك الخطأ، ومع ذلك يبقى في نفوسهم شيء من أثر ذلك.

وإن من رحمة الله -تعالى- بالإنسان أنه ينسى سريعًا، فتمر عليه المصائب فلا تخلِّف في نفسه أثرًا بالغًا؛ لأنه ينساها ويُشغل بما في حاضره، ولكن حينما يواجه مشهدًا من مشاهد تلك المصائب فإنه يتذكر حالاً في الغالب، فيحصل له شيء من التأثر النفسي إذا كان مرهف الإحساس.

والنبي ﷺ -وهو القدوة العظمى لأمته- لم يكتم ذلك، ويصبر على تحمل الآثار النفسية كلما واجه ذلك الرجل؛ لأنه مشرِّع للأمة، وكلمته هذه التوجيهية تُبين أن شعور الإنسان بالألم والحزن عند تذكر المصيبة لا يعني نقصًا في الإيمان بقضاء الله -تعالى- وقدره، ولا ضعفًا في الصبر على الأذى؛ لأن ذلك أمر جبلي فطر الله الإنسان عليه، فلا يملك محوه من نفسه، وإنما يملك جوارحه أن تقول أو تفعلَ ما لا يليق.

لقد كان الرسول ﷺ إذًا يتحمل الكثير من الآلام النفسية من مواجهة عتاة الكفار الذين كانوا يواجهونه بأنواع من الأذى النفسي والجسمي ثم يرى وجوههم مع كل صباح ومساء!

لقد ظل طويلاً يذكر ما واجهه به عتاة ثقيف حينما خرج لدعوتهم لمَّا سألته عائشة -رضي الله عنها- عن أشدِّ يوم مرَّ عليه كما سبق.

٢- أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- يقول: فَقَدَ رسولُ الله ﷺ يوم أُحد حمزة حين فاء الناس من القتال، قال: فقال رجل: رأيته عند تلك الشجرة وهو يقول: أنا أسد الله وأسد رسوله، اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -لأبي سفيان وأصحابه- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء -من انهزامهم- فسار رسول الله ﷺ نحوه، فلما رأى جبهته بكى، ولما رأى ما مُثِّل به شهق، ثم قال: «**ألا كَفَنٌ**»، فقام رجل من الأنصار فرمى بثوب، قال جابر: فقال رسول الله ﷺ: «**سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة حمزة**».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، وأقره الذهبي(١).

هذا الخبر يفيد بأن حمزة رضي الله عنه تأخَّر استشهاده حتى حصلت الإصابة على المسلمين، فيكون قد أبلى بلاءً عظيمًا في المرحلة الأولى من المعركة، وثبت حينما حصل الارتباك في صفوف المسلمين إلى أن استُشهد، وهذا شاهد على شجاعته الفذة وثباته العظيم رضي الله عنه.

٣- أخرج الأئمة أحمد وأبو يعلى والبزار من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه أنه لما كان يوم أُحد أقبلت امرأة تسعى حتى كادت أن تشرف على القتلى، قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم، فقال: «**المرأة المرأة**»، قال الزبير: فتوسمت أنها أمي صفية، قال: فخرجت أسعى إليها، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلَدَمَت(٢) في صدري وكانت امرأة جلدة قالت: إليك عني لا أرض لك. فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك. قال: فوقفتْ وأخرجتْ ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما. قال: فجئنا بالثوبين؛ لنكفِّن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل فُعل به كما فُعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضةً وحَيَاءً أن يكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كَفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما فكفَّنا كل واحد منهما في الثوب الذي طار له.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: فيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف وقد وثق(٣).

في هذا الخبر مواقف:

الأول: ما كان من صفية بنت عبد المطلب -رضي الله عنها- حينما رضيت وسلَّمت لأمر النبي ﷺ لها بالرجوع، بينما كانت قبل ذلك تخاطب ولدها الزبير رضي الله عنه بعنف وتضربُ في صدره ظنًّا منها أنه هو الذي يمنعها من رؤية أخيها حمزة رضي الله عنه، والوقوفُ عند أوامر النبي ﷺ دليل على قوة الإيمان.

---

(١) المستدرك: ٣/ ١٩٩.

(٢) أي: ضربت ودفعت.

(٣) مجمع الزوائد: ٦/ ١١٨.

الثاني: موقف أخلاقي نبيل، وذلك حينما واسى آل حمزة أخاه الأنصاري المقتول بجانبه في الكفن، فجعلوا لكل واحد منهما ثوبًا، ويبلغ هؤلاء العظماء منتهى النبل في المعاملة حينما لجأوا إلى القرعة في تَوزيع الثوبين على الشهيدين ولم يفضِّلوا حمزة بأكبرهما.

إن هذا المشهد يكشف لنا صورة من أخلاق الصحابة -رضي الله عنهم- العالية في المعاملة بينهم من الإيثار والمواساة والبُعد عن الأثرة والأنانية.

*****

من مواقف النساء الجهادية

أخبار أم عمارة

أخرج محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن شيوخه قالوا: وكانت نُسيبة بنت كعب أمّ عُمارة، وهي امرأة غَزِيَّة بن عمرو، وشهدت أُحداً هي وزوجها وابناها، وخرجت معها شنٌّ لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى، فقاتلتْ يومئذ وأبلت بلاءً حسنًا، فجُرحت اثنى عشر جُرحًا؛ بين طعنة برمح أو ضربة بسيف.

فكانت أم سعد بنت سعد بن الرَّبيع تقول: دخلتُ عليها، فقلت لها: يا خالة، حدثيني خبرك. فقالت: خرجت أوَّل النهار إلى أُحد، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاءٌ فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انْحَزْتُ إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصتْ إليَّ الجراح.

فرأيت على عاتقها جُرحًا له غورٌ أجوف، فقلت: يا أم عمارة، من أصابك بهذا؟ قالت: أقبل ابنُ قمئَة، وقد ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ، يصيح: دُلُّوني على محمد، فلا نجوتُ إنَ نجا، فاعترض له مصعب بن عمير وأناس معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنَّ عدو الله كان عليه درعان.

قلت: يدك، ما أصابها؟ قالت: أصيبتْ يوم اليمامة؛ لَمَّا جَعَلَت الأعراب ينهزمون بالناس، نادتَ الأنصارُ: «أخلصونا»، فأُخلصت الأنصارُ، فكنت معهم، حتى انتهينا إلى حديقة الموت(١)، فاقتتلنا عليها ساعة حتى قُتل أبو دُجانة على باب الحديقة، ودخلتُها وأنا أريد عدو الله مسيلمة، فيعترض لي رجلٌ منهم فضرب يدي فقطعها، فوالله ما كانت لي ناهيةٌ ولا عرَّجتُ عليها حتى وقفت على الخبيث مقتولاً، وابني عبد الله بن زيد المازني يمسح سيفه بثيابه، فقلت: قتلته؟ قال: نعم، فسجدت شكرًا لله، وكان ضمرة بن سعيد يُحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحدًا تسقي الماء، قالت: سمعت النبي ﷺ

---

(١) البستان الذي كان مسيلمة قد تحصَّن به في اليمامة.

يقول: «**لَمقام نُسيبة بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان!**»، وكان يراها تقاتل يومئذ أشد القتال، إنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحًا، فلما حضرتْها الوفاة كنت فيمن غسَّلها، فعددت جراحها جرحًا جرحًا فوجدتها ثلاثة عشر جُرحًا، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها، وكان أعظم جراحها، لقد داوته سنة، ثم نادى منادي النبي ﷺ إلى حمراء الأسد، فشدَّت عليها ثيابها، فما استطاعت من نَزْف الدَّم، ولقد مكثنا ليلنا نكمد الجراح حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها فسُر النبي ﷺ بذلك.

وأخرج الواقدي، عن موسى بن ضَمْرَة بن سعيد، عن أبيه، قال: أُتيَ عمر بن الخطاب بمروط(١)، فكان فيها مرطٌ واسع جيد، فقال بعضهم: إنَّ هذا المرط لثَمن كذا وكذا، فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عُبيد -وذلك حدْثانَ ما دخلت على ابن عمر- فقال: أبعثُ به إلى من هو أحقُّ منها؛ أم عمارة نسيبة بنت كعب، سمعت رسول الله ﷺ يوم أحد يقول: «**ما التفتُّ يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني**».

فقال الواقدي: حدثني سعيد بن أبي زيد، عن مروان بن أبي سعيد بن المعلَّى، قال: قيل لأم عمارة: هل كنَّ نساء قريش يومئذ يُقاتلن مع أزواجهن؟ فقالت: أعوذ بالله، ما رأيت امرأة منهن رمت بسهم ولا بحجر، ولكن رأيت معهن الدِّفاف والأكبار، يضربن ويُذكِّرون القوم قتلى بدر، ومعهن مكاحل ومراود، فكلما ولَّى رجلٌ أو تكعكع(٢) ناولته إحداهن مِرْودًا ومكْحلة ويقلن: إنما أنت امرأة! وقد رأيتهن ولَّين منهزمات مشمرات -ولها عنهنَّ الرجالُ أصحاب الخيل، ونجوا على متون الخيل- يتبعن الرجال على الأقدام، فجعلن يسقطن في الطريق.

ولقد رأيت هند بنت عُتبة -وكانت امرأة ثقيلة ولها خَلْقٌ- قاعدةً خاشيةً من الخيل ما بها مشْيٌ، ومعها امرأة أخرى، حتى كرَّ القوم علينا فأصابوا منا ما أصابوا، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قِبل الرماة ومعصيتهم لرسول الله ﷺ.

---

(١) أي: بملابس.

(٢) تكعكع: أي أحجم وتأخر إلى الوراء، النهاية: ٤/ ٢٣، عن هامش المغازي.

قال الواقدي: حدَّثني ابن أبي سبرة، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة، عن الحارث بن عبد الله، قال: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: شهدت أُحدًا مع رسول الله ﷺ، فلما تفرق الناس عنه دنوْت منه، وأمي تذب عنه، فقال: «**يا بن أم عمارة!**» قلت: نعم، قال: «**ارم!**» فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر، وهو على فرس، فأصبتُ عين الفرس فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه، وجعلت أعلُوه بالحجارة حتى نضَّدتُ عليه منها وقرًا، والنبي ﷺ ينظر ويتبسم، فنظر إلى جُرح بأمي على عاتقها، فقال: «**أُمَّك، أُمَّك! اعْصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيتٍ! مقام أمك خيرٌ من مقام فلان وفلان، ومَقام ربيبك** -يعني زوج أمه- **خيرٌ من مقامٍ فلان وفلان، ومقامك لخيرٌ من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل بيت!**» قالت: ادع الله أن نرافقك في الجنة. قال: «**اللهم اجْعلهم رفقائي في الجنة**». قالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا[1].

في هذه الأخبار مواقف، منها:

الأول: الإشارة إلى الدور الذي كانت تقوم به النساء في العهد النبوي من الأعمال الجهادية؛ حيث كنَّ يقمن بحمل الماء وسقي المجاهدين والاستعداد بمواد الإسعافات؛ لتضميد الجرحى وغير ذلك من الخدمات التي يقدمنها للمجاهدين.

ولقد ظلت نساء المسلمين يقُمْن بهذه الخدمات الجهادية بعد ذلك في عصر الفتوحات الإسلامية.

الثاني: ما قامت به أمُّ عمارة نسيبة بنت كعب -رضي الله عنها- من التحول عن أداء مهامِّها كامرأة إلى أداء مهام الرجال الجهادية، وذلك حينما وقعت الإصابة على المسلمين وأُفردَ النبي ﷺ في نفر من أصحابه، فرأت أم عمارة أن واجبها آنذاك أكبر من تقديم الخدمات المساعدة، فباشرت قتال المشركين دفاعًا عن رسول الله ﷺ، وحصل منها ما ذُكر في هذه الأخبار من التصدي للأعداء والمشاركة في ردِّ هجماتهم.

إن هذه الأعمال الجهادية الخشنة لا يستغرب صدورها من الرجال؛ لأنهم -خصوصًا في ذلك العهد- قد مُرنوا عليها وألِفت عليها أجسامهم، لكن صدور ذلك

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٦٨- ٢٧٣، وذكر ابن هشام بعض رواية سعيد بن أبي زيد الأنصاري، الروض الأُنف: ٥/ ٤٤٤.

من النساء أمر غير مألوف عادة، فكون أم عمارة تقوم بذلك الجهد الكبير، وتواصل الدفاع عن النبي ﷺ رغم إصابتها بتلك الجراح التي بلغت ثلاثة عشر يُعد تضحية كبيرة وطاقة عالية غير معتادة، ولا يشك المتأمل بأن هذه الصحابية الجليلة قد حظيت بعون من الله تعالى جعلها تصمد ذلك الصمود العجيب وتقدم ذلك الجهد الكبير.

ومن المدهش من خبر تلك المرأة العظيمة أنها لم تقدم نفسها في الجهاد فحسب، بل قدمت ابنيها؛ ليكونا فداءً للنبي ﷺ، ولئن كان الدافع لدى زوجها وابنيها مألوفًا في مجتمع الصحابة رضي الله عنهم فإن صدور ذلك من أمهما وهي تشاهدهما وتتوقع في أي لحظة أن يكونا تحت سنابك الخيل شهيدين. . إن ذلك يُعدُّ مثالاً عاليًا لقوة الإيمان ورسوخ اليقين.

فلهذه الأفاعيل الكبيرة والتضحيات العالية من أم عمارة بنفسها وبحثِّ بنيها على الجهاد نجد رسول الله ﷺ يثني عليها ذلك الثناء الطيب، ولكنها لقوة إحساسها بالحياة الآخرة وشدة استحضارها لما أعده الله تعالى لأهل الجنة من النعيم المقيم لا تكتفي بسماع ذلك الثناء من رسول الله ﷺ، بل تهتبل هذه الفرصة الغالية؛ لتطلب منه ﷺ أن يدعو الله تعالى لها ولأفراد أسرتها بمرافقته في الجنة وهي تعلم علم اليقين أنه في أعلى عليين.

ونجد أم عمارة مع هذا الجهد الكبير والجراح المتعددة المؤلمة تقوم؛ لتشدَّ عليها ثيابها لما سمعت منادي رسول الله ﷺ يدعو المسلمين لملاحقة جيش العدو في حمراء الأسد، ولكنها لم تستطع المشاركة في هذه المهمة؛ لأن جراحها مازالت تنزف دماء، فأي عزيمة كانت تملكها تلك المرأة، وأي حيوية كان يشتمل عليها قلبها الكبير؟!

إن الطاقة لدى الفرد المسلم لا تحدها الحدود المعتادة إذا كان وراء تلك الطاقة إيمان قوي محرك، وإذا كانت هذه المرأة المؤمنة قد قامت بهذه العجائب وهي لم تكن مؤهلة لذلك بحكم طبيعتها النسوية فيكف بالرجال إذا ملكوا ذلك الإيمان القوي الحيوي؟!

وتمر الأيام، ويقع المسلمون في لحظات حرجة جدًا، وهم يواجهون أعنف مقاومة واجهوها في حروب الردة، وتبرز أم عمارة بصحبة ابنها؛ لتبحث عن رأس المشركين المرتدين مسيلمة الكذَّاب، وهي تريد أن تتصدى لقتله وإراحة المسلمين منه، ولا تبالي

وهي تدفع نفسها لهذا الهدف العالي بيدها التي قُطعت وهي تؤدي هذه المهمة؛ لأن الله تعالى قد أبقى لها اليد الأخرى التي بإمكانها أن تبذل بها ما تستطيع من طاقة، ولكن ابنها عبد الله بن زيد المازني يسبقها لأداء هذه المهمة، فيشارك في قتل رأس الكفر مسيلمة، وتقرُّ عين أم عمارة بهذه النهاية الحميدة للمسلمين وبما قدمه ابنها للإسلام والمسلمين من عمل جليل(١).

الثالث: ما كان من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من تقدير أهل الفضل، وتذكُّر ما قدمته أم عمارة يوم أحد من بلاء وتضحية في سبيل الدفاع عن النبي ﷺ، فحينما وردت عليه -وهو في خلافته- ملابس مما أفاءه الله تعالى على المسلمين وكان فيها لباس متميز أرسله إلى أم عمارة وذكر جهادها المشكور ولم يلتفت إلى من أشار عليه ببعثه إلى زوجة ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وهذا موقف يُذكر لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ويضاف إلى مواقفه الكثيرة في العدالة وتقديم أهل الفضل، والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين.

*****

---

(١) كان من دوافع طلبها قتل مسيلمة: أنه قتل ابنها حبيب بن زيد لما أرسله رسول الله ﷺ إليه -كما سيأتي- فشفى الله تعالى صدرها وصدر ابنها عبد الله حينما قُتل مسيلمة.

موقف جهادي لوهب المزني وابن أخيه

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: وأقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة، فوجدا المدينة خلوًا، فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأُحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثرًا بعد عين.

فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأُحد، فيجدان القوم يقتتلون، والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب؛ وجاءت الخيل من ورائهم؛ خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لهذه الفرقة؟**»، فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله. فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا، ثم رجع.

فانفرقت فرقةٌ أخرى، فقال رسول الله ﷺ: «**من لهذه الكتيبة؟**» فقال المُزَنيُّ: أنا يا رسول الله. فقام، فذبَّها بالسيف حتى ولَّوْا، ثم رجع المُزني، ثم طلعت كتيبة أخرى، فقال: «**من يقوم لهؤلاء؟**» فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقال: «**قم وأبشر بالجنة**». فقام المُزني مسرورًا يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين، حتى خرج من أقصاهم، ورسول الله ﷺ يقول: «**اللهم ارحمه!**»، ثم يرجع فيهم، فمازال كذلك، وهم محدقون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوُجد به يومئذ عشرون طعنةً برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومُثل به أقبح المثل يومئذ.

ثم قام ابن أخيه فقاتل كنحو قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحبَّ ميتة أموت عليها لما مات عليها المزني.

وكان بلال بن الحارث المُزني يُحدِّث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقُسمت بيننا غنائمنا، فأسقط فتى من آل قابوس من مُزينة[1] فجئت سعدًا حين فرغ من نومه، فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال: مرحبًا بك،

(١) أي: أسقط اسمه من قسمة الغنائم.

من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس. قال سعد: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحبًا وأهلاً وأنْعَم الله بك عينًا، ذلك الرجل شهدت منه يوم أُحد مشهدًا ما شهدته من أحَد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطنا والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في الناس يتوسمهم[1] يقول: «**من لهذه الكتيبة؟**»، كلُّ ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله! كلُّ ذلك يردها، فما أنسى آخر مرة قامها، فقال رسول الله ﷺ: «**قمْ وأبشر بالجنة!**» قال سعد: وقمت على أثره، يعلم الله أني أطلبُ مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه -رحمه الله- ووددت والله أني كنت أُصبت يومئذ معه، ولكن أجلي استأخر، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضَّله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيتُ رسول الله ﷺ واقفًا عليه وهو مقتول، وهو يقول: «**رضي الله عنك، فإني عنك راض**»، ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه -وقد نال النبي ﷺ من الجراح ما ناله، وإني لأعلم أن القيام ليشقُّ عليه- على قبره حتى وضع في لحده، وعليه بردة لها أعلامٌ خُضْر، فمدَّ رسول الله ﷺ البردة على رأسه فخمَّره، وأدرجه فيها طولاً وبلغت نصفَ ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحَرْمل فجعلناه على رجليه وهو في لحده، ثم انصرف، فما حالٌ أموت عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزنيّ[2].

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: بيان الجهد الكبير الذي بذله في الجهاد وهب بن قابوس المزني وابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس -رضي الله عنهما- حيث تركا ما قدما من أجله من بيع غنمهما في المدينة، وخرجا إلى موقع المعركة في أُحد، ولم يكن لهما دافع إلى الخروج إلا نصرة الإسلام والمسلمين، ولقد بذل كل واحد منهما جهدًا كبيرًا في صدِّ الأعداء والنكاية بهم حتى سقطا شهيدين.

---

(١) أي: يتفرس فيهم.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٧٥- ٢٧٧.

وإننا لنجد في هذا الخبر مثلاً لقوة تمثُّل الحياة الآخرة في أذهان الصحابة، فحينما بشَّر النبي ﷺ وهبًا المزني بالجنة قام مسروراً وهو يقول: لا أقيل ولا أستقيل. فقد اشترى الجنة بنفسه، وطلب موطن الشهادة بعدما أثخن في العدو، ونجد أن الصحابة يتمنون أن يموتوا تلك الميتة التي رافقها ضمان دخول الجنة.

وهذا الشعور القوي نحو الحياة الآخرة هو الذي أنتج العجائب في حياة الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث أصبحوا قوةً عظمى على قلة العدد وضعف العُدد، واشتهر في أوساط الأمم أن المسلمين لا يمكن أن يقف لهم أحدٌ مهما كانت قوة استعداده وكثرة جنوده.

ثانيًا: موقف جليلٌ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في تذكُّر خبر وهب المزني على الرغم من مرور ثلاث عشرة سنة تقريبًا على غزوة أحد لمجرد مرور اسم رجل من عشيرته عليه، وهذا يعني اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأخبار أهل الفضل والمواقف الحميدة في الإسلام، وكذلك ينبغي أن يشاد بأهل المكارم والمحامد؛ لتحصل الأسوة الحسنة بهم.

*****

موقف جهادي للحارث بن الصمة وأبي دجانة

قال الواقدي فما يرويه عن شيوخه: وأقبل عثمان بن عبد الله بن المُغيرة المخزومي يُحضر فرسًا له[١]، أبلق، يريد رسول الله ﷺ، وعليه لأمَة له كاملة[٢]، ورسول الله ﷺ مُوَجِّه إلى الشِّعب، وهو يصيح: لا نجوتُ إن نجوتَ! فيقف رسول الله ﷺ ويعثُر به[٣] فرسه في بعض تلك الحفر التي كانت حَفَرَ أبو عامر، فيقع الفرس لوجهه، وخرج الفرس عاثرًا، فيأخذه أصحاب رسول الله ﷺ فيعقرونه[٤].

ويمشي إليه الحارث بن الصِّمَّة فتضاربا ساعة بسيفين، ثم يضرب الحارث رجله -وكانت الدِّرع مشمَّرة- فبرك وذفَّف عليه، وأخذ الحارث يومئذ درعًا جيدة ومغفرًا وسيفًا جيدًا، ولم يُسمع بأحد سُلب يومئذ غيره، ورسول الله ﷺ ينظر إلى قتالهما، وسأل رسول الله ﷺ عن الرجل، فإذا عثمان بن عبد الله بن المغيرة، فقال: «**الحمد لله الذي أحانه**»[٥].

وكان عبد الله بن جحش أسره ببطن نخلة حتى قدم به على رسول الله ﷺ، فافتدى، فرجع إلى قريش حتى غزا أُحدًا فقُتل به.

ويرى مصرعه عُبيد بن حاجز العامري -عامر بن لؤيّ- فأقبل يعدو كأنه سبع، فيضرب الحارث بن الصِّمَّة ضربةً جَرَحه على عاتقه، فوقع الحارث جريحًا حتى احتمله أصحابه، ويُقبل أبو دُجانة على عُبيد، فتناوشا ساعة من نهار، وكل واحد منهما يتَّقي بالدَّرقة ضرْب السيف، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه، ثم جَلَد به الأرض، ثم ذبحه بالسيف كما تذبح الشاة، ثم انصرف فلحق برسول الله ﷺ[٦].

---

(١) أي: يعدو بها، والحَضْر: ارتفاع الفرس في عدْوه.

(٢) اللأمة: هي الدرع، وما يتبعه من المغفر والبيضة، ونحو ذلك.

(٣) أي: بعثمان المخزومي.

(٤) أي: يقطعون قوائمه، حتى لا ينجو عليه صاحبه، والعاثر: الذي أفلت، وانطلق على وجهه.

(٥) أحانه: أهلكه، الصحَّاح: ٢١٠٦، عن هامش المغازي.

(٦) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥٢، ٢٥٣.

في هذا الخبر موقفان بطوليان للحارث بن الصمة وأبي دجانة -رضي الله عنهما- فأما الحارث فإنه تصدى لعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي مع كونه قد حصَّن نفسه بالحديد الواقي من السلاح، وبذلك وقى رسول الله ﷺ من ذلك الذي أقبل يريد قتله.

وأما أبو دجانة فإنه قام بإنقاذ الحارث الذي أسرع إليه عُبيد بن حاجز مغتنمًا فرصة انشغاله مع ابن المغيرة؛ حيث أصابه بجُرح فكان أبو دجانة له، ولم يحتمل طول الصراع والمصاولة؛ حيث هجم على ابن حاجز فاحتضنه وضرب به الأرض، ثم ذبحه كما تذبح الشاة، وهذا العمل يدل على شجاعة فائقة من أبي دجانة، كما أنه يعدُّ إهانة لمن وقع عليه مثل هذا النوع من القتل.

*****

موقف جهادي لطلحة وعدد من الصحابة

أخرج الإمام البيهقي بإسناده عن جابر بن عبد الله، أنه قال: انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحد وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار، فيهم طلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل، فلحقهم المشركون، فقال: «**ألا أحد لهؤلاء؟**» فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال: «**كما أنت يا طلحة**»، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقَاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه، ثم قُتل الأنصاريُّ، فلحقوه، فقال: «**ألا أحد لهؤلاء؟**» فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فأذن له، فقاتل مثل قتاله وقتال صاحبه، ورسول الله ﷺ وأصحابه يصعدون، ثم قُتل فلحقوه.

فلم يزل رسول الله ﷺ يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال، فيأذن له، فقاتل مثل قتال من كان قبله، حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما، فقال رسول الله ﷺ: «**من لهؤلاء؟**» فقال طلحة: أنا. فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله فقال: حسِّ(1)، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت: بسم الله، أو ذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناسُ ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء**»، ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون(2).

في هذا الخبر بيانٌ لموقف جهادي عظيم لطلحة بن عبيد الله وعشرة من الأنصار لم تُذكر أسماؤهم.

هذا الجهاد تم في أخطر مرحلة من مراحل المعركة، وذلك حينما أصيب المسلمون بالذُّهول؛ لهول المفاجأة بهجوم خيول العدوِّ من خلفهم وإشاعة أن رسول الله ﷺ قد قُتل، فقرر النبي ﷺ الانسحاب عن مركز القيادة بمن بقي معه؛ للاعتصام بجبل أحد،

---

(1) حسِّ بكسر السين المشددة: تعبير عن الألم الشديد.

(2) دلائل النبوة: 3/ 236، 237، وأخرجه الإمام النسائي من حديث جابر رضي الله عنه، وذكر مثله، سنن النسائي: 6/ 29، 30، كتاب الجهاد، باب: ما يقول من يطعنه العدو، وذكره الحافظ الذهبي، وقال: رواته ثقات، سير أعلام النبلاء: 1/ 27، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده جيد، فتح الباري: 7/ 360.

فتولى طلحة ورفاقه حماية النبي ﷺ حتى تمت عملية الانسحاب بسلامة النبي ﷺ بعد أن قدَّم الأنصار العشرة أرواحهم فداءً له.

وإن ما قام به هؤلاء الأنصار يُعد تضحية خالدة وعملاً عظيمًا نالوا به الشرفين: شرف حماية النبي ﷺ والإسلام، وشرف الظفر بالشهادة، فرضي الله عنهم أجمعين.

أما طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فإنه كان يتقدم في كل مرة، فيبقيه النبي ﷺ؛ لا حمايةً له، وإنما ادِّخارٌ له لموقف أكثر صعوبة وأبلغ خطرًا، وقد مثل هذا الموقف أبلغ تمثيل؛ حيث قاتل المشركين وحده كقتال العشرة من الأنصار، حتى عرف أبو بكر وأبو عبيدة ومن اجتمع من الصحابة رضي الله عنهم موقع النبي ﷺ، فقاموا جميعًا بإكمال تلك المهمة، وهذا موقفٌ عظيم من التضحية والشجاعة يُذكر لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، مما حدَا بأبي بكر رضي الله عنه إلى أن يقول: «ذلك يوم كله لطلحة».

وقول جابر رضي الله عنه في هذه الرواية: «انهزم الناس» قال الحافظ ابن حجر في بيان ذلك في حديث آخر: أي بعضهم أو أطلق ذلك باعتبار تفرُّقهم(١)، وقد تقدم بيان أقسام الناس بعد الإصابة.

وأخرج الواقدي من حديث شيوخه، قالوا: وقاتل طلحةُ بن عبيد الله يومئذ عن النبي ﷺ قتالاً شديدًا، فكان طلحة يقول: لقد رأيت رسول الله ﷺ حين انهزم أصحابه، وكرَّ المشركون، وأحدقوا بالنبي ﷺ من كلِّ ناحية، فما أدري أقومُ من بين يديه أو من ورائه، أو عن يمينه أو عن شماله، فأذُب بالسيف من بين يديه مرة وأخرى من ورائه حتى انكشفوا، فجعل رسول الله ﷺ يومئذ يقول لطلحة: «**قد أنْحَب**»(٢).

وسُئل طلحةُ: يا أبا محمد، ما أصاب إصبعك؟ قال: رمى مالك بن زهير الجُشميُّ بسهم يريد رسول الله ﷺ، وكان لا تُخطئ رميته، فاتقيت بيدي عن وجه رسول الله ﷺ، فأصاب خنصري، فشُلَّ فشُلَّ إصبعه، وقال حين رماه: حسِّ! فقال رسول الله ﷺ: «**لو قال بسم الله لدخل الجنة والناسُ ينظرون! من أحبَّ أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله، طلحة ممَّن قضى نحبه**».

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٦٢.

(٢) أي: قضى ما عليه، والنَّحب: هو النذر المحكوم بوجوبه، مفردات الراغب: ٤٨٤.

وقال طلحة: لَمَّا جال المسلمون تلك الجولة، ثم تراجعوا، أقبل رجلٌ من بني عامر بن لؤي بن مالك بن المُضَرَّب يجرُّ رمحًا له، على فرس كُمَيت أغرَّ، مدججًا في الحديد، يصيح: أنا أبو ذات الوَدَع[1]، دُلُّوني على محمد! فأضربُ عرقوب فرسه فانكسعتْ، ثم أتناول رمحه، فوالله ما أخطأت به عن حدقته، فخار كما يخور الثور، فما برحتُ به واضعًا رجلي على خده حتى أزَرْتُه شَعُوبَ[2]، وكان طلحة قد أصابته في رأسه المُصلَّبة، ضربه رجلٌ من المشركين ضربتين؛ ضربة وهو مقبل، والأخرى وهو معرضٌ عنه[3]، وكان قد نزف منها الدم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: جئت إلى النبي ﷺ يوم أُحد، فقال: «**عليك بابن عمك**»، فأتى طلحة بن عبيد الله وقد نزف الدم فجعلت أنضح في وجهه الماء وهو مغشي عليه، ثم أفاق، فقال: ما فعل رسول الله؟ فقلت: خيرًا، هو أرسلني إليك، قال: الحمد لله، كلُّ مصيبة بعده جلل[4].

وكان ضرار بن الخطاب الفهريُّ يقول: نظرت إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة في عمرة، فنظرت إلى المصلبة في رأسه، فقال ضرار: أنا والله ضربته هذه، استقبلني فضربته، ثم أكرُّ عليه وقد أعرض فأضربُه أخرى.

وقالوا: لَمَّا كان يوم الجمل وقتَل عليٌّ رضي الله عنه من قتل من الناس ودخل البَصْرة، جاءه رجلٌ من العرب فتكلم بين يديه، ونال من طلحة فزَبَره عليٌّ وقال: إنك لم تشهد يوم أُحد، وعظَم غَنائه في الإسلام مع مكانه من رسول الله ﷺ، فانكسر الرجل وسكت.

فقال رجلٌ من القوم: وما كان غَنَاؤه وبلاؤه يوم أُحد يرحمه الله؟ فقال عَليٌّ: نعم، يرحمه الله! فلقد رأيته، وإنه ليُترِّس بنفسه دون رسول الله ﷺ، وإن السيوف لتغشاه والنَّبل من كلِّ ناحية، وإنْ هو إلا جُنَّة بنفسه لرسول الله ﷺ، فقال قائل: إن كان يومًا قد قتل فيه أصحاب رسول الله ﷺ، وأصاب رسول الله فيه الجراحة، فقال عليٌّ رضي الله عنه: أشهدُ لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليت أني غودرت مع أصحاب نحْص الجبل**»[5]، قال ابن أبي الزِّناد: نحصُ الجبل: أسفله.

---

(١) الودع: خرزٌ بيضٌ تُستخرج من البحر. (٢) أي: الموت.

(٣) يعني: صارت الضربتان على هيئة صليب.

(٤) أي: صغيرة، وهذا من أسماء الأضداد يطلق على الكبير والصغير، ويعرف المراد به من السياق.

(٥) قول الرسول ﷺ هذا أخرجه الحافظ البزار بإسناد حسن، المطالب العالية: ٤/ ٢٢٢.

ثم قال عليٌّ رضي الله عنه :لقد رأيتني يومئذ وإني لأذبهم في ناحية، وإن أبا دجانة لفي ناحية يذُب طائفة منهم، وإن سعد بن أبي وقاص يذب طائفةً منهم، حتى فرَّج الله ذلك كله، ولقد رأيتني وانفردتْ منهم يومئذ فرقة خشناء فيها عكرمة بن أبي جهل، فدخلت وسطها بالسيف فضربت به، واشتملوا عليَّ حتى أفضيت إلى آخرهم، ثم كررت فيهم الثانية حتى رجعت من حيث جئت، ولكن الأجل استأخر، ويقضي الله أمرًا كان مفعولاً[١].

هذه الأخبار تبين لنا الجهد الكبير الذي بذله طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه بشهادة هؤلاء الصحابة الكرام من الدفاع عن رسول الله ﷺ ووقايته من سلاح الأعداء، ولقد استمر يجمع بين حماية النبي ﷺ والدفاع عنه حتى فاء عدد من الصحابة رضي الله عنهم وكان طلحة قد أُغمي عليه من كثرة ما واجه من سلاح الأعداء.

ولقد استحق بهذا ثناء النبي ﷺ والحكم له بأنه قد أدَّى ما عليه كاملاً.

كما اشتملت هذه الأخبار على موقف جليل لعلي بن أبي طالب الذي أثنى على طلحة -رضي الله عنهما- ودافع عنه بالرغم مما جرى بينهما من خلاف، ولقد ذكَره بأبرز موقف تفوَّق فيه على غيره من الصحابة.

وهذا دليل على مبلغ الرقي الأخلاقي الذي وصل إليه الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث كانوا يشيدون بإخوانهم ويذكرون محاسنهم وإن وقع الخلاف بينهم إلى حد المواجهة في الميدان.

كما أن في هذا الخبر وصفًا لشجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ حيث كان وحده يقاتل كتيبة من كتائب المشركين فلم يستطيعوا إصابته.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥٤- ٢٥٦.

ضرار بن الخطاب يصف شجاعة الأنصار

قال الواقدي في سياق رواية له: وكان ضرار بن الخطاب يُحدِّث ويذكر وقعة أُحد(١)، ويذكر الأنصار ويترحَّم عليهم، ويذكر غناءَهم في الإسلام، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت، ثم يقول: لما قُتل أشراف قومي ببدر جعلتُ أقول: مَن قتل أبا الحكم؟ يقال: ابن عفراء. من قتل أمية بن خلف؟ يقال: خُبَيْب بن يَساف. من قتل عُقبة بن أبي مُعيط؟ قالوا: عاصم بن ثابت بن أبي الأقْلَح. من قتل فلانًا؟ فيُسمَّى لي، من أسر سُهيل بن عمرو؟ قالوا: مالك بن الدُّخْشُم.

فلما خرجنَا إلى أُحد وأنا أقول: إن أقاموا في صياصيهم(٢) فهي منيعةٌ، لا سبيل لنا إليهم، نقيم أيامًا ثم ننصرف، وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم؛ معنا عددٌ كثير أكثر من عددهم، ونحن قوم موتورون(٣)، خرجنا بالظُّعُن(٤) يذكِّرننا قتلى بدْر، معنا كُراعٌ ولا كُراع معهم(٥)، ومعنا سلاح أكثرُ من سلاحهم.

فقُضي لهم أن خرجوا، فالتقينا، فوالله ما أقمنا لهم حتى هُزمنا وانكشفنا مُولِّين، فقلت في نفسي: هذه أشدُّ من وقعة بدر! وجعلت أقول لخالد بن الوليد: كُر على القوم! فجعل يقول: وترى وجها نكر فيه؟ حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرماة خاليًا، فقلت: يا أبا سليمان، انظر وراءك! فعطف عنان فرسه، فكرَّ وكررْنا معه، فانتهينا إلى الجبل فلم نجد عليه أحدًا له بال، وجدنا نُفَيرًا فأصبناهم، ثم دخلنا العسكر، والقوم غارون ينتهبون العسكر، فأقحمنا الخيل عليهم فتطايروا في كل وجه، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا.

وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج فلا أرى أحدًا، قد هربوا، فما كان حلْبُ ناقة حتى تداعت الأنصار بينها، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان، فصبروا لنا، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسي وترجَّلت، فقتلت منهم عشرة، ولقيت من رجل

(١) يعني: بعدما أسلم.
(٢) أي: في حصونهم.
(٣) أي: سبقت لنا الإصابة على يد المسلمين، فنحن نأخذ بالثأر، ومن كان كذلك يكون أقوى في القتال.
(٤) أي: النساء.
(٥) المراد بالكراع هنا: الخيل.

منهم الموت النافع حتى وجدت ريح الدم، وهو معانقي، ما يفارقني حتى أخذتْهُ الرماح من كل ناحية ووقع، فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي ولم يُهنِّي بأيديهم(١).

هذا الخبر فيه وصف لحال المسلمين مع أعدائهم من بداية المعركة حتى حصلت الإصابة على المسلمين.

وفيه ثناء واضح على الأنصار رضي الله عنهم بالشجاعة والثبات من رجل كان مع الكافرين وأثخن في المسلمين بعد إصابتهم، ثم هداه الله تعالى للإسلام، فسجل في هذا الخبر موقف المسلمين الثابت، وخاصة الأنصار منهم الذين كانوا مقصد الكفار بعد رسول الله ﷺ؛ لكون الأنصار هم أكثر من قتل المشركين يوم بدر.

وكون المسلمين يثبتون وهم مشاة لأعدائهم وهم فرسان مع تفوق المشركين كثيراً في العدد يبين لنا شجاعة المسلمين العالية وإقدامهم على بذل أرواحهم في سبيل الله تعالى.

ونجد في نهاية الخبر شعور المسلم الموقن؛ حيث يحمد ضرار بن الخطاب ربه تعالى على أن أبقاه حيًّا حتى دخل في الإسلام، وحيث عبر عن قتل الشهداء بأنه إكرام من الله تعالى لهم وعن قتل الكفار بأنه إهانة منه تعالى لهم.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.

مثل من شجاعة النبي ﷺ ومعجزة ظاهرة
(مقتل أبي بن خلف)

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى:

فحدَّثني يونس بن محمد الظفري، عن عاصم بن عمر، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: كان أُبَيُّ بن خلف قدم في فداء ابنه، وكان أُسر يوم بدر، فقال: يا محمد، إن عندي فرسًا لي أعلفها فرقًا[1] من ذرة كل يوم، أقتلك عليها، فقال رسول الله ﷺ: «**بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله**»، ويقال: قال ذلك بمكة، فبلغ رسول الله ﷺ كلمته بالمدينة، فقال: «**أنا أقتله عليها إن شاء الله**».

قالوا: وكان رسول الله ﷺ في القتال لا يلتفت وراءه، فكان يقول لأصحابه: «**إني أخشى أن يأتي أُبيٌّ بن خلف من خلفي، فإذا رأيتموه فآذنوني به**». فإذا بأُبي يركض على فرسه، وقد رأى رسول الله ﷺ، فعرفه، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله، ما كنت صانعًا حين يغشاك! فقد جاءك، وإن شئت عطف عليه بعضنا، فأبى رسول الله ﷺ.

ودنا أُبي، فتناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمة، ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير، فتطايرنا عنه تطاير الشعارير[2]، ولم يكن أحد يشبه رسول الله ﷺ إذا جدَّ الجدُّ، ثم أخذ الحربة فطعنه رسول الله ﷺ بالحربة في عنقه وهو على فرسه[3]، فجعل يخور كما يخور الثور.

ويقول له أصحابه: أبا عامر، والله ما بك بأس، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضرَّه. قال: واللات والعزى، لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون! أليس قال: «لأقتلنك»؟، فاحتملوه وشغلهم ذلك عن طلب النبي ﷺ، ولحق رسول الله ﷺ بعُظْم أصحابه في الشِّعب، ويقال: تناول الحربة من الزبير بن العوام[4].

(١) الفرق: مكيال بقدر ستة عشر رطلاً.

(٢) في رواية ابن إسحاق: الشَّعراء، قال ابن هشام: الشَّعراء: ذباب له لدغ.

(٣) جاء في رواية الزهري عند البيهقي: «وأبصر رسول الله ﷺ تُرقوة أبيِّ بن خلف من فرجة بين سابغة البيضة والدرع، فطعنه بحربته، فوقع أُبيٌّ عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم».

(٤) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥١، ٢٥٢.

وأخرجه ابن إسحاق بأخصر من هذا، وذكر شعرًا لحسان بن ثابت يوبِّخُ فيه أبيَّ بن خلف ويشيد بموقف النبي ﷺ في قتله إياه، ومن ذلك قوله:

ألا من مبلغ عني أُبيًّا ... لقد ألقيتَ في سحق السعير
تمنَّى بالضلالة من بعيد ... وتُقسم إن قدرت مع النذور
تَمنِّيك الأماني من بعيد ... وقول الكفر يرجع في غرور
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظ[1] ... كريم البيت ليس بذي فجور
له فضل على الأحياء طُرًّا ... إذا نابت ملمَّات الأمور[2]

وذكر هذا الخبر الإمام البيهقي من روايته عن الإمام الزهري من حديث سعيد بن المسيب، وعن أبي الأسود من رواية عروة بن الزبير رضي الله عنه[3].

في هذا الخبر مثلٌ من شجاعة النبي ﷺ الفائقة؛ فقد أقبل عليه أبيٌّ بن خلف وهو فارس ومدجَّج بالسلاح، وصار يتوعده بالقتل، فتصدَّى له النبي ﷺ ولم يقبل من أصحابه أن يكفوه أمره، ولقد كان متدرعًا بالحديد الواقي من السلاح، ولكن النبي ﷺ استطاع أن يطعنه بالرمح من فُرجة صغيرة في عنقه بين الدرع والبيضة، ومثل هذه الفجوات عادة لا تتم إصابتها إلا عن قرب وفي حال غفلة ممن وجهت إليه، ولذلك لا يهتم بها المقاتلون.

وفي هذا الخبر معجزة للنبي ﷺ؛ حيث قال لأُبي قبل ذلك بزمن حينما توعده: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**»، فتم ذلك بمشيئة الله تعالى.

وفي الخبر عبرة في إيمان المشركين بأن النبي ﷺ إذا قال شيئًا وقع، فقد كان أُبي بن خلف على يقين بأنه سيموت من تلك الطعنة الخفيفة؛ لقول النبي ﷺ السابق، ومع ذلك لم ينفعهم ذلك في الإيمان به والدخول في الإسلام؛ لأنهم كانوا يعبدون أهواءهم.

(١) أي: أنفةٌ وترفُّع عن الدنايا.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٥- ٣٨.
(٣) دلائل النبوة، للبيهقي: ٣/ ٢٠٦- ٢١٠، ٢٥٨، ٢٥٩.

من مواقف سعد بن أبي وقاص الجهادية

١ - أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أُحد تنحيتُ، فقلت: أذود عن نفسي؛ فإما أن أستشهد وإما أن أنجو حتى ألقى رسول الله ﷺ.

فبينما أنا كذلك إذا رجل مخمِّر وجهه ما أدري من هو، فأقبل المشركون حتى قلت قد ركبوه، فملأ يده من الحصى، ثم رمى به في وجوههم فنُكبوا على أعقابهم القهقري حتى يأتوا الجبل، ففعل ذلك مرارًا، ولا أدري من هو، وبيني وبينه المقداد بن الأسود، فبينما أنا أريد أن أسأل المقداد عنه؛ إذ قال المقداد: يا سعد، هذا رسول الله ﷺ يدعوك. فقلت: وأين هو؟ فأشار لي المقداد إليه، فقمت ولكأنه لم يصبني شيء من الأذى، فقال رسول الله ﷺ: «**أين كنت اليوم يا سعد؟**»، فقلت: حيث رأيت يا رسول الله. فأجلسني أمامه، فجعلت أرمي وأقول: اللهم سهمك فارم به عدوك، ورسول الله ﷺ يقول: «**اللهم استجب لسعد، اللهم سدِّد لسعد رميته، إيهًا يا سعدُ**»(١)، حتى إذا فرغت من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما في كنانته فنبَّلني سهما نضيًا، قال: وهو الذي قد ريْشَ وكان أشد من غيره.

قال الزهري: إن السهام التي رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، وأقره الذهبي(٢).

في هذا الخبر معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ؛ حيث كان يأخذ الحصى فيرمي به المشركين، فيتحول إلى أسلحة فتَّاكة لا تبقي أحدًا منهم ثابتًا في مكانه.

وفي هذا الخبر موقفان لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

الأول: في حبه العظيم لرسول الله ﷺ؛ حيث زال عنه كل ما يجد من الغم والحزن لما رأى النبي ﷺ سالمًا، وتجدَّدت له طاقة عالية وحماس قوي نحو الجهاد.

---

(١) يعني: زد يا سعد، وهي كلمة يُعبَّر بها عن الرضى.

(٢) المستدرك: ٣/ ٢٦.

الثاني: في إسهامه الكبير في رماية الأعداء، وسلاح الرماية أمضى في العدو من سلاح المواجهة، خصوصًا إذا كان الرمي من رامٍ ماهر؛ كسعد رضي الله عنه، وإنه لجهدٌ كبيرٌ أن يرمي فرد واحد بألف سهم في بعضِ يوم.

ولقد حاز سعد على شرف دعاء النبي ﷺ له بتسديد رميته وإجابة دعوته، فكان بعد ذلك مشهوراً بدقة الإصابة في الرمي وإجابة الدعاء، كما حاز على شرف فداء النبي ﷺ إياه بأبيه وأمه، وقد أخرج الإمام البخاري خبر ذلك عن سعد رضي الله عنه قال: نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، فقال: «**ارم فداك أبي وأمي**»(١).

٢- قال الواقدي في سياق روايته عن شيوخه:

وجعل رسول الله ﷺ يومئذ يُذمِّر الناس ويحضهم على القتال، وكان رجال من المشركين قد أذلقوا المسلمين بالرمي؛ منهم حبَّان بن العَرقة، وأبو أسامة الجشمي، فجعل النبي ﷺ يقول لسعد بن أبي وقاص: «**ارم، فداك أبي وأمي!**»، ورمى حبان بن العرقة بسهم فأصاب ذيل أم أيمن -وجاءت يومئذ تسقي الجرحى- فقلبها وانكشف ذيلها عنها، فاستغرب في الضحك؛ فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد ابن أبي وقاص سهمًا لا نصل له، فقال: ارم! فوقع السهم في ثغرة نحر حبان، فوقع مستلقيًا وبدت عورته.

قال سعد: فرأيت رسول الله ﷺ ضحك يومئذ حتى بدت نواجذُه، ثم قال: «**استقاد لها سعد؛ أجاب الله دعوتك وسدَّد رميتك!**» ورُمي يومئذ مالك بن زهير الجشمي أخو أبي أسامة الجشمي، وكان هو وحبان بن العرقة قد أسرعا في أصحاب رسول الله ﷺ وأكثرا فيهم القتل بالنبل، يتستران بالصخر ويرميان المسلمين، فبيناهم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقاص مالك بن زهير وراء صخرة، قد رمى وأطلع رأسه، فيرميه سعد فأصاب السهم عينه حتى خرج من قفاه، فنزا في السماء قامة ثم رجع فسقط، فقتله الله عز وجل(٢).

وهذا الخبر يدل على دقة سعد في الرماية وجودته في إصابة الهدف، وقد أراح المسلمين من اثنين من رماة الكفار كانَا قد أضرَّا بالمسلمين، فكم هي الجهود الكبيرة التي بذلها سعد لرسول الله ﷺ والمؤمنين في تلك المعركة!!

---

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٥٨، رقم: ٤٠٥٥.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤١.

ولقد كان لسعد شرف القيام بإهباط المشركين من الجبل بالرماية الهادفة المسدَّدة، كما ذكر الأموي في مغازيه أن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «**اردُدهم**». فقال: كيف أردهم وحدي؟ فقال ذلك ثلاثًا، فأخذ سعد سهما من كنانته، فرمى به رجلاً فقتله، قال: ثم أخذتُ سهمي أعرفه، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم(١).

وقوله: «ثم أخذت سهمي أعرفه» يفسره ما جاء في رواية أخرجها الواقدي بإسناده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لقد رأيتني أرمي بالسهم يومئذ فيرده عليَّ رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعدُ فظننت أنه مَلَك(٢).

قال ابن إسحاق: فحدثني صالح بن كيسان عمَّن حدثه عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقول: والله ما حرصت على قتل رجل قط كحرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمت لسيِّء الخلق مبغَضًا في قومه، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ: «**اشتدَّ غضب الله على من دمَّى وجه رسوله**»(٣).

في هذا الخبر موقفٌ إيماني لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ببراءته من أهل الشرك وإن كانوا من أقرب الناس إليه، فقد حرص على قتل أخيه عتبة؛ لإصابته رسول الله ﷺ، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يلغون عامل القرابة إذا تعارض مع الدين، وهذا دليلٌ على قوة إيمانهم.

*****

---

(١) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد: ٤/ ٢١١.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٤.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٨.

موقف جهادي لأبي طلحة

أخرج الإمامان البخاري ومسلم واللفظ من حديث أنس بن مالك، قال: لما كان يوم أُحد انهزم ناس من الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجَوِّب عليه بحجفة(١) قال: وكان أبو طلحة رجلاً راميًا شديد النزع(٢)، وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، قال: فكان الرجل يمرُّ معه الجعبة(٣) من النبل، فيقول: انثرها لأبي طلحة.

قال: ويشرف نبي الله ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي لا تشرف لا يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما(٤) تنقلان القرب على متونهما(٥)، ثم تفرغانه في أفواههم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة؛ إما مرَّتين وإما ثلاثًا من النعاس(٦).

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه كان يرمي بين يدي رسول الله ﷺ يوم أُحد، والنبي ﷺ خلفه يتترس به(٧)، وكان راميًا، وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه، ويرفع أبو طلحة صدره، ويقول: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك. وكان أبو طلحة يسوق نفسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويقول: إني جلد(٨) يا رسول الله، ألا فوجِّهني في حوائجك ومُرني بما شئت.

وأخرج عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة**»، قال: وكان يجثو بين يديه في الحرب، ثم ينثر كنانته(٩)، ويقول: وجهي لوجهك الوِقاء ونفسي لنفسك الفداء(١٠).

---

(١) مجوِّب عليه بحجفة: أي مترس عنه؛ ليقيه سلاح الكفار، وأصل التجويب الإتقاء بالجوب؛ كثوب، وهو الترس.

(٢) شديد النزع: أي شديد الرمي بالسِّهام. (٣) الجعبة: هي الكنانة التي تجعل فيها السهام.

(٤) خدم سوقهما: الواحدة خدمة، وهي الخلخال، والسوق جمع ساق.

(٥) على متونهما: أي على ظهورهما، وهذه التعليقات عن هامش صحيح مسلم.

(٦) صحيح البخاري: المغازي، رقم: ٤٠٦٤، الفتح: ٧/ ٣٦١، صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٨١١، ١٤٤٣.

(٧) أي: يحتمي به. (٨) بفتح الجيم وسكون اللام: أي قويٌّ صلب.

(٩) أي: جعبة السهام. (١٠) الفتح الرباني: ٢٢/ ٣٨٨، ٣٨٩.

تبين لنا من هذه الأخبار شيء من مواقف أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري النجاري الخزرجي، وقد تبين من مظاهر خبرته الحربية مهارته في الرمي، وجهوده الكبيرة في الدفاع عن النبي ﷺ والإثخان في الكفار بسلاح الرماية، كما أنه كان جهير الصوت، ويُرعب الأعداء بصوته؛ مما جعل النبي ﷺ يعدُّه بصوته المرعب عن فئة من الجيش.

هذا إضافة إلى ما قام به من وقاية النبي ﷺ بنفسه؛ حيث جعل من جسده ترسًا له دون سلاح الأعداء.

*****

موقف جهادي لعمارة بن زياد وعدد من الأنصار

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: وقالوا: إن رسول الله ﷺ لمَّا لحمه القتالُ، وخُلص إليه، وذبَّ عنه مصعب بن عمير وأبو دجانة حتى كثرت به الجراحة، جعل رسول الله ﷺ يقول: «**من رجلٌ يَشري نفسه؟**»، فوثب فئة من الأنصار خمسةٌ، منهم عمارة بن زياد بن السكن، فقاتل حتى أُثبت، وفاءت فئةٌ من المسلمين فقاتلوا حتى أجهضوا أعداء الله، فقال رسول الله ﷺ لعمارة بن زياد: «**ادْنُ مني! إليَّ، إليَّ**» حتى وسَّده رسول الله ﷺ قدمه -وبه أربعة عشر جرحًا- حتى مات(١).

في هذا الخبر موقف لعمارة بن زياد بن السكن الأنصاري الأشهلي وعدد من الأنصار رضي الله عنهم في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه في موقف من أشد المواقف، حاز فيه عمارة شرف الشهادة بعد أن أبلى بلاءً حسنًا هو وأصحابه رضي الله عنهم.

*****

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤١، وقد ذكره ابن الأثير من رواية ابن إسحاق، ولكن فيه تردُّد في صاحب القصة، هل هو عمارة بن زياد أو أبوه زياد، أسد الغابة: ٤/ ٤٩ .

موقف لسهل بن حنيف

أخرج أبو عبد الله الحاكم من طريق الواقدي بإسناده عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: وشهد سهل بن حنيف بدرًا وأُحدًا، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين انكشف الناس وبايعه على الموت، وجعل ينضح يومئذ بالنبل عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: «**نبِّلوا سهلاً فإنه سهل**»(١).

في هذا الخبر موقف جهادي لسهل بن حنيف رضي الله عنه؛ حيث كان من الذين ثبتوا مع النبي ﷺ وبايعوه على الموت في حال إصابة المسلمين وتفرقهم، وقد كان من الرماة المشهورين، فبذل طاقة كبيرة في الرماية؛ حماية لرسول الله ﷺ ودفاعًا عنه.

*****

(١) المستدرك: ٣/ ٤٠٩.

موقف لشَمَّاس بن عثمان المخزومي[1]

قال الواقدي في سياق رواية له: قال رسول الله ﷺ: «**ما وجدتُ لشَمَّاس بن عُثمان شبهًا إلا الجُنَّة**»[2]؛ يعني مما يُقاتل عن رسول الله ﷺ يومئذ، وكان رسول الله ﷺ لا يرمي[3]، يمينًا ولا شمالاً إلا رأى شماسًا في ذلك الوجه يذبُّ بسيفه، حتى غُشي رسول الله ﷺ[4]، فترَّس بنفسه دونه حتى قُتل، فذلك قول النبي ﷺ: «**ما وجدت لشماس شبهًا إلا الجُنَّة**»[5].

وهكذا حوَّل شماس بن عثمان المخزومي جسمه إلى ترس يقي به رسول الله ﷺ من سلاح الأعداء إلى جانب الدفاع عنه بسيفه، حتى إذا غُشي رسول الله ﷺ ترَّس بنفسه دونه حتى استشهد رضي الله عنه.

وفي هذا الخبر وأمثاله نستشف مثلاً من أمثلة العظمة؛ حيث تذوب الأجسام في مراد العقول السليمة، يتمثل بالطموح العالي نحو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة، فيتعرض أولو الألباب لمواطن الشهادة التي فيها رجاء الوصول السريع لتحقيق ذلك الهدف العالي.

*****

---

(١) هو: شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي القرشي، من المهاجرين الأولين.

(٢) الجنة بضم الجيم: الوقاية، شبَّهه بالمجنِّ الذي يُتقى به من السلاح.

(٣) أي: لا يرمي ببصره.

(٤) أي: أحاط به الكفار.

(٥) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥٧، وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمته: ٢/ ١٥٢، رقم: ٣٩١٩، من رواية الزبير بن بكار.

مواقف جهادية لأبي دجانة

١ - قال الواقدي في سياق رواية له: وكان كعب بن مالك يقول: أصابني الجراح يوم أُحد، فلما رأيت مَثْل المشركين بقتلى المسلمين أشدَّ المثل وأقبحه، قمت فتجاوزت عن القتلى حتى تنحيت.

قال كعب: وإذا رجلٌ من المشركين جامع اللأمة[١] يصيح: استوسقوا كما يستوسق جُرْب الغنم، وإذا رجلٌ من المسلمين عليه لأمته، فمشيتُ حتى كنت من ورائه؛ ثم قمت أُقدِّر المسلم والكافر ببصري، فإذا الكافر أكثرهما عُدَّة وأُهْبَة، فلم أزل أنظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقة بالسيف، فمضى السيف حتى بلغ وركيه، وتفرق المشرك فرقتين، وكشف المسلم عن وجهه، فقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دُجانة[٢].

هذا الخبر يبين شجاعة أبي دجانة رضي الله عنه وقوة بدنه، فإنه استطاع التغلب على ذلك الكافر الذي هو أكمل منه في السلاح المادي، ولقد ظهرت قوة أبي دجانة في تلك الضربة القاصمة التي قطع بها الدرع وقسم جسد ذلك الكافر إلى قسمين.

٢ - قال الواقدي في سياق رواية له: ويُقبل عبد الله بن حميد بن زهير حين رأى رسول الله ﷺ على تلك الحال، يَركُض فرسه مُقنَّعًا في الحديد يقول: أنا ابن زُهيْر، دُلُّوني على محمد، فوالله لأقتلنَّه أو لأموتنَّ دونه! فتعرض له أبو دجانة، فقال: هلمَّ إلى من يَقي نفس محمد بنفسه! فضرب فرسه فعرقبها فاكتسعت الفرس، ثم علاه بالسيف، وهو يقول: خُذها وأنا ابن خَرَشة! ورسول الله ﷺ ينظر إليه يقول: «**اللَّهم ارْض عن ابن خَرَشة كما أنا عنه راضٍ**»[٣].

في هذا الخبر موقف جليل لأبي دجانة رضي الله عنه في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه؛ فقد تصدى لابن زهير الذي جعل هدفه الأول قتل النبي ﷺ وقام بعدة محاولات أصابه في بعضها بجراح، فوقف له البطل العظيم أبو دجانة مظهرًا له أن الوصول إلى رسول الله ﷺ دونه خَرْط القتاد؛ حيث إن كل من حوله يفدونه بأرواحهم.

---

(١) أي: مكتمل العدة الحربية.
(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٦٠.
(٣) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤٦.

وإذا كان ابن زهير يفادي بنفسه في محاولة قتل النبي ﷺ؛ ليعظُم ذكرُه في قومه وينال المجد الدنيوي فإن من حول النبي ﷺ وعلى رأسهم أبو دجانة يفدونه بأرواحهم؛ لا طمعًا في ذكر دنيوي، وإنما برجاء بلوغ رضوان الله -تعالى- والأجر الأخروي، ولن تكون تضحية من يريد الذكر الدنيوي كتضحية من يريد الذكر الأخروي؛ لأن من أراد الدنيا فإنه إنما يضحي ببعض طاقته ويستبقي طاقة أعظم للدفاع عن نفسه حتى يستمتع بالذكر الدنيوي، أما رُوَّاد الذكر الأخروي فإنهم يبذلون كل طاقتهم في خدمة أهدافهم النبيلة؛ لأنهم يعتقدون أن حصولهم على الشهادة هو أقرب وأسمى طريق؛ لبلوغ الذكر الأخروي، فلذلك استطاع أبو دجانة أن يتغلَّب بسهولة وهو راجل على ابن زهير وهو فارس، وأن يلقن أصحابه من الكفار درسًا لن ينسوه ما بقوا على قيد الحياة.

هذا وقد سبق ذكر بعض مواقف أبي دجانة الجهادية بمناسبة إعطاء النبي ﷺ سيفه له.

*****

موقف في الثبات والتضحية من سعد بن الربيع

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحد؛ لطلب سعد بن الربيع، قال: «**إن رأيتَه فأقْرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟**» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول: أخبرني كيف تجدك؟ قال: على رسول الله السلام، قل له: يا رسول الله، أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عُذر لكم أن يُخْلَص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفْرٌ يطْرُف[1]، قال: وفاضت نفسه رحمه الله.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، وأقره الذهبي[2].

وأخرجه الحافظ أبو يعلى من حديث عمرو بن يحيى المازني، وذكر نحوه[3].

وأخرجه محمد بن إسحاق وذكر نحوه[4].

في هذا الخبر موقف جليل في الثبات والتضحية يقدِّمه علَم من أعلام الأنصار وأحد نقبائهم في بيعة العقبة، سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي، فقد ثبت رضي الله عنه في ميدان المعركة، وكان ممن واجهوا هجوم الأعداء الأخير حتى استشهد رضي الله عنه.

وإن ما في هذا الخبر من إصابته بسبعين إصابة؛ ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم يدل على قوة احتماله، وأنه كان يقارع القوم وهو مثخن بالجراح حتى سقط على الأرض، ولقد ظلَّ اهتمامه بالنبي ﷺ حتى فاضت روحه مذكِّرًا قومَه بوجوب فداء النبي ﷺ بأرواحهم، وأنهم لا عذر لهم إن وصل إليه الأعداء وفيهم رجل على قيد الحياة.

*****

(١) أي: عين تبصر.
(٢) المستدرك: ٣/ ٢٠١.
(٣) المطالب العالية: ٤/ ٢٢٠، رقم: ٤٣١٧.
(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٠.

موقف ثبات لثابت بن الدحداحة وجماعة من الأنصار

أخرج الواقدي من حديث الحارث بن الفُضَيل الخَطْمي، قال: أقبل ثابت بن الدَّحداحة يومئذ والمسلمون أوزاعٌ قد سُقط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشر الأنصار، إليَّ! إليَّ! أنا ثابت بن الدَّحداحة، إن كان محمد قد قُتل فإن الله حي لا يموت! فقاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم! فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين، وقد وقفت لهم كتيبة خشْناء، فيها رؤساؤهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، فجعلوا يناوشونهم، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح، فطعنه فأنفذه فوقع ميتًا، وقُتل من كان معه من الأنصار.

فيقال: إنَّ هؤلاء لآخرُ من قتل من المسلمين، ووصل رسول الله ﷺ إلى الشِّعْب مع أصحابه فلم يكن هناك قتال[1].

هذا الخبر يبين لنا مشهداً من مشاهد ثبات الأنصار رضي الله عنهم يوم أحد، فقد دعاهم ثابت بن الدَّحداحة[2] إلى الثبات وقتال الأعداء، وكان في حال من اليقين والبصيرة حينما لم يُثنه عن القتال ما أُشيع من مقتل رسول الله ﷺ؛ حيث أبان لقومه أن الجهاد ماضٍ لإعلاء كلمة الله تعالى، وقد استجاب له جماعة من قومه، فقاتلوا الكفار بقوة وضراوة حتى سقطوا جميعًا شهداء رضي الله عنهم.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٨١ .

(٢) هو: ثابت بن الدَّحداحة البلَوي الأنصاري حليف بني عمرو بن عوف من الأنصار .

مواقف لثلاثة من الأنصار في الثبات

قال الواقدي في سياق رواية له: وكان عباس بن عبادة بن نضلة[1]، وخارجة بن زيد بن أبي زهير[2]، وأوس بن أرقم بن زيد[3]، وعباس رافعٌ صوته يقول: يا معشر المسلمين اللهَ الله في نبيكم! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم، وعدكم النصر فما صبرتم! ثم نزع مغْفره عن رأسه وخلع درعه، فقال لخارجة بن زيد: هل لك في درعي ومغفري؟ قال خارجة: لا، أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم جميعًا، وعباس يقول: ما عذرنا عند ربنا إن أصيب رسولُ الله ومنا عينٌ تطرف؟ يقول خارجة: لا عُذر لنا عند ربنا ولا حجة.

فأما عباس: فقتله سفيان بن عبد شمس السُّلمي، ولقد ضربه عباس ضربتين فجرحه جرحين عظيمين، فارتُثَّ يومئذ جريحًا، فمكث جريحًا سنة ثم استبلَّ، وأخذت خارجة بن زيد الرماح فجرح بضعة عشر جرحًا، فمرَّ به صفوان بن أمية فعرفه، فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رَمَقٌ! فأجهز عليه، وقُتل أوْس بن أرقم[4].

فهؤلاء الأنصار الثلاثة الخزرجيُّون ثبتوا في حال إصابة المسلمين حتى استشهدوا رضي الله عنهم.

ولقد نادى عباس بن نضلة قومه وحثَّهم على الثبات وذكَّرهم بوعد رسول الله ﷺ لهم بالنصر إذا صبروا، ولكن أكثر الرماة لم يصبروا وخالفوا أمره، فأصيب المسلمون بسبب مخالفتهم، وحثَّهم على بذل الطاقة في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه.

ولقد قام بعمل فدائي مرعب للأعداء عادة، وهو نزع الدرع والمغفر مما يشعر بطلب الشهادة، وقد عرض درعه ومغفره على خارجة بن زيد، فلم يقبلهما؛ لأنه أيضًا يريد الشهادة.

وهكذا ضرب هؤلاء الأنصار مثلاً عاليًا في الثبات والتضحية؛ حيث جعلوا من أنفسهم -هم وأمثالهم- حواجز بشرية قوية حالت دون تكاثف الأعداء على رسول الله ﷺ، كما أنهم بثباتهم وإشغالهم الأعداء بالجلاد القوي المتواصل لم يمكِّنوا الأعداء من ملاحقة المسلمين الذين انحازوا إلى جبل أُحد.

---

(١) هو: العباس بن عبادة بن نضلة الخزرجي الأنصاري، من أصحاب العقبة، الإصابة: ٢/ ٢٦٢، رقم: ٤٥٠٦.

(٢) هو: خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي الأنصاري، الإصابة: ١/ ٣٩٩، رقم: ٢١٣٥.

(٣) هو: أوس بن الأرقم بن زيد الخزرجي الأنصاري، الإصابة: ١/ ٩١، رقم: ٣١٢.

(٤) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥٨.

قال ابن إسحاق: فبينا رسول الله ﷺ بالشِّعب، معه أولئك النَّفر من أصحابه؛ إذ علت عالية من قريش الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا**»، فقاتل عمرُ بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل[1].

هذا الخبر حكاية عن بعض ما جرى على المسلمين بعد توقف المعركة، وقد كان سبب توقفها اعتصام المسلمين بجبل أحد؛ حيث لا يستطيع المشركون الوصول إليهم بخيولهم، ولا يتمكنون من قتالهم وهم مشاة؛ لتفوق المسلمين في الكفاءة القتالية، ولكون المسلمين أعلى منهم في المكان، ففكَّر بعض المشركين في صعود جبل أحد من الخلف؛ ليكونوا أعلى من المسلمين، فيتمكنوا منهم، فدعا رسول الله ﷺ ربه ألا يمكنهم من الإشراف عليهم، فانتدب لقتالهم عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين رضي الله عنهم، فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل.

وإذا تصورنا أن المشركين كانوا أعلى من المسلمين فإن قتالهم في غاية الصعوبة، ومع ذلك أقدم عليه عمر ومن ساعده من المهاجرين، وهذا دليل على عُلو كفاءة المسلمين القتالية، واجتهادهم في بذل طاقتهم في الجهاد.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٩.

موقف ثبات وتضحية لأنس بن النضر

أخرج الإمامان البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمه غاب عن بدر، فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرين ما أجدُّ، فلقي يوم أحد فهُزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دُون أحد، فمضى فقُتل، فما عُرف حتى عرفته أخته بشامة -أو ببنانه- وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم[1].

في هذا الخبر بيان موقف في الثبات والتضحية لأنس بن النضر الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه؛ حيث ثبت في ميدان المعركة وتلقى هجوم الأعداء العنيف بعد كرَّتهم.

ولقد ظل يقاوم مع إصابته ببضع وثمانين؛ ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم حتى سقط على الأرض، وهذا يدل على قوة احتماله وصبره الشديد.

وفي قوله: «إني أجد ريح الجنَّة دون أحد»، قال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يكون ذلك على الحقيقة بأن يكون شم رائحة طيبة زائدة عما يعهد فعرف أنها ريح الجنة، ويحتمل أن يكون أطلق ذلك باعتبار ما عنده من اليقين حتى كأن الغائب عنه صار محسوسًا عنده، والمعنى أن الموضع الذي أقاتل فيه يؤول بصاحبه إلى الجنة[2].

*****

---

(١) صحيح البخاري، المغازي، ٧/ ٣٥٤، رقم: ٤٠٤٨، صحيح مسلم، الإمارة، رقم: ١٩٠٣، ص: ١٥١٢، وانظر سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٣، ٣٤.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٥٥.

أخرج الإمام البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: وأشرف أبو سفيان، فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابنُ الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمرُ نفسه، فقال: كذبتَ يا عدوَّ الله، أبقى اللهُ عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال قولوا: «**اللهُ أعلى وأجل**»، قال أبو سفيان: لنا العُزى ولا عزَّى لكم.

فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مُثلة لم آمر بها ولم تَسُؤْني(١).

وقوله: «فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله» جاء في رواية ابن عباس -رضي الله عنهما-: «فقال عمر: ألا أجيبه؟ قال: بلى»، ذكره الحافظ ابن حجر وقال: وكأنه نهى عن إجابته، في الأولى، وأذن له في الثالثة.

وقوله: «في الثالثة»، يعني أن أبا سفيان كرَّر قوله ثلاث مرات، كما ذكر الحافظ ابن حجر عند قوله «فقال: أفي القوم محمد؟»: زاد زهير ثلاث مرات في المواضع الثلاثة(٢).

وهذا يعني أن عمر سكت في المرتين الأوليين، ثم استأذن النبي ﷺ في إجابته بعد الثالثة فأذن له، وهذا هو المظنون بعمر رضي الله عنه أنه لا يتجاوز أمر النبي ﷺ.

ولقد كان النبي ﷺ حينما أمر الصحابة بعدم إجابة أبي سفيان يراعي الإبقاء على المسلمين وعدم تعريضهم لاستئناف المعركة بعد توقفها وهم مثخنون بالجراح، فإذا سكت المسلمون فإن أبا سفيان وقومه يفهمون من ذلك عدم وجود النبي ﷺ وصاحبيه،

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٤٩، رقم: ٤٠٤٣.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٥٢.

وأبو سفيان قد عدَّ أن ذهاب هؤلاء الثلاثة يعني ذهاب الإسلام وانتهاء دولته، وفي هذا مزية كبرى لعظيمي الإسلام بعد رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

لكن عمر لاحظ إظهار عزة المسلمين وإغاظة الكافرين وإن ترتب على ذلك استئناف المعركة، وقد وافقه النبي ﷺ على إجابة المشركين بعد النداء الثالث لأبي سفيان، وفي ذلك جمعٌ بين المقصدين؛ مقصد الإبقاء على المسلمين؛ حيث إن المشركين سيخالجهم الشك في بقاء النبي ﷺ على قيد الحياة؛ لسكوت المسلمين في النداء الأول والثاني، وسيقوم عندهم احتمال أن عمر أجاب في الثالثة لهدف سياسي، خصوصًا وقد سمعوا النداء بموت النبي ﷺ وأخبرهم بذلك ابن قمئة، والرسول ﷺ هو هدفهم الأول، والمقصد الثاني: إظهار عزة المسلمين وإغاظة الكافرين، وقد تحقَّق ذلك بتأكيد المشركين من سلامة عمر واحتمال سلامة النبي ﷺ وأبي بكر بشكل ظاهر لإخبار عمر بذلك.

ونجد في هذا الحوار الفرق الشاسع بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم الجاهلية، فأبو سفيان يعتزُّ بكبير أصنامهم هبل، والمسلمون يعتزون بالله عز وجل، والمشركون يعلنون ولاءهم لصنم آخر كبير من أصنامهم وهو العزَّى، ويطلبون منه قضاء حوائجهم والمسلمون يتولون الله تعالى ويطلبون منه وحده قضاء حوائجهم.

*****

١- قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «**قُل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد**».

ثم بعث رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب، فقال: «**اخرُج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنهم**»، قال عليٌّ: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكة(١).

في هذا الخبر موقف من مواقف الشجاعة لرسول الله ﷺ؛ حيث هدد بقتال المشركين في المدينة مع ما به وأصحابه من الجراح الشديدة.

٢- قال الواقدي في سياق رواية له: وكان أبو سعيد الخدري يحدِّث أن رسول الله ﷺ أصيب وجهُه يوم أحد، فدخلت الحلقتان مع المغفر في وجنتيه، فلما نُزعتا جعل الدم يسرب كما يسرب الشَّن(٢)، فجعل مالك بن سنان يملُج الدم بفيه ثم ازْدَرده، فقال رسول الله ﷺ: «**من أحبَّ أن ينظر إلى من خالط دمه دمي فلينظر إلى مالك بن سنان**»، فقيل لمالك: تشرب الدم؟ فقال: نعم أشرب دم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**من مسَّ دمه دمي، لم تصبه النار**»، قال أبو سعيد: فكنا ممن رُدَّ من الشيخين(٣)، لم نُجزَ مع المُقاتلة، فلمَّا كان من النهار وبلغَنا مصابُ رسول الله ﷺ وتفرُّق الناس عنه، جئت مع غلمان من بني خُدرة نعترض لرسول الله ﷺ وننظر إلى سلامته فنرجع بذلك إلى أهلنا، فلقينا الناس مُنصرفين ببطن قناة، فلم يكن لنا همَّة إلا النبي ﷺ ننظر إليه، فلمَّا نظر إليَّ قال: «**سعد بن مالك؟**» قلت: نعم، بأبي وأمي! فدنوت منه، فقبَّلت ركبته وهو على فرسه، ثم قال: «**آجرك الله في أبيك**». ثم نظرت إلى وجهه فإذا في وجنَتيه موضع الدرهم في كل وَجنة، وإذا شجَّة في جبهته عند أصول الشعر، وإذا شفته السفلى تَدْمَى، وإذا رَباعيته اليمني شَظية، فإذا على جرحه شيء أسود.

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٩.
(٢) أي: القربة القديمة.
(٣) هو المكان الذي عرض فيه النبي ﷺ جيشه وردَّ فيه الغلمان الذين لم يبلغوا، كما سبق.

فسألت: ما هذا على وجهه؟ فقالو: حصيرٌ مُحرَّق، وسألت: مَن دمى وجنتَيه؟ فقيل: ابن قَمئة، فقلت: من شجه في جبهته؟ فقيل: ابن شهاب، فقلت: من أصاب شفته؟ فقيل: عُتبة.

فجعلت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه، فما نزل إلا حمْلاً، وأرى ركبتيه مجحوشتين، يتكئ على السعدين؛ سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، حتى دخل بيته، فلما غَربت الشمس وأذَّن بلال بالصلاة خرج رسول الله ﷺ على مثل تلك الحال يتوكأ على السعدين، ثم انصرف إلى بيته، والناس في المسجد يوقدون النيران يُكمِّدون بها الجراح.

ثم أذَّن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق، فلم يخرج رسول الله ﷺ وجلس بلالٌ عند بابه حتى ذهب ثُلثُ الليل: ثم ناداه الصلاة، يا رسول الله! فخرج رسول الله ﷺ وقد كان نائمًا، قال: فرمقته فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل بيته، فصليت معه العشاء، ثم رجع إلى بيته، وقد صُفَّ له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه، يمشي وحده حتى دخل، ورجعت إلى أهلي فخبَّرتهم بسلامة رسول الله ﷺ، فحمدوا الله على ذلك وناموا، وكانت وجوه الخزرج والأوس في المسجد على باب النبي ﷺ يحرسونه؛ فرقًا من قريش أن تكرّ(١).

في هذا الخبر بيان ما كان عليه غلمان الصحابة من حب عظيم لرسول الله ﷺ، وارتفاع في مستوى التفكير والاهتمامات؛ حيث يشعرون بشعور الكبار فيسرهم ما يسرهم ويسوؤهم ما يسوؤهم، وهذا دليل على نجاح النبي ﷺ في تربية الصحابة ونجاحهم في تربية أبنائهم.

وفي هذا الخبر بيان موقف السعدين؛ سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج في خدمة رسول الله ﷺ وحراسته هما ومن معهما من الأنصار رضي الله عنهم.

*****

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤٧- ٢٤٩.

مواقف لبعض النساء

١- أخرج الإمام البخاري من حديث ثعلبة بن أبي مالك قال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطًا(١) بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي مرطٌ جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، اعْط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك -يريدون أم كلثوم بنت علي- فقال عمر: أمُّ سليط أحق به، وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ(٢)، قال عمر: فإنها كانت تُزفر لنا القرب(٣) يوم أحد(٤).

ففي هذا الخبر بيان موقف جهادي لأم سليط المازنية -رضي الله عنها- وذلك في حمل الماء وسقي المجاهدين، كما أن فيه موقفًا عاليًا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ حيث ذكر فضل هذه المرأة وأشاد بعملها الجهادي وفضلها على زوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب على الرغم من عُلو نسبها رضي الله عنهم أجمعين.

٢- قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبد الواحد بن أبي عون عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: مرَّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحد، فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان، هو -بحمد الله- كما تحبين، قالت: أرُونيه حتى أنظر إليه. قال: فأُشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جلل، تريد صغيرة(٥).

وأخرجه الواقدي وذكره نحوه(٦).

---

(١) جمع مرط، وهو كساء من الصوف أو الحرير.

(٢) هي بنت عبيد بن زياد، من بني مازن، كُنيتْ بابنها سليط بن عمرو بن قيس النجاري، وقد توفي عنها عمرو فتزوجها مالك بن سنان الخدري، فولدت له أبا سعيد الخدري رضي الله عنهم جميعًا، فتح الباري: ٦/ ٧٩، ٧/ ٣٦٧.

(٣) أي: تحمل قرب الماء.

(٤) صحيح البخاري، ٦/ ٧٩، ٧/ ٣٦٦، رقم: ٢٨٨١، ٤٠٧١.

(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٧.

وقال ابن هشام: الجلل يكون من القليل ويكون من الكثير، وهو هنا من القليل، قال امرؤ القيس في الجلل القليل:

لقَتلُ بني أسد ربهم ... ألا كل شيء سواه جلل

قال ابن هشام: وأما قول الشاعر وهو الحارث بن وعلة الجرمي:

ولئن عفوت لأعفُون جللا ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

فهو من الكثير.

٣- وقال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: وخرجت أم سعد بن معاذ -وهي كَبْشة بنت عبيد بن معاوية بن بلحارث بن الخزرج- تعدو نحو رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذٌ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمِّي! فقال رسول الله ﷺ: «**مرحبًا بها!**»، فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ، فقالت: أمَّا إذا رأيتُك سالمًا، فقد أشْوَتَ(١) المُصيبة، فعزَّاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: «**يا أُم سعد، أبشري وبشِّري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا** -وهم اثنا عشر رجلاً- **وقد شُفِّعوا في أهليهم**».

قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادعُ يا رسول الله لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم أذْهب حُزن قلوبهم واجْبر مصيبتهم، وأحسن الخَلَف على من خُلِّفوا**».

ثم قال رسول الله ﷺ: «**خلِّ أبا عمرو الدَّابة**»، فخلَّى الفرس وتبعه الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا عمرو، إنَّ الجراح في أهل دارك فاشيةٌ، وليس فيهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون دم والريح ريح مسك، فمن كان مجروحًا فليقر في داره وليداو جرحه، ولا يبلغ معي بيتي عَزْمةً مني**»، فنادى فيهم سعدُ: عزمة رسول الله ﷺ، ألاَّ يتبع رسول الله ﷺ جريحٌ من بني عبد الأشهل، فتخلف كل مجروح، فباتوا يوقدون النيران ويُداوون الجراح، وإن فيهم لَثلاثين جريحًا(٢).

هذه الأخبار تدل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين عند نساء الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، فالمرأة الدينارية قد نُعي لها زوجها وأبوها وأخوها فلم تتأثر بذلك، وسألتْ عن سلامة رسول الله ﷺ، فلم يشْف الخبر عن سلامته وجْدها عليه ولم يطفئ حرقة خوفها عليه حتى شاهدته بعينيها فاطمأن قلبها واستصغرت كل مصيبة تصاب بها أو يصاب بها غيرها مادام رسول الله ﷺ سالمًا، وهذا دليل على كمال محبة رسول الله ﷺ التي هي من كمال الإيمان، كما أن عدم تأثر تلك المرأة بموت أبيها

(١) أي: صارت صغيرة خفيفة.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٣١٥، ٣١٦.

وزوجها وابنها دليل على كمال اتصافها بالصبر الجميل والرضا بقضاء الله تعالى وقدَره.

وكذلك ما كان من أمِّ سعد بن معاذ التي أعلنت فرحتها برؤية النبي ﷺ واستصغرت كل ما أصاب قومها في جانب سلامته.

ولقد كانت قويَّة الإيمان راسخة اليقين حينما قالت: ومن يبكي عليهم بعد هذا! وذلك حينما بشَّرها رسول الله ﷺ بأن شهداء قومها قد ترافقوا في الجنة، وهذا دليل على قوة استشعار الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة، واهتمامهم بتنظيم سلوكهم بناءً على ذلك.

*****

مثلٌ رفيع من خلق الوفاء

أخرج الإمام البخاري بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ طلع له أُحُد، فقال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»[1].

هذا التعبيرُ البليغ من رسول الله ﷺ يدلنا على اتصافه بمنتهى الكمال في مكارم الأخلاق، والتي يأتي على رأسها خُلق الوفاء.

لقد احتضن جبل أُحد المسلمين بعد إصابتهم؛ حيث وجدوا في تجاويفه وتعاريجه حصونًا امتنعوا بها من هجوم العدو، ولقد عبر النبي ﷺ عما أفاده ذلك الجبل المسلمين بالمحبة، ثم عبر بمحبة المسلمين ذلك الجبل عما خالط نفوسهم آنذاك من الغبطة والسرور بامتناعهم من المشركين بحصون ذلك الجبل المنيعة.

فجبل أُحد يحب المسلمين؛ لأنهم لما لجؤوا إلى أكنافه حنا عليهم فامتنعوا به، والمسلمون يحبونه؛ لأنه كان سببًا في امتناعهم من الكفار.

فما أدق شعور النبي ﷺ، وما أبلغ إحساسه! حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التَّحصن والاحتماء بذلك الجبل وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبَّر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة.

أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلاً أعلى على التخلُّق بخلق الوفاء؟!

ألا وإن الذي يعترف بفضل الحجارة الصمَّاء ويُضفي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان.

وإذا كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سما حتى حاز أرقى العبارات وأرقَّها، فأخْلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلاً عن من تجمعه بهم الأُخوة في الله تعالى.

*****

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٧٧، رقم: ٤٠٨٤.

من مواقف شعراء المسلمين في أحد

لقد جادت قرائح شعراء المسلمين بمناسبة غزوة أحد بأشعار كثيرة عالية، أشادوا فيها بمواقف أبطال المسلمين، وهوَّنوا عليهم مصابهم فيها، ووبَّخوا المشركين على فرارهم في أول المعركة الذي لم يكن له أي مسوغ إلا الجبن والتخاذل، وأيْأسُوهم من التغنِّي بنتائج نصرهم الوهمي بإشعارهم بأن وجود القتلى على أرض المعركة من المسلمين لا يعني انهزامهم.

ولقد اخترت للعرض هنا أربع قصائد من أروع ما قيل من الشعر في هذه المناسبة لشاعرين عظيمين من شعراء المسلمين هما: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، الأنصاريان رضي الله عنهما[١].

١ - قال كعب بن مالك رضي الله عنه بعد أبيات له:

مُجالَدُنا عن ديننا كل فخمة ... مُدرَّبة فيها القوانس تلمع[٢]
وكل صَمُوت في الصِّوان كأنها ... إذا لبست نَهيٌ من الماء مُترع[٣]
ولكن ببدْر سائلوا من لقيتم ... من الناس والأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلُها ... سوانا لقد أجْلَوا بليل فاقشعوا[٤]
إذا جاء منا راكبٌ كان قوله ... أعدُّوا لما يزجي ابن حرب ويجمعُ[٥]

(١) قد رجعت في بيان الغريب من كلمات هذه القصائد إلى كلٍّ من «عيون الأثر» لابن سيد الناس، «سبل الهدى والرشاد» للصالحي، إضافة إلى تعليقات الهراس على سيرة ابن هشام.

(٢) الفخمة: العظيمة، المراد بها الكتيبة، ومدرَّبة، من الدُّربة، يعني: أنهم دُربوا للقتال، والقوانس جمع قونس وهي: بيضة السلاح.

(٣) الصموت: الدرع التي أُحكم نسجها، فلا يسمع لها صوت، والصوان: ما تصان فيه الدروع ونحوها، والنهي: مجتمع الماء، المترع: المملوء.

(٤) أقشعوا: فرُّوا وزالوا، هذا تعبير عما يعانيه المسلمون في المدينة من حياة الخوف والرعب؛ حيث تعاديهم أكثر القبائل المحيطة بهم، إلى جانب عداوة اليهود والمنافقين داخل المدينة، فهذا الوضع الصعب لا يستطيع البقاء عليه إلا الأبطال العظماء الذين نذروا أنفسهم للجهاد واستعدُّوا للموت.

(٥) ابن حرب: هو أبو سفيان، وهو تصوير بليغ لحالة الخوف التي تساورهم من هجوم المشركين من أهل مكة عليهم.

فـمـهـمـا يُهِمُّ الناس مما يكيـدنا فنحنُ لـه من سـائر الناس أوسع[1]
فلو غيـرُنا كانت جميعًا تكيـده الـ بـرية قـد أعْطوا يدًا وتوزعـوا[2]
نجـالد لا تُبـقي علينا قـبـيلة من الناس إلا أن يهـابوا ويفظُعوا[3]
ولما ابتنوا بالعِرض قـال سـراتنا[4] عـلامَ إذا لـم نمنع العـرض نزرع
وفـينا رسـول الله نتْـبع أمـره إذا قـال فـينا القـول لا نتطلَّع
تدلَّى عليـه الرُّوحُ من عند ربِّه يُنزَّل من جـو السـمـاء ويُرفع
نشـاوره فـيـمـا نُريد وقـصْرُنا[5] إذا مـا اشـتـهى أنا نطيع ونسـمع
وقـال رسـول الله لما بَدوا لنا ذرُوا عنكم هول المنيَّات واطمعـوا
وكـونوا كـمن يشـري الحيـاة تقرُّبًا إلى ملك يُحـيـا لدَيه ويُرجع
ولكن خـذوا أسـيـافكم وتوكَّلوا على الله إن الأمـر لله أجـمـع
فسـرنا إليـهم جـهـرة في رحـالهم ضُحَيًّا علينا البيض لانتخشَّع[6]
بملمُـومـة فـيـهـا السَّنوَّر والقنا إذا ضـربوا أقـدامـهـا لا تُورَّع[7]
فـجـئنا إلى مـوج من البـحـر وسطه أحـابيشُ منهم حـاسـرٌ ومـقنَّع
ثلاثـة آلاف ونحـن نصـيَّـةٌ ثلاث مـئين إن كـثـرنا وأربع[8]

---

(١) يقول: إن أعداءنا قد جعلوا شغلهم الشاغل وهمَّهم الغالب في أن يدبِّروا المكائد؛ للقضاء علينا، وفي سبيل ذلك يبذلون أموالاً طائلة لكسب ودِّ القبائل، وإثارتهم علينا، بينما نحن في سعة بال وطمأنينة عيش؛ لأننا متوكلون على الله تعالى، واثقون بنصره أولياءه في النهاية.

(٢) نعم، فلو صبت هذه المصائب على غير المسلمين لاستسلموا لأعدائهم وتفرقوا في البلاد؛ لأنهم غير موصولين بالله تعالى؛ وإنما ينظرون للأسباب المادية وحدها.

(٣) فالقبائل لا ترتدع عن ظلم المسلمين والاعتداء عليهم إلا بقوة المسلمين في الجهاد وصبرهم على الجلاد، فيرتدعون هيبة من المسلمين ورهبة منهم لا خضوعًا لمكارم الأخلاق.

(٤) ابتنوا: ضربوا أبنيتهم وهي الخيام، والعرض بكسر العين: مكان بين المدينة وأُحد، وسراة القوم: أشرافهم.

(٥) قصرنا: أي غايتنا. (٦) البيض: الدروع والسيوف، والتخشع: الخضوع والذل.

(٧) ملمومة: أي كتيبة مجتمعة، والسَّنوَّر: السلاح، والقنا: الرماح، وتُورَّع: أي تكف.

(٨) النَّصيَّة: الخيار من القوم، وقوله: ثلاث مئين ... الخ على التقريب، وإلا فإنه قد ثبت في الروايات السابقة أن عدد المسلمين الذين شاركوا في المعركة ستمائة وخمسين، إضافة إلى خمسين من الرماة الذين رابطوا فوق الجبل، ويحتمل أن كعب بن مالك عدَّ المقاتلين الأشداء ولم يعتبر الشيوخ والغلمان.

نُغــاورهم تجــرى المنيــة بيننا | نُشارعـهم حـوض المنايا ونَشْرع(١)
تهـادَى قـسيُّ النبع فـينا وفـيـهمُ | ومــا هو إلا اليــثـربيُّ المقطَّع(٢)
ومنجـوفـةٌ حِـرْمِـيَّــةٌ صـاعـديَّةٌ | يُذرُّ عليـهـا السُّم سـاعـة تُصْنع(٣)
تصُـــوبُ بأبدان الرجـــال وتارةً | تمرُّ بأعـراض البـصـار تَقـعـقع(٤)
وخَـيلٌ تراها بالفـضـاء كـأنهـا | جَـراد صَـبًـا في قَـرَّة يتـريَّع(٥)
فلمــا تلاقــيْنا ودرات بنا الرحى | وليس لأمْـر حَـمَّــه الله(٦) مَـدْفع
ضـربناهم حـتى تركنا سَـراتهم | كـأنهم بالقـاع خُـشب مـصَـرَّع
لدُن غـدوةً حتى استـفـقنا عـشيـة | كـــأنَّ ذَكـــانا حـــرّ نار تَلفَّع(٧)
وراحـوا سـراعًـا مـوجـفين كـأنهم | جَـهـامٌ هراقت مـاءه الريحُ مُـقلع(٨)
ورحنا وأخـــرانا بطاءٌ كـــأننا | أسـودٌ على لحم ببيـشـة ظُلَّع(٩)
فـنلنا ونـال القــــومُ منا، وربما | فـعلنا، ولكن مـا لدى الله أوسع
ودارتْ رَحـانا واسـتـدارت رحـاهم | وقـد جـعلوا كلٌّ من الشـرِّ يشْـبع
ونـحن أُناس لا نرى القـتل سُـبَّـة | على كل من يحمى الذِّمار ويمنع(١٠)

---

(١) نغاورهم: أي نتبادل معهم الغارة، ونُشارعهم حوض المنايا ونشرعُ: أي نوردهم حوضها ونسقيهم منه.
(٢) تهادى: أي تتمايل، وقسي: جمع قوس، والنبع: شجر تصنع منه القسي، واليثربي: هي الأوتار، تنسب إلى يثرب.
(٣) المنجوفة: السهام العريضة النصل، وحِرْميَّة: منسوبة إلى أهل الحرم، وصاعديَّة: منسوبة إلى صانع اسمه صاعد.
(٤) تصوب: تقع، والأعراض: الجوانب، والبصار، بكسر الباء: نوع من الحجارة، وتقعقع: يظهر لها صوت.
(٥) الصبا: الريح الشرقية، والقرَّة: البرد.
(٦) حمَّه الله: قدره وقضاه.
(٧) الذَّكا: الالتهاب في الحرب، وتلفع: أي يشتمل حرُّها على من دنا منها.
(٨) موجفين أي: مسرعين، والجهام: السحاب الرقيق الذي ليس فيه ماء.
(٩) بيشة: واد في الحجاز يشتهر بالأُسود، وظُلَّع: أي مائلون.
(١٠) الذمار: ما يجب على الرجل أن يحميه، يُبيِّن في هذا البيت أن سقوط الشهداء من المسلمين لا يعتبر سبة عليهم، ولا يعني انهزامهم ما داموا معتصمين بمبادئهم المقدسة التي آمنوا بها وقاتلوا من أجلها.

جِـلادٌ على ريْب الحـوادث لا ترى | على هالك عـينًا لنا الدَّهر تدمع[1]
بنو الحـرب لا نعـيَـا بشيء نقـوله | ولا نحن مما جرت الحـرب نجزع[2]
بنو الحرْب إن نظفـر فلسنا بفُـحَّش | ولا نحن من إظفـارها نتـوجع[3]
وكنَّا شـهــابًا يتـقي الناسُ حـرَّه | ويُفـرجُ عنه من يليـه ويَسـفع[4]

قال ابن هشام: وكان كعب بن مالك قد قال:

مجالَدُنا عن جذمنا[5] كلّ فخمة.

فقال رسـول الله ﷺ: «**أيصلح أن تقـول: مجـالدنا عن ديننا؟**» فقال كـعب: نعم؛ فقال رسول الله ﷺ: «**فهو أحسن**»؛ فقال كعب: مجالدنا عن ديننا[6].

وهذا مثال على اهتمام النبي ﷺ بتربية أصحابه على الانتماء الديني بدلاً من الانتماء القبلي، فالدفاع ليس هو عن القبيلة أو الوطن، وإنما هو عن الدين، ويكون الدفاع عن القبيلة والوطن تبعًا لم يقصد لذاته.

وفي هذا مَثلٌ من لطف النبي ﷺ وسمو تعبيره في النقد، حيث عرض ما يريد عرضًا ولم يأمر به أمرًا.

---

(١) جلاد: جمع جلد وهو الصبور، وريب الحوادث: مصائبها، فالمسلمون لا يكون شهداءهم حسرةً عليهم وأسفًا على موتهم؛ لأنهم يعلمون أنهم قد قدِموا على خير مما هم فيه، وأنهم سيلتقون معهم في حياة أخرى.

(٢) نعيَا: أي نعجز، المعنى: أننا إذا قلنا شيئًا فنحن قادرون على تنفيذه، ثم يبين أن المسلمين لا يجزعون من المصائب التي تجرها عليهم الحرب؛ لأنهم يعلمون أنها بقضاء الله تعالى وقدره، وأنهم إذا صبروا عليها فلهم أجرٌ عظيم.

(٣) في الشطر الأول يبين كعب بن مالك رضي الله عنه مبدأً إسلاميًا عاليًا في شئون الحرب، وهو: أن المسلمين إذا غلبوا لم يبطروا ولم يتكبروا على الناس، ولم يتجبروا عليهم، بل يظلون مستقيمين على مكارم الأخلاق، وقد سبق لنا صورة من معاملة الصحابة لأسرى بدر بناء على توصية النبي ﷺ؛ حيث لم يقتصروا على مساواتهم بأنفسهم في المأكل، بل آثروهم بأطيب الطعام.
وفي الشطر الثاني يبين أن المسلمين يتجمَّلون بالصبر على شدائد الحروب، وبهذا الصبر العظيم بلغ الصحابة رضي الله عنهم ما بلغوا في الفتوحات الإسلامية.

(٤) يصف شجاعة الصحابة رضي الله عنهم بأن الواحد منهم يشبه شهابًا من النار يتقيه الناس ويفسحون له؛ ليَمُر، ومن أصابه أحرقه وغيَّر لونه.

(٥) أي: عن أصلنا.

(٦) سيرة ابن هشام: ٣/ ١١٠- ١١٤.

٢- وقال كعب بن مالك أيضًا:

أبْلغ قريشًا على نأيها ... أتفخر منا بما لم تَلي
فخَرتم بقتلى أصابتهمُ ... فواضلُ من نعَم المفضل
فحلُّوا جنانًا وأبقوا لكم ... أسُودًا تحامي عن الأشبل
تقاتل عن دينها، وسَطها ... نبيٌّ عن الحقِّ لم ينكل
رمته معدٌّ بعُور الكلام ... ونبل العداوة لا تأتلي(١)(٢)

في هذه القصيدة يوبخ كعب بن مالك الكفار من قريش على افتخارهم بنتائج معركة أُحد، ويبين لهم أنهم لم يحصلوا على النصر الحقيقي، وإنما هي فرصة من تقصير بعض المسلمين انتهزوها، ثم أوقفوا المعركة ورجعوا على أعقابهم حتى لا يُهزموا ويضيع منهم ذلك النصر المتوهَّم.

ويبين لهم أن قتل من يُقتل من المسلمين ليس مما يفتخر به الأعداء؛ لأن الشهادة نعمة يتفضل بها الله سبحانه على الشهداء، وأن من بقي من المسلمين لم يحزنوا عليهم؛ لأن كل واحد من الباقين يتمنى أن يكون قد نال الشهادة، وإنما الذي يحق له الفخر هم المسلمون إذا قتلوا من أعدائهم؛ لأنهم يكونون قد أصابوهم بفاجعة عظمى يظل الكفار في أساها وحزنها دهرًا طويلاً.

ثم يبين أنهم إن قتلوا عدداً من المسلمين فإنهم قد أبقوا أسودًا لا يرام جنابها، تقاتل عن دينها وأبنائها بقيادة نبي عظيم ثابت على الحق ﷺ لم يتخلف عن أداء الواجب.

٣- قال حسان بن ثابت رضي الله عنه بعد أبيات له:

تلك أفعالنا وفعل الزِّبعْرى(٣) ... خاملٌ في صديقه مذموم
ربَّ حلم أضاعه عدمُ الما ... ل، وجهلٍ غطَّى عليه النعيم
لا تسبَّنَّني فلست بسبِّي(٤) ... إن سبِّى من الرجال الكريم

(١) عور الكلام: قبيحه ومستهجنه، ولا تأتلي: يعني لا تقصِّر.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٤٩.
(٣) هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى أحد شعراء المشركين في مكة، وله قصائد في هجاء المسلمين والافتخار بقومه.
(٤) أي: لست أهلاً لأن تكون ندًا لي في الهجاء.

مــــالا أُبالي أنَبَّ بـالحـــــزن تيسٌ أم لحـــاني بظهـــر غــيب لئـيم[١]

وليَ البـــــأسَ منكم إذْ رحلتم أســـرةٌ من بني قـــصيٍّ صـــمــيم

تســـعــــة تحـــمل اللواء وطارت في رعـــاع من القَنا مــخـــزوم[٢]

وأقـامـوا حـتى أبيـحـوا جـمـيـعًا في مـــقـــام، وكـلـهم مــذمــوم[٣]

بـدم عـــاتك، وكـــان حـــفـــاظًا أن يقــيــمــوا، إن الكريم كــريم[٤]

وأقــامــوا حــتى أزِيروا شَـعُـوبًا والقَنا في نحـــورهم مـــحْطوم[٥]

وقُـــــريش تفـــــرُّ منا لـواذًا أن يقــيــمــوا وخفَّ منهـا الحلوم

لـم تُطق حــــمله العــــواتق منهم إنما يحـــمل اللواء النجــوم[٦][٧]

٤- وقال حسان بن ثابت أيضًا:

سـقيتم كنانة جـهـلاً من سفاهتكم إلى الرسـول فـجند الله مخـزيها[٨]

أوردتموها حـيـاض الموت ضاحـية فـالنار موعـدها، والقتل لاقيـها[٩]

جـمَّعـتـموها أحـابيشًا بلا حَسب أئمـة الكفـر غـرَّتكم طواغيـهـا[١٠]

ألا اعـتـبـرتم بخـيْل الله إذْ قـتلت أهل القليب ومَن ألْفـينه فـيـهـا[١١]

كـم من أســـيــر فككناه بلا ثـمن وجـزِّ ناصـيـةٍ كنا مَوَاليـهـا[١٢][١٣]

---

(١) نبَّ: أي صوَّت، والحَزْن: المرتفع، ولحَاني: أي هجاني.

(٢) يُعرِّض بكفار مكة إذ لم يحملوا لواءهم؛ حيث قتل سبعة منهم، ثم آل أمره إلى مولى لهم، ثم إلى امرأة، كما يُعرض بقبيلة مخزوم ويصفهم بالجبن والضعف؛ حيث فروا ولم يواجهوا الرماح.

(٣) أبيحوا: أي استؤصلوا.

(٤) دم عاتك: أي شديد الحمرة، والحفاظ: الحمية.

(٥) شعوب: اسم من أسماء الموت.

(٦) العواتق: النساء، يُعرض بالمشركين؛ حيث تركوا لواءهم لامرأة تحمله، وفروا عنه، والنجوم: السادة الأشراف.

(٧) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٣٣ .

(٨) سقتم كنانة: يخاطب كنانة، ويريد بذلك قبيلة قريش.

(٩) ضاحية: أي بارزة للشمس.

(١٠) الأحابيش: الأخلاط من قبائل شتى، والطواغي: جمع طاغي وهو العاتي المتجبر.

(١١) خيل الله: أراد جند الله، وأهل القليب: هم القتلى من زعماء المشركين يوم بدر الذين ألقاهم المسلمون في إحدى الآبار.

(١٢) جز شعر الناصية: يفعله العرب إذا أطلقوا أسراهم تكرُّما منهم عليهم.

(١٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٩ .

في هذه القصيدة يشيد حسان بن ثابت رضي الله عنه بشجاعة المسلمين؛ حيث استطاعوا أن يقتلوا حملة لواء المشركين، ويوبِّخ المشركين، ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم حتى كان في النهاية بيد امرأة منهم، وولَّى أشرافُهم وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكير للمشركين بمواقف الذل والجبن التي تعرضوا لها في بداية المعركة حتى لا يغتروا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسان من المشركين مقتلاً حينما عيَّرهم بالتخلي عن اللواء وإقدام امرأة منهم على حمله، وهذا يتضمن وصفهم بالجبن الشديد؛ حيث أقدمت امرأة على ما نكلوا عنه.

*****

مواقف وعبر
بين أحد والخندق

موقف للصحابة بعد أحد
في الرد على المنافقين واليهود

قال الواقدي في سياق رواية له: ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة عند نكبة قد أصابت أصحابه، وأصيب رسول الله ﷺ في نفسه.

فجعل ابن أُبي والمنافقون معه يشمَتون ويُسرُّون بما أصابهم ويُظهرون أقبح القول، ورجع من رجع من أصحابه وعامتهم جريحٌ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أُبي وهو جريح، فبات يكوي الجراحة بالنار حتى ذهب الليل، وجعل أبوه يقول: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي! عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا، فقال ابنه: الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خيرٌ.

وأظهرت اليهود القول السيئ، فقالوا: ما محمد إلا طالب مُلك، ما أصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه! وجعل المنافقون يُخذِّلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ويأمرونهم بالتفرق عن رسول الله ﷺ، وجعل المنافقون يقولون لأصحاب رسول الله ﷺ: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل، حتى سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن، فمشى إلى رسول الله ﷺ؛ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك من اليهود والمنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عمر، إن الله مُظهر دينه ومُعزٌّ نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم**»، قال: فهؤلاء المنافقون يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «أليس يُظهرون شهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: بلى يا رسول الله، وإنما يفعلون ذلك تعوُّذا من السيف، فقد بان لهم أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة، فقال رسول الله ﷺ: «**نُهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يا ابن الخطاب إن قريشًا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن**[1]».

في هذا الخبر أمثلة مما صدر من المنافقين واليهود من الشماتة بالمسلمين في مصابهم بأحد، فقد أظهر عبد الله بن أُبيِّ بن سلول نفاقه في تحسير المسلمين وتوهين رأيهم حينما خرجوا لقتال عدوهم والتَّبَجُّح بترديد رأيه الذي أبداه قبل المعركة حيث أشار بعدم

---
(١) مفازى الواقدى: ١/ ٣١٧- ٣١٨.

الخروج، ولكن ابنه عبد الله رضي الله عنه رد عليه رب المؤمن التقي الذي يكل الأمور كلها إلى الله تعالى حيث أبان لأبيه أن ما أصاب المسلمين إنما هو بقضاء الله تعالى وقدره، والمؤمن الحق يرضى بقضاء الله تعالى وقدره ويصبر على بلائه، وبذلك أسكت أباه الذي لا يستطيع أن يحاوره في هذا المنهج الذي لا يتصوره على الحقيقة لأنه لا يؤمن به بقلبه ولا يستطيع أن يظهر كفره بذلك لأنه قد ارتضى النفاق منهجًا له في الحياة.

ونجد في هذا الخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسوؤه ما يسمع من المنافقين واليهود من نفَثَات الحقد والضغينة وعبارات التَّشفِّي من المؤمنين فيمشي إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في قتل من سمع منهم ذلك الكلان السيء، ولكن النبي ﷺ يبين له أن الله تعالى مظهر دينه ومعزٌ نبيه ولو كره ذلك اليهود والمنافقون وأظهروا عداءهم بالحرب النفسية التى يتقنها الجبناء عادة ويرون فيها عزاء لأنفسهم المريضة من تخلفهم عن الجهاد الذي يعشقه الرجال الأبطال.

كما أبان له أن لليهود ذمة وأنه لا يجوز نقض العهد إلا إذا بدر منهم العداء الحربي، وأن المنافقين قد أظهروا الإسلام وأن الله تعالى نهاه عن قتل من نطق بالشهادتين.

ونظرًا لكون المؤمنين الصادقين - ومنهم عمر - يَحُزُّ في نفوسهم أن يروا الكفار من اليهود والمنافقين يسرحون ويمرحون في المدينة ويأخذون حريتهم في الكلام الذي يسوء المؤمنين، مع ما أصابهم به أعداؤهم من كفار مكة فإن النبى ﷺ بشَّر عمر ببشرى تَطْمئن لها قلوب المؤمنين حيث أفاده بأن كفار مكة وستنتهي دولة الكفار فيها، فكأن النبي ﷺ أراد أن يقول لعمر أبشر فإن المنافقين واليهود لن يفرحوا علينا ولن يشمتوا بنا بعد اليوم لأننا لن نصاب بمثل ما أُصبنا به في أحد.

وهكذا سضع رسول الله الأمور مواضعها فلا يستجيب لطلب عمر لَمّا يترتب عليه من نتائج سيئة على المسلمين في المستقبل، ولكنه في الوقت نفسه لا يتركه في تأجج نفسي واضطراب فكري، بل يُعزِّيه ويواسيه -هو وأصحابه- بما يرفع من نفوسهم شبح تكرر المأساة وتكرر شماتة الأعداء، وكونها إصابة واحدة وتنتهي وينتهي معها تشفِّي الأعداء يُسلِّي النفوس ويقوي فيها الصبر والتهوين من شأن الأعداء في حروبهم القتالية والنفسية.

*****

مواقف الرسول ﷺ وأصحابه
في غـــزوة حمــراء الأســـد

قال ابن إسحاق: وكان يوم أُحد يوم السبت للنصف من شوال، قال: فلما كان الغد من يوم الأحد لستٍّ عشرة ليلة مضت من شوال، أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذَّن مُؤذنه: ألا يخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس.

فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلَّفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلَّفْ على أخواتك فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخَرج معه.

وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرْهبا للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم؛ ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يُوهنهم عن عدوهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، من بني عبد الأشهل، كان شهد أُحداً مع رسول الله ﷺ، قال: شهدت أُحداً مع رسول الله ﷺ، أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذَّن مُؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنتُ أيسرُ جرحًا منه، فكان إذا غُلب حملته عُقبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال[1]، فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة.

قال: وقد مر به -كما حدثني عبد الله بن أبي بكر- معبدُ بن أبي معْبد الخزاعي، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عَيبة[2] نُصح لرسول الله ﷺ، بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عنه شيئًا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك ولودِدْنا أن الله عافاك فيهم.

(١) قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.
(٢) عُيبة الرجل: موضع سره.

ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا حَدّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لَنكُرَّن على بقيتهم، فلنفرغن منهم، فلما رأى أبوسفيان معبداً، قال: ما وراؤك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أر مثله قطُّ، يتحرقون عليكم تحرُّقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

قال: ويحك! ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم؛ لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك. قال: والله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر. قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرضُ بالجرد الأبابيل[1]
تردي بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل[2]
فظلتُ عدْوًا أظن الأرض مائلة ... لَمَّا سموا برئيس غير مخذول[3]
فقلتُ: ويل ابن حرب من لقائكم ... إذ تغطمطت[4] البطحاء بالجيل
إني نذير لأهل البسْل صاحيةً ... لكل ذي إربة منهم ومعقول[5]
من جيش أحمد لا وَخْش[6] تنابلة ... وليس يُوصف ما أنذرتُ بالقيل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

(١) تهد يعني: تخر وتسقط، والجرد جمع أجرد وهو: السبَّاق من الخيل، والأبابيل يعني: الجماعات.
(٢) تردي: أي تجري، وترجم الأرض بحوافرها، والتنابل: جمع تنبل، وهو البليد الكسلان، والميل: جمع أميل وهو الجبان، والمغازيل: جمع مغزال، وهو الضعيف الأحمق.
(٣) يعني: فظللت أسرع الهروب من وجه هذا الجيش الذي كادت تميد الأرض من كثرته لما علوا برئيس موفق مظفر، يعني به النبي ﷺ.
(٤) أي: اضطربت.
(٥) النذير: من يعلم بشيء مخوِّف، وأهل البَسْل يعني: أهل الحرم، وهم قريش، والإربة: الدهاء والحيلة.
(٦) الوخش: رذال الناس وأسقاطهم، ويستعمل مع المفرد والجمع بلفظ واحد.

ومرَّ به ركبٌ من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟ قال: ولمَ؟ قالوا: نريد الميَرة[1]، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أُرسلكم بها إليه، وأحمِّل لكم هذه غداً زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقال: «**حسبُنا الله ونعم الوكيل**»[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ بالخروج لملاحقة العدو بعد المعركة بيوم واحد مع ما به وبأصحابه من جراح بليغة يدل على بُعد نظر وحكمة في وضع الخطط الحربية وإدراك عميق لأثر الحرب النفسية، فإن الهدف من خروجه: إرهاب أعدائه من أهل مكة وجميع الأعداء المحيطين بالمدينة، مَن قرُب أو بعُد؛ وذلك لأن إصابة المسلمين في معركة أُحد قد حطت من سمعتهم الحربية لدى قريش والقبائل الأخرى، وتعالت احتمالات الطمع بغزو المدينة، فأراد النبي ﷺ أن يُظهر للأعداء جميعًا أن إصابة أُحد لم تكن نتيجة ضعف في المسلمين ولا تخاذل، وإنما هي نتيجة خطأ حربي ارتكبه بعض الجنود، وقد عاد جنود الإسلام بقيادة نبيهم ﷺ إلى ملاحقة الجيش الذي أصابهم على ضخامته، فكيف الحال بجيوش القبائل الصغيرة لو فكرت بغزو المدينة؟!

ولقد حدث ما فكر به النبي ﷺ وخطط لتفاديه؛ حيث إن جيش قريش قد ندموا على اكتفائهم بإصابة المسلمين وعدم قيامهم باستئصالهم، ففكروا بالعودة إلى المدينة واستئناف الحرب مرة أخرى - كما جاء في هذه الروايات - لولا ما بلغهم من خروج النبي ﷺ بجيشه إلى حمراء الأسد؛ لملاحقتهم، فعلموا بذلك أن قوة المسلمين ما تزال حيَّة وأن الجراح لم تكن عائقا لهم عن الخروج.

إن أي مفكر يتصور موقف المسلمين آنذاك وقد أحاط بهم الأعداء من الداخل والخارج سيصيبه الهلع والرعب والخوف على مستقبل هذه الفئة المؤمنة، ولن يستطيع

(١) الميرة: الطعام الذي يدخره الإنسان، وهذه التوضيحات عن هامش السيرة.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٩- ٦٣، وأخرج خبر هذه الغزوة مختصراً الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنهما، صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٠٧٧، «الفتح ٧/ ٣٧٣».

أي فرد مهما كان في قوته ودهائه أن يتحمل مسئولية تلك الفئة المحاربة من كل جانب، أما الرسول ﷺ فإنه لم يهن في مواجهة تلك الظروف القاهرة، ولم تلن له قناة أمامها؛ لأنه مؤيَّد بنصر الله، وقد وعده الله إتمام هذا الأمر مهما تكالب عليه الأعداء، ولن يخلف الله وعده، والرسول ﷺ على ثقة من أن الله تعالى سيُنجز له وعده، فلم يضعف أمام تلك الظروف القاسية، بل واجهها جميعًا بقوة وحزم؛ حيث قام بإرهاب أعدائه جميعًا من أهل المدينة ومن حولها والبعيدين منها حينما مضى يتعقب جيش الكفار حتى بلغ حمراء الأسد.

وقد قامت هذه الحملة بدورها المؤثر في إرهاب أعداء الإسلام من أهل المدينة ومن حولها؛ حيث عرفوا أنه ليس من السهل القضاء على المؤمنين ولا تفريقهم عن رسول الله ﷺ، وقد استجابوا لدعوته إلى الجهاد مع ما بهم من الجراح المؤلمة.

أما أثر هذه الحملة على كفار قريش فقد ظهر في تصرفات أبي سفيان قائد جيشهم؛ حيث استأجر جماعة؛ ليخذِّلوا رسول الله ﷺ عنه لما علم بخروجه - كما جاء في هذا الخبر.

ثانيًا: في هذا الخبر مَثَلٌ من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وسعيهم الجاد في تذليل الصعوبات التي تعوقهم عن الخروج، فمن ذلك خبر الأنصاري الأشهلي وأخيه اللذين خرجا مع شدة ما أصابهما من الجراح حتى كان أحدهما وهو جريح يحمل أخاه الذي كان أشدَّ مصابًا منه ولم يعد تلك الجراح مسوِّغًا للقعود، وعلى شاكلتهما كثير من الصحابة، وقد أثنى الله سبحانه عليهم بذلك بقوله: ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

ثالثًا: ما جرى من معبد الخزاعي من تخذيل المشركين عن رسول الله ﷺ فيه عبرة عظيمة، فقد قيَّضه الله تعالى؛ ليقوم بدور مهم في نصر المسلمين؛ حيث ضخَّم جيشهم في عين أبي سفيان وصدَّه عن العودة إلى المدينة بأسلوب قوي مؤثر، ولقد صدَّقه أبو سفيان؛ لكونه لايزال مشركًا.

وهكذا ينصر الله تعالى أولياءه بجنود كثيرة منها المعتدلون من الكفار الذين كانوا معجبين بسلوك المسلمين في السلم والحرب.

والحقيقة أن أبا سفيان وقومه كانوا مترددين في أمر العودة إلى المدينة، يدفعهم حب القضاء على الإسلام وأهله، ويردعهم خشية الوقوع في الهزيمة والأسر على يد المسلمين، خصوصًا أنهم يدركون أن ما أصاب المسلمين لم يكن عن ضعف ولا جبن وإنما هو بسبب خطأ ارتكبه بعض جنود الإسلام، وهم يعلمون جيدًا أن الأخطاء لا تتكرر غالبًا، خاصة من المسلمين الذين جربوا تفوقهم في التخطيط الحربي وفي القتال في بدر وفي أول النهار يوم أحد، ولذلك ما أن حذرهم معبد الخزاعي من جيش المسلمين حتى غلَّبوا جانب السلامة والحفاظ على النصر الذي توهموه.

رابعًا: حينما مرَّ ركبٌ من عبد القيس بأبي سفيان وقومه استأجرهم أبو سفيان؛ ليُخذِّلوا المسلمين، ويرهبوهم، فمر الركب برسول الله ﷺ والمسلمين وهم بحمراء الأسد، فأبلغوهم رسالة أبي سفيان وأصحابه، فما كان جواب رسول الله ﷺ إلا أن قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**».

وهذا الجواب يدل على صدق التوكل وعمق اليقين ورسوخ الإيمان، وقد عبر النبي ﷺ بهذا الجواب عن شعور الصحابة رضي الله عنهم الذين لم يخرجوا وهم على تلك الحال إلا ثقةً بالله تعالى وتوكلاً عليه، وقد أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ والمؤمنين في هذا الموقف بقوله: ﴿**الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣].

*****

مثل من نفاق ابن أُبَي ومواقف لبعض الأنصار

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: قالوا: فكان لعبد الله بن أُبي مقام يقومه كل جمعة شرفًا له لا يريد تركه، فلما رجع رسول الله ﷺ من أحد إلى المدينة جلس على المنبر يوم جمعة، فقام ابن أبي فقال: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، قد أكرمكم الله به، انصروه وأطيعوه، فلما صنع بأحد ما صنع قام؛ ليفعل ذلك، فقام إليه المسلمون، فقالوا: اجلس يا عدو الله! وقام إليه أبو أيوب وعبادة بن الصامت، وكان أشد من كان عليه ممن حضر، ولم يقم إليه أحد من المهاجرين، فجعل أبو أيوب يأخذ بلحيته، وعبادة بن الصامت يدفع في رقبته، ويقولان له: لست لهذا المقام بأهل! فخرج بعدما أرسلاه، وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأنما قلت هُجْرا[1]، قمت لأشد أمره! فلقيه مُعوِّذ بن عفراء فقال: مالك؟ قال: قمت ذلك المقام الذي كنت أقوم أولاً، فقام إليَّ رجال من قومي، فكان أشدهم عليَّ عبادة، وخالد بن زيد. فقال له: ارجع فيستغفر لك رسول الله. فقال: والله ما أبغي يستغفر لي. فنزلت هذه الآية: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ** ... ﴾[2] الآية، قال: ولكأني أنظر إلى ابنه جالس في الناس، ما يشدُّ الطرف إليه. فجعل يقول: أخرجني محمد من مِرْبد سهل وسُهيل[3].

في هذا الخبر صورة من صور النفاق التي كان عبد الله بن أُبي وجماعته من المنافقين يجيدونها ويتظاهرون بها.

وقد كانوا جميعًا يؤدون تكاليف الإسلام الظاهرة كالصلاة، ويحرصون على أدائها في المسجد أحيانًا؛ ليراهم المؤمنون، ولقد كان هذا الأمر محتملاً منهم؛ لأن تلك الأمور واجبات ظاهرة لابد أن يؤدوها وإلا اتُّهموا في دينهم، أما أن يتحولوا من مرحلة

---

(١) أي: قبيحا من الكلام.

(٢) تكملتها: ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥]، وهذه السورة نزلت بعد ذلك عقب غزوة بني المصطلق، كما سيأتي، فيحتمل تكرر نزول الآية.

(٣) مغازي الواقدي: ١/ ٣١٨، ٣١٩، وأخرجه ابن إسحاق من حديث الإمام الزهري، وذكره نحوه، سيرة ابن هشام: ١/ ٦٤، ٦٥، والمربد: هو المكان الذي يُجفف فيه التمر.

الالتزام الشخصي إلى مرحلة الدعوة إلى الإسلام، فهذا ما أنكره بشدة على ابن أُبي جماعته من الأنصار وقد حصل منه ما حصل يوم أحد.

ولقد كان موقفًا مشكوراً من أبي أيوب خالد بن زيد وعبادة بن الصامت الأنصاريَّين ومن كان معهما من الأنصار؛ حيث أسكتوا ابن أُبي وجروه وأخرجوه من المسجد بقوة، وأبانوا له بأنه ليس بأهل أن يصل إلى مرتبة الدعاة وقد جرى منه ما جرى.

وهذا يدل على براءة الأنصار رضي الله عنهم من الولاء لأعداء الإسلام وإن كانوا من قبائلهم، وهذا من كمال إيمانهم ورسوخ يقينهم رضي الله عنهم.

ونجد في نهاية الخبر مثلاً من حقد المنافقين على الإسلام ومشاعره العظيمة؛ حيث يقول ابن أبي: «أخرجني محمد من مربد سهل وسهيل»، ولم يقل: من المسجد؛ لأنه لا يعترف بالمسجد ويتمنى زواله؛ ليعود مكانه مربداً كما كان.

*****

مواقف في سرية أبي سلمة إلى بني أسد

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه بعد أن ذكر خبر إصابة أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه بجرح في أُحد: فلما كان هلال المحرَّم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة، دعاه رسول الله ﷺ، فقال: «**اخرج في هذه السرية، فقد استعملتك عليها**»، وعقد له لواء، وقال: «**سِر حتى ترِد أرض بني أسد، فأغرْ عليهم قبل أن تلاقَى عليك جموعهم**»، وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة.

وقد ذكر أسماء بعض البارزين منهم إلى أن قال: والذي هاجه أن رجلاً من طيِّئ قدم المدينة يُريد امرأة ذات رحم به من طيِّئ متزوجةً رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ[1]، فنزل على صهره الذي هو من أصحاب رسول الله، فأخبره أن طليحة وسلمة ابني خويلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدعْوتهما إلى حرب رسول الله ﷺ يريدون أن يدنوا للمدينة، وقالوا: نسير إلى محمد في عقر داره، ونصيب من أطرافه، فإن لهم سرْحا يرعى جوانب المدينة، ونخرج على متون الخيل، فقد أربعنا[2] خيلنا، ونخرج على النجائب المخبورة[3]، فإن أصبنا نهبًا لم نُدرك، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عُدتها؛ معنا خيل ولا خيل معهم، ومعنا نجائب أمثال الخيل، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريشُ حديثًا، فهم لا يستبلُّون دهرًا، ولا يثوب لهم جمع.

فقام فيهم رجل منهم يقال له: قيس بن الحارث بن عُمير، فقال: يا قوم، والله ما هذا برأي! ما لنا قبلَهم وتْرٌ وما هم نُهبة لمنتهب، إن دارنا لبعيدة من يثرب وما لنا جمع كجمع قريش، مكَثت قريش دهرًا تسير في العرب تستنصرها ولهم وترٌ يطلبونه، ثم

(١) جاء في رواية أخرى للواقدي أن اسم الرجل الطائي: الوليد بن زهير بن طريف، وأن صهره الصحابي هو طليب بن عمير، وطُليب هو: ابن عمير بن وهب بن عبد بن قصي القرشي، أُسد الغابة: ٣/ ٦٥، وذكر خبر هذه السرية الحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير من طريق الواقدي: تاريخ الإسلام: المغازي: ٢٢٩، البداية والنهاية: ٤/ ٦٣، ٦٤.

(٢) أي: رعيناها في الربيع حتى قويت.

(٣) أي: على الإبل التي خبرنا جودتها وسرعتها.

ساروا وقد امتطوا الإبل وقادوا الخيل وحملوا السلاح مع العدد الكثير؛ ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم، وإنما جُهدكم أن تخرجوا في ثلاثمائة رجل إن كمُلوا، فتغرِّرون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم، فكاد ذلك أن يُشككهم في المسير، وهم على ما هم عليه بعدُ.

فخرج به الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ، فأخبره ما أخبر الرجل، فبعث رسول الله ﷺ أبا سلمة، فخرج في أصحابه وخرج معه الطائي دليلاً فأغذُّوا[1] السير، ونكَّب بهم عن سَنَن الطريق، وعارض الطريق وسار بهم ليلاً ونهاراً، فسبقوا الأخبار وانتهوا إلى أدنى قَطَن - ماء من مياه بني أسَد، هو الذي كان عليه جمعهم - فيجدون سَرْحا فأغاروا على سرحهم فضمُّوه، وأخذوا رعاء لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم فجاءوا جمعهم فخبروهم الخبر وحذروهم جمع أبي سلمة، وكثروه عندهم، فتفرق الجمع في كل وجه، وورد أبو سلَمة الماء، فيجد الجمع قد تفرق، فعسكر وفرق أصحابه في طلب النَّعم والشاء، فجعلهم ثلاث فرق: فرقة أقامت معه، وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتى، وأوعز إليهم ألا يمعنوا في طلب وألا يبيتوا إلا عنده إن سَلموا، وأمرهم ألا يفترقوا، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم، فآبوا إليه جميعًا سالمين، قد أصابوا إبلاً وشاء ولم يلقوا أحدًا، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعًا، ورجع معه الطائي، فلما ساروا ليلة، قال أبو سلمة: اقتسموا غنائمكم، فأعطى أبو سلمة الطائي الدَّليل رضاه من المغنم، ثم أخرج صفيًا لرسول الله ﷺ عبداً، ثم أخرج الخُمس، ثم قسم ما بقي بين أصحابه فعرفوا سهمانهم، ثم أقبلوا بالنَّعَم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر، فمن ذلك:

أولاً: مجيء ذلك الرجل الطائي زهير بن طريف وإخباره طليب بن عمير رضي الله عنه بخبر بني أسد فيه عبرة؛ حيث قدر الله قدومه إلى المدينة في الوقت المناسب ونزوله على ذلك الصحابي وإخباره بالخبر، وهذا من تسخير الله تعالى لأوليائه المؤمنين.

---

(١) أي: أسرعوا.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٣٤١- ٣٤٣.

ثانيًا: موقف لذلك الصحابي طليب بن عمير رضي الله عنه؛ حيث أسرع بإخبار النبي ﷺ بخبر بني أسد، وهذا دليل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعيشون مع قضايا أمتهم ويبذلون جهودهم في حل تلك القضايا، وهذا من الوعي الفكري عند الصحابة رضي الله عنهم في واقعهم وواقع أعدائهم.

ثالثًا: اهتمام النبي ﷺ بإرسال تلك السرية إلى بني أسد؛ ليباغتهم قبل أن يجتمعوا ويكون لهم جيش كبير، وهذا يدل على الدقة في التخطيط الحربي، وقد حصل ما أراده النبي؛ حيث أدركهم أبو سلمة قبل أن يجتمعوا، فذهلوا من وصول المسلمين إليهم وهم يظنون أن وقعة أُحد قد قضت عليهم فأصيبوا بالرعب من المسلمين وعدلوا عن عزمهم على غزو المدينة.

وبنو أسد لم يستفيدوا من درس غزوة حمراء الأسد التي أراد بها الرسول ﷺ إرهاب أعدائه جميعًا وإظهار المسلمين بمظهر القوة، فجاءت هذه السرية؛ لتُلَقِّن بني أسد درسًا لن ينسوه، أما بقية الأعداء وعلى رأسهم أهل مكة فإنهم قد وعوا الدرس جيِّدًا، فلم يتجرءوا على غزو المدينة.

رابعًا: خروج هذه السرية إلى أرض بعيدة من المدينة وإقدام أصحابها على غزو قوم في بلادهم يُعد نوعًا من الفدائية، وقد ضمت عددًا من وجوه المسلمين؛ من المهاجرين والأنصار الذين اشتهروا بالشجاعة والإقدام، وإذا تذكرنا أن بلاد بني أسد مجاورة لقبيلة غطفان الكبيرة القوية فإن مجرد الإقدام على غزو تلك القبيلة في عقر دارها يعتبر مغامرة جريئة.

إن الذي يشارك في مثل هذا الخروج لا يؤمِّل في أن يعود سالما غانمًا، وإنما الذي يغلب على ظنه أن يظفر بالشهادة، ولهذا الهدف النبيل كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون في الخروج إلى الجهاد ويُغلِّبون جانب الدخول في مواطن الهلاك والخطر، كما مر علينا في تحمسهم للخروج إلى الأعداء يوم أحد، ولهذا فإن الناظر في هذه السرية الذي يريد أن يقدر مواقف أصحابها لا ينبغي له أن ينظر إلى نهايتها ونتائجها، وإنما ينبغي له أن ينظر إلى احتمال أن يكون بنو أسد قد علموا بالمسلمين منذ خروجهم من المدينة، فسارعوا في جمع الجموع لهم بالمستوى الذي كانوا يريدون به غزو المدينة، ثم يقدر جسامة الموقف وعظِم الخطر على المسلمين الذين سيواجهون - وهم مشاة -

أضعافهم من الأعداء الذين يملكون الخيل، فعند ذلك تظهر للمتأمل عظمة المسلمين وبطولتهم الخارقة.

خامسًا: في هذا الخبر مثلٌ من تفوق المسلمين في الرصد الحربي والدقة في التوقيت؛ حيث استطاع أصحاب هذه السرية أن يصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بُعد المسافة، ولقد كان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية.

إن مجرد شعور الأعداء بمقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة يجعلهم يمتلئون رعبًا منهم ويتوقعون منهم الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور يحملهم على الاعتراف بقوة المسلمين ومسالمتهم.

*****

سياسة حازمة وفدائية نادرة

«خبر ابن أنيس مع خالد الهذلي»

أخرج الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه قال: دعاني رسول الله ﷺ، فقال: «**إنه بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس؛ ليغزوني، وهو بعُرنة**[١] **فأته فاقتله**»، قال: قلت: يا رسول الله، انعته لي حتى أعرفه، قال: «**إذا رأيته وجدت له قشعريرة**»[٢].

قال: فخرجت متوشحًا بسيفي، حتى وقعت عليه وهو بعُرنة مع ظُعن يرتاد[٣] لهن منزلاً، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه مجاولة[٤] تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي للركوع والسجود.

فلما انتهيت إليه قال: مَن الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبَّات عليه.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني، قال: «**أفلحَ الوجهُ**»، قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: «**صدقتَ**»، قال: ثم قام معي رسول الله ﷺ، فدخل في بيته، فأعطاني عصًا، فقال: «**أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس**».

قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ، فتسأله عن ذلك! قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «**آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخصِّرون يومئذ**»[٥]، فقرنها

---

(١) هو: الوادي المشهور بعرفة.

(٢) جاء في رواية الواقدي: «وكنت لا أهاب الرجال، فقلت: يا رسول الله، ما فرقت من شيء قط، فقال رسول الله ﷺ: «بلى آية بينك وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته»، مغازي الواقدي: ٢/ ٥٣٢.

(٣) يعني: النساء.

(٤) أي: صراع وطراد.

(٥) يعني: المتكئون على المخاصر، وهي العصى.

عبد الله بسيفه فلم تزل معه، حتى إذا مات أمر بها فضمت في كفنه، ثم دفنا جميعًا[1].

وأخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق بهذا الإسناد، غير أنه سقط من الإسناد ابن عبد الله بن أنيس، وذكر مثله، وزاد: وقال عبد الله بن أنيس في ذلك:

تركتُ ابن ثور كالحُوار[2] وحوله ... نوائح تفْري كل جيب مقدَّد

تناولته والظُّعن خلفي وخلفه ... بأبيض من ماء الحديد مهنَّد[3]

إلى أن قال:

وقلت له خذها بضربة ماجد ... حنيف على دين النبي محمد

وكنت إذا همَّ النبي بكافر ... سبقت إليه باللسان وباليد[4]

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: موقف للرسول ﷺ في دقة الرصد الحربي والحزم في مواجهة الفتن وقوة الإدراك في سياسة الأمور، وإعداد الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها الملائم لها؛ فقد رأينا رسول الله ﷺ في هذا الخبر قد تنبه لتحركات عدو خطير بدأ يجمع الناس حوله؛ لغزو المسلمين، فلم يمهله حتى يكثر جمعه ويشتد ساعده، بل فكر في القضاء على الفتنة وهي في أيامها الأولى بالقضاء على مصدرها وأساسها، فوجَّه للقضاء عليها سهمًا من سهامه الصائبة الذين رباهم على يديه، ورفعهم الله بدعوته إلى الآفاق العليا.

وهكذا يجب على من ولاه الله أمرًا من أمور الأمة أن يكون حازمًا في قطع مادة الفتنة وهي لاتزال في مهدها؛ لأنها والحال هذه لا تكلف الأمة تضحيات كبيرة،

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٩٦، وقد تم تصحيح بعض الأخطاء فيه من سيرة ابن هشام، وأخرجه الإمام أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب: صلاة الطالب، رقم: ١٢٤٩ «٢/ ٤١»، وحسَّن الحافظ ابن حجر إسناده «فتح الباري ٧/ ٣٨٠»، وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني، وقال: رجاله ثقات، مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٤.

(٢) الحوار بضم الحاء: هو جنين الناقة إذا استخرج من بطنها بعد نحرها.

(٣) أي: بسيف مصنوع من الحديد الخالص ومن إنتاج الهند وهي أجود السيوف.

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٨٣- ٣٨٦.

بخلاف ما إذا استفحل أمرها، فإن خطرها يكون كبيرًا، والقضاء عليها يكلف الأمة جهودا كبيرة وخسائر فادحة.

ثانيًا: حسن اختيار النبي ﷺ لذوي الكفاءات؛ حيث كان يختار لكل مهمة مَن يناسبها؛ فيختار للقيادة من يجمع بين سداد الرأي وحسن التصرف والشجاعة، ويختار للدعوة والتعليم من يجمع بين غزارة العلم ودماثة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء من يجمع بين حُسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائية يختار من يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر.

وهكذا اختار النبي ﷺ لهذه المهمة عبد الله بن أُنيس؛ لكونه عالي الشجاعة قوي القلب، ومما يدل على قوة قلبه قوله: «وكنت لا أهاب الرجال»، وقوله: «ما فَرقت من شيء قط»؛ أي أنه لم يكن يشعر بالخوف من أي إنسان إذا قابله ولو كان في غاية الشجاعة والقوة، ولا من أي حيوان وإن كان في غاية الوحشية؛ فلذلك اختاره النبي ﷺ، وجعل علامة خالد الهذلي التي يعرفه بها أنه إذا رآه وجد في نفسه قشعريرة منه؛ يعني من الخوف، وهذا يعني أنه لم يكن يجد ذلك في نفسه من أحد قبله وإلا لما حصلت له هذه العلامة.

كما أن عبد الله بن أنيس كان يتمتع بالمقدرة على التحكم في مشاعره، فهو حينما رأى خالد الهذلي بدا عليه الخوف، والخوف يظهر في اصفرار الوجه، وحينما همَّ بالفتك به لابد أن يكون قد ارتفعت عنده نسبة الغضب إلى حدٍّ كبير، والغضب عادة يظهر في اسوداد الوجه، وكلما هم الإنسان في الدخول في أمر عظيم ظهر ذلك على تقاسيم وجهه، لكن ابن أنيس استطاع كتمان مشاعره، وظهر لذلك الرجل وكأنه لم يشعر نحوه بأي خوف، ثم أقدم على قتله وكأنه لم يظهر عليه شيء من الغضب، وبذلك استطاع أن يُلبس عليه أمره وأن يظهر أمامه بمظهر الرجل الناصح الذي يريد أن يكون تابعًا له ينفذ له أوامره، وبهذه المقدرة الفائقة من ابن أنيس على كتمان مشاعره وثِق به خالد الهذلي فأمِنه ولم يحترز منه.

ثالثًا: الإشارة إلى الجهد الكبير الذي بذله هذا الصحابي الجليل في تنفيذ أمر النبي ﷺ؛ حيث قطع وحده مسافات شاسعة، وبالغ في الاستخفاء حتى لا ينكشف أمره،

ثم تحين الفرصة المناسبة للقضاء على عدوه، حتى قضى عليه وأراح المسلمين من شرِّه وبلائه.

وإذا أردنا أن نتصور عظمة الجهد الذي بذله، فلنتصور مشاعره وهو مقدم على أداء تلك المهمة؛ حيث تكتنفه مشاعر الفرح في حال نجاحه، والكآبة والحزن في حال إخفاقه، ثم لنتصور أسوأ الاحتمالات التي سيلقاها مثل أن يواجه خصمه وهو في عُصبة من قومه، ثم يكتشف خصمه مراده، فماذا يكون موقفه آنذاك؟

إنه وأمثاله من الأطهار الذين تخرجوا في مدرسة النبوة لا يهتمون لأنفسهم إطلاقًا، بل أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة، ولكنه يهتم لموضوع الإخفاق في أداء مهمته؛ حيث إنه لو استشهد واكتشف عدوه مهمته، فإن ذلك سيزيد في إيغار صدره على المسلمين وإغرائه بهم، وهذا يعني أن ابن أُنيس سيبذل كل طاقته في سبيل نجاح مهمته.

رابعًا: إن كل عامل يقدم أعمالاً كبيرة أو صغيرة، فإنه ينظر جزاءها، فأهل الدنيا يحصلون على جزائهم بالمكافآت المادية أو المعنوية، لكن الصحابة رضي الله عنهم وسائر المتقين لا ينتظرون جزاءً في الدنيا، ولو حصلوا على شيء من ذلك فإنه لا يعتبر عندهم شيئًا كبيرًا، وإنما ينتظرون جزاءهم في الآخرة.

ولهذا كانت مكافأة هذا البطل العظيم التي غبطه عليها الصحابة هي تلك العصا التي ستكون علامة بينه وبين رسول الله ﷺ يوم القيامة، وهذا يعني أن ذِكره سيرتفع في الآخرة.

وهكذا كافأه النبي ﷺ بهذا الجزاء العظيم الذي تهون أمامه الدنيا بأسرها، وهل أعظم جزاء من أن يعده النبي ﷺ بملاقاته يوم القيامة؟! وهل كانت أماني الصحابة التي كانوا حولها يدندنون إلا أن يكونوا مع النبي ﷺ في الجنة؟!.

*****

مواقف في سرية الرجيع(١)

أخرج الإمام البخاري من حديث ابن شهاب الزهري، قال: أخبرني عمرو بن جارية الثقفي حليف بني زهرة، وكان من أصحاب أبي هريرة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرةً عينًا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جدَّ عاصم بن عمر بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدأة بين عُسفان ومكة(٢) ذُكروا لحيٍّ من هُذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ، فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا: تمرُ يثرب، فاتبعوا آثارهم، فلما حسَّ بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدًا.

فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم، أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا(٣)، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خُبيب وزيد بن الدَّثِنة ورجل آخر(٤)، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبُكم، وإن لي بهؤلاء أسوة -يريد القتلى- فجرَّروه وعالجوه، فأبى أن يصحبهم(٥).

فانطُلق بخبيب وزيد بن الدَّثِنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خُبيبًا، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى أجمعوا قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحدُّ بها، فأعارته، فدرج بُنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجلسه على فخذه والموسى بيده، قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك.

---

(١) الرجيع: اسم مكان في بلاد هذيل، كانت الوقعة بقربه، قال البلادي: ويعرف اليوم بالوطيَّه «الوطأة»، وهو ماء شرق عسفان يسار الخارج من عسفان إلى مكة، يفرق طريقه على ثلاثة عشر كيلا من عسفان، ويبعد عن الطريق قرابة سبعة أكيال في لحف حرة الجابرية، معجم معالم الحجاز: ٤/ ٣٥.

(٢) الهدأة: اسم مكان لهذيل قرب الرجيع.

(٣) جاء في نسخة البخاري التي اختارها الحافظ ابن حجر: «فقتلوا عاصمًا في سبعة»، قال: أي في جملة سبعة.

(٤) هو: عبد الله بن طارق، كما في رواية ابن إسحاق.

(٥) جاء في رواية ابن إسحاق: «ثم أخذ سيفه، فاستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه».

قالت: والله ما رأيت أسيرًا قطُّ خيرًا من خُبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل قطفًا من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزقٌ رزقه الله خبيبًا.

فلما خرجوا به من الحرم؛ ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللهم احصهم عددًا، واقْتلهم بددًا، ولا تُبق منهم أحدًا، ثم أنشأ يقول:

فلستُ أبالي حين أُقتل مسلمًا … على أيِّ جنب كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ … يُبارك على أوصال شلْوٍ ممزَّعِ

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، وكان خبيب هو سنَّ لكل مسلم قُتل صبرًا الصلاةَ.

وأخبر -يعني النبي ﷺ- أصحابه يوم أصيبوا خبرهم.

وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتل أن يؤتَوا بشيء منه يعرف -وكان قتل رجلاً عظيمًا من عظمائهم- فبعث الله لعاصم مثل الظُّلة من الدَّبْر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا(١).

وأخرجه ابن إسحاق بزيادات واختلاف في بعض سياقه(٢).

وقد جاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين قالوا للمسلمين: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكن نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم.

فأما مَرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا، فقال عاصم بن ثابت:

ما علَّتي وأنا جلْد نابلٌ … والقوسُ فيها وتر عنابل(٣)

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٣٩٨٩، ٤٠٨٦، «٧/ ٣٠٨، ٣٧٨».
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٥٦-١٦٦.
(٣) أي: غليظ.

تزلُّ عن صفحتها المعابل[١] الموتُ حق والحياةُ باطل

وكل ما حمَّ الإله نازل بالمرء، والمرءُ إليه آئل

إن لم أقاتلكم فأمي هابل[٢]

قال عاصم بن ثابت أيضًا:

أبو سليمان ومثْلي رامَى وكان قومي معشرًا كراما

وكان عاصم بن ثابت يكنى: أبا سليمان، ثم قاتل القوم عاصم حتى قُتل وقُتل صاحباه.

فلما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرتْ على رأس عاصم لتشربن في قحفه[٣] الخمر، فمنعته الدَّبر[٤]، فلما حالت بينه وبينهم الدبر قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه، فنأخذه، فبعث الله الوادي[٥]، فاحتمل عاصمًا، فذهب به[٦]، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدًا ألا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا، تنجسًا، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدَّبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدَّثنة فابتاعه صفوان بن أمية؛ ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له: نسطاس إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم؛ ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدم؛ ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو

---

(١) أي: النصال العريضة الطويلة. (٢) قال ابن هشام: هابل: ثاكل.

(٣) القحف: العظم الذي فوق الدماغ.

(٤) جمع الدبُور: يعني صارت الدبابير تلسعهم فحمته منهم.

(٥) أي: أجرى الله الوادي بالسيل.

(٦) وجاء في رواية الواقدي: فلما جاء الليل بعث الله عليه سيلاً -وكنا ما نرى في السماء سحابًا في وجه من الوجوه- فاحتمله، فذهب به فلم يصلوا إليه.

فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا، ثم قتله نسطاس، يرحمه الله.

قال ابن إسحاق: وكان مما قيل في ذلك من الشعر، قول خبيب بن عدي حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لصلبه:

لقد جمَّع الأحزاب حولي وألَّبوا	قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلُّهم مُبدي العداوة جاهدٌ	عليَّ لأني في وَثاق بمَضْيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم	وقُرِّبتُ من جذع طويل ممنَّع
إلى الله أشكو غُربتي ثم كربتي	وما أرْصَد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبِّرني على ما يُراد بي	فقد بَضَعوا لحمي وقد ياس مطمَعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شلْو مُمزَّع
وقد خيَّروني الكفر والموت دونه	وقد هملَت عيناي من غير مَجزع
وما بي حذارُ الموت إني لميتٌ	ولكنْ حذَاري جَحْم نار مُلفَّع
فوالله ما أرجُو إذا متُّ مُسلما	على أي جنْب كان في الله مصرعي
فلست بمبد للعدو تخشُّعا	ولا جزَعا إني إلى الله مَرجعي(١)

في هذا الخبر مواقف وعبر، فمن ذلك:

أوَّلا: خروج هذه السرية بهذا العدد القليل إلى تلك المسافة البعيدة، يُعدُّ مغامرة جريئة وتضحية كبيرة.

وقد كانت مهمتهم التجسس على الأعداء، كما جاء في هذه الرواية؛ وذلك لما تنامى إلى أسماع النبي ﷺ وأصحابه من أخبار بعض القبائل التي تتحدث بغزو المدينة، ومن ذلك ما سبق في خبر بني أسد وخالد بن نبيح الهذلي، فكان لابد من المغامرة بعدد محدود من المسلمين؛ ليوافوا رسول الله ﷺ ومستشاريه بأخبار الأعداء قبل أن يتجمعوا ويصعب القضاء عليهم.

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٥٧- ١٦٧.

وأخرجه الواقدي عن عدد من الشيوخ، وذكره نحوه، مغازي الواقدي: ١/ ٣٥٤- ٣٦٣، وذكر أن الوقعة كانت في شهر صفر سنة أربع من الهجرة.

وقد جاء في رواية ابن إسحاق ما يفيد بأن لهذه السرية مهمة دعوية، وفي ذلك يقول عاصم بن عمر بن قتادة: قدم على رسول الله ﷺ بعدَ أُحد رهطٌ من عُضل والقارة، فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلامًا، فابعث نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رواية البخاري، ثم قال: وقد خالفه محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة بن الزبير في بعض ذلك، ولنذكر كلام ابن إسحاق؛ ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف، على أن ابن إسحاق إمام في هذا الشأن غير مدافع، كما قال الشافعي رحمه الله: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق[1].

لكن يمكن الجمع بين الروايتين باحتمال أن النبي ﷺ قد بعث أفراد تلك السرية للمهمتين معًا، وأن إحدى المهمتين علنية وهي المهمة الدعوية التي ذكرها عاصم بن عمر في رواية ابن إسحاق، والأخرى سرِّية وهي مهمة التجسس على الأعداء، فذكر عاصم عن أشياخه من الأنصار المهمة المعلنة، ووعى أبو هريرة المهمة السرية عمن أخبره من الصحابة؛ حيث لم يهاجر إلى المدينة إلا في العام السابع فحدث بها، ولعله رأى هو أو من حدثه أنها المهمة الأساسية فاكتفى بذكرها، ويكون من أخبر عاصم بن عمر ابن قتادة بالمهمة العلنية لم يعلم بالمهمة السرية، والله أعلم.

هذا هو أهم الاختلافات بين ا لروايتين، وهناك اختلافات أخرى، منها: أن أمير السرية في رواية البخاري هو عاصم بن ثابت، وفي رواية ابن إسحاق مَرثد بن أبي مرثد، ومنها: أن عدد أفراد السرية في رواية البخاري عشرة، وفي رواية ابن إسحاق ستة، لكن رواية البخاري هي المقدمة في ذلك؛ لأنها أصح.

ثانيًا: موقف جليل لعاصم بن ثابت وجماعته رضي الله عنه؛ حيث أبوا أن يستسلموا وأن ينزلوا على ذمة الكفار، وتصدوا لقتال مائة من الرماة، وقتل بنبال العدو سبعة من العشرة، فيهم أميرهم عاصم بن ثابت، وبقي ثلاثة، هم: خبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثنة، وعبد الله بن طارق، فاختاروا الاستسلام بعد قتل أصحابهم، ثم حاول المقاومة بعد ذلك عبد الله بن طارق فقتلوه، وبقي خبيب، وزيد، وكان بقاؤهما

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٦٦.

خيراً للمسلمين؛ حيث سطرا في الأيام الأخيرة من حياتهما مواقف عالية في الصبر على الأذى واحتساب الأجر عند الله تعالى وإظهار عزة الإسلام.

ثالثًا: في أشعار عاصم بن ثابت التي ذكرها ابن إسحاق في روايته تظهر عزة الإسلام والقوة في تحدي أهل الباطل.

وما جرى له من حماية الدبابير ومنعها المشركين من الدنو من جثته، ثم مجيء السيل وحمل جسده ودفنه عبرة عظيمة؛ حيث كان هذا الصحابي الجليل نذر ألا يمس جسده مشرك تنجسًا، وجاء في رواية الواقدي أنه بعد أن قاتل القوم قال: اللهم حميتُ دينك أول النهار فاحْم لي لحمي آخرَه.

فقد أكرم الله هذا الولي الصالح، فاستجاب دعاءه، فلم يعبث المشركون بجسده، ولم تتمكن سلافة بنت سعد بن شُهيد من شفاء غيظها منه بشرب الخمر في قحف رأسه.

ولقد كانت هذه الكرامة آية أظهرها الله تعالى لأولئك الأعراب؛ حيث عجزوا عن الوصول إلى جسد عاصم مرَّتين، ولئن قالوا: إن الدبابير جاءت صدفة. فكيف يقولون في السيل الذي جاء وما في السماء قطعة سحاب؟! وكيف يجتمع الأمران على سبيل الصدفة؟

لقد كان فيما جرى لهم من عاصم عبرة، لو اعتبروا بها لَقادتهم إلى الإسلام، ولكفَّروا عن ذنبهم الكبير بإطلاق الأسرى الثلاثة واتخاذهم أئمة هدى يتعلمون الإسلام منهم، ولكنهم أصحاب هوًى، والدِّين الذي يخضعون له هو مصالحهم الدنيوية، فقد قاموا بذلك العمل الشنيع من أجل أن يستأسر لهم أفراد السرية، ثم يبيعوهم من قريش، ولقد حرصوا على أخذ رأس عاصم؛ لضخامة الجُعل الذي جعلته سُلافة لمن يأتي برأسه، كما جاء في رواية الواقدي أنها جعلت لمن جاء برأس عاصم مائة ناقة، وكان عاصم قتل ابنيها الحارث ومسافعًا، كما جاء في رواية الواقدي، وكما سبق في غزوة أحد.

وهكذا تضيع الفضيلة وتفقد الكرامة حينما تسيطر النظرة المادية على تفكير الإنسان، وإذا خلا قلبه من الإيمان بالله تعالى الذي يسمو بفكره نحو الحياة الآخرة فإن

تفكيره يكون مقصوراً على الحياة الدنيا؛ من أجلها يحب ويبغض، ومن أجلها يوالي ويعادي، ويقسو قلبه ويتجبر حينما يغلب غيره ويكون في موطن القوة، ويضعف ويستخزي حينما يُغلب ويكون تحت رحمه غيره.

رابعًا: جرى لخبيب بن عدي رضي الله عنه وهو في محبسه مواقف وعبر، فمن ذلك خبره مع بُنيٍّ المرأة التي كان محبوسًا عندها حينما فزعت لما رأته معه والموسى بيده، فقال: «أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل»، وجاء في رواية الواقدي: «ما كنت لأقتله وما نستحل في ديننا الغدر»، وهذا مثلٌ من عظمة الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم، وإن كانوا قد ظلموهم، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم.

ومن ذلك: تجمله بالصبر وعدم إشفاقه من القتل، وفي ذلك تقول ماوية مولاة بني عبد مناف التي كان محبوسًا عندها: «فقلت له: يا خبيب، هل لك من حاجة؟ قال: لا، إلا أن تسقيني العذب ولا تطعمني مما ذُبح على النُّصب، وتخبريني إذا أرادوا قتلي، قالت: فلما انسلخ الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله، أتيته فأخبرته، فوالله ما رأيته اكترث لذلك»، وذكره الواقدي في روايته، وذكر أن ماوية هذه قد أسلمت فيما بعد وحسُن إسلامها.

ومن جلَده وصبره الجميل قوله لهم: «دعوني أصلِّي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت» وقوله في شِعره الذي جاء في هذه الروايات:

فلست أبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أي جنب كان لله مصرعي

إلى أن قال:

فلست بمبدٍ للعدو تخشُّعا ... ولا جزعًا إني إلى الله مرجعي

ولا شك أن هذا الجَلَد القوي والصبر الجميل يغيظ الأعداء؛ لأنه يُضعف من مفعول كيدهم.

وفي صلاة خبيب قبل القتل يروي الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أول من سنَّ الركعتين عند القتل خبيب.

وهذا موقف يذكر له رضي الله عنه؛ حيث كانت الصلاة هي آخر عمل قدمه قبل موته.

وجاء في رواية الواقدي أنهم ساوموه؛ ليرجع عن دينه فأبى عليهم، وفي ذلك يقول فيما يرويه عن شيوخه: قالوا: فلما صلَّى الركعتين حملوه إلى الخشبة، ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطًا، ثم قالوا: ارجع عن الإسلام نخل سبيلك. قال: لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعًا.

وهذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء؛ حيث تعلو النفوس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة والمفاهيم العالية، فما في الأرض جميعًا من متاع لا يساوي شيئًا في جانب الهداية إلى الصراط المستقيم، والبقاء على قيد الحياة مطلب رخيص إذا قورن بالثبات على الإيمان والاستشهاد في سبيله، وقد جاء هذا المعني في كلام خبيب، كما في رواية الواقدي: «فجعلوا يقولون: ارجع يا خبيب. قال: لا أرجع أبدًا. قالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنَّك. قال: إنَّ قتلي في الله لقليل».

وجاء في إحدى روايات البخاري: أن خبيبًا لما قُتل مكث ساعة يوحد الله ويشهد أن محمداً رسول الله، ثم ذكر الراوي قول الأخنس بن شريق: لو ترك ذكر محمد على حال؛ لَتركه على هذه الحال، ما رأينا قط والداً يجد بولد ما يجدُ أصحاب محمد بمحمد ﷺ.

ومن ذلك ما أكرمه الله تعالى به من العنب الذي وصل إليه وهو موثقٌ بالحديد ولم يكن بمكة آنذاك شيء من العنب، وهذه الكرامة ساقها الله تعالى إليه؛ ليُثبته، ولتعظم طمأنينته بأن الله تعالى معه، وأنه قد رضي عنه، فإن شاء -جل وعلا- له الحياة فسينالها رغم ما هو فيه من حبسٍ وقيود، وإن شاء أن يتخذه شهيداً فهذا غاية ما يتمناه المؤمن الصادق.

ولقد كان في إشاعة هذا الخبر بين المشركين آية تهديهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي كان سببًا في ظهور تلك الكرامة الخارقة للعادة على يد خبيب، ولكنهم لم يكونوا متجردين من الهوى، ومن كان منهم قد تأثر بهذه العبرة وأمثالها، فإنه لا يستطيع أن يُظهر مشاعره خشيةً من زعماء الكفار.

خامسًا: تَبين لنا في رواية ابن إسحاق أنه حينما قدَّم المشركون زيد بن الدثنة رضي الله عنه للقتل قال له أبو سفيان: أنشُدُك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصبيه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا.

وهذا تعبير بليغ عن حب الصحابة الشديد لرسول الله ﷺ الذي يصل إلى فدائه بأنفسهم فضلاً عن أموالهم، ولقد جاء في رواية للواقدي مثل ذلك عن خبيب بن عدي رضي الله عنه.

ولقد اعترف بذلك زعماء الكفار في ذلك العصر، كما في هذا الخبر عن أبي سفيان، وفي خبر خبيب صدر عن الأخنس بن شريق[1]، وصدور هذا الاعتراف من الزعماء يدل على شهرة ذلك إلى الحد الذي لا يستطيعون إخفاءه.

وإذا نظرنا إلى حب الصحابة لرسول الله ﷺ باعتباره زعيمًا لتجمع ديني -كما يراه الكفار المعاصرون له الذين لا يؤمنون بكونه رسولاً- فإن ذلك يبعث فيهم الإحباط واليأس من إمكانية القضاء عليه وعلى تجمعه؛ لاستحالة وجود أهم عناصر الفشل والانهزام وهو ضعف الثقة بين الزعيم وجنوده، كما أن اعتراف زعماء الكفار بعدم وجود زعيم يحبه جنوده كحب المسلمين لرسول الله ﷺ يجب أن يقودهم إلى التفكير المتأمل في هذا الموضوع؛ لمعرفة سبب انفراد النبي ﷺ من بين الزعماء بهذه الميزة العظيمة، وبالتالي فإن ذلك يفرض عليهم الإيمان بكونه رسولا من عند الله تعالى؛ لأن هذه هي الخصوصية الوحيدة البارزة، وكونه ﷺ يتمتع بأعلى المواهب الإنسانية إنما هو لوازم الرسالة، ولم يكن النبي ﷺ ينسب لنفسه أي تفوق في تلك المواهب، وإنما كان الشيء الوحيد الذي يدعو إليه هو الإيمان بكونه مرسلاً من الله تعالى، ولكن الكفار كانوا في سُبات عميق وحُجب كثيفة؛ من اتباع هوى النفوس، وتقديس ميراث الآباء والأجداد، والاعتزاز بالمجد الدنيوي، فلم يُعملوا أفكارهم في المقارنة بين المقدمات

---

(١) ينبغي أن يعلم أن أبا سفيان قد أسلم عام الفتح، وحسُن إسلامه، وذكر الحافظ ابن حجر الخلاف في إسلام الأخنس ورجَّح إسلامه، الإصابة: ١/ ٣٩، رقم: ٦١.

والنتائج، فكانوا يطلقون المقدمات التي تلزمهم بنتائجها، ولكنهم لا يبحثون في أسباب تلك المقدمات ولا يلزمون أنفسهم بنتائجها.

سادسًا: في هذا الخبر بُذلت دماء ذكية في سبيل الله تعالى، وبعضها قتل أصحابها صبرًا وعلى مشهد يضم جمعًا كبيرًا من الناس، وهذه الدماء الزكية تُعد من أهم الأسباب التي تغذي الدعوة الإسلامية وتدفع بها إلى الأمام؛ لأن الذين يحضرون هذه المشاهد أو تُروى لهم يعلمون أن وراءها هدفًا كبيرًا ساميًا هو: نصرة الإسلام، وبالتالي يعلمون أن هذا الدين الذي يحمل أتباعه على بذل النفوس طواعية وبشوق بالغ من أجله، والصبر الطويل الجميل على الأذى في سبيله، يعلمون أنه الدين الحق الذي يجب الإيمان به واتِّباعه.

ولا شك أن هذا الحادث الجلل قد ترك أثرًا واضحًا على مفكري قريش؛ حيث دفعهم إلى الميل نحو الإسلام والتعاطف مع المسلمين، إضافة إلى الأحداث الأخرى المشابهة؛ مما جعل دخولهم في الإسلام سريعًا بعد فتح مكة المكرمة.

*****

مواقف في سرية بئر معونة

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة -وَوَلِي تلك الحجة المشركون- والمحرَّم، ثم بعث رسول الله ﷺ أصحاب بئر معونة في صفر، على رأس أربعة أشهر من أُحد(١).

وكان من حديثهم، كما حدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وغيره من أهل العلم قالوا: قدم أبُو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك؛ رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «**إني أخشى عليهم أهل نجد**»؛ قال: أنا لهم جار، فابعثهم فليدْعُوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة، المُعنق ليموت(٢) في أربعين رجلاً من أصحابه(٣) من خيار المسلمين، منهم: الحارث بن الصُّمَّة، وحرام بن ملْحان أخو بني عدي بن النجار، وعروة بن أسماء بن الصَّلت السلمي ونافع بن بُديَل بن ورْقاء الخزاعي، وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر الصديق، في رجال مُسمَّيْن من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سُليم، كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرة بني سُليم أقرب.

---

(١) يعني: في السنة الرابعة للهجرة.

(٢) المعنق: المسرع؛ وإنما سمي بذلك؛ لإسراعه إلى الشهادة، واللام في «ليموت» للعاقبة؛ أي إن عاقبة خروجهم الموت.

(٣) جاء في رواية الإمام البخاري ومسلم أن عددهم سبعون، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن الأربعين هم القُراء الذين وكل إليهم النبي ﷺ مهمة الدعوة، والثلاثين أتباعٌ لهم يساعدونهم في المهام الجهادية؛ من الحراسة والحماية والدفاع، فيكون بعض الرواة ذكروا العدد الكامل وبعضهم ذكر عدد الذين أُنيطت بهم المهمة المذكورة، ولعل الحافظ ابن حجر يشير إلى ذلك حينما قال في الجمع بين الروايتين بعدما ذكر خبر ابن إسحاق: ويمكن الجمع بينه وبين الذي في الصحيح بأن الأربعين كانوا رؤساء وبقية العدة أتباعًا، فتح الباري: ٧/ ٣٨٧.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل؛ فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله[1]، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نُخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً؛ فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عُصيَّة ورِعْل وذَكْوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشُوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قُتلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتُث[2] من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً، رحمه الله.

وكان في سرح[3] القوم عمرو بن أمية الضَّمري، ورجل من الأنصار، أحد بني عمرو بن عوف[4]، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: والله إن لهذه الطير لشأناً. فأقبلا؛ لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر. فقال الأنصاري: ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنتُ لتُخبرني عنه الرجال. ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجزَّ ناصيته؛ وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر[5] حتى نزلا معه في ظلٍّ هو فيه، وإن كان مع العامريَّيْن عَقدٌ من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر. فأمهلهما، حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «**لقد قتلت قتيلين، لأَدِينَّهما**».

---

(١) جاء في رواية البخاري: «فأومأوا إلى رجل، فأتاه من خلفه فطعنه»، فتكون نسبة القتل إلى عامر؛ لأنه هو الذي أمر بذلك.

(٢) ارتث على البناء المجهول: أي حمل من المعركة رثيثًا؛ أي جريحًا وبه رمق.

(٣) السرح: الماشية في حال ذهابها إلى المرعى.

(٤) قال ابن هشام: هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أُحيحة بن الجلاح.

(٥) قال ابن هشام: ثم من بني كلاب، وذكر أبو عمرو المدني أنهما من بني سليم.

ثم قال رسول الله ﷺ: «**هذا عمل أبي براء، وقد كنت لهذا كارهًا متخوِّفًا**»، فبلغ ذلك أبا براء، فشق عليه إخفارُ عامر إياه، وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره؛ وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة.

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة، عن أبيه، أن عامر بن الطفيل كان يقول: مَن رجلٌ منهم لما قُتل رأيته رُفع بين السماء والأرض، حتى رأيت السماء من دونه؟ قالوا: هو عامر بن فُهيرة(١).

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض بني جَبار بن سَلمى بن مالك بن جعفر، قال: وكان جبار فيمن حضرها يومئذ مع عامر، ثم أسلم، قال: فكان يقول: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرتُ إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: فزتُ والله! فقلت في نفسي: ما فاز! ألستُ قد قتلتُ الرجل! قال: سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعَمْر الله.

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت يحرض بني أبي بَراء على عامر بن الطفيل:

بني أمِّ البنين ألم يَرعْكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكُّم عامر بأبي براء ... ليُخْفره، وما خطأٌ كَعَمْد

ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي ... فما أحدثْت في الحَدثان بعدي

أبوك أبو الحرب أبو براء ... وخالُك ماجدٌ حكم بن سَعد

قال ابن إسحاق: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح، فوقع في فخذه، فأشواه(٢)، ووقع عن فرسه، فقال: هذا عمل أبي براَء، إن أمُتْ فدمي لعمِّي، فلا يُتْبعنَّ به، وإن أعشْ فسأرى رأيي فيما أُتي إلي(٣).

---

(١) جاء ذلك في رواية للإمام البخاري، وفيه: أن عامر بن الطفيل سأل عنه عمرو بن أمية الضمري، صحيح البخاري، رقم: ٤٠٩٣ «٧/ ٣٨٨».

(٢) أي: أخطأ مقتله.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٢- ٢١٧.

وأخرجه الإمام البخاري في عدة روايات مختصرة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٨٥، رقم: ٤٠٨٨- ٤٠٩٢. =

وجاء في إحدى روايات الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما طُعن حرام بن ملحان -وكان خاله- يوم بئر معونة قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة»[١].

وجاء في رواية مسلم من حديث أنس بن مالك: فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«إن إخوانكم قد قُتلوا، وإنهم قالوا: اللَّهم بلِّغ عنَّا نبينَا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا»**[٢].

وفي رواية للبخاري من حديث أنس بن مالك قال: «دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا حين يدعو على رعل ولحيان وعُصَيَّة، عصت الله ورسوله ﷺ، قال أنس: فأنزل الله -تعالى- لنبيه في الذين قتلوا أصحاب بئر معونة قرآنًا قرأناه، ثم نسخ بعد: بلِّغوا قومنا، فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه»[٣].

وقوله: «يدعو على رعل ولحيان وعصية»، وفي رواية البخاري يدعو على رعل وذكوان، ويقول: عصية عصت الله ورسوله، فأما بنو رعل وذكوان وعصية فهم فروع من قبيلة سُليم، وهم الذين قتلوا الصحابة في بئر معونة، وأما بنو لحيان فقد قتلوا الصحابة في بئر الرجيع -كما سبق- وكانت الحادثتان في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، فدعا عليهم رسول الله ﷺ جميعًا.

مواقف وعبر من هذا الخبر:

أحداث هذه السرية والسرية التي قبلها ونتائجهما تختلف عن أحداث ونتائج الغزوات والسرايا السابقة، فقد ألفنا في كل الغزوات والسرايا أن نرى انتصارات المسلمين الظاهرة مع ما يصيبهم منَ قتلٍ أو جراح، ولكننا في هاتين السريتين رأينا استئصالاً كاملاً للمسلمين.

= وأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه مختصرًا، صحيح مسلم، الإمارة، رقم: ٦٧٧، ص: ١٥١١.

وأخرجه الإمام ابن جرير الطبري من حديث ابن إسحاق بإسناد ابن هشام، ثم أخرجه عن ابن إسحاق عن حُميد الطويل عن أنس بن مالك، ثم أخرجه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري عن أنس بن مالك... وذكر نحوه، تاريخ الطبري: ٢/ ٥٤٥- ٥٥٠.

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٨٦، رقم: ٤٠٢٩.

(٢) صحيح مسلم، الإمارة، رقم: ٦٧٧، ص: ١٥١١.

(٣) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٨٩، رقم: ٤٠٩٥.

والحقيقة أن معايير الانتصار والانهزام لا تخضع لحجم الخسائر المادية التي من ضمنها وقوع الضحايا، وإنما تخضع لمدى الثبات على المبادئ التي قامت الحروب من أجلها أو التراجع في هذا الأمر، ومن ذلك معرفة مدى الحماس في تمثيل هذه المبادئ أو الفتور في تمثيلها، وشدة التلاحم بين القائد وجنوده أو ضعف ذلك، ومدى التماسك بين أفراد الجماعة قوةً أو ضعفًا، إضافة إلى مقدار التضحية بالنفس والمال من أجل خدمة المبادئ.

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين في العهد النبوي نجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في ثبات دائم على المبادئ السامية التي من أجلها قطعوا الوشائج مع الأقارب والأصدقاء والحلفاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، ونجد أن الانتصار المادي لا يبطرهم ولا يطغيهم، وأن الإصابات المادية لا تُضعفهم ولا تُحطم معنوياتهم، وأن حماسهم في الدفاع عن الإسلام ثابتٌ على قوته، وأن طاعتهم لقائدهم ﷺ تُعد مضرب الأمثال، حتى اعترف بذلك الأعداء أنفسهم، وأن سلوكهم الاجتماعي في قمة التفوق الأخلاقي؛ حيث يؤْثر بعضهم بعضًا بأمور الحياة الدنيا، وأن أسمى أمانيهم أن ينالوا الشهادة في سبيل الله -تعالى-، وهذا يعني أنهم في انتصار دائم وإن واجهوا الخسائر المادية في بعض لقاءاتهم مع أعدائهم.

نعم، لو أن أفراد هاتين السريتين ألْقَوا بأنفسهم لأعدائهم وتخلوا عن دينهم الذي من أجله خرجوا لكان ذلك هزيمة واضحةً لدولة الإسلام وانتكاسة كبرى للدعوة الإسلامية، ولكن أنَّى يكون ذلك وهم يتغنون بالشهادة ويقول الواحد منهم إذا قُتل: «فزتُ ورب الكعبة».

إن أعظم انتصار لدعوة الإسلام أن يجود أفرادها بدمائهم الزَّكية من أجلها.

إن الإسلام دين عظيم، ولا يُفدى العظيم إلا بالعظيم، ولا أعظم من أن يجود الإنسان بدمه فداءً لدينه؛ فلذلك كان استشهاد هؤلاء العظماء نصرًا عظيمًا للإسلام.

إن بعض النفوس تظل في شك من مصداقية هذه الدعوة ومدى ثباتها أمام الأعاصير العاتية، حتى ترى قسَمات الفرح بادية على وجوه أفرادها وهم يواجهون الموت في سبيلها.

وإن المشهد العالي الذي مثَّله حرام بن ملحان رضي الله عنه وقد اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه ويمسح به وجهه ورأسه، ويقول: «فزت ورب الكعبة»... إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجُّرًا يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لا تصفَرُّ وجوههم فزعًا من الموت، وإنما يعلوها البشر والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة، ولقد كان لبعض هذه المشاهد أثر في إسلامَ بعض مرتكبي هذه الجريمة فيما بعد، كما جاء في أخبار هذه السرية.

ونجد من المواقف العالية في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ وَدَى ذيْنَك الرجلين العامريَّين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري؛ لكونهما يحملان عقداً منه ﷺ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثِّل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزءاً من الانتقام الذي ينبغي أن يُواجَه به المجرمون المعتدون، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤاخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟!

إن هذا يُعد مثلاً من الرقي الأخلاقي الذي بلغه المسلمون في ظل تطبيقهم لتوجيهات الإسلام العالية.

*****

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني عن معمر عن الزهري قال: وأخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبي ابن سلول، ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر- يقولون: إنكم آويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإنا نقسم بالله لتقتلنَّه أو لتخرجنَّه، أو لنستعين عليكم العرب، ثم لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتليكم، ونستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك ابن أبي ومن معه من عبدة الأوثان، تراسلوا، فاجتمعوا وأرسلوا، وأجمعوا؛ لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم في جماعة، فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم**». فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرَّقوا.

فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة بدر، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلُنَّ صاحبنا أو لنفعلنَّ كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل.

فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلت إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولْنخرج في ثلاثين حبرًا، حتى نلتقي في مكان كذا نصَفٌ بيننا وبينكم، فيسمعوا منك؛ فإن صدَّقوك وآمنوا بك آمنا كلُّنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض، قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه، ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله؟! فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدَّقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا(١) على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ.

---

(١) أي: اليهود الثلاثة.

فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها -وهو رجل مسلم من الأنصار- فأخبرته ما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعًا، حتى أدرك النبي ﷺ، فسارَّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ.

فلما كان من الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحاصرهم، وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوْا أن يعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل إلاَّ الحلقة - والحلقة: السلاح - فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام.

وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل، لم يُصبهم جلاءٌ منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاء؛ فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ، فلولا ما كتب الله عليهم الجلاء لعذَّبهم في الدنيا كما عُذِّبت بنو قريظة، فأنزل الله: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ..** ﴾، حتى بلغ: ﴿ **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الحشر: ١- ٦]، وكانت نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، فأعطاه الله إياها، وخصَّه بها، فقال: ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ** ﴾ [الحشر: ٦]، يقول: بغير قتال، وقال: فأعطى النبي ﷺ أكثرَها للمهاجرين، وقسمها بينهم، ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما[(١)] وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ في يد بني فاطمة[(٢)].

---

(١) جاء في رواية ابن إسحاق أنهما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهما.

(٢) مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٣٥٨ - ٣٦١.

وأخرجه الإمام البخاري بعدَّة روايات مُختصرًا، صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٠٢٨- ٤٠٣٢ «٧/ ٣٢٩»، وأخرجه الإمام أبو داود من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد، وذكر نحوه، سنن أبي داود، الخراج باب: ٢٣، حديث: ٣٠٠٤ «٣/ ٤٠٤»، وأخرجه الحاكم مختصرًا، وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، المستدرك: ٢/ ٤٨٣، وذكر الحافظ ابن حجر أن الحافظ ابن مردويه أخرج هذا الخبر بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهري بهذا الإسناد، وذكر نحوه: فتح الباري: ٧/ ٣٣١، وأخرجه ابن إسحاق=

في هذا الخبر مواقف وعِبر، فمن ذلك:

أولاً: وصف ما تعرض له المسلمون في المدينة بعد هجرتهم من قيام زعماء الكفر بمكة بتأليب الوثنيين في المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام على حرب المسلمين من داخل المدينة، وكان عبد الله بن أبي ابن سلول آنذاك لم يسلم هو ومجموعة من قومه، وكاد أن يقوم هو وأتباعه بمحاربة المسلمين لولا أن النبي ﷺ نجح في إقناعهم بمخاطر قيام حرب داخل المدينة فأحجموا عن ذلك.

ولما أظهر ابن أُبي الإسلام بعد غزوة بدر هو وأتباعه يئس الكفار منهم، فكتبوا لليهود يهددونهم بمواجهتهم بحرب مفنية إن لم يقوموا بمحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه، وصادف ذلك هوًى في نفوسهم، فعزموا على الحرب ونقضوا العهد، ولكن لما كانوا عاجزين؛ لجبنهم عن مواجهة المسلمين قتاليًا فإنهم لجأوا إلى سلاحهم الذي يتقنونه ولا يكلفهم مشقَّة كبيرة ولا ثمنًا باهظا؛ حيث عزموا على الغدر برسول الله ﷺ واغتياله، وفي بالهم أنه لو تم ذلك لتفرق أصحابه وانتهت دولة الإسلام.

وفي هذا بيان لحجم المعاناة التي واجهها مجتمع الإسلام في أول نشوئه وفي حال قلة أفراده، وحينما يكون العدو من داخل البلد فإن عداوته تكون أنكى ومشكلته تكون أكثر تعقيداً؛ لأن الأعداء من الخارج تكون المواجهة معهم ليوم واحد أو أيام معدودة ثم ينتهي الأمر، أما الأعداء من الداخل فإن المصيبة بهم دائمة، والحذر منهم يجب أن يكون دائمًا.

ومن هذه المعاناة الشديدة ندرك حجم المخاطر التي واجهها رسول الله ﷺ وهو يقود مجتمعه الصغير بين أعداء من الخارج يصرفون طاقاتهم وأموالهم في تأليب القبائل العربية على حرب المسلمينً، ويقومون بغزو المدينة بجيوش ضخمة، وبين أعداء من الداخل أيديهم على أكبادهم من الغيظ الشديد والحنق الأثيم، إلى جانب ما يملكه اليهود من أموالٍ كثيرة يبخلون بها عن المكارم، ولكنهم يسْخون بها في مواجهة المسلمين في حربٍ يرونها مصيرية.

= مع الاختلاف في بيان سبب خروج النبي ﷺ إلى بني النضير؛ حيث ذكر أنه ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية الرجلين العامريَّين اللذين قلتهما عمرو بن أُمية، ثم همُّوا بالغدر به، وأن الله -تعالى- أخبره بما همُّوا بهَ، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٩- ٢٢٥.

مواقف في التوكل على الله
والشجاعة والعفو عند المقدرة

قال الإمام البخاري: وقال ابن إسحاق: سمعت وهب بن كيسان، سمعت جابراً يقول: «خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعًا من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضُهم بعضًا، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف»(١).

وأخرج الإمام البخاري -رحمه الله- من حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضَاه(٢)، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر ونزلَ رسول الَله ﷺ تحت شجرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده متكئًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فهاهو ذا جالس**»، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ.

وقد جاء في رواية أخرى للإمام البخاري أن اسم هذا الأعرابي «غوْرث بن الحارث»(٣).

وأخرج محمد بن إسحاق بإسناده عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين -يعني: أخذها سبيَّة- فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً، أتى زوجُها وكان غائبًا، فلما أُخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد ﷺ دمًا، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فقال: «**من رجلٌ يكلؤنا لليلتنا هذه؟**» قال: فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «**فكُونا بفم الشِّعب**»، قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي، وهما: عمار بن ياسر، وعباد بن بشر، فيما قال ابن هشام.

---

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤١٢٧، ٧/ ٤١٧، وانظر سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٩.
(٢) العضاه: شجر السمر الكبار.
(٣) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٤٢٦، رقم: ٤١٣٥، ٤١٣٦، وقد تقدم في غزوة ذي أمَرْ خبر مشابه، ٥/ ٣٨، إلا أن صاحب تلك القصة هو دُعثور بن الحارث، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن الظاهر من كلام الواقدي أنهما قصتان في غزوتين، الفتح: ٧/ ٤٢٨.

قال ابن إسحاق: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: أيُّ الليل تحب أن أكفيكه؛ أوَّله أو آخره؟ قال: بل اكفني أوله. قال: فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يُصلي، قال: وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم -يعني: طليعة القوم- قال: فرمى بسهم فوضعه فيه، قال: فنزعه ووضعه، فثبت قائمًا، قال: ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، قال: فنزعه، فوضعه وثبت قائمًا، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه -يعني: أيقظه من نومه- فقال: اجلس فقد أُثبتُّ -يعني: أثبتتني الجراحة- قال: فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أنهما قد نذرا به فهرب، قال: ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله، أفلا أهببْتني أوَّل ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذنتك، وأيم الله، لولا أن أُضيع ثَغرًا أمرني رسول الله ﷺ لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنْفذَها[1].

في هذه الأخبار مواقف:

الموقف الأول: في مبادرة النبي ﷺ إلى غزو قبيلة غطفان في مكان تجمعهم وعدم تأخير ذلك إلى أن يصلوا إلى المدينة، وقد سبق في سرية أبي سلمة بيان محاولة قبيلة غطفان الوصول إلى المدينة؛ لغزو أهلها، ونهب ما يستطيعون من خيراتها.

وقد كان في خروج النبي ﷺ إليهم في مكان تجمعهم أقوى رادع لهم عن التفكير مرة أخرى في غزو المدينة.

الموقف الثاني: في اتصاف النبي ﷺ بالتوكل على الله -تعالى- والاعتماد عليه في النصر على الأعداء، فحينما قال له غورث بن الحارث: من يمنعك مني؟ قال: «**الله**»، وهذا يُعدُّ درسًا للأمة في اللجوء إلى الله -سبحانه وتعالى- واستمداد النصر منه وحده.

الموقف الثالث: في اتصاف النبي ﷺ بالشجاعة الفذَّة ورباطة الجأش؛ حيث كان ثابتَ القلب، هادئ النفس والسيفُ في يد عدوه مُصْلتًا وهو مجرَّد من السلاح.

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٥، وقال الحافظ ابن حجر: وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطني، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، فتح الباري: ١/ ٢٨١.

الموقف الرابع: في اتصاف النبي ﷺ بالعفو عند المقدرة؛ فقد عفا عن ذلك الأعرابي وهو مستحق العقوبة، والعفو عند المقدرة خصلة عظيمة لا يقدر عليها إلا الكاملون من الرجال.

ولا شك أن لهذا الخُلق الكريم أثرًا بالغًا في الدعوة إلى الإسلام، فقد جاء في بعض روايات هذا الخبر أن ذلك الأعرابي أسلم، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير[(١)].

الموقف الخامس: في الخبر الأخير مثلٌ واضح على قوة الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله -تعالى- لدى الصحابة رضي الله عنهم، كما أنه يدل على عنايتهم بالصلاة وأنها أغلى عندهم من أنفسهم وأموالهم، وهذه الصلاة التي عمرت بالخشوع وتُوِّجت بحضور القلب مع الله -تعالى- هي الصلاة المؤثرة التي أنجبت أبطالاً عظماء كهؤلاء الصحابة الكرام، فعلى قدر ما يعطونه ربهم -جل جلاله- في الليل من الخضوع والتذلل وتجريد القلب لعبادته يعطيهم بالنهار من القوة على مكابدة الأعداء ومواجهة الشدائد؛ ولذلك لا نجد في الأمر غرابة إذا وجدناهم ينامون قليلاً من الليل، ويواجهون عدوهم مع انبلاج الفجر بعزائم قوية وهمم عالية تفوق طاقة الكفار بأضعاف، مع أن أعداءهم قد أخذوا قسطًا أكبر بكثير من النوم والراحة، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم كما جاء في وصفهم «عُبَّادٌ في الليل، فرسانٌ في النهار».

ونلاحظ في هذا الخبر أن عبَّاد بن بشر قد أغفل من حساب فكره النظر إلى مستقبل أولاده وأهله وأمواله فيما إذا أصيب واستُشهد، وإنما كان يوازن النظر حينما رماه ذلك الرجل بين أمرين: أن يكمل السورة التي بدأها أو أن يقطعها؛ ليوقظ أخاه عماراً حتى لا يضيع المهمة الكبيرة التي أناطها به رسول الله ﷺ، وكلا الأمرين من أمور الآخرة، وبهذا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يحسبون للدنيا حسابًا في تفكيرهم، وإنما كان تفكيرهم منحصراً في أعمال الآخرة.

ومما تنبغي الإشارة إليه أن عباد بن بشر الأشهلي الأنصاري لم يُستشهد في ذلك اليوم، فقد برئ من جراحه، وإنما استُشهد في معركة اليمامة رضي الله عنه.

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٤٢٨.

قال الواقدي: وكانت لهلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهرًا، وغاب رسول الله ﷺ فيها ست عشرة ليلة، ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من ذي القعدة، واستخلف على المدينة ابن رواحة.

ثم أخرج عن عدد من الشيوخ أنهم قالوا: لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أُحد نادى: موعدٌ بيننا وبينكم بدر الصَّفراء رأس الحول، نلتقي فيه فنقتتل، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**قل: نعم إن شاء الله**».

فافترق الناس على ذلك، ورجعت قريش فخبَّروا من قِبَلهم بالموعد وتهيأوا للخروج وأجلبوا[1].

وكان هذا عندهم أعظم الأيام؛ لأنهم رجعوا من أحد والدولة لهم، طمعوا في بَدر الموعد أيضًا بمثل ذلك الظفر.

وكان بدر الصَّفراء مجمعًا يجتمع فيه العرب، وسوقًا تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليال خلون منه، فإذا مضت ثماني ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم، فلما دنا الموعد كَره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ، وجعل يُحب أن يقيم رسول الله وأصحابه بالمدينة ولا يوافقون الموعد، فكان كل من ورد عليه مكَّة يريد المدينة أظهر له: إنَّا نريد أن نغزو محمدًا في جمع كثيف، فيَقْدم القادم على أصحاب رسول الله ﷺ، فيراهم على تجهز، فيقول: تركتُ أبا سفيان قد جمع الجموع، وسار في العرب؛ ليسير إليكم لموعدكم، فيكره ذلك المسلمون ويُهيِّبهم ذلك.

ويقدم نُعيم بن مسعود الأشجعي مكة، فجاءه أبو سفيان بن حرب في رجال من قريش، فقال: يا نعيم، إني وعدت محمدًا وأصحابه يوم أُحد أن نلتقي نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الحول، وقد جاء ذلك. فقال نعيم: ما أقدمني إلا ما رأيتُ محمدًا وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكُراع، وقد تجلَّب إليه حلفاء الأوس من بَلِي وجُهينة، وغيرهم، فتركت المدينة أمس وهي كالرمانة.

(١) أجلبوا: تجمعوا وتألبوا، النهاية: ١/ ١٦٩.

فقال أبو سفيان: أحقًّا ما تقول؟ قال: إي والله، فجَزَوا نعيمًا خيرًا ووصلوه وأعانوه، فقال أبو سفيان: أسمعك تذكر ما قد أعدُّوا وهذا عام جدب.

قال نُعيم: الأرض مثل ظهر الترس، ليس فيها لبعير شيء. قال أبو سفيان: وإنما يُصلحنا عام خصب غَيداق[1] ترعى فيه الظَّهر والخيل، ونشرب اللبن، وأنا أكره أن يخرج محمدٌ وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا، ويكون الخُلف من قبلهم أحبَّ إلي، ونجعل لك عشرين فريضة؛ عشرًا جذاعًا[2] وعشرًا حقاقًا[3]، وتُوضع لك على يَدي سُهيل بن عمرو ويضمنها لك. قال نُعيم: رضيت. وكان سهيل صديقًا لنعيم، فجاء سُهيلاً، فقال: يا أبا يزيد، تضمن لي عشرين فريضة على أن أقدم المدينة فأُخذِّل أصحاب محمد؟ قال: نعم. قال: فإني خارج.

فخرج على بعير حملوه عليه، وأسرع السير فقدم وقد حلق رأسه معتمرًا فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهزون، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من أين يا نُعيم؟ قال: خرجت معتمرًا إلى مكة، فقالوا: لك علمٌ بأبي سفيان؟ قال: نعم، تركت أبا سُفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب، فهو جاء فيما لا قبل لكم به، فأقيموا ولا تخرجوا، فإنهم قد أتوكم في داركم وقراركم، فلنْ يفلت منكَم إلا الشريد، وقُتلت سراتكم وأصاب محمدًا في نفسه ما أصابه من الجراح، فتريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض! بئس الرأي رأيتم لأنفسكم -وهو موسم يجتمع فيه الناس- والله ما أرى أن يفلت منكم أحد. وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعبهم وكرَّه إليهم الخروج، حتى نطقوا بتصديق قول نعيم، أو من نطق منهم.

واستبشر بذلك المنافقون واليهود، وقالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع! واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين، حتى بلغ رسول الله ﷺ ذلك، وتظاهرت به الأخبار عنده، حتى خاف رسول الله ﷺ ألا يخرج معه أحد، فجاءه أبو بكر بن أبي

(١) غيْداق: واسع مخصب، لسان العرب: ١٢/ ١٥٦.

(٢) الجذاع: جمع الجذع، وهو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة، ومن البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية، النهاية: ١/ ١٥٠.

(٣) الحقاق: جمع الحقة، وهو من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها، وسمي بذلك لأنه استحق الركوب: النهاية: ١/ ٢٤٤، عن هامش المغازي.

قحافة رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد سمعا ما سمعا، فقالا: يا رسول الله، إن الله مظهرٌ دينه ومعزٌّ نبيه، وقد وعدنا القوم موعدًا ونحن لا نحب أن نتخلف عن القوم، فيرون أن هذا جبن منَّا عنهم، فَسرْ لموعدهم، فوالله إن في ذلك لخيرة! فسُر رسول الله ﷺ بذلك، ثم قال: «**والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد**»، قال: فلما تكلم رسول الله ﷺ تكلَّم بما بصَّر الله عز وجل المسلمين، وأذهب ما كان رعَّبهم الشيطان، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بدر.

ثم إن أبا سُفيان قال: يا معشر قريش، قد بعثنا نُعيم بن مسعود لأن يُخذِّل أصحاب محمد عن الخروج وهو جاهد، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع، فإن كان محمد لم يخرج بلَغه أنَّا خرجنا فرجعنا؛ لأنه لم يخرج، فيكون هذا لنا عليه، وإن كان خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب. قالوا: نعْم ما رأيت. فخرج في قريش، وهم ألفان ومعهم خمسون فرسًا، حتى انتهوا إلى مجَنَّة(١) ثم قال: ارجعوا، لا يُصلحنا إلا عام خصب غيداق، نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وإنَّ عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، فسمَّى أهل مكة ذلك الجيش جيش السَّويق، يقولون: خرجوا يشربون السَّويق.

وكان يحمل لواء رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأقبل رجل من بني ضَمْرة يقال له: مخشي بن عمرو -وهو الذي حالف رسول الله ﷺ على قومه في غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى ودَّان- فقال -والناس مجتمعون في سوقهم وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل ذلك الموسم- فقال: يا محمد، لقد أُخبرنا أنه لم يبق منكم أحد، فما أعلمكم إلا أهل الموسم، فقال رسول الله ﷺ -ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش-: «**ما أخرجنا إلا موعدُ أبي سفيان وقتال عدونا، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد، ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا**»، فقال الضمري: بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلْفك.

وسمع بذلك مَعْبد ابن أبي مَعبد الخزاعي فانطلق سريعًا، وكان مُقيمًا ثمانية أيام، وقد رأى أهل الموسم ورأى أصحاب رسول الله ﷺ، وسمع كلام مخشي، فانطلق حتى قدم مكة، فكان أول من قدم بخبر موسم بدر، فسألوه فأخبرهم بكثرة أصحاب

(١) مجنة: موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مرِّ الظهران «معجم البلدان: ٧/ ٣٨٩».

محمد، وأنهم أهل ذلك الموسم، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضَّمري، وقال: وافىَ محمدٌ في ألفين من أصحابه، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدَّع أهل الموسم، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان قد والله نهيتك يومئذ أن تَعِدَ القوم وقد وقد اجترؤوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم، وإنما خلَّفنا الضعفُ عنهم.

فأخذوا في الكيد والنفقة في قتال رسول الله ﷺ، واستجلبوا من حولهم من العرب، وجمعوا الأموال العظام، وضربوا البعث على أهل مكة، فلم يُترك أحدٌ منهم إلا أن يأتي بما قل أو كثر، فلم يُقبل من أحد منهم أوقية لغزوة الخنْدق(١).

مواقف وعبر في هذا الخبر:

في هذا الخبر ظهرت أخلاق المسلمين وأخلاق الكفار، وظهر مَن المنتصر حقًّا في معركة أحد ومن المنهزم، فقد ظهرت شجاعة المسلمين العالية وإقدامهم على المكاره، ووفاؤهم بالوعد، كما ظهر جبن الكفار وفشلهم.

وظهر أن المنتصر حقًّا في معركة أُحد هم المسلمون؛ لأنهم خرجوا للقتال بعد سنة بنفوس وثابة ومعنويات عالية، بينما تقاعس الكفار وجبنوا، وصاروا يبذلون من أموالهم لمن يخذِّل رسول الله ﷺ وأصحابه عن الخروج؛ ليكون النكول من المسلمين، حتى لا يفتضح المشركون أمام العرب، وليحتفظوا بنتائج معركة أحد التي وهموها نصراً وليست كذلك.

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون؛ لإثبات انتصارهم في أُحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رءوسهم، وأصبحوا مثار السخرية عند العرب، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أُحد وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري.

ولقد ظهر في هذا الخبر مثلٌ من حزم النبي ﷺ وقوة عزيمته وصدقه ووفائه وإدراكه الدقيق لعوامل القوة والانتصار، وعوامل الضعف والانهزام؛ حيث قال لمستشاريْه - أبي بكر وعمر رضي الله عنهما-: «**والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد**»، وذلك حينما أُشيع في أوساط المسلمين كراهية بعضهم للخروج.

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٣٨٤- ٣٨٩، وأخرجه ابن إسحاق مختصراً، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٧.

وفي هذا الخبر ظهر إرجاف اليهود والمنافقين بسبب ما قام به نُعيم بن مسعود الغطفاني من السفارة لصالح قريش؛ حيث بثَّ دعاية إعلامية واسعة عن ضخامة جيش المشركين الذي أعدوه لتلك الغزوة، فنطق اليهود والمنافقون بكلمات التخذيل والإرجاف؛ حيث قالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع، ولكن مع الإرجاف الكبير من خارج المدينة وداخلها فإن حماس المسلمين لم يفتُر وعزيمتهم لم تضعف ومعنوياتهم الحربية ظلت عالية بمجرد سماعهم عن عزم النبي ﷺ على الخروج، وهذا يُعد مثلا عاليًا في الطاعة والتسليم لأوامر الله -جل وعلا- ورسوله ﷺ.

وموقف يُذكر لأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- حينما أشارا على رسول الله ﷺ بالخروج، في الوقت الذي بلغت فيه الدعاوى الإعلامية ذروتها وتأثر بها بعض أفراد المسلمين.

ويصل المسلمون إلى بدر، ويشاركون الناس في الموسم التجاري، ويصبحون أعظم الوفود كثرة، ثم يعودون بعد ثمانية أيام وقد سلموا من الأذى، وكسبوا انتصاراً معنويًا عظيما على أعدائهم بدون قتال، كما أنهم ربحوا في تجارتهم ربحًا طيبًا، كما جاء في هذا الخبر.

*****

مواقف في غزوة دومة الجندل

قال الواقدي: في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرًا، خرج رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من ربيع الأول، وقدم لعشر بقين من ربيع الآخر.

فحدثني ابن أبي سَبْرَة عن عبد الله بن أبي لبيد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وحدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز، عن عبد الله بن أبي بكر، فكلاهما قد حدثنا بهذا الحديث، وأحدهما يزيد على صاحبه، وغيرهما قد حدَّثنا أيضًا.

قالوا: أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى الشام، وقيل له: إنها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت لها كان ذلك مما يُفزع قيصر، وقد ذُكر له أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا، وأنهم يظلمون من مرَّ بهم من الضَّافطة(١)، وكان بها سوق عظيم وتجار، وضوَى إليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة.

فندب رسول الله ﷺ الناس، فخرج في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عُذْرَة يقال له: مذكور، هاد خرِّيت، فخرج رسول الله ﷺ ومُغذاً للسير ونكب عن طريقهم ولما دنا رسول الله ﷺ من دُومة الجَندل -وكان بينه وبينهما يوم أو ليلة سيْر الراكب المُعْنق(٢)- قال له الدليل: يا رسول الله، إن سوائمهم ترعى، فأقم لي حتى أطَّلع لك، قال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

فخرج العُذري طليعة حتى وجد آثار النعم والشاء وهم مغرِّبون، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره وقد عرف مواضعهم، فسار النبي ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب رسول الله ﷺ من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه.

وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا، ونزل رسول الله بساحتهم، فلم يجد بها أحدًا، فأقام بها أيامًا، وبثَّ السرايا وفرَّقها حتى غابوا عنه يومًا ثم رجعوا إليه، ولم يصادفوا منهم أحدًا، وترجع السرية بالقطعة من الإبل، إلا أن محمد بن مسلمة أخذ

---

(١) الضافطة: جمع ضافط، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن، والمُكاري: الذي يكري الأحمال، وكانوا يومئذ قوما من الأقباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت، النهاية: ٣/ ٢٢ .

(٢) أعنق الراكبُ فرسه: إذا أعجلها، القاموس المحيط: ٣/ ٢٦٢ .

رجلاً منهم، فأتى به النبي ﷺ فسأله عن أصحابه، فقال: هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نعمهم. فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام أيامًا فأسلم، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة، وكان رسول الله ﷺ استعمل على المدينة سباع بن عُرْفُطَة(١).

مواقف في هذا الخبر:

هذا الخبر يدلنا على دقة الرصد الحربي عند المسلمين في العهد النبوي؛ حيث علم الرسول ﷺ بما همَّ به أهل دومة الجندل من الزحف على المدينة ومهاجمة المسلمين، فقام بهذه الغزوة الموفقة التي أدت إلى تلك النتائج الطيبة لصالح المسلمين.

وتظهر في هذا الخبر براعة النبي ﷺ في الإدارة الحربية؛ حيث وصل إلى دومة الجندل في أقصى شمال الجزيرة وهو يقود جيشًا كبيراً نسبيًا، فلم يعلم به أهل تلك البلاد حتى فاجأهم قبل أن يجتمعوا له ويعدوا العدة للقائه، وبهذه الإدارة الحكيمة جنب النبي ﷺ أصحابه خوض معركة قد تكون شاقة عليهم مع حصول المسلمين على المكاسب الحربية التي أرادوها؛ من إضعاف عدوهم معنويًا وماديًا، وإرهابهم حتى لا يفكروا مرة أخرى فى غزو المسلمين.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٤٠٢- ٤٠٤، والتعليقات من هامش هذا الكتاب.
وأخرجه ابن إسحاق مختصراً، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٣ .

مواقف في غزوة المريسيع

أخرج الواقدي بإسناده عن عدد من الشيوخ قالوا: إن بني المصطلق من خزاعة كانوا ينزلون ناحية الفُرْع[1]، وهم حلفاء في بني مدلج، وكان رأسهم وسيدهم الحارث بن أبي ضرار، وكان قد سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فابتاعوا خيلاً وسلاحًا وتهيأوا للمسير إلى رسول الله ﷺ، وجعلت الركبان تَقدُم من ناحيتهم فيُخبرون بمسيرهم، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فبعث بُريدة بن الحُصَيب الأسلمي يعلم علم ذلك، واستأذن النبي أن يقول[2] فأذن له، فخرج حتى ورد عليهم ماءهم، فوجد قومًا مغرورين قد تألَّبوا وجمعوا الجموع، فقالوا: مَن الرجل؟ قال: رجل منكم، قدمت لما بلغني عن جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني فتكون يدنا واحدة حتى نستأصله، قال الحارث بن أبي ضرار: فنحن على ذلك، فعجِّل علينا، قال بُريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعني، فسُروا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم، فندب رسول الله ﷺ الناس، وأخبرهم خبر عدوهم فأسرع الناس للخروج.

قالوا: وخرج مع رسول الله ﷺ بَشرٌ كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها، ليس بهم رغبة في الجهاد إلا أن يصيبوا من عرض الدنيا، وقرُب عليهم السفرً.

فخرج رسول الله ﷺ حتى سلك على الحَلائق فنزل بها، فأُتي يومئذ برجل من عبد القيس، فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**أين أهلك؟**» قال: بالروحاء. قال: «**أين تريد؟**» قال: إياك جئت؛ لأومن بك وأشهد أن ما جئت به الحق، وأقاتل معك عدوَّك. قال له رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي هداك للإسلام**». قال: يا رسول الله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة في أول وقتها**». قال: فكان الرجل بعد ذلك يصلي حين تزيغ الشمس، وحين يدخل وقت العصر، وحين تغرب الشمس، لا يُؤخر الصلاة إلى الوقت الآخر.

---

(١) يعني: بين مكة والمدينة.

(٢) يعني: أن يقول خلاف الحقيقة إيهامًا لهم.

قال: لما نزل بِبَقْعاء أصاب عينا للمشركين، فقالوا له: ما وراءك؟ أين الناس؟ قال: لا علم لي بهم.

قال: فحدثني هشام بن سعد، عن يعقوب، عن زيد بن طلحة، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لتصدقن أو لأضربن عنقك. قال: فأنا رجل من بني المُصطلق، تركت الحارث بن أبي ضرار قد جمع لكم الجموع، وتجلَّب إليه ناس كثير، وبعثني إليكم؛ لآتيه بخبركم وهل تحركتم من المدينة، فأتى عمر بذلك رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام وعرضه عليه، فأبى وقال: لست بمتبع دينكم حتى أنظر ما يصنع قومي؛ إن دخلوا في دينكم كنت كأحدهم، وإن ثبتوا على دينهم فأنا رجل منهم، فقال عمر: يا رسول الله، أضرب عنقه؟ فقدمه رسول الله فضرب عنقه، فذهب الخبر إلى بني المُصطلق.

فكانت جويرية بنت الحارث تقول بعد أن أسلمتْ: جاءنا خبره ومقتله ومسير رسول الله ﷺ قبل أن يقدم علينا النبي ﷺ فسيءَ أبي ومن معه وخافوا خوفًا شديدًا، وتفرق عنهم من كان قد اجتمع إليهم من أفْناء العرب، فما بقي منهم أحد سواهم.

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع -وهو الماء- فنزله، وضُرب لرسول الله ﷺ قبة من أدم، ومعه من نسائه عائشة وأم سلَمَة، وقد اجتمعوا على الماء وأعدوا وتهيأوا للقتال، فصف رسول الله ﷺ أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر رضي الله عنه، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، ويقال: كان مع عمار بن ياسر رضي الله عنه راية المهاجرين.

ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنادى في الناس: قولوا: لا إله إلا الله. تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، ففعل عمر رضي الله عنه فأبوا، فكان أول من رمى رجل منهم بسهم، فرمى المسلمون ساعة بالنبل، ثم إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذرية، وغُنمت النَّعمُ والشاء، وما قُتل أحد من المسلمين إلا رجل واحد.

وكان أبو قتادة يُحدِّث قال: حمل لواء المشركين يومئذ صفوان ذو الشُّقر، فلم تكن لي بأُهْبة حتى شددتُ عليه وكان الفتح، وكان شعارهم: يا منْصور، أمتْ أمت![1].

وأخرج ابن إسحاق خبر هذه الغزوة باختصار، ثم قال: وكان رسول الله ﷺ قد أصاب منهم سبيًا كثيرًا، فشا قَسْمه في المسلمين، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، زوجُ رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشَّماس، أو لابن عم له فكاتَبَتْه على نفسها، وكانت امرأة حُلْوة مُلاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يْخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: «**فهل لك في خير من ذلك؟**» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**أقضي عنك كتابتك وأتزوجك**»، قالت: نعم يا رسول الله، قال: «**قد فعلتُ**».

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جُويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أُعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركةً منها[2].

وأخرج الشيخان -واللفظ لمسلم- من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، قال: فكتب إليَّ: إنما كان ذلك في أول الإسلام، وقد

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٤٠٤- ٤٠٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٧٧، ٣٧٨.

أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون[1]، وأنعامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، ثم قال: حدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش[2].

وقوله: «وهم غارُّون»، يعني: أنه لم ينذرهم، وإنما غزاهم على سبيل المباغتة؛ وذلك لأنهم أولاً قد بلغتهم الدعوة، وثانيًا لأنهم قد أعلنوا حرب المسلمين وصاروا يجمعون جيوشهم؛ لغزو المدينة.

وقوله: «فقتل مقاتلتهم» بيان لنتيجة المعركة؛ حيث إن هذه الرواية مجملة تبينها الروايات السابقة.

مواقف وعبر في هذا الخبر:

في الفترة التي تلت غزوة أُحد كثرت محاولات القبائل العربية غزو المسلمين في المدينة، وقد بدأت هذه المحاولات من بني أسد وأرسل لهم الرسول ﷺ أبا سلمة في سرية، ثم كانت محاولة خالد بن نُبيح الهذلي، فعاجله النبي ﷺ بالقتل وهو في بلاده على يد عبد الله بن أُنيس، ثم كانت محاولة قبيلة غطفان، فخرج إليهم النبي ﷺ وعاجلهم في غزوة ذات الرقاع قبل أن يجتمعوا، ثم كانت محاولة أصحاب دومة الجندل فغزاهم النبي ﷺ وعاجلهم قبل أن يجتمعوا، وقد سبقت أخبار هذه الغزوات والسرايا، وكانت نتائجها جميعًا لصالح المسلمين، وأخيرًا جرت محاولة بني المصطلق التي جاءت في هذا الخبر.

ولقد كان الدافع لهذه المحاولات ما بثَّه مشركو مكة من دعايات واسعة ومبالغات عن حجم إصابة المسلمين في أُحد، فكان هناك طمع من عدد من القبائل في غزو المدينة مادام أهلها في حال ضعف.

ولقد كان النبي ﷺ مُدركا لمخاطر تلك الدعايات السيئة، ومن أجل تفادي تلك المخاطر قام بمغامرة ملاحقة المشركين إلى حمراء الأسد ثاني يوم من معركة أُحد على ما به وبأصحابه من الجراح، ولقد كان لتلك الغزوة أثرها الواضح في صدِّ مشركي

---

(١) أي: غافلون.

(٢) صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٧٣٠، ص: ١٣٥٦، صحيح البخاري: العتق: ٥/ ١٧٠، رقم: ٢٥٤١.

مكة عن العودة إلى المدينة كما سبق، إضافة إلى ما كان لها من أثر في إرهاب الأعداء داخل المدينة والقبائل المحيطة بها، ولكن دعايات الكفار القوية قد لبَّست الأمر على القبائل البعيدة، فظنوا أن أهل المدينة قد أصبحوا صيداً سميناً سائغاً للمصطادين، وأن المفلح هو من يسبق لهذا الصيد، فقاموا بتلك المحاولات التي تمت خلال تلك الفترة.

ولقد كان النبي ﷺ ناجحاً كل النجاح في معاجلة بني المصطلق قبل أن يزحفوا على المدينة، وقبل أن يتكون له جمع كبير، كما أن طليعة المسلمين كانوا في غاية الحذر والنباهة حينما قبضوا على عين الأعداء قبل أن يقوم بمهمته، وكان قتله هو الحكمة؛ لئلا يفلت من المسلمين فيخبر أعداءهم بهم.

ولقد قام النبي ﷺ بالاحتياطات اللازمة لمعرفة خبر الأعداء حتى لا يهاجمهم المسلمون وهم برآء مما نسب إليهم، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه؛ ليعلم خبرهم، وقد صارحه زعيمهم بمرادهم في غزو المسلمين في المدينة بعد أن خدعه بريدة وأخفى عليه مهمته الحقيقية.

تاريخ هذه الغزوة:

اختلف المؤرخون في تحديد وقت هذه الغزوة، فقال بعضهم: إنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، وبهذا قال موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وقتادة، واختار ذلك أبو معشر[(١)]، وابن سعد[(٢)]، والبيهقي[(٣)]، وابن تيمية[(٤)]، وابن القيم[(٥)].

واستدل أصحاب هذا القول بأن قضية الإفك كانت في رجوع النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق، وقد ذكرت عائشة -رضي الله عنها- المقالة التي جرت بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في شأن أهل الإفك كما في الصحيح، وسعد بن معاذ قد توفي في السنة الخامسة بعد القضاء على بني قريظة، فلو كانت غزوة بني المصطلق في السنة السادسة لكان ما في الصحيح من شهود ابن معاذ لقضية الإفك غلطاً[(٦)].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٤٣٠.
(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ٦٣.
(٣) سنن البيهقي: ٩/ ٥٤.
(٤) فتاوى ابن تيمية: ١٥/ ٣٦٥.
(٥) زاد المعاد: ٢/ ١١٢.
(٦) فتح الباري: ٧/ ٤٣٠، زاد المعاد: ٢/ ١١٥.

وقيل: إنها كانت في شهر شعبان من السنة السادسة وممن قال بهذا محمد بن إسحاق[1]، وخليفة بن خياط[2]، والطبري[3]، وابن حزم[4]، والمودودي[5].

ومما استُدل به لهذا القول أن عائشة -رضي الله عنها- صرحت بأن خبر الإفك كان بعد زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش -رضي الله عنها- كما سيأتي، وقد كان زواجه بها في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة، وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن تكون غزوة بني المصطلق إلا بعد ذلك[6].

ومما استُدل به أيضًا لهذا القول ما ذكره المودودي من أن أحكام الحجاب قد نزلت في سورتين، هما: سورة النور، وسورة الأحزاب، وقد صرحت عائشة -رضي الله عنها- في حديث الإفك بأنه كان بعدما أنزل الحجاب، وسورة النور قد اقترن نزولها بحادث الإفك، فيتعين أن تكون السورة التي أنزل فيها الحجاب قبل ذلك هي سورة الأحزاب، وسورة الأحزاب قد نزلت بعد غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، فتكون غزوة بني المصطلق التي جرى فيها حادث الإفك بعد ذلك[7].

وقد أجاب هؤلاء عن دليل القول الأول بترجيح رواية ابن إسحاق التي فيها أن القائل لسعد بن عبادة في شأن الإفك هو: أسيد بن حضير، على رواية الصحيحين التي فيها أن القائل هو: سعد بن معاذ؛ لسلامة رواية ابن إسحاق من الإشكال الذي يرد على رواية الصحيحين، على اعتبار أن غزوة بني المصطلق متأخرة عن غزوة بني قريظة[8].

والذي يظهر أن القول الأول أرجح؛ لما جاء في رواية البخاري من أن سعد بن معاذ كان موجودًا أيام حديث الإفك، وحديث الإفك جرى عقب غزوة بني المصطلق بالاتفاق، وقد كان موته بعد ذلك عقب غزوة بني قريظة باتفاق المؤرخين، فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبل ذلك، ورواية البخاري أصح من رواية ابن إسحاق.

---

(١) السيرة النبوية: ٣/ ٣٦٨.
(٢) تاريخ خليفة، ص: ٤٢.
(٣) تاريخ الأمم والملوك: ٢/ ٦٠٤.
(٤) جوامع السيرة، ص: ٢٠٦.
(٥) سورة النور، للمودودي، ص: ٨.
(٦) زاد المعاد: ٢/ ١١٥، تفسير سورة النور، للمودودي، ص: ٨.
(٧) تفسير سورة النور، ص: ٨، ٩.
(٨) جوامع السيرة، ص: ٢٠٦، تفسير سورة النور، ص: ٩.

أما أدلة القول الثاني ففيها نظر، فالجواب على الدليل الأول: أن تحديد وقت زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش -رضي الله عنها- ليس محل اتفاق بين العلماء، والراجح في السنة الرابعة، فلا يبقى في هذا دليل للقائلين: إن غزوة بني المصطلق كانت في السنة السادسة.

أما الجواب على الدليل الثاني فهو: أن السورة حينما تنزل مخبرة عن عدة وقائع لا يستلزم ذلك تقاربها في الزمن؛ إذ إن السور لا تنزل جملة واحدة في الغالب، فإذا كان أهم الأحداث التي تناولتها سورة الأحزاب هو مناقشة وقائع هذه المعركة فإن هذا لا يقتضي أن جميع آيات هذه السورة قد نزلت بعد غزوة الأحزاب جملةً واحدة، بل لابد لمعرفة وقت وقوع الحوادث التي تحدثت عنها هذه السورة من الرجوع إلى التاريخ، ومن بين هذه الحوادث: زواج النبي ﷺ بزينب، ونزول الحجاب قد نزلت قبل غزوة الأحزاب، بل هو المتعين[1].

*****

(١) عن كتاب: المنافقون في القرآن الكريم، للمؤلف.

حدثان مهمان في هذه الغزوة

أ- دعوة إلى العصبية ومواجهة حكيمة

قال ابن إسحاق: فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدُ الله بن أبي ابن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال: أوَقدْ فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدُّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأوَّل: سمِّنْ كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوِّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذِّن بالرحيل**»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به -وكان في قومه شريفًا عظيمًا- فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبًا على ابن أُبي ابن سلول، ودفعًا عنه.

قال ابن إسحاق: فلما استقل(١) رسول الله ﷺ وسار، لقيه أُسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما

(١) أي: ارتحل.

كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «**أوما بلغَك ما قال صاحبُكم؟**» قال: وأيُّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «**عبد الله بن أُبي**»، قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل**»، قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل رسول الله ﷺ؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبي.

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس، وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فُوَيق النقيع، يقال له: بقعاء، فلما راح رسول الله ﷺ هبَّت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوَّفوها، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تخافوها، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار**»، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت، أحد بني قينقاع، وكان عظيمًا من عظماء يهود، وكهْفًا للمنافقين، مات في ذلك اليوم(1).

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أُبيّ ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأُذن زيْد بن أرقم، ثم قال: «**هذا الذي أوفى الله بأذنه**»، وبلغ عبد الله بن أُبي الذي كان من أمر أبيه.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة: أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتْ الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «**بل نترفَّق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**».

---

(1) وهو ممن دخلوا في الإسلام نفاقًا من يهود بني قينقاع، سيرة ابن هشام: ٢/ ١٦٦، وقد جاء خبر هذه الريح في صحيح مسلم من حديث جابر، وأن النبي ﷺ قال: «**بُعثتْ هذه لموت منافق**»، ولكن لم يذكر اسمه ولا اسم الغزوة، صحيح مسلم، كتاب صفة المنافقين، رقم: ٢٧٨٢.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويُعنِّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم قلت لي اقتله، لأرْعدت له آنُفٌ**[1] **لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**»، قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أمري[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: مثلٌ من عداوة المنافقين المتأصلة في نفوسهم للمؤمنين؛ حيث انتهز عبد الله بن أبي ابن سلول فرصة الخلاف الذي نشأ بين رجلين من المسلمين؛ ليثير الدعوة إلى العصبية القبلية، فنطق بكلمات خبيثة في سبِّ المهاجرين من قريش والتنقيص منهم، مع أن ذلك الرجل المهاجر الذي اختصم مع حليف الأنصار ليس من قريش وإنما هو من غفار، ولكن زعيم المنافقين صبَّ جام غضبه على المهاجرين من قريش؛ لأنهم عصبة النبي ﷺ الأولى وأصل الدعوة الإسلامية.

وهكذا يغلي الحقد في قلوب المنافقين، فتظهر نفثاته على فلتات ألسنتهم ظانين أن كلامهم سيظهر مفعوله في التفريق بين المؤمنين.

ثانيًا: موقف إيمان وشجاعة لزيد بن أرقم رضي الله عنه؛ حيث مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك الكلام السيىء الذي سمعه من ابن أبي، مع أن زيدًا كان غلامًا، ومن كان في مثل هذه السن لا ينتظر منه غالبًا الدخول مع الكبار في صراع، خاصة في مثل وضع ابن أُبي الذي مازال له أنصار يقولون برأيه ويدافعون عنه.

ولقد شكره النبي ﷺ على هذا الموقف الشجاع وعلى مقدرته على استيعاب ما سمع، كما جاء في رواية الإمام البخاري أن النبي ﷺ أرسل إليه بعد نزول سورة «المنافقون» فقرأها عليه وقال: «**إن الله قد صدقك**».

---

(١) جمع أنف، وهو علامة على الغضب الشديد، والمعنى: لغَضب له رجال من قومه.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٧٠- ٣٧٥، وأخرجه الإمام البخاري بروايتين مختصرًا، صحيح البخاري، التفسير، رقم: ٤٩٠٤، ٤٩٠٥، ٨/ ٤٦٨، وأخرجه الإمام الحميدي بروايتين مختصرًا، مسند الحميدي: ٢/ ٥١٩- ٥٢٠، رقم: ١٢٣٩، ١٢٤٠.

ثالثًا: في المحاورة التي جرت بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه مثل من غيرة عمر الإسلامية وحرصه على إخماد الشر وأهله، ولكنَّ رأي رسول الله ﷺ كان أعلى وحكمته كانت أعظم، فقد رأى بما ألهمه الله -تعالى- أن قتل عبد الله بن أبي وأمثاله يؤثر على سير الدعوة الإسلامية، فابن أُبي معدود عند العرب من أصحاب النبي ﷺ، فلو قتله لنفر الناس وصدوا عن الدخول في الإسلام، حينما يتحدثون أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه.

وإن في هذا التصرف النبوي الحكيم توجيهات لدعاة المسلمين وقادتهم إلى لزوم الاهتمام بقضايا الدعوة الإسلامية، وأن يكون من الأهداف العالية التي يجعلها المسلم نُصب عينيه أن يحاول اجتذاب الناس إلى الإسلام، وأن يبتعد كل البعد عن الأمور التي تنفر الناس من الدخول في الإسلام أو الاستقامة عليه ما لم يرتكب إثمًا.

ولقد تجلتْ حكمة النبي ﷺ في هذا الأمر حينما جاء عبد الله بن أُبي يعرض على رسول الله ﷺ استعداده للإقدام على قتل أبيه، ويبين أنه لو أقدم على قتله غيره فإنه لا يأمن من حدوث فتنة بسبب ذلك، بينما حصل المقصود من قوم ابن أبي، وذلك حينما تولوا عتابه وتعنيفه وردعه عن التجاوزات التي يمارسها من غير أن يتعرض مجتمع المؤمنين لفتنة بسببه.

ولقد ذكَّر النبي ﷺ عمر بهذه النتائج الحميدة بقوله: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**»، وأدرك عمر هذه الحكمة العظيمة، فقال: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

ومن هذا نعلم أن تصرف النبي ﷺ الحكيم قد صدَّ فتنة كانت وشيكة الوقوع في المدينة لو أن الرسولَ ﷺ عامَل زعيم المنافقين بما يستحق من عقوبة، إلى جانب محافظته على سمعة الدعوة الإسلامية خارج المدينة أن تُشوَّه من قبل أعداء الإسلام أو ممن يجهل واقع المسلمين.

رابعًا: في تصرف النبي ﷺ في مواجهة تلك الفتنة في حينها حكمة بالغة، فقد عالج الفتنة التي أثارها عبد الله بن أُبي بأمر شغل به المسلمين عن الحديث عنها؛ وذلك حيث أمر المسلمين بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه، ثم واصل المسير يومه وليلته وصدر اليوم التالي، حتى إذا نزلوا وقد أعياهم السير والسهر وقعوا نيامًا، فلم يكن لديهم فراغ للحديث عن الموضوع، وهذا يُعد درسًا نبويًا عاليًا للقادة في كيفية القضاء على المشكلات التي تعرض لهم، والفتن التي يثيرها أعداء الإسلام في صفوف المسلمين، فالنفوس إن لم تُشغل بما ينفعها شُغلت بما يضرها.

*****

ب- حديث الإفك وما فيه من المواقف والعبر

أخرج الإمام البخاري من حديث الإمام الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ حين قال لها أهلُ الإفك ما قالوا فبرّأها الله مما قالوا: وكلٌّ حدثني طائفةً من الحديث، وبعض حديثهم يصدق بعضًا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروةُ عن عائشة -رضي الله عنها- أن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ: قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها[1]، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هَوْدجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقف ودَنونا من المدينة قافلين آذن ليلةً بالرحيل، فقمت حينَ آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي، فإذا عقدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع، فالتمستُ عقدي وحبسني ابتغاؤه.

وأقبل الرهط الذين كانوا يُرحِّلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذين كنت ركبتُ وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهُن اللحم، إنما يأكلن العُلقة من الطعام، فما استنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيشُ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأممتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ.

فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السُّلمي ثم الذكواني من وراء الجيش[2]، فأدلج[3] فأصبح عندَ منزلي، فرأى سواد إنسان نائم،

(١) هي غزوة بني المصطلق، كما في رواية ابن إسحاق.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: ووقع في حديث ابن عمر بيان سبب تأخر صفوان، ولفظه: «سأل رسول الله ﷺ أن يجعله على الساقة، فكان إذا رحل الناس قام يصلي، ثم اتبعهم، فمن سقط له شيء أتاه به»، الفتح: ٨/ ٤٦١.

(٣) سار في الليل.

فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفَني[1]، فخمَّرت وجهي بجلبابي[2]، والله ما كلَّمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتُها، فانطلق يقودُ بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة.

فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفكَ عبدُ الله بن أبي ابن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ولا أعرف بشيء من ذلك، وهو يريبُني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلِّم، ثم يقول: «**كيف تيكم؟**»، ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أعر بالشرِّ، حتى خرجت بعدما نقهتُ، فخرجت معي أمُّ مسطح قبَلَ المناصع، وهو متبرَّزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تُتَّخذ الكَنف قريبًا من بيوتنا وأمرُنا أمر العرب الأول في التبرز قبَلَ الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتَّخذها عند بيوتنا.

فانطلقتُ أنا وأمُّ مسطح وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلتُ أنا وأم مسطح قبَلَ بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أمُّ مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبِّين رجلاً شهد بدرًا؟ قالت: أي هَنْتاه[3]، أولم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ؛ تعني سلَّم[4]، ثم قال: «**كيف تيكم؟**»، فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي، -قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبَلهما- قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمَّتاهُ ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوِّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟

---

(١) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وذلك ليوقظها، وهذا من حسن أدبه.

(٢) وما أروع قول الشاعر أحمد محرم في حكاية هذا السلوك.

جفَلتْ منه فغطَّت وجهها — وهي في ستْرين من عقل ودين

(٣) أي: حرف نداء، وهَنتاه بمعنى: هذه؛ أي: يا هذه.

(٤) في رواية أخرى للبخاري: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم».

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع(١) ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما- حين استلبثَ الوحيُ يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الوُد، فقال: يا رسول الله، أهلُكَ، وما نعلم إلا خيرًا، وأما عليُّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيِّق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدُقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟**»، قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله(٢).

فقام رسول الله ﷺ، فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين، من يعذُرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة -وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا(٣) ولكن احتملته الحمية- فقال لسعد: كذبت لَعمرُ الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير -وهو ابن عم سعد بن معاذ- فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لَنقتُلَنَّه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيَّان؛ الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا وسكتَ.

(١) أي: لا ينقطع.

(٢) الداجن: هي الشاة، كما جاء في بعض الروايات، وهذا التعبير فيه بلاغة؛ حيث أرادت: أنها وهي تغفل عن عجين أهلها أكثر غفلة عما رُميت به، فهي من النساء الغافلات المؤمنات.

(٣) أي: كامل الصلاح، وفي رواية الواقدي: «وكان صالحًا، لكن الغضب بلغ منه، ومع ذلك لم يُغمص عليه في دينه»، وقد أرادت عائشة أنه لم يتقدم منه قبل ذلك ما يتعلق بالوقوف مع أنفة الحمية.

قالت: فمكثتُ يومي ذاك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلَّم، ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «**أما بعد، يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرِّؤك الله، وإن كنت ألمْتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه**».

قالت: فلما قضى رسول الله مقالته قَلص دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: فقلت -وأنا جارية حديثة السنِّ لا أقرأ كثيرًا من القرآن(١)-: إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتم به، فلئن قلتُ لكم إني بريئة -والله يعلم أني بريئة- لا تُصدِّقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم: بأمر -والله يعلم أني منه بريئة- لتصدِّقنِّي، والله ما أجد لكم مثلاً إلاَّ قول أبي يوسف، قال: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: ثم تحولتُ واضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن -والله- ما كنت أظنُّ أن الله منزلٌ في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ(٢) ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء(٣)، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه(٤).

(١) قالت ذلك من باب الاعتذار؛ لكونها لم تستحضر اسم يعقوب عليه السلام.

(٢) رام: أي فارق.

(٣) أي: شدة الكرب.

(٤) جاء في رواية ابن إسحاق: «فأما أنا فوالله ما فزعت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فما سرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس».

قالت: فلما سُرِّى عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برَّأك**».

قالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ العشر الآيات كلها [النور: ١١- ٢٠].

فلما أنزل الله فيَّ براءتي قال أبو بكر الصديقُ -رضي الله عنه- وكان ينفق على مسطح بن أثاثة؛ لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلى والله، إني أحبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «**يا زينب، ماذا علمت أو رأيت؟**» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيرًا.

قالت: وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختُها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»[2].

مواقف وعبر في هذا الخبر:

في هذا الخبر مواقف جليلة لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر الصديق، وأم المؤمنين عائشة، وصفوان بن المعطل السلمي، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

فالرسول ﷺ قد ابتُلي بهذه الفرية بلاءً عظيمًا، فهو في أعلى مسئولية من الدعوة والقيادة، وأي شيء يدنِّس سمعته فإنه يؤثر على سير دعوته ومكانته القيادية، فلهذا عاش تلك المدة قبل أن ينزل عليه الوحي ببراءة عائشة في معاناة شديدة.

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يطلِّق عائشة فور سماع هذه الفرية، ويخلص نفسه من ذلك البلاء، ولكن لم يكن من خُلقه ﷺ أن يحافظ على سمعته الدعوية والقيادية بظلم الآخرين، فما ذنب عائشة الطاهرة وبيتها الطاهر حينما يكون حل المشكلة بالقضاء عليها وإنزال مزيد من البلاء على أبويها؟!

لذلك كان البقاء في المعاناة والحرج مع شدته هو السلوك الأمثل عند رسول الله ﷺ حتى يأتي الفرج من الله تعالى، وفي هذا مثلٌ واضح على اتصاف النبي ﷺ بأعلى ما يمكن أن يتصف به بشر من الرحمة والشفقة.

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يحكم ببراءتها من أعلى منبر؛ لما يعلمه من صدقها وعفافها وتقواها، وسيصدقه في ذلك المؤمنون، ولكن كيف وقد قيل ما قيل، وانتشرت الإشاعة الأثيمة في كل أوساط المدينة، وربما أنها انتقلت خارج المدينة؟!

وهل يكفي إعلان النبي ﷺ بالبراءة؛ لقطع دابر ألسنة الحاقدين من اليهود والمنافقين؟ وهل ستظل سمعة النبي ﷺ الدعوية والقيادية نقية طاهرة بمجرد هذا الإعلان؟

---

(١) أي: تعاليني، من السمو وهو العلو، أي: تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٨/ ٤٥٢، رقم: ٤٧٥٠، والتعليقات في الهامش مقتبسة من كلام الحافظ ابن حجر: الفتح: ٨/ ٤٥٧- ٤٧٨.

وأخرجه الإمام مسلم من حديث عائشة وذكر نحوه، صحيح مسلم، كتاب التوبة، رقم: ٢٧٧٠، ص: ٢١٢٩.

وأخرجه ابن إسحاق عن عدد من الشيوخ من حديث عائشة رضي الله عنها، وذكر نحوه مع اختلاف في بعض السياق، سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٨١- ٣٩١.

لقد كان ﷺ واثقًا من طهارة الصديقة ونزاهتها مما نسب لها؛ ولذلك قام على المنبر، وقال: «**من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا**»، ولكن لم يكن ذلك إعلانًا للبراءة الكاملة التي تُسكت الحاقدين، وتقطع جميع موارد الفتنة، وإنما كان ذلك محاولة منه ﷺ لكفِّ أذى كبير المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول عن نفسه وأسرته حتى ينزل في الأمر بيان قاطع شاف من الله -تعالى- ولم يسبق أن حدث مثل تلك الفرية ونزل فيها تشريع من الله -تعالى- ولو كان ذلك لطبقه رسول الله ﷺ حالاً.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد ابتلي أيضًا ببلاء عظيم، فقد كانت التهمة موجهة لبنته الصديقة الطاهرة، وبالتالي فإن أبا بكر الذي يُعد أول رجل في الإسلام بعد رسول الله ﷺ قد وُجهت له طعنة نجلاء وضربة موجعة، والمنافقون وسائر أعداء الإسلام أحرص شيء على تشويه سمعة قادة المسلمين البارزين، وقد عاش رضي الله عنه تلك الفترة في همٍّ كبير ومعاناة شديدة؛ لما يري من نيل المنافقين الشديد من رسول الله ﷺ، ولما يرى من واقع ابنته المحزن، والبلاء الهابط على أسرته، ولكنه كان جميل الصبر، راسخ اليقين، عظيم الثقة بالله جل جلاله.

ومما تجمَّل به الصديق من عفة اللسان أنه لم يصدر منه أيُّ سب ولا شتم لأولئك الذين خاضوا في عرْض ابنته، ولم ينقل عنه -كما قال الحافظ ابن حجر- أنه قال شيئًا إلا قوله: «والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام»؟![(1)].

أما الصديقة بنت الصديق -رضي الله عنهما- فقد نزل عليها خبر الإفك نزول الصاعقة، وظلت تبكي الليل والنهار، وكان من فضل الله -تعالى- عليها أنها لم تعلم بهذا الخبر إلا في وقت متأخر، ومع صغر سنها، وشناعة الإفك، وسعة انتشاره فإنها لم يظهر منها أي سلوك يخدش دينها أو يشين عقلها، وصبرت صبرًا جميلاً مشوبًا بالحياء المتين والأدب الرزين، حتى فرَّج الله -تعالى- كربتها وأنزل براءتها.

ولقد عبَّرتْ في هذا الخبر عن معاناتها وآلامها حينما علمت بالإفك بأسلوب أدبي في غاية الرفعة والسمو.

---

(1) فتح الباري: ٨/ ٤٨٠.

إن حديث الإفك هذا يُعدُّ نموذجًا للأدب العالي؛ في قوة البيان وجزالة الألفاظ ووضوح المعني، ولقد كانت عائشة -رضي الله عنها- مشهورة بالفصاحة وقوة الكلمة والتأثير القوي على السامعين، ولقد أثنى عليها بالفصاحة والبيان بلغاء الصحابة والتابعين.

ومن نماذج بلاغتها في هذا الحديث قولها: «فانطلق -يعني صفوان- يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك»، فالفاء في قولها: «فهلك» هي الفاء الفصيحة؛ فقد أفصحت عن جمل مقدرة تحكي حال الناس الذين خاضوا في تلك الفرية الشنيعة، فاكتفت ببيان عاقبة أمرهم عن وصف حالهم وجريمتهم.

ومن ذلك قولها: «فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة»، فهذا تعبير بليغ عن التأثر الشديد جدًا الذي تجاوز حدود التأثر المعتاد الذي تستهل منه العيون دمعًا، فبلغ إلى الحد الذي قلص معه الدمع وجفَّ تمامًا.

ومن المواقف التي ينبغي الإشادة بها في هذا الخبر ما كان يقوم به صفوان بن المعطِّل السلمي رضي الله عنه من التأخر وراء الجيش، والقيام بالتقاط ما قد يسقط من المسلمين من متاع، ثم إيصاله إلى أصحابه، وهذه مهمة فدائية؛ لأن انفراد رجل واحد عن الجيش قد يعرضه للمداهمة من الأعداء.

ولقد قدَّر الله -تعالى- أن يكون ما يستدركه هذه المرة أغلى من كل ما يملكه المسلمون ومن جميع كنوز الأرض، أوليس الله -تعالى- قد أنقذ به عالمة الإسلام الأولى التي حفظت لهذه الأمة نصف العمل الديني؟! فكم هو الخير الذي قدمه هذا الفدائي النبيل لأمة الإسلام!

كذلك كان لأم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- موقف جليل في الورع وخشية الله -تعالى- وذلك أنها لما استشارها رسول الله ﷺ في أمر عائشة قالت: «يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيرًا»، قالت عائشة -رضي الله عنها-: «وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالوَرَع»؛ يعني فكانت الظنون من ضرَّة تنافس ضرتها على الحظوة لدى الزوج أن تسعى جهدها

في كسب زوجها، وقد يهبط مستواها الديني إلى افتراء أمور تُنفِّر زوجها من ضرتها، لكن زينب لم تنتهز هذه الفرصة لتشويه سمعة عائشة رضي الله عنهما.

وهكذا اصطفى الله -تعالى- لرسوله نساء طاهرات تقيات، فلم يُذكر عن واحدة منهن أنها أسهمت في ذلك الإفك.

كذلك كان لبعض الصحابة مواقف عالية في الدفاع عن أم المؤمنين عائشة وتنزيهها مما نسب إليها؛ فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر من رواية عطاء الخراساني عن الزهري في إحدى روايات هذا الخبر: «وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم»، قال: وروى الطبري من طريق ابن إسحاق قال: حدثني أبي عن بعض رجال بني النجار: «أن أبا أيوب قالت له أمُّ أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أمَّ أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك»[1].

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النور: ١٦]، يعني: ألا قلتم كما قال سعد بن معاذ الأنصاري؛ وذلك أن سعداً لما سمع قول من قال في أمر عائشة قال: «سبحانك هذا بهتان عظيم»، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف[2].

فهذه نماذج من مواقف الصحابة رضي الله عنهم تدل على ورعهم وعفة ألسنتهم ما ينتج عن قوة إيمانهم وخشيتهم من الله تعالى.

*****

(١) فتح الباري: ٨/ ٤٧٠.

(٢) مجمع الزوائد: ٧/ ٧٨.

مواقف وعبر
في
غزوة الخندق
(الأحزاب)

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطّلبي، قال: ثم كانت غزوة الخندق في شوّال سنة خمس، فحدثني يزيد بن رُومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير، ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك، ومحمد بن كعب القرظي، والزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، وغيرهم من علمائنا، وكلهم قد اجتمع حديثه في الحديث عن الخندق، وبعضهم يحدِّث ما لا يحدث به بعض، قالوا: إنه كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم: سلام بن أبي الحُقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيْق النضري، وهَوْذة بن قيس الوائلي، وأبو عمَّار الوائلي في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقِّ منه، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**[1] **وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** (أي النبوة) **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا**﴾ [النساء: ٥١- ٥٥].

قال: فلما قالوا ذلك لقريش، سرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتَّعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود، حتى جاؤوا

(١) الجبت: هو السحر، والطاغوت: هو الشيطان، كما روي عن عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهم، تفسير ابن كثير: ١/ ٥٤٤.

غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه.

قال ابن إسحاق: فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان، وقائدها عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، في بني فزارة، والحارث بن عوف ابن أبي حارثة المُري، في بني مرة، ومسعر بن رُخَيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خَلاوة بن أشجع بن ريْث بن غطفان، فيمن تابعه من قومه من أشجع[1].

وذكر ابن إسحاق أن عدد جيش المشركين من الأحزاب عشرة آلاف وأن عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف[2].

وأضاف موسى بن عقبة في روايته عند البيهقي مشاركة بني سليم وبني أسد[3].

وكذلك ذكر الواقدي أن عدد جيش قريش ومن تبعها أربعة آلاف، وأن بني سليم شاركوا مع الأحزاب بسبعمائة بقيادة سفيان بن عبد شمس والد أبي الأعور السُّلمي الذي كان مع معاوية في حرب صفِّين، وأن بني أسد شاركوا بقيادة زعيمهم طليحة بن خويلد، وأن بني فزارة من غطفان شاركوا بألف مقاتل بقيادة عيينة بن حصن، وأن بني مرة من غطفان شاركوا بأربعمائة بقيادة الحارث بن عوف، وأن بني أشجع من غطفان شاركوا بأربعمائة بقيادة مسعود بن رُخيلة، ولم يذكر عدد بني أسد وبقية غطفان[4].

في هذا الخبر تصوير لجهود اليهود الأثيمة في تأليب أعداء المسلمين عليهم وجمعهم لحربهم، وهذا الخلق الذميم قد اشتهروا به قديمًا وحديثًا.

ونجدهم في هذا الخبر مع علمهم اليقيني بصدق نبوة رسول الله ﷺ يخونون الأمانة ويُلبِّسون الحقائق، فيحكمون بأن دين قريش الوثني أفضل من دين المسلمين الإلهي، فهم عبيدُ المصلحة، فإذا كانت مصلحتهم الدنيوية تتحقق بالكذب والخيانة والغدر فإن

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٣- ٢٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٢ .

(٣) دلائل النبوة: ٣/ ٣٩٨ .

(٤) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٤٣ .

هذه الأخلاق السيئة وأمثالها هي دينهم الذي يقدِّسونه ظاهراً، وإن كانوا يعرفون الحق باطنًا كمعرفتهم أبناءهم.

وقد لاقت سعاياتهم الخبيثة آذانا صاغيةً من أعداء المسلمين في مكة؛ حيث الحقد المتراكم على المسلمين، والرغبة الأكيدة في القضاء على الدين الإسلامي الذي تجرَّعوا بسببه الذل والإهانة لما كفروا به وقاوموا أصحابه.

كما لقيت سعاياتهم قبولاً لدى القبائل الانتهازية التي تطمع في خيرات المدينة وتحلم بشرف الاستيلاء عليها.

*****

١- قال ابن إسحاق -رحمة الله تعالى-: فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، وما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق على المدينة، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا.

وذكر ابن هشام أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة[١].

٢- وروى الواقدي عن شيوخه في ذلك أن سلمان قال: يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خَندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين.

ثم قال الواقدي: فحدثني أبو بكر بن أبي سبرة قال: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن جهم أنَّ رسول الله ﷺ ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا[٢] خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب إلى راتج[٣]، فعمل يومئذ في الخندق، وندب الناس، فخبرهم بدُنو عدوِّهم، وعسكرهم إلى سفح سلع[٤]، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يُبادرون قدوم العدوِّ عليهم، وأخذ رسول الله ﷺ يعمل معهم في الخندق؛ لينشِّط المسلمين[٥].

٣- وأخرج الإمام البخاري في بيان معاناة المسلمين في حفر الخندق من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصب والجوع قال: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**»، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا[٦]

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٦٨.
(٢) سلع: هو الجبل المشهور في المدينة.
(٣) هذه أسماء أماكن حول المدينة آنذاك كان الخندق بينها.
(٤) يعني: عسكر المسلمين.
(٥) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٤٥.
(٦) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٩٢، رقم: ٤٠٩٩.

٤- كما أخرج في ذلك من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدةَ بطنه -وكان كثير الشعر- فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّتْ الأقدامَ إن لاقينا

إن الأُلى هم قد بغَوا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبينا

قال: ثم يمدُ صوته بآخرها»[١].

٥- ومما يبين جهد النبي ﷺ الذي بذلة في حفر الخندق ما أخرجه الواقدي بإسناده إلى أبي واقد الليثي، قال: رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق، فأجاز من أجاز وردَّ من ردَّ، وكان الغلمان يعملون معه -الذين لم يبلغوا- ولم يُجزهم، ولكنه لما لحم الأمر أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذراري، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول، ومرةً يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب في المكتل، ولقد رأيته يومًا بُلغ منه، فجلس رسول الله ﷺ، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر، فذهب به النوم، فرأيت أبا بكر وعمر واقفيْن على رأسه يُنحيَّانً الناس أن يمرُّوا به فيُنبِّهوه، وأنا قريب منه، ففزع ووثب، فقال: ألا أفزعتموني! فأخذ الكَرْزن[٢] يضرب به[٣].

٦- وقال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا: سلمان منَّا، وقالت الأنصار: سلمان منَّا، فقال رسول الله ﷺ: «**سلمان منَّا أهل البيت**»[٤].

وأخرج ذلك الواقدي عن شيوخه أن سبب تنافسهم عليه أنه كان قويًا عارفًا بحفر الخنادق[٥].

---

(١) صحيح البخاري: المغازي: ٧/ ٣٩٩، رقم: ٤١٠٦.
(٢) الكرزن: هو الفأس.
(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٥٣.
(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٦٩.
(٥) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٤٦، ويؤيد ما روي من ثناء النبي ﷺ على سلمان ما أخرجه ابن عبد البر بإسناده عن أبي البختري عن علي رضي الله عنه أنه قال في سلمان: «علمَ العلمَ الأول والآخر بحر لا ينزف وهو منا آل البيت»، الاستيعاب: ٢/ ٥٩، وذكره الذهبي من هذا الطريق، سير أعلام النبلاء: ١/ ٥٤١، وقال محققه: رجاله ثقات.

وذكر الواقدي في إحدى رواياته أن المسلمين قضوا في حفر الخندق ستة أيام[1].

وكان مسوغ دعوى الأنصار أن سلمان من أهل المدينة؛ لإقامته فيها، وكان مسوغ دعوى المهاجرين أن سلمان ليس من أهل المدينة؛ وإنما هاجر إليها من خارجها كما هاجروا إليها.

في هذه الأخبار مواقف وعبر، منها:

أولاً: مشاركة رسول الله ﷺ أصحابه في حفر الخندق، فلقد كان قائداً لأصحابه حتى في هذا العمل الشاق، ولقد بذل جهداً كبيراً في ذلك حتى كسى التراب جسده الشريف.

ويداهمه النوم ﷺ من شدة الإعياء والسهر، فينام مستنداً على حجر، ويشفق عليه صاحباه أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- فيصرفان عنه الناس؛ ليستغرق في نومه، ولكنه ينتبه من دبيب أقدام حوله، فيلوم أصحابه على تركه نائمًا؛ خشية أن يتأخر العمل في حفر الخندق، ولقد كان ﷺ -كما سبق في غزوة أحد- إذا جدَّ الجد لا يشبهه أحد.

ونجده ﷺ يحرِّض أصحابه على الجد في العمل، فيذكرهم بنعيم الآخرة؛ ليجتهدوا في العمل الصالح الموصل إلى ذلك النعيم، فيقول لهم وهم يحفرون الخندق: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة**»، فيجيبونه بلسان المؤمن الواثق:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً

وكان ﷺ وهو ينقل التراب يرتجز بشعر ابن رواحة المذكور في الخبر؛ وذلك ليشد من عزائم المسلمين.

لقد كان بإمكانه ﷺ أن يبقى في حصن منيع وأن يتخذ لنفسه حرسًا، وما أكثر الذين يفدونه بأرواحهم من أصحابه، ولو فعل ذلك لم يعترض عليه أحد، ولرأى الصحابة أن ذلك من حقِّه وأن من واجبهم أن يقوموا بحمايته، وأن يتولوا حماية المدينة بحفر الخندق، ولكنه ﷺ قدوة عليا لأمته، فهو دائمًا يسابق أصحابه إلى البذل والتضحية، ولا يوفر نفسه من الأعمال الشاقة.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٥٤.

إن مشاركة النبي ﷺ بنفسه في حفر الخندق مع أنه زعيم المسلمين وإمامهم وبين قوم يفدونه بأرواحهم لمن أقوى الأدلة على صفاته التربوية العالية، وخلود عظمته عبر الأجيال، فلم يجعل من نفسه زعيمًا دُنيويًا يُصدر الأوامر والنواهي وهو في معزل من عامة الناس، بل شاركهم في السرَّاء والضرَّاء، يشبع إذا شبعوا ويجوع إذا جاعوا، ويعمل في المصالح العامة كما يعملون، وما هذا إلا مثل من أمثلة كثيرة لتواضعه وسلوكه التربوي العالي ﷺ.

ثانيًا: طاعة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وتفانيهم في تنفيذ أوامره، فقد بذلوا جهدًا مكثفًا في حفر الخندق، حتى استطاعوا على طوله أن ينجزوه في أيام معدودة، وأن ينجحوا في سبق الكفار وتحصين المدينة قبل مجيئهم.

ولقد كان لهذه الخطة الحربية الحكيمة أثرٌ فعَّال في نجاح المسلمين في المعركة؛ حيث أبطلوا بذلك مفعول سلاح الفرسان الذي يتفوق به الأعداء على المسلمين، واقتصر القتال على سلاح الرماية الذي لم يستفد منه الكفار كثيراً؛ لضعف استعدادهم في هذا المجال، ولبعد معسكر المسلمين نسبيًا عن الخندق، ولقوة الحراسة من المسلمين وشدة انتباههم كما سيأتي.

ثالثًا: في قول رسول الله ﷺ: «**سلمان منَّا أهل البيت**» ما يشعر بأن سلمان من المهاجرين؛ لأن أهل البيت من المهاجرين، ولكنه عبَّر بطريقة بارعة رفع فيها من شأن سلمان، وأشعر الفريقين بأن هناك فريقًا ثالثًا أعلى شأنًا من الفريقين، وإنْ كان ينتمي إلى أحدهما، فلا خصومة في سلمان؛ لأن شأنه أكبر من ذلك، فإنه قد فاز باللحاق بالفريق الأعلى، وإنّا لنجد في هذا التعبير العالي لمسات سامية، أقنعت الفريقين، وأعلت من شأن رجل كان في قمة الشرف والرفعة في بلده الأول، ثم تقلب به الزمن حتى صار موئل المهانة والذل في عبودية رجل يهودي إلى أن تحرر منه، فكان في كلمة النبي ﷺ رد اعتبار له ومكافأة سخية على ما تخلى عنه من حياة الشرف والرفعة إلى حياة المهانة والذل من أجل أن يظفر بالإيمان بالنبي ﷺ وصحبته، فما أعظمك يا رسول الله مربيًا وهاديًا!!

٧- قال ابن إسحاق: وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يُوَرُّون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم

من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً في الخير واحتسابًا له.

قال: فأنزل الله -تعالى- في أولئك المؤمنين: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٦٢]، فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

ثم قال -تعالى- يعني: المنافقين الذين يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ: ﴿**لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣][(١)].

وإننا حينما نقارن بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين في هذا الخبر نعرف كيف أن الإسلام ينتقي أزكى العناصر البشرية فيصبها في قالب جماعة المسلمين؛ حيث ينتج عنها بعد ذلك العجائب مما يذهل أصحاب الفكر المتأمل والعقل المتبصر؛ سواء في مجال السلم؛ حيث تقوم بعمران الأرض على قدم وساق وهي تُتَوِّج أعمالها بنشر العدل بين الناس والرحمة بالضعفاء، أو في مجال الحرب؛ حيث تبذل الغالي والنفيس في سبيل خدمة مبادئها السامية التي تخضع لها عقول أعدائها قبل أن تخضع لها رقابهم، وهذه الجماعة مع ذلك لا تقاوم أعداءها الذين صرَّحوا بعدائها فقط، وإنما تقاوم أيضًا المنافقين الذين يُظهرون الولاء لها وهم يكيدون لها من داخلها بمختلف أنواع الكيد.

فهؤلاء المنافقون الذين في عهد رسول الله ﷺ يتسللون من الخدمة مع جماعة المؤمنين في أمر مُهم وخطير يتوقف عليه أمْن هذه الجماعة التي أظهر هؤلاء المنافقون انضمامهم لها والإيمان بمبادئها، فنهى الله -تعالى- المؤمنين عن أن يكونوا كهؤلاء

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٦، ٢٥٧.

المنافقين الذين يستهينون بأمر النبي ﷺ فيجعلون نداء الرسول ﷺ إياهم وتكليفهم بالعمل كنداء بعضهم بعضًا، بيْد أن أمر النبي ﷺ أمرٌ إلهي لا خيار للمسلم فيه ولا يجوز التردد في تنفيذه.

٨- قال الإمام البخاري: حدثنا خلادُ بن يحيى حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: «أتيت جابرًا رضي الله عنه، فقال: كنَّا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْية[١] شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «**أنا نازل**»، ثم قال: وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية، فعادت كثيبًا أهيل أو أهيم[٢].

فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلتُ لامرأتي: رأيتُ بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة، ثم جئتُ النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافيِّ قد كادت تنضج، فقلت: طُعيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان، قال: «**كم هو؟**» ذكرت له، فقال: «**كثير طيب**»، قال: «**قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخُبز من التنور حتى آتي**».

فقال: «**قُوموا**»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم[٣]، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويُخمِّرُ البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية، قال: «**كلي هذا وأهدي، فإنَّ الناس أصابتهم مجاعة**»[٤].

---

(١) هي الصخرة الصلبة.

(٢) أي: رملاً سائلاً؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: في هذا السياق اختصار، وبيانه في رواية يونس: «قال: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقلت: جاء الخلق على صاع من شعير وعناق، فدخلت على امرأتي أقول: افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، فكشفتْ عني غمًا شديدًا، فتح الباري: ٧/ ٣٩٨.

(٤) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤١٠١، ٧/ ٣٩٥، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، رقم: ٢٠٣٩، ص: ١٦١٠، وأخرجه ابن إسحاق، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٨- ٢٦٠.

٩- قال الحافظ نور الدين الهيثمي: عن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله، وأحسبه وضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال: «**بسم الله**»، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «**الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا**»، ثم قال: «**بسم الله**»، وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر قال: «**الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا**»، ثم قال: «**بسم الله**»، وضرب ضربة أخرى فقطع بقية الحجر، فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**»، رواه أحمد، وفيه ميمون أبو عبد الله وثَّقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.

ثم ذكر رواية أخرى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- وقال: رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما حُيي بن عبد الله، وثقه ابن معين، وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح.

ثم ذكر رواية ثالثة من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان[١].

وذكره الحافظ ابن حجر من رواية الإمام أحمد والنسائي وحسَّن إسناده[٢].

وأخرجه ابن إسحاق من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه[٣].

١٠- قال ابن إسحاق: وحدثني سعيد بن مينا أنه حُدِّث أن ابنةً لبشير بن سعد، أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتني أمي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها، فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: «**تعالي يا بُنَيَّة، ما هذا معك؟**» قالت: فقلت: يا رسول الله، هذا تمر، بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، قال: «**هاتيه**»، قالت:

(١) مجمع الزوائد: ٦/ ١٣٠- ١٣٢.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٩٧.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦١.

فصَبَبته في كفَّي رسول الله ﷺ، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدَّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «**اصرخ في أهل الخندق أن هَلُمَّ إلى الغداء**»، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[1].

في هذه الأخبار عبرٌ عظيمة فيما جرى لرسول الله ﷺ من المعجزات:

فالمعجزة الأولى: في تكثير الطعام بين يديه ﷺ، وقد جاء ذلك في حديث جابر رضي الله عنه عند البخاري؛ حيث دعا رسول الله ﷺ ورجلاً أو رجلين على طعامه فأكل منه أهل الخندق وهم عدة مئات، وكذلك في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- عند الطبراني، وأبلغ من ذلك ما جاء في حديث ابنة بشير بن سعد عند ابن إسحاق؛ حيث شبع أهل الخندق من تمرات لم يملأن كفَّي رسول ﷺ، وذلك مما أنزل الله -تعالى- في الطعام من البركة على يد رسوله ﷺ.

أما المعجزة الثانية: ففي تليين الحجر لرسول الله ﷺ وانكساره بين يديه، ثم في إخباره ﷺ عما سيكون في المستقبل من فتح الشام وبلاد فارس واليمن.

وإن في ظهور هذه المعجزات على يدي رسول الله ﷺ والمسلمون في تلك الحال الحرجة التي ابتلي فيها المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً حكمًا عظيمة؛ حيث قوَّى الله -تعالى- بها قلوب المؤمنين ورسَّخ إيمانهم حتى أيقنوا أَن الله -تعالى- ناصرهم على أعدائهم، ليس في تلك المعركة وحدها، وإنما في المعارك القادمة أيضًا حتى ينتشر دين الله -تعالى- وتكون كلمته هي العليا.

كما أن في هذه المعجزات تبكيتًا للمنافقين واليهود الذين أرجفوا بالمؤمنين وخذلوهم، فإن أي عاقل يرى هذه المعجزات يُسلم بنبوة رسول الله ﷺ، وأن الله -تعالى- معه بنصره وتأييده.

وفي خبر جابر عند البخاري بيان لشيء من أخلاق النبي ﷺ العالية؛ حيث كان يتولى تقديم الطعام لأصحابه رضي الله عنهم حتى شبعوا، وفي هذا دلالة على تواضعه العظيم، والتواضع يُعدُّ من أعظم صفات الكمال في الإنسان.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٥٩، وأخرجه الواقدي بإسناده إلى القاسم بن عبد الرحمن بن رافع النجاري، وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ٢/ ٤٧٦.

قال ابن إسحاق: وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القُرَظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحُيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حُيي: ويحك يا كعب! افتح لي. قال: ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا، قال: ويحك افتح لي أكلِّمك، قال: ما أنا بفاعل.

قال: والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك[١] أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعزِّ الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتُهم بمجتمع الأسيال من رُومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نقَمَي إلى جانب أُحد، قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

قال: فقال له كعب: جئتني والله بذُلِّ الدهر، وبجهام قد هَرَاق ماءه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، ويحك يا حُيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب[٢] حتى سمح له، على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ[٣].

وهكذا وافق يهود بني قريظة أسلافهم من يهود بني النضير على الغدر برسول الله ﷺ والمسلمين، مع أنهم لم يروا منهم إلا الوفاء والصدق، كما جاء في اعتراف

(١) الجشيشة: هي السويق.

(٢) الذروة والغارب: أعلى ظهر البعير، وكان البعير إذا شرد من صاحبه وصعب عليه مسح على ظهره بيده حتى يسكن ويهدأ، والمراد: أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا نفر.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٢- ٢٦٤.

زعيمهم كعب بن أسد، لكن النفوس التي ألفت الشر ونشأت على الغل والحقد والحسد لا يستريح أصحابها وهم يرون غيرهم في عزٍّ وسعادة؛ لأنهم يريدون أن يختصُّوا بذلك دون غيرهم وأن يكون الآخرون تحت سلطان خداعهم وتضليلهم كما كان الأنصار كذلك في جاهليتهم مع يهود المدينة.

ولما وصل الخبر إلى النبي ﷺ بما أقدم عليه يهود بني قريظة من نقض العهد بعث إليهم الزبير بن العوام رضي الله عنه؛ ليأتي بخبرهم، وفي ذلك أخرج الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «**من يأتينا بخبر القوم؟**»، فقال الزبير: أنا، ثم قال: «**من يأتينا بخبر القوم؟**» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «**من يأتينا بخبر القوم؟**» فقال الزبير أنا، ثم قال: «**إنَّ لكل نبي حواريًا وإن حواريَّ الزبير**»(١).

وجاء في رواية الواقدي أن الزبير ذهب إلى بني قريظة، ثم رجع، فقال: يا رسول الله، رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم(٢).

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يكلفه بمخاطبتهم، وإنما كلَّفه بمعرفة واقعهم؛ هل هو حربي أم سلمي.

فلما تبين للنبي ﷺ ما يدل على صحة ما ذكر عنهم من نقض العهد بعث إليهم وفدًا من الأنصار؛ لمخاطبتهم؛ لمعرفة حقيقة أمرهم.

وقد أخرج الخبر في ذلك محمد بن إسحاق؛ حيث يقول: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن دُليم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير، أخو بني عمرو بن عوف، فقال: «**انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس**».

قال: فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤١١٣، ٧/ ٤٠٦.
(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٥٧.

سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدَّة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربَى من المشاتمة، ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلَّموا عليه، ثم قالوا: عَضَلٌ والقارة؛ أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع؛ خبيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين**»(١).

وهذا موقف يُذْكر لسعد بن معاذ رضي الله عنه حينما وقف من يهود بني قريظة هذا الموقف الشديد مع أنهم حلفاء قومه في الجاهلية، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه؛ حيث جرَّد قلبه من عصبية الجاهلية.

ومما جاء في غدر بني قريظة ما رواه الواقدي من خبر الحارث بن الفُضَيل قال: همَّت بنو قريظة أن يغيروا على بيضة المدينة ليلاً، فأرسلوا حُيي بن أخطب إلى قريش أن يأتيهم منهم ألفُ رجل، ومن غطفان ألفٌ، فيغيروا بهم، فجاء رسول الله ﷺ الخبر بذلك فعظم البلاء، فكان رسول الله ﷺ يبعث سَلَمة بن أسلم بن حُرَيْش الأشهلي في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير، ومعهم خيل المسلمين، فإذا أصبحوا أمنوا.

فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان، ولقد كنت أُوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة، فإذا رأيتهم هادئين حمدت الله عز وجل، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تُحرس.

ثم ذكر الواقدي خبر خوَّات بن جبير قال: دعاني رسول الله ﷺ ونحن مُحَاصرو الخندق، فقال: «**انطلق إلى بني قريظة، فانظر هل ترى لهم غرَّةً أو خللاً من موضع فتُخبرني**». قال: فخرجت من عنده عند غروب الشمس، فتدلَّيت من سلْع وغربت لي الشمس فصليت المغرب، ثم خرجت حتى أخذت في راتج، ثم على عبد الأشهل، ثم في زهرة، ثم على بعاث، فلما دنوت من القوم قلت: أكمن لهم، فكمنت ورمقت الحصون ساعة، ثم ذهب بي النوم فلم أشعر إلا برجل قد احتملني وأنا نائم، فوضعني على عنقه ثم انطلق يمشي.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٤.

قال: ففزعت، ورجل يمشي بي على عاتقه، فعرفت أنه طليعة من قريظة واستحييت تلك الساعة من رسول الله ﷺ حياءً شديدًا؛ حيث ضيعت ثغرًا أمرني به، ثم ذكرت غلبة النوم، قال: والرجل يُرقل بي إلى حصونهم، فتكلم باليهودية فعرفته، قال: أبشر بجَزْرة سمينة!.

قال: وذكرت وجعلت أضرب بيدي، وعهدي بهم لا يخرج منهم أحد أبدًا إلا بمغْول في وسطه[1]، قال: فأضع يدي على المغول فأنتزعه، وشغل بكلام رجل من فَوق الحصن، فانتزعته، فوجأت به كبده فاسترخى وصاح: السَّبُع! فأوقدت اليهود النار على آطامها بشُعَل السَّعَف، ووقع ميتًا وانكشف، فكنتُ لا أُدرك[2].

وأقبلُ من طريقي التي جئت منها، وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ظفرتَ يا خوَّات**»، ثم خرج فأخبر أصحابه، فقال: كان من أمر خوات كذا وكذا، وآتي رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه وهم يتحدثون، فلما رآني قال: «**أفلح وجهك**» قلت: ووجهك يا رسول الله! قال: «**أخبرني خبرك**». فأخبرته، فقال النبي ﷺ: «**هكذا أخبرني جبريل**»، وقال القوم: هكذا حدثنا رسول الله ﷺ، قال خوات: فكان ليلنا بالخندق نهارًا[3].

هذا الخبر يُعدُّ مثلاً من الأمثلة العالية في رَباطة الجأش والمقدرة على التفكير السليم مع رهبة مواجهة الموت، بل مواجهة ما هو أفظع من ذلك بالنسبة للمسلمين وهو ذُلُّ الأسر وما يتبع ذلك بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم في الأسرى، وقد كان اليهود حريصين على أخذ المسلمين أسرى؛ ليساوموا فيهم فيما لو حاصرهم المسلمون، ولكنهم لم يتمكنوا من شيء من ذلك.

ولقد كان ذلك اليهودي في غاية الفرح حينما رأى صحابيًا نائمًا فاحتمله أسيرًا بعدما جرَّده من سلاحه، ولقد كان أخذ المسلمين أسرى وهم محاربون من الأمور البعيدة المنال في عهد الصحابة، ولو أن ذلك اليهودي نبَّه خوات بن جبير لوجده أسدًا مرعبًا.

---

(١) المغول: بكسر الميم وسكون الغين سيف دقيق كهيئة السِّكين.
(٢) يعني: أنه عدَّاء لا يدركه لاحقه.
(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٦١.

ولقد كان ذلك السلاح الخفي الذي يحمله اليهود أوساطهم سببًا في نجاة خوَّات بن جبير، ووقوع ذلك اليهودي صريعًا، وهكذا تحوَّل سلاح النجاة هلاكًا، وتحول سلاح الهلاك نجاة بقدرة الله -تعالى- الذي ثبَّت قلب خوات بن جبير وألهمه تذكر ذلك السلاح الخفي.

وقول اليهودي حينما طعنه خوَّات بن جبير: «السَّبُع» يفيد بأن ذلك اليهودي قد اعتقد بأن سبعًا قد هجم عليه فبقر بطنه ولم يكن يتوقع بأن أسيره قد اختلس مغوله بتلك الخفَّة والخفية، وأنه هو الذي قضى عليه.

ومن ذلك ما أخرجه الواقدي من خبر عبد الله بن أبي بكر بن حزم، قال: خرج نبَّاش بن قيس ليلة من حصنهم يريد المدينة، ومعه عشرة من اليهود من أشدائهم وهم يقولون: عسى أن نصيب منهم غرَّة. فانتهوا إلى بقيع الغرقد، فيجدون نفرًا من المسلمين من أصحاب سلمة بن أَسلم بن حُرَيش، فناهضوهم فراموهم ساعة بالنبل، ثم انكشف القُرظيون مُولِّين، وبلغ سَلَمة بن أسلم وهم بناحية بني حارثة، فأقبل في أصحابه حتى انتهوا إلى حصونهم، فجعلوا يطيفون بحصونهم حتى خافت اليهود، وأوقدوا النيران على آطامهم، وقالوا: البَيات! وهدموا قرني[1] بئر لهم وهوَّروها[2] عليهم، فلم يقدروا يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفًا شديدًا[3].

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم في تمام اليقظة والحذَر، فكانت فصائلهم تجوب أنحاء المدينة في الليل حتى لم تترك لليهود أيَّة فرصة للإغارة على النساء والذراري ونحوهم.

وفي هذا الخبر مثلٌ للجهود الكبيرة التي كان يبذلها سلمة بن أسلم بن حريش وأصحابه في حراسة المدينة من داخلها.

ونجد أن هؤلاء الأبطال لم يكتفوا برد غارة اليهود، بل تبعوهم إلى أحد حصونهم وأرهبوهم، وهدموا بئرًا لهم خارج الحصن حتى أصبحوا محصورين في حصونهم لا يستطيعون الخروج.

---

(١) هما: ما يرفع من البناء إلى جانبي البئر؛ لتوضع فوقهما الخشبة التي تعلق عليها البكرة.

(٢) أي: هدموها.

(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٦٢.

قال ابن إسحاق: فلما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول الله ﷺ -كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم، عن محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري- إلى عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف ابن أبي حارثة المُري وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصُّلح إلا المُراوضة في ذلك.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لابُد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكَالبُوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما**».

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذاك**»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليَجْهدوا علينا(١).

وأخرجه الواقدي من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب، وذكر نحوه مع بعض الزيادات، وقد جاء في آخره: فرجع عيينة والحارث وهما يقولان: والله ما نرى أن ندرك منهم شيئًا، ولقد أُنهجت للقوم بصائرهم! والله ما حضرتُ إلا كُرها لقومٍ غلبوني، وما مقامنا بشيء، مع أن قريشًا إن علمت بما عرضنا على محمد عرفت أنَّا قد خذلناها ولم ننصرها، قال عيينة: هو والله ذلك! قال الحارث: أما إنا لم نُصب

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٦، ٢٦٧.

بتعرضنا لنصر قريش على محمد، والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب، مع أني أرى أمر محمد أمراً ظاهراً والله، لقد كان أحبار يهود خيبر وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كُتبهم أنه يبعث نبيٌّ من الحرم على صفته.

قال عيينة: إنا والله ما جئنا ننصر قريشًا، ولو استنصرنا قريشًا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها، ولكني كنتُ أطمع أن نأخذ تمر المدينة، فيكون لنا به ذكرٌ مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة، مع أنا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جَلَبونا إلى ما هاهنا.

قال الحارث: قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف، والله لتقاتلن عن هذا السعف، ما بقي منها رجلٌ مقيم، وقد أجدب الجناب وهلك الخُف والكُراع(١)، قال عيينة: لا شيء.

فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان، فقالوا: ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمرُ، رأينا قومًا على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم، وقد هلكنا وهلكت قريش، وقريش تنصرف ولا تُكلِّم محمداً! وإنما يقع حرُّ محمد ببني قريظة، إذا ولينا جثَم عليهم فحصرهم جمعةً حتى يعطوا بأيديهم، قال الحارث: بُعداً وسُحقًا! محمدٌ أحب إلينا من اليهود(٢).

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: قول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضي الله عنهما-: «يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟» يعتبر غاية في الاستسلام لله -تعالى- والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام: الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله -تعالى- فلا مجال لإبداء الرأي، بل لابد من التسليم والرضى، والثاني: أن يكون شيئًا يحبه رسول الله ﷺ باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدَّم وله الطاعة في ذلك، والثالث: أن يكون شيئًا عمله

(١) أي: أجدبت الأرض القريبة من المدينة وانتهت المراعي وهلكت الإبل والخيل.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٧٧- ٤٨٠، وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني من حديث ابن المسيب مختصراً، مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٣٦٧، رقم: ٩٧٣٧، وأخرجه البزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مختصراً، كشف الأستار: ٢/ ٣٣١، رقم: ١٨٠٣، وذكره الهيثمي من رواية البزار والطبراني، وقال: فيهما محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٣٢ .

الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرأي.

لما تبين للسعدين من جواب الرسول ﷺ أنه أراد القسم الثالث أجاب سعد بن معاذ بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان؛ حيث بين أن الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهلية، فكيف وقد أعزهم الله -تعالى- بالإسلام.

وقد أُعجب النبي ﷺ بجواب سعد، وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح الجهادية القوية، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح مع غطفان.

وفي المحاورة التي ذكرها الواقدي في روايته بين زعيمي غطفان يتبين لنا انخفاض مستوى الروح القتالية لديهم، وأنهم في تردُّد من أمرهم، وندمٍ على ما أقدموا عليه من موافقة قريش واليهود على غزو المدينة، وكان هذا التردد وضآلة أملهم في الحصول على تمر المدينة مما جعل مجهودهم في القتال ضعيفًا.

*****

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون، وعدوُّهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد وُدٍّ بن أبي قيس[١]، أخو بني عامر بن لُؤَي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان، وضرار بن الخطاب الشاعر ابن مرداس أخو بني محارب بن فهر، تلبَّسوا للقتال[٢]، ثم خرجوا على خيلهم حتى مرُّوا بمنازل بني كنانة، فقالوا: تهيأوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم، ثم أقبلوا تُعنق بهم خيلهم[٣]، حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها.

قال ابن إسحاق: ثم تيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السَّبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر معه من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تُعنق نحوهم.

وكان عمرو بن عبد وُدٍّ قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلمًا؛ ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله، قال: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النِّزال، فقال له: لم يا بن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

---

(١) قال ابن هشام: ويقال: عمرو عبد بن أبي قيس.

(٢) نعني: تهيأوا واستعدوا له.

(٣) أي: تسرع بهم، والعَنَق بفتحتين: ضرب من السير السريع.

قال ابن إسحاق: وقال علي بن أبي طالب -رضوان الله- عليه في ذلك:

نصَرَ الحجارةَ من سفاهة رأيه ... ونَصرتُ ربَّ محمد بصَوابي

فصَددت حين تَركته متجدِّلا ... كالجذع بين دكادك ورَوابي[(١)]

وعَففت عن أثوابه، ولو أنني ... كنتُ المُقطَّر بزَّني أثوابي[(٢)]

لا تحسبُنَّ الله خاذلَ دينه ... ونبيِّه يا معشر الأحزاب[(٣)]

هذا الخبر يبين شجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإقدامه الجريء على المهالك، فلقد كان عمرو بن عبد وُدٍّ من المشهورين بالشجاعة والخبرة الحربية، فالإقدام على مبارزته مغامرة لا يقدم عليها من له في الحياة رغبة.

وإذا نظرنا إلى المتبارزيْن من ناحية الكفاءة الحربية نجد أن بينهما فرقًا كبيرًا، فعمرو بن عبد ود يمتاز بعدة عوامل ترجح كفته، منها: شهرته المستفيضة بالشجاعة والقوة، وهذه الشهرة تمنحه قوة معنوية، بينما تضعف من قوة خصمه وتصيبه بالرعب والهلع، ومنها: خبرته الحربية فهو متقدم في السن، وكلما كان الإنسان أكثر ممارسة للحرب كان أكثر خبرة وأقدر على اتقاء ضربات الخصم واغتنام فرص الهجوم.

ولكن مع صغر سن علي رضي الله عنه وقلة خبرته الحربية فإنه أقدم على مبارزة ذلك الرجل العنيف الشجاع، فنصره الله -تعالى- عليه فأرداه قتيلاً، وكان ذلك كافيًا لإرهاب أصحابه الذين فرُّوا وتركوا الميدان.

وهكذا حدث ما يشبه الخوارق؛ حيث أقدم شاب حديث السن والخبرة على مبارزة فارس عظيم من أشهر فرسان العرب، كما يفيد ذلك ما جاء في رواية أخرى لابن إسحاق ذكرها السهيلي، وفيها أن عمرو بن عبد وُد حينما دعا إلى المبارزة برز له علي بن أبي طالب، فقال له رسول الله ﷺ: «**اجلس إنه عمرو**»، قالها مرتين، وفي الثالثة قال علي: وإنْ كان عمرًا. فأذن له رسول الله ﷺ[(٤)].

(١) الدكادك: جمع دكدك، وهو ما غلظ من الأرض، والروابي: جمع رابية، وهي المكان المرتفع.

(٢) المقطر: أي المقتول، بزَّني: يعني سلبني.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٩، ٢٧٠، وأخرج الحاكم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- خبر قتل علي عمرو بن عبد ود، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، المستدرك: ٣/ ٣٢.

(٤) الروض الأنف: ٦/ ٣١٧.

وإنه لمشهد عظيم وامتحان رهيب يظهر فيه الإيمان الراسخ والشجاعة الفذة؛ حيث تتم المبارزة على ملأ من الطرفين، ويكون لنتائجها الأثر البالغ في رفع المعنويات أو تحطيمها، ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثال في ذلك؛ حيث كان الأبطال وأقوياء الإيمان يتسابقون إلى ساحة الميدان وتكون لهم الغلبة في أكثر الأحوال، بل إنه من النادر جدًّا أن يتفوق عليهم الأعداء في هذا المجال؛ لأنه يستحيل أن يوجد من يبذل طاقته كاملة ويتمنى الموت غير المسلمين؛ حيث إن ما يقصده المسلمون هو رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، وإن مما يوقن به المؤمن أن مما يعجل بحصوله على ذلك أن يزُج بنفسه في المخاطر من أجل إعزاز دين الله تعالى، أما غير المسلم فإن الذين يقصدهم بتضحيته لا يستفيد منهم إلا في هذه الحياة الدنيا، ومن الطبيعي أن يحرص على استبقاء نفسه؛ ليفوز بثمرات نصره، وهذا يعوقه عن بذل القدر الكافي من الطاقة، فيتفوق عليه المسلم المخلص بإذن الله تعالى.

وقال الواقدي بعد أن ذكر هذا الخبر: فلما رجعوا إلى أبي سفيان قال: هذا يومٌ لم يكن لنا فيه شيء، ارجعوا! فنفرت قريش، فرجعت إلى العقيق، ورجعت غطفان إلى منازلها، واتَّعدوا يغدون جميعًا ولا يتخلف منهم أحد، فباتت قريش يُعبئون أصحابهم، وباتت غطفان يعبئون أصحابهم، ووافوا رسول الله ﷺ بالخندق قبل طلوع الشمس، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وحضَّهم على القتال، ووعدهم النصر إن صَبَروا، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم، فأخذوا بكل وجه من الخندق.

قال: فحدثني الضحاك بن عُثمان، عن عبيد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله قال: قاتلونا يومهم وفرَّقوا كتائبهم، ونحَّوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد ابن الوليد، فقاتلهم يومه ذلك إلى هَوِيٍّ من الليل، ما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحدٌ من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم، وما قدر رسول الله ﷺ على صلاة الظهر ولا العصر، ولا المغرب ولا العشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، ما صلينا! فيقول: «**ولا أنا والله ما صليت!**» حتى كشفهم الله تعالى فرجعوا متفرقين، فرجعت قريش إلى منزلها، ورجعت غطفان إلى منزلها، وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ﷺ.

وأقام أسيد بن حضير على الخندق في مائتين من المسلمين، فهم على شفير الخندق؛ إذ كرَّت خيل من المشركين يطلبون غرَّة، عليهم خالد بن الوليد، فناوشوهم ساعة ومع المشركين وحشي، فزرق الطُّفيل بن النُّعمان من بني سلمة بمزراقه فقتله، فكان يقول: أكرم الله تعالى حمزة والطُّفيل بحربتي ولم يُهنِّي بأيديهما.

فلما صار رسول الله ﷺ إلى موضع قُبَّته أمر بلالاً فأذن، وكان عبد الله بن مسعود يقول: أمره رسول الله ﷺ فأذَّن وأقام للظهر، وأقام بعدُ لكل صلاة إقامةً إقامةً.

وقد حدثني ابن أبي ذئب -وهو أثبت الحديثين عندنا- قال: أخبرني المقبُري، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: جلسنا يوم الخندق حتى كان بعد المغرب بهويٍّ من الليل حتى كُفينا، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً** ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فدعا رسول الله ﷺ بلالاً فأمره، فأقام صلاة الظهر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها، ثم أقام صلاة العصر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها، ثم أقام المغرب فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها، ثم أقام العشاء فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها، قال: وذلك قبل أن ينزل الله صلاة الخوف: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا** ﴾ [البقرة: ٢٣٩][١].

وهذا الخبر يتعارض مع ما أخرجه أبو عبد الله البخاري من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- وفيه أن النبي ﷺ لم يُصل صلاة العصر إلا بعد غروب الشمس[٢]؛ فإما أن يكون ذلك وقع مرَّتين؛ مرة شغلوا عن صلاة العصر، ومرة شُغلوا عن الصلوات الأربع، وإلا فإن ما في الصحيح أصح وهو المعتمد.

وهذا يوم من أشد أيام الخندق؛ حيث طمع المشركون في إشغال المسلمين من جميع الجهات بالكتائب؛ ليتمكنوا من ردم جزء من الخندق وتجاوزه بخيولهم، ولكن المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ كانوا واقفين جميعًا في مواقعهم من الخندق من صباح ذلك اليوم إلى ما بعد العشاء، ولم يستطع رسول الله ﷺ ولا أصحابه أن يصلوا في

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٧٢، ٤٧٣.

(٢) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٤٠٥، رقم: ٤١١٣.

ذلك اليوم، ولم تكن شُرعت بعدُ صلاة الخوف، كما جاء في هذه الرواية، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الصلوات قضاء.

ولقد جرت محاولات أخرى لبعض فرسان المشركين كما جرت مناوشات بالرمي بين المسلمين والمشركين، ومن ذلك ما أخرجه الواقدي من حديث أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: كنت مع رسول الله ﷺ في الخندق فلم أفارقه مُقامه كله، وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنَّا في قُرٍّ شديد[1]، فإني لأنظر إليه قام فصلى ما شاء الله أن يصلي في قبته، ثم خرج فنظر ساعةً فأسمعه يقول: «**هذه خيل المشركين تُطيف بالخندق، من لهم؟**»، ثم نادى: «**يا عبَّاد بن بشر**»، فقال عباد: لبيك! قال: «**أمعك أحدٌ؟**» قال: نعم، أنا في نفر من أصحابي كنا حول قبتك، قال: «**فانطلق في أصحابك فأطف بالخندق، فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم يطمعون أن يصيبوا منكم غرَّة، اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم، لا يغلبهم غيرُك**»، فخرج عبَّاد بن بشر في أصحابه، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق، وقد نذر بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل، فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم بالمرمي، فانكشفوا راجعين إلى منزلهم، ورجعت إلى رسول الله ﷺ فأجدُه يصلي فأخبرته. قالت أم سلمة: فنام حتى سمعتُ غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يُؤذن بالصبح وبياض الفجر، فخرج فصلى بالمسلمين، فكانت تقول: يرحم الله عبَّاد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقُبَّة رسول الله يحرسها أبدًا[2].

كما أخرج الواقدي في بيان ذلك من حديث أيوب بن النعمان، عن أبيه، قال: كان أسيد بن حضير يحرس الخندق في أصحابه، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفُره[3] الخيل، فإذا طليعة من المشركين؛ مائة فارس أو نحوها، عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يُغيروا إلى المسلمين، فقام أسيد بن حضير عليها بأصحابه، فرموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا عنا وولَّوا، وكان في المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسي، فقال لأسيد: إن هذا مكان من الخندق متقارب، ونحن نخاف تطفُره

(١) القرُّ بضم القاف وتشديد الراء المكسورة: هو البرد.
(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٦٤.
(٣) الطفر: هو الوثوب في ارتفاع.

خيلُهم، وكان الناس عجلوا في حفره، وبادروا فباتوا يُوسعونه حتى صار كهيئة الخندق وأمنوا أن تطفره خيلهم، وكان المسلمون يتناوبون الحراسة، وكانوا في قُرٍّ شديد وجوع[1].

ومما يبين جهود المسلمين في جهاد العدو ما أخرجه الواقدي من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: والله، إني لفي جوف الليل في قبة النبي ﷺ وهو نائم إلى أن سمعتُ الهيْعة[2]، وقائل يقول: يا خيل الله! وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين «**يا خيل الله**»، ففزع رسول الله ﷺ بصوته، فخرج من القبة، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها؛ منهم عباد بن بشر، فقال: «**ما بال الناس؟**» قال عباد: يا رسول الله، هذا صوت عمر بن الخطاب، الليلة نوبته ينادي: «**يا خيل الله**» والناس يثوبون إليه وهو من ناحية حُسيكة ما بين ذُباب ومسجد الفتح، فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر: «**اذهب فانظر، ثم ارجع إليَّ إن شاء الله فأخبرني**».

قالت أم سلمة: فقمت على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ قائمًا حتى جاءه عبَّاد بن بشر، فقال: يا رسول الله، هذا عمرو بن عبد في خيل المشركين، معه مسعود بن رُخيلة في خيل غطفان، والمسلمون يُرامونهم بالنبل والحجارة.

قالت: فدخل رسول الله ﷺ، فلبس درعه ومغفره، وركب فرسه، وخرج مع أصحابه، حتى أتى تلك الثُّغرة، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور، فقال: «**صرفهم الله، وقد كثُرت فيهم الجراحة**».

قالت: فنام حتى سمعتُ غطيطه، وسمعت هائعةً أخرى، ففزع فوثب، فصاح: «**يا عبَّاد بن بشر!**» قال: لبيك! قال: «**انظُر ما هذا**»، فذهب ثم رجع، فقال: هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين، معه عيينة بن حصن في خيل غطفان عند جبل بني عُبيد، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه وركب فرسه، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة، فلم يأتنا حتى كان السَّحر، فرجع وهو يقول:

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٦٤، ٤٦٥ .

(٢) الهيعة: الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو: النهاية: ٤/ ٢٦١ .

«**رجعوا مفلولين، قد كثرت فيهم الجراحة**». ثم صلَّى بأصحابه الصبح وجلس، فكانت أم سلمة تقول: قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف: المريسيع، وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح، وحُنين، لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحَرَجة[1]، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، والمدينة تُحرس حتى الصباح، يُسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفًا، حتى ردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرًا: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٥][2].

وأخرج الواقدي أيضًا من حديث محمد بن مسلمة، قال: كنا حول قُبَّة رسول الله نحرسه، ورسول الله ﷺ نائم نسمع غطيطه؛ إذ وافت أفراس على سَلْع، فبصر بهم عباد بن بشر فأخبرنا بهم، قال: فأمضي إلى الخيل، وقام عباد على باب قبة النبي ﷺ آخذًا بقائم السيف ينظرني، فرجعت، فقلت: خيل المسلمين أشرفت، عليها سلمة بن أسلم بن حُريش، فرجعت إلى موضعنا، ثم يقول محمد بن مسلمة: كان ليلنا بالخندق نهارًا حتى فرَّجه الله.

كما أخرج من طريقين عن جابر بن عبد الله، قال: كان خوفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش! حتى فرج الله ذلك.

قالوا: فكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يومًا، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يومًا، وضرار بن الخطاب يومًا، فلايزالون يُجيلون خيلهم ما بين المُذاد إلى راتج، وهم في نَشَر[3] من أصحابهم، يتفرقون مرة ويجتمعون أخرى، حتى عظُم البلاء وخاف الناس خوفًا شديدًا، ويُقدِّمون رماتهم؛ كان معهم رُماة: حبان بن العَرِقة، وأبو أسامة الجُشَمي، وغيرهم من أفناء العرب[4][5].

---

(١) الحرجة: الشجر الملتف، وهو تعبير عن التفاف الأعداء عليهم.
(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٦٦، ٤٦٧.
(٣) أي: كانوا منتشرين متفرقين، النهاية: ٤/ ١٤٤.
(٤) أي: من أخلاطهم الذين لا يعرف نسبهم.
(٥) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٦٨.

ومما يبين شدة المعاناة التي كان يعانيها أصحاب رسول الله ﷺ ما أخرجه الواقدي قال: فحدثني قُدامة بن موسى، عن عائشة بنت قدامة، عن أبيها، قال: بعثْنَا ابن أختنا ابن عمر يأتينا بطعام ولحُف وقد بلغنا من الجوع والبرد، فخرج ابن عمر حتى إذا هبط من سلع -وذلك ليلاً- غلبته عيناه فنام حتى أصبح، فاهتممنا به، فخرجت أطلبه فأجده نائمًا، والشمس قد ضَحته، فقلت: الصلاة، أصليت اليوم؟ قال: «لا»، قلت: فصلِّ، فقام سريعًا إلى الماء، وذهبتُ إلى منزلنا بالمدينة، فجئت بتمر ولحاف واحد، فكنَّا نلبس ذلك اللحاف جميعًا، من قام منا في المحْرس ذهب مقرورًا، ثم رجع حتى يدخل في اللحاف، حتى فرج الله ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «**نصرتُ بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبور**»(١).

في نهاية هذه الأخبار تبينت لنا جهود كبيرة في ليالي ذلك الحصار من رسول الله ﷺ وأصحابه، وذلك في حراسة الخندق والمرابطة حوله حتى لا يتجاوزه المشركون، وكان ﷺ لا ينام في الليل إلا قليلاً، وبشكل متقطع للهمِّ الكبير الذي يحمله لأصحابه ودولته الصغيرة المحاربة من كل جانب.

وكان الأعداء يوجهون كتائبهم الكثيرة على طول الخندق؛ ليشغلوا المسلمين جميعًا ويحُولوا بينهم وبين الراحة؛ مؤمِّلين أن يحصلوا من بعضهم على غفلة أو استسلام لنوم؛ ليستطيعوا القيام بردم الخندق والإغارة بخيلهم على جيش المسلمين المفرَّق للحراسة والحماية في مقابل الخندق وداخل المدينة، ولكنهم فشلوا في كل محاولاتهم على الرغم من قلة عدد المسلمين وقلة إمكاناتهم المادية وسعة المنطقة التي كان عليهم أن يحموها من الأعداء، وهذا دليل على قوة شعور الصحابة بالمسئولية وتجردهم من الأنانية، واليقظة التامة من قائدهم الأعلى ﷺ وقادتهم الذين ينوبون عنه في إدارة العمل الجهادي.

وخبر أم سلمة -رضي الله عنها- يبين شدة ضغط المشركين في هجومهم الليلي، فقد فزع النبي ﷺ من نومه مرَّتين في ليلة واحدة -على قلة نومه- ولبس سلاحه وذهب هو ومن معه من الصحابة إلى موضع الخطر حتى اطمأن على وضع المسلمين، ورأى اندحار المشركين.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٧٥، ٤٧٦.

وإن في رسول الله ﷺ قدوة حسنة للقادة؛ حيث لم يلزم مكان قيادته ويكتفي بإصدار الأوامر، بل كان يذهب بنفسه إلى مواضع الخطر -على الرغم من كفاءة قادته- ليطمئن طمأنينة كاملة، وليسُنَّ للقادة من بعده المنهج الحكيم في إدارة المعارك الحربية.

هذا ولم تقتصر جهود المسلمين على الجهاد الدفاعي، بل كان لهم هجوم بالرماية، ومن الأخبار في ذلك: ما أخرجه الحافظ البزار من حديث محمد بن محمد بن الأسود، عن عامر بن سعد قال: قال سعد -وذكر النبي ﷺ-: لقد رأيته يوم الخندق ضحك حتى بدت نواجذه، قال: قلت: كيف؟[1] قال: كان رجل معه ترسان -وكان سعد راميًا- فكان يقول كذا وكذا بالتُّرسين يغطي جبهته فنزع له سعد بسهم، فلما رفع رأسه رماه فلم يُخْط هذه منه -يعني جبهته- وانقلب وأشال برجله، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: قلت: من أي شيء ضحك؟ قال: من فعل الرجل[2].

وذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة[3].

وهذا مثل من أمثلة مهارة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرماية؛ حيث أصاب أحد رماة المشركين من بُعد؛ لوجود الخندق، والمسافة بينه وبين المسلمين وبينه وبين المشركين، على الرغم من كون ذلك الرامي متترسًا بترسين.

*****

(١) القائل: هو محمد بن محمد بن الأسود، والمسئول: هو عامر بن سعد.

(٢) كشف الأستار: ٢/ ٣٣٤، رقم: ١٨٠٨.

(٣) مجمع الزوائد: ٦/ ١٣٥، ١٣٦.

إصابة سعد بن معاذ

قال ابن إسحاق: وحدثني أبو ليلي عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري، أخو بني حارثة: أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة.

قال: وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن، فقالت عائشة: وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب، فمر سعد وعليه درع له مُقلَّصة(١)، قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته يرقَدُّ بها(٢) ويقول:

لَبِّثْ قليلاً يَشهد الهيجا حمَلْ(٣) لا بأس بالموت إذا حان الأجل

قال: فقالت له أمه: الحَقْ أي ابني، فقد والله أخَّرت، قالت: عائشة: فقلت لها: يا أم سعد، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، قالت: وخفتُ عليه؛ حيث أصاب السهم منه، قال: فرُمي سعدُ بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل(٤)، رماه -كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة- حبَّانُ بن قَيس ابن العرقة، أحد بني عامر بن لؤي، فلما أصابه قال: خُذها مني وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرَّق الله وجهك في النار، اللهمَّ إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلهُ لي شهادة، ولا تُمتني حتى تقر عيني من بني قريظة(٥).

---

(١) أي: قصيرة غير سابغة.

(٢) يعني: يسرع في مشيته كالنافر.

(٣) هو حمل بن سعدانة الكلبي، وهذا البيت له، وقد تمثَّل به سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(٤) هو عرقٌ في الذراع.

(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٧١- ٢٧٣، وأخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة -رضي الله عنها- ضمن حديث طويل عن الخندق وبني قريظة، الفتح الرباني: ١٢/ ٨١- ٨٣، وذكره الهيثمي، وقال: رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٣٦- ١٣٨، وذكره الحافظ ابن كثير، وقال: إسناده جيد وله شواهد من وجوه كثيرة، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٦- ٢٣٨.

في هذا الخبر يظهر لنا مثل من رغبة الصحابة رضي الله عنهم الشديدة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وشوقهم البالغ للشهادة، ويتبين لنا من دعاء سعد بن معاذ أنه كان يعيش تلك الساعات التي تلت إصابته بين أملين كبيرين؛ أحدهما: جهاد القوم الذين آذوا رسول الله ﷺ وأخرجوه وحاربوه، والآخر: أن تحصل له الشهادة من جرحه ذلك، فربما لا يصاب بعد ذلك فلا تحصل له الشهادة.

إن هذه الأماني السامية والأهداف العالية تُظهر لنا تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الإيمان الراسخ والعلم بالآخرة علم اليقين الذي يكاد يشبه علم المشاهدة.

وقد استجاب الله تعالى دعاء سعد الثاني، فنال الشهادة من جرحه ذلك بعدما أقر عينه من بني قريظة كما سيأتي، ولم يبقه تعالى لحرب قريش؛ لأنه في علمه سبحانه أن الحرب بين المسلمين وقريش قد انتهت.

*****

موقف نعيم بن مسعود في تفريق الأحزاب

قال ابن إسحاق: ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قُنقد بن هلال ابن خَلاوة بن أشْجع بن ريْث بن غطفان، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة**».

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم وُدِّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تَحوَّلوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرتَ بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم وُدِّي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليَّ حقًا أن أبلغكموه، نصحًا لكم، فاكتمُوا عني، فقالوا: نفعل، قال: تعلَّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على مافعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين؛ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى عطفان، فقال: يا معشر غظفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني، فقالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذَّرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مُقام قد هلك الخفُّ والحافر فاغدُوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه.

فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثًا، فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً، حتى تعطونا رهنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضَرَّستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسلُ بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدَّثكم عنه نُعيم بن مسعود لحقٌّ، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نُعيم بن مسعود لحقٌّ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنًا، فأبوا عليهم، وخذَّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ باردةٍ شديدة البرد، فجعلت تكفأ قُدُورهم، وتطرح أبنيتهم(١).

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: ذلك التوجيه العظيم من رسول الله ﷺ لنعيم بن مسعود؛ حيث قال له: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنَّا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة**»(٢)، فقد هداه النبي ﷺ إلى الطريق الذي يسلكه في حرب الكفار ونصر المسلمين، وأعطاه المفاتيح اللازمة

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٧٦- ٢٧٩.

وأخرجه الواقدي من حديث عاصم الأشجعي وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ٢/ ٤٨٠- ٤٨٤.

(٢) قوله: «فإن الحرب خدعة»، أخرجه الإمام البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة»، صحيح البخاري، الجهاد: ٦/ ١٥٨، رقم: ٣٠٣٠.

لذلك؛ حيث وجَّهه إلى بذل جهده في تخذيل الأحزاب، وأبان له أن الكذب في هذه الحال عمل صالح؛ لأنه في الحرب، وقد يكون كسب الحرب في خدعة يدبرها فرد واحد لأعدائه.

وهذا مثالٌ على حسن تصرف النبي ﷺ واغتنامه الفرص المناسبة لكسب المواقف لصالح المسلمين وتوجيه الرجال بما يتناسب مع كفاءاتهم، فقد كان نُعيم معروفًا قبل ذلك بالمقدرة الفائقة على المخادعة والرأي الحصيف الذي يؤثر به على الناس.

إنها كلمات معدودات صدرت من النبي ﷺ في إجابة هذا الرجل، ولكنها كلمات خالدات، كلمات لها أثر بالغ في توجيه هذا الجندي المحنَّك الذي تبوأ منزلة عالية من الثقة بين العرب، والنبي ﷺ يعلم بثاقب بصره وعظيم خبرته بالرجال أن هذا الجندي الذي كسبه الصف الإسلامي ولم يعلم الكفار بإسلامه بإمكانه أن يقوم بجهد كبير من التخذيل عن المسلمين والإيقاع بين الكفار، ففتح له الطريق الذي يمكن بولوجِه منه أن يقدِّم للمسلمين خدمة عالية تُغير من موازين المعركة.

ثانيًا: موقف كبير لنُعيم بن مسعود رضي الله عنه؛ حيث وعى هذا التوجيه النبوي وطبَّقه على أوسع نطاق، فقام من تَوِّه يُفكِّر بالخطة الحكيمة التي يستطيع بها أن يُوغر صدور يهود بني قريظة على الأحزاب من قريش وغطفان وأن يوغر صدور الأحزاب على بني قريظة؛ وذلك لانتزاع الثقة فيما بينهم، وجعل كل فريق يتهم الآخر ويشك في نواياه، فقام بخطة التخذيل بين الأعداء التي جاءت في هذا الخبر.

إن هذا الخبر يُعدُّ مثلاً عاليًا في السياسة الحربية؛ حيث توصَّل نعيم بن مسعود إلى تدبير محكم فرَّق به بين الأحزاب، وكان عاملاً مساعدًا في التأثير عليهم ودفعهم إلى الرحيل بعد العامل الأول المهم الذي كان بتسليط الله تعالى عليهم جنوده من الملائكة - عليهم السلام - والريح الشديدة.

*****

موقف لحذيفة ووصف لوضع المسلمين

أخرج الإمام البيهقي من طريق أبي عبد الله الحاكم من حديث عبد العزيز ابن أخي حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو كنا شهدنا ذلك لفعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك، فلقد رأيتُنا ليلة الأحزاب ونحن صافُّون قُعود، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمةً ولا أشد ريحًا في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمةٌ، ما يرى أحدٌ منا إصبعهُ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحدٌ منهم إلا أذن له، فيأذن لهم، فيتسللون.

ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك[1]؛ إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً، حتى مرَّ عليَّ، وما عليَّ جُنَّة من العدو، ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، قال: فأتاني وأنا جاث على ركبتي، فقال: «**من هذا؟**» فقلت: حذيفة، فقال: «**حذيفة!**» قال: فتقاصرت بالأرض، فقلت: بلى يا رسول الله؛ كراهية أن أقوم، قال: «**قم**»، فقمت، فقال: «**إنه كائن في القوم خبر، فأتني بخبر القوم**»، قال: وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدهم قُرًّا[2].

قال: فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته**»، قال: فوالله ما خلق الله فزعًا، ولا قُرًّا في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد منه شيئًا، قال: فلما ولَّيت، قال: «**يا حذيفة، لا تُحدثنَّ في القوم شيئًا حتى تأتيني**».

قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم، نظرت في ضوء نار لهم توقد وإذا رجل أدْهمُ ضخم، يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرَّحيل، الرَّحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهمًا من كنانتي أبيض الريش

(١) يعني: الذين كانوا حول النبي ﷺ في مركز القيادة، أما بقية الصحابة فقد كانت لهم مهمات جهادية في ساحة المعركة وداخل المدينة.

(٢) أي: بردًا.

فأضعه على كبد قوسي؛ لأرميه في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**لا تُحدثنَّ شيئًا حتى تأتيني**»، فأمسكت، ورددت سهمي في كنانتي، ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت المعسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر، يقولون: يا آل عامر، الرحيل، الرحيل، لا مقام لكم، إذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم، وفَرَسَتْهم الريح تضربهم بها.

قال: ثم خرجتُ نحو النبي ﷺ، فلما انتصف بي الطريق أو نحو ذلك، إذا أنا بنحو عشرين فارسًا، أو نحو ذلك معتمِّين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو مشتملٌ في شملة يصلي، فوالله ما عدا أن رجعتُ راجعني القُرُّ(١)، وجعلت أقَرقفُ، فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوتُ منه فأسبل عليَّ شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبهُ أمرٌ صلى، فأخبرته خبر القوم، وأخبرته أني تركتهم يترحَّلون، فأنزل الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩](٢).

في هذا الخبر وصف بليغٌ للحال الشديدة التي واجهها رسول الله ﷺ وأصحابه؛ حيث الخوف والجوع والبرد القارس وعدم توفر الأكسية الواقية من البرد، إضافة إلى الريح الشديدة آخر ليلة، ومن كان يعاني هذه المعاناة القاسية لا ينتظر منه عادة أن ينجح في العمل الذي توجَّه إليه، ولكن مع ذلك نجح المسلمون في حماية المدينة من جميع الأحزاب الذين هم خارج المدينة؛ من قريش وغطفان، والذين هم داخلها، وهم يهود بني قريظة، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان واليقين عند الصحابة رضي الله عنهم، مما دفعهم إلى بذل كل ما لديهم من طاقة وجهد حتى أصبحوا وكأنهم قد ضوعفوا في العدد عدة مرات.

---

(١) القُرُّ: بضم القاف وتشديد الراء البرد.

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي: ٣/ ٤٥١- ٤٥٣، وأخرجه الإمام مسلم بأخصر من هذا من حديث حذيفة رضي الله عنه، صحيح مسلم، كتاب الجهاد: ٣/ ١٤١٤، رقم: ١٧٨٨، وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن حذيفة رضي الله عنه مختصرًا، وصحَّحه وأقره الذهبي، المستدرك: ٣/ ٣١، وأخرجه ابن إسحاق من حديث حذيفة رضي الله عنه، وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٧٩- ٢٨٢.

وقد وصف الله تعالى ذلك الوضع الشديد بقوله: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا** ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ** ﴾؛ يعني الأحزاب، وقوله: ﴿ **وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ** ﴾؛ يعني بني قريظة، كما في خبر حذيفة، وقوله: ﴿ **وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾ تعبير بليغ عن شدة الخوف والفزع، وقوله: ﴿ **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴾، قال الحسن البصري: ظنونٌ مختلفةٌ، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابَه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون(١).

وفي مواجهة هذه الشدائد كان المؤمنون يسألون رسول الله ﷺ عما ينبغي لهم من الدعاء، وفي ذلك يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «**نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»، قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح(٢).

ولقد أثنى الله -تعالى- على المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢ - ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾؛ يعني ما سبق من وعد الله تعالى بقوله: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب(٣).

---

(١) تفسير الطبري: ٢١/ ١٣١، ١٣٢، تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٩٢.

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمامين ابن أبي حاتم وأحمد بن حنبل، تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٩٢.

(٣) تفسير الطبري: ٢١/ ١٤٤، تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٩٤.

وقوله تعالى: ﴿**فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ**﴾، قال مجاهد بن جبر: ﴿**فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ**﴾: عهده، فقتل أو عاش، وقوله: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ**﴾ يومًا فيه جهاد فيقضي نحبه: عهده، فيُقتل أو يصدق في لقائه(١).

وإن فيما جرى للأحزاب في تلك الليلة لعبرة للمعتبرين، فقد أرسل الله -تعالى- عليهم جنوده من الملائكة -عليهم السلام- الذين زلزلوا أهل الأحزاب، كما أرسل عليهم ريحًا عاصفًا اقتلعت خيامهم وأكفأت قدورهم ورمتهم بالحجارة، حتى نادوا بالرحيل، وقد ذكَّر الله -تعالى- المؤمنين بهذه النعمة العظيمة بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩]، وبقوله: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فالله -تعالى- هو الذي نصر رسوله ﷺ وعباده المؤمنين من غير قتال منهم فأجْلى الكفار عن المدينة بجنوده من الملائكة -عليهم السلام- والريح العاصف وردَّهم إلى بلادهم وهم في أوج غيظهم وحنقهم على المسلمين.

وأخيرًا فإن في قول حذيفة عن رسول الله ﷺ: «وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلَّى» بيان لسنة من سنُن رسول الله ﷺ في مواجهة الشدائد؛ حيث يلجأ إلى الصلاة ودعاء الله -سبحانه- أن يفرج ذلك الكرب الذي نزل، وهذه هي سُنة الأنبياء عليهم السلام، كما جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد، وفيه «وكانوا إذا فزعوا يفزعون إلى الصلاة»(٢).

*****

(١) تفسير الطبري: ٢١/ ١٤٥.

(٢) مسند أحمد: ٤/ ٣٣٣.

نماذج من مواقف شعراء الصحابة

رُويت لشعراء الصحابة رضي الله عنهم أشعارٌ رائعةٌ في غزوة الخندق، نقتطف أبياتًا منها كنماذج لهذه الأشعار، فمن ذلك قول كعب بن مالك، أخو بني سلمة:

وسائلة تسائلُ ما لقينا	ولو شهدتْ رأتنا صابرينا
صبرْنا لا نَرى لله عدْلًا	على ما نابنا مُتوكِّلينا
وكان لنا النبي وزيرَ صدق	به نَعْلوا البريَّة أجمعينا
نُقاتل مَعْشرًا ظلموا وعقُّوا	وكانوا بالعداوة مُرْصدينا
نُعاجلهم إذا نهضوا إلينا	بضَرْب يُعجل المُتسرِّعينا

إلى أن قال:

لنَنْصُر أحمدًا والله، حتى	نكونَ عبادَ صدْق مُخلصينا
ويعلم أهلُ مكة حين ساروا	وأحزابٌ أتوْا مُتحزبينا
بأنَّ الله ليس له شريكٌ	وأنَّ الله مولى المُؤمنينا
فإمَّا تقتلوا سعدًا سفاهًا	فإن الله خيرُ القادرينا
سيُدخله جنانًا طيبات	تكون مقامةً للصَّالحينا
كما قد ردَّكم فلاً شريدًا	بغَيْظكُم خزَايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثمَّ خيرًا	وكدْتم أن تكونوا دامرينا

وقال كعب بن مالك أيضًا في قصيدة له:

ومواعظٌ من ربِّنا نهدى بها	بلسان أزهر طيِّب الأثواب
عُرضت علينا فاشتهينا ذكرها	من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكمًا يراها المجرمون بزعمهم	حرجًا ويفهمها ذَوو الألباب

جاءت سَخينةُ[1] كي تغالب ربها ... فليغلبَنَّ مُغالب الغَلاب

قال ابن هشام: حدثني من أثق به، قال: حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، قال: لما قال كعب بن مالك:

جاءت سخينة كي تُغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب

قال له رسول الله ﷺ: «**لقد شكرك الله يا كعْب على قولك هذا**»[2].

*****

(١) أي: قبيلة قريش، لقبوا بذلك؛ لكثرة أكلهم السخينة، وهي طعام يصنع من الدقيق واللحم؛ وذلك لغناهم.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣١٨- ٣٢٦.

مواقف وعبر
في
غزوة بني قريظة

حصار بني قريظة

أخرج الإمام البخاري من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: «لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرُج إليهم، قال: «**فإلى أين؟**» قال: هاهنا، وأشار إلى قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم».

وأخرج من حديث أنس رضي الله عنه قال: «كأني أنظرُ إلى الغُبار ساطعًا في زُقاق بني غَنْم، موكب جبريل حين سار رسولُ الله ﷺ إلى بني قريظة».

وأخرج من حديث ابن عمر -ضي الله عنهما- قال: «قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «**لا يُصلين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نُصلِّي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بلى نصلي، لم يُرد منا ذلك، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف واحدًا منهم»[١].

وأخرجه ابن إسحاق، وفيه أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: «إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة عامدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: وكذلك أخرجه الطبراني والبيهقي في «الدلائل» بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن عمه عبيد الله بن كعب: «أن رسول الله ﷺ لَّما رجع من طلب الأحزاب وجمع عليه اللأمة[٣]، واغتسل واستجمر تبدَّى له جبريل، فقال: عَذيرك من محارب[٤]، فوثب فزعًا، فعزم على الناس ألا يُصلوا العصر حتى يأتوا بني قريظة، قال: فلبس الناس السلاح فلم يأتوا قريظة حتى غربت الشمس، قال: فاختصموا عند غروب الشمس، فصلَّت طائفة العصر، وتركتها طائفة، وقالت: إنا في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم، فلم يُعنِّف واحدًا من الفريقين، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه موصولاً ولم يذكر كعب بن مالك فيه[٥].

---

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٤٠٧، ٤٠٨، رقم: ٤١١٧، ٤١١٨، ٤١١٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٨٢.

(٣) أي: خلع لباس الحرب؛ كالدرع والمغفر.

(٤) عذيرك: أي هات من يعذرك في هذا الأمر.

(٥) فتح الباري: ٧/ ٤٠٨، ٤٠٩.

وقال الواقدي: سار إليهم النبي ﷺ يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، فحاصرهم خمسة عشر يومًا، ثم انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم(١).

وقال الواقدي: فحدثني ابن أبي سبرة، عن أُسَيد بن أبي أسيد، عن أبي قتادة، قال: انتهينا إليهم، فلمَّا رأونا أيقنوا بالشر، وغرز عليٌّ رضي الله عنه الراية عند أصل الحصن، فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول ﷺ وأزواجه، قال أبو قتادة: وسكتنا، وقلنا: السيفُ بيننا وبينكم! وطلع رسول الله ﷺ، فلما رآه عليٌّ رضي الله عنه رجع إلى رسول الله ﷺ، وأمرني أن ألزم اللواء فلزمتُه، وكره أن يسمع رسول الله ﷺ أذاهم وشتمهم، فسار رسول الله ﷺ إليهم، وتقدمه أسيد بن حضير، فقال: يا أعداء الله، لا نبرح حصنكم حتى تموتوا جوعًا، إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر، قالوا: يا ابْن الحُضير، نحن مواليكم دون الخزرج! وخاروا(٢)، وقال: لا عهد بيني وبينكم ولا إلّ(٣)، ودنا رسول الله ﷺ منهم، وترَّسنا عنه، فقال: «**يا إخوة القردة والخنازير وعبدة الطواغيت، أتشتمونني؟**»، قال: فجعلوا يحلفون بالتوراة التي أنزلت على موسى: ما فعلنا! ويقولون: يا أبا القاسم، ما كنتَ جهولاً! ثم قدَّم رسول الله ﷺ الرماة من أصحابه.

قال: فحدثني فروة بن زبيد، عن عائشة بنت سعد، عن أبيها، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا سعد، تقدم فارمهم**»، فتقدمتُ حيث تبلغهم نبلي، ومعي نيِّفٌ على الخمسين، فرميناهم ساعة وكأن نبلنا رجْل جراد، فانجحروا، فلم يطلع منهم أحد، وأشفقنا على نبلنا أن يذهب، فجعلنا نرمي بعضها ونمسك البعض، فكان كعب بن عمرو المازنيُّ -وكان راميًا- يقول: رميتُ يومئذ بما في كنانتي، حتى أمسكنا عنهم بعد أن ذهبت ساعةٌ من الليل، قال: وقد رمونا ورسول الله ﷺ واقفٌ على فرسه عليه السلاح، وأصحاب الخيل حوله، ثم أمرنا رسول الله ﷺ فانصرفنا إلى منزلنا وعسكرنا فبتنا، وكان طعامنا تمرًا بعث به سعد بن عُبادة، وأحمالُ تمر، فبتنا نأكل منها، ولقد رئي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يأكلون من ذلك التمر، ورسول الله ﷺ يقول: «**نِعم**

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٩٦.
(٢) أي: ضعفوا.
(٣) الإلُّ بكسر الهمزة: الحلف.

الطعام التمر»، واجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاءً، فمنهم من لم يُصلِّ حتى جاء بني قريظة، ومنهم من قد صلَّى، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فما عاب على أحد صلَّى، ولا على أحد لم يصلِّ حتى بلغ بني قريظة، ثم غدونا عليهم بسُحْرة، فقدم رسول الله ﷺ الرماة، وعبأ أصحابه فأحاطوا بحصونهم من كل ناحية، فجعل المسلمون يُرامونهم بالنبل والحجارة، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضُهم بعضًا، فما برح رسول الله ﷺ يُراميهم حتى أيقنوا بالهلكة.

قال: فحدثني الضحاك بن عثمان، عن نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا يراموننا من حصونهم بالنبل، والحجارة أشدَّ الرَّمْي، وكنا نقوم حيث تبلغهم نبلُنا.

قال: فحدثني الضَّحَّاك بن عثمان، عن جعفر بن محمود، قال: قال محمد بن مسلمة: حصرناهم أشد الحصار، فلقد رأيتنا يوم غدونا عليهم قبل الفجر، فجعلنا ندنو من الحصن ونرميهم من كَثَب، ولزمنا حصونهم فلم نُفارقها حتى أمسينا، وحضَّنا رسول الله ﷺ على الجهاد والصبر، ثم بتنا على حصونهم، ما رجعنا إلى معسكرنا حتى تركوا قتالنا وأمسكوا عنه، وقالوا: نُكلمك، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

فأنزلوا نباش بن قيس، فكلَّم رسولَ الله ﷺ ساعةً، وقال: يا محمد، ننزل على ما نزلتْ عليه بنو النضير، لك الأموال والحلْقَةُ وتحقن دماءنا، ونخرج من بلادكم بالنساء والذراريِّ، ولنا ما حملت الإبلُ إلا الحلْقة، فأبى رسول ﷺ، فقالوا: فتحقن دماءَنا وتُسلم لنا النساء والذرية، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل، فقال رسول الله ﷺ: «**لا، إلا أن تنزلوا على حكمي**».

فرجع نبَّاش إلى أصحابه بمقالة رسول الله ﷺ، فقال كعب بن أسد: يا معشر بني قريظة، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي الله، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب؛ حيث لم يكن نبيًّا من بني إسرائيل، فهو حيث جعله الله، ولقد كنت كارهًا لنقض العهد والعقد.

ولكن البلاء وشؤم هذا الجالس[1]، علينا وعلى قومه، وقومُه كانوا أسوأ منا، لا يستبقي محمدٌ رجلاً واحداً إلا من تبعه، أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم

(١) يعني: حيي بن أخطب.

عليكم، فقال: تركتُ الخمر والخمير والتأمير، وجئتُ إلى السِّقاء والتمر والشعير؟ قالو: وما ذلك؟ قال: يخرج من هذه القرية نبي، فإن خرج وأنا حي اتبعته ونصرته، وإن خرج بعدُ فإياكم أن تُخدعوا عنه، فاتَّبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه، وقد آمنتم بالكتابين كليهما؛ الأول والآخر.

قال كعب: فتعالوا فلنُتابعه ولنُصدقه ولنُؤمن به، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا، فنكون بمنزلة من معه، قالوا: لا نكون تبعًا لغيرنا، نحن أهل الكتاب والنُّبوة، ونكون تبعًا لغيرنا؟! فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم، قالوا: لا نُفارق التوراة ولا ندع ما كنا عليه من أمر موسى، قال: فهلم فلنقتُل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج في أيدينا السيوف إلى محمد وأصحابه، فإن قُتلنا قُتلنا وما وراءنا أمر نهتم به، وإن ظفرنا فلَعَمري لنتخذن النساء والأبناء، فتضاحك حيي بن أخطب، ثم قال: ما ذنبُ هؤلاء المساكين؟ وقالت رؤساء اليهود -الزَّبير بن باطا وذووه-: ما في العيش خير بعد هؤلاء، قال: فواحدةٌ قد بقيتْ من الرأي لم يبق غيرها، فإن لم تقبلوها فأنتم بنو أُسْتها، قالوا: ما هي؟ قال: الليلة السبت، وبالحري أن يكون محمدٌ وأصحابه آمنين لنا فيها أن نُقاتله، فنخرج، فلعلنا أن نصيب منه غرة، قالوا: نُفسد سبتنا، وقد عرفت ما أصابنا فيه؟

قال حييٌّ: قد دعوتُك إلى هذا وقريشٌ وغطفان حضور فأبيتَ أن تكسر السبت، فإن أطاعتني اليهود فعلوا، فصاحت اليهود: لا نكسر السبت، قال نبَّاش بن قيس: وكيف نُصيب منهم غرَّة وأنت ترى أن أمرهم كل يوم يشتد، كانوا أول ما يحاصروننا إنما يُقاتلون بالنهار ويرجعون الليل، فكان هذا لك قولاً: «لو بيَّتناهم»، فهم الآن يبيتون الليل ويظلون النهار، فأيُّ غرَّة نصيب منهم؟ هي ملحمة وبلاء كتب علينا، اختلفوا وسُقط في أيديهم، وندموا على ما صنعوا، ورَقُّوا على النساء والصبيان، وذلك أن النساء والصبيان لما رأوا ضعف أنفسهم هلكوا، فبكى النساء والصبيان، فرَقُّوا عليهم(١).

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٣، وأخرجه ابن إسحاق، وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٦.

في هذه الأخبار مواقف وعبر، منها:

أولاً: فيه مثال لحرص الصحابة رضي الله عنهم على طاعة أمر رسول الله ﷺ، فحينما قال: «**لا يصلينَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة**»، امتثلوا أمره إلى حدٍّ أن بعضهم حينما تأخَّر مضطراً أخَّر صلاة العصر حتى وصل إلى بني قريظة تنفيذاً لظاهر أمر النبي ﷺ.

ثانيًا: موقف في البراءة من الكفار لأسيد بن حضير رضي الله عنه، وذلك حينما هدَّد بني قريظة، وقوله حينما ذكَّروه بولائهم لقومه الأوس: لا عهد بيني وبينكم ولا إلَّ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه؛ لأن التخلص من أحلاف الجاهلية ليس بالأمر اليسير إلا على من يسره الله عليه.

ثالثًا: موقف يُذكر لسعد بن عبادة رضي الله عنه؛ حيث موَّن الجيش الإسلامي بالطعام وذلك من التمر، فكانت تُحمل أحمال التمر إلى معسكر المسلمين، وقد كان سعد مشهوراً بالكرم الفياض.

رابعًا: في محاورة كعب بن أسد زعيم بني قريظة لقومه عبرة بالغة؛ حيث اعترف أمامهم بصدق رسالة رسول الله ﷺ، وأنه النبي المنتظر الذي أمرهم أنبياؤهم -عليهم السلام- بالإيمان به، والاعتراف بأن الذي منعهم من الإيمان به: الحسد للعرب، فحينما وقع قومه بذلك المصير المشؤوم وأيقنوا بالهلاك أشار على قومه بالإيمان به وذكَّرهم بوصايا علمائهم السابقين حول الإيمان به إذا ظهر، لكن رؤساءهم امتنعوا من الدخول في الإسلام؛ تكبُّرًا عن أن يكونوا تابعين لغيرهم.

وقد ذكر الواقدي في رواية له أن رسول الله ﷺ حينما قدَّم كعب بن أسد للقتل، قال له: «**كعب بن أسد؟**»[1] قال كعب: نعم يا أبا القاسم، قال: «**وما انتفعتم بنصح ابن خراش، وكان مصدِّقًا بي: أمَا أمركم باتباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟**»، قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين اليهود[2].

وكذلك ما جرى من ابني سعية وعمِّهم حينما حاوروا قومهم من يهود بني قريظة فلم يطيعوهم وأسلم هؤلاء الثلاثة كما جاء في رواية للواقدي قال: فحدثني صالح بن

---

(١) يعني: هل أنت كعب بن أسد؟

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٥١٦.

جعفر، عن محمد بن عقبة، عن ثعلبة بن أبي مالك، قال: قال ثعلبة وأسيد ابنا سعية، وأسيد بن عبيد عمهم: يا معشر بني قريظة، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ وأن صفته عندنا، وحدثنا بها علماؤنا وعلماء بني النضير، هذا أولهم - يعني حُيَي بن أخطب - مع جُبير بن الهيِّبان أصدق الناس عندنا، وهو خبَّرنا بصفته عند موته.

قالوا: لا نفارق التوراة! فلما رأى هؤلاء النفر إباءَهم، نزلوا في الليلة التي في صُبحها نزلت قُريظة، فأسلموا، فأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم[1].

فهذه الأخبار وأمثالها تُثبت أن اليهود كانوا يعلمون أن محمداً ﷺ رسول من عند الله تعالى، وأنهم مأمورون بالإيمان به واتباعه، ولكنهم اتَّبعوا أهواءهم المنحرفة؛ حسداً للعرب أنْ كان منهم.

*****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٣٠٥.

مثلٌ من الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح
أبو لبابة وإفشاء السرّ الحربي

قال ابن إسحاق: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس؛ لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلْقه، إنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله: ألا أطأ بني قريظة أبدًا، ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا.

قال ابن هشام: وأنزل الله تعالى في أبي لبابة -فيما قال سفيان بن عيينة، عن لفظ إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره -وكان قد استبطأه- قال: «**أما إنه لو كان جاءني لاستغفرت له، فأما إذْ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي مُطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**».

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن عبد الله بن قُسيط أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو في بيت أم سلمة، فقالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، قالت: فقلت: ممَّ تضحك يا رسول الله، أضحك الله سنَّك؟ قال: «**تِيب على أبي لبابة**»، قالت: قلت: أفلا أُبشره يا رسول الله؟ قال: «**بلى، إن شئتِ**» قال: فقامت على باب حجرتها -وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب- فقالَت: يا أبا لبابة، أبشر، فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس إليه؛ ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطًا بالجذع ستَّ ليال، تأتيه امرأته في كلِّ وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع، فيما حدثني بعض أهل العلم، والآية التي نزلت في توبته قولُ الله عز وجل: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٠٢][(١)].

قال الواقدي: وحدثني معمر، عن الزهريِّ، عن ابن كعب بن مالك، قال: جاء أبو لبابة إلى رسول الله ﷺ، فقال: أنا أهجرُ دار قومي التي أصبتُ فيها هذا الذنب، وأخرُج من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**يجزئ عنك الثُّلث**»، فأخرج الثلث، وهجر أبو لبابة دار قومه، ثم تاب الله عليه، فلم يَبن في الإسلام منه إلا خيرٌ حتى فارق الدنيا[(٢)].

في هذا الخبر موقفٌ جليل لأبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه؛ وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة والنصوح، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزَّلة التي أفشى بها سراً حربيًا خطيراً، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر؛ حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، وسيفعلون ذلك؛ لما بينهم وبينه من صلات سابقة، ولأنه قدَّم لهم خدمة كبيرة بإفشاء هذا السر، ومن صالحهم أن يُكتم هذا الخبر، ولكنه رضي الله عنه تذكر حالاً رقابة الله عز وجل عليه وعلمَه بما يُسر ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعًا عظيمًا جعله يحكم على نفسه بخيانة الله تعالى ورسوله ﷺ، وينطلق إلى مسجد رسول الله ﷺ؛ ليحبس نفسه فيه حتى يتوب الله عليه.

إننا حينما نتصور هذا الخُلق الرفيع ونقارنه بما عليه سلوك كثير من أبناء المسلمين اليوم نجد الفرق شاسعًا بين مجتمع الصحابة ومجتمع المسلمين في العصر الحاضر؛ حيث بلغ الرقي الأخلاقي في العهد النبوي أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه البشر.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٨٧- ٢٨٩.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٥٠٩.

وكون أبي لبابة زلَّ وأخطأ، لا يجرح من مكانته العالية مادام يملك ضميرًا يقظًا وعقلاً حاكمًا يحكم على تصرفاته فيقوِّمها نحو الأفضل، وقد حكم على نفسه بالخيانة وعاقبها بالحبس من غير أن يحكم عليه أحد بذلك؛ لأن المطلب الكبير الذي يشغل باله أن تكون صحيفته بيضاء أمام الله تعالى، ولن تكون كذلك إلا بالاعتراف بالخطأ والتوبة النصوح.

وهكذا رأينا في هذا الخبر مثلاً من الأمثلة العالية التي يتفوق فيها الإيمان الذي يكون من الرسوخ في القلب؛ بحيث يكون حاكمًا على سلوك الإنسان في هذه الحياة، ولئن كان هذه الشعور الإيماني المسيطر على السلوك قد تخللته لحظات من الضعف البشري لدى أبي لبابة فلم يُحكم تصرفاته بسبب دهشته مما رأى، فإنه سرعان ما عاد إليه إدراكه وقوي إيمانه؛ بحيث أقدم على الحكم على نفسه بالخيانة وعاقب نفسه بالعقوبة المذكورة.

وإن السعادة الروحية التي ظفر بها حينما تاب الله تعالى عليه لا يعادلها أي سعادة دنيوية؛ لأنها محت من نفسه آثار الشعور بالذنب، وكان من نتائج فرحته بهذه التوبة أن استأذن النبي ﷺ أن يتصدق بماله كله، فقال له: «**يجزئ عنك الثلث**»، كما أنه هجر ذلك المكان الذي عصى الله تعالى فيه، وقد أقره النبي ﷺ على هجر دار قومه التي عصى الله تعالى فيها، وهذا منسجم مع أمر النبي ﷺ أصحابه بالرحيل من مكان باتوا فيه وهم مسافرون وناموا عن صلاة الفجر فلم يُصلِّ النبي ﷺ في ذلك المكان لكون الشيطان قد حضرهم فيه، فهل المكان الذي يعصي الإنسان الله فيه أو يفرط فيه بأداء الواجب له أثر في قساوة القلب؟ ربما كان الأمر كذلك، على أن تضحية الإنسان بشيء من سعادته في مقابل التكفير عن ذنب قد ارتكبه فيه إرغام كبير للشيطان الذي يرقص طربًا إذا رأى المؤمن المستقيم قد زلَّت به قدمه نحو خط من خطوط الانحراف.

وأخيرًا موقف عظيم لرسول الله ﷺ في العفو والرحمة وغضِّ النظر عن زلات الكرام، فمع هذه الزلة الكبيرة التي وقع فيها أبو لبابة، والتي من شأنها أن تُغير مجرى المعركة، وأن ترهق الجيش الإسلامي فإن النبي ﷺ لم يأمر بحضوره إلى المحاكمة، ولم يحكم عليه بشيء؛ لعلمه بسلامة مقصده، وحبه لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأن الذي جرى منه إنما كان زلة من لسانه.

*****

مثل من الجرأة في قول الحق
(سعد بن معاذ يحكم في بني قريظة)

قال ابن إسحاق: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، قد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت -وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع، وكانوا حُلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول، فوهبهم له- فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**».

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رُفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيْعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «**اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعُوده من قريب**».

فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطَّأوا له بوسادة من أدَم[1]، وكان رجلاً جسيمًا جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسنْ في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك؛ لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه، قال: لقد أنى[2] لسعد ألا تأخذه في الله لومةُ لائم.

فرجع بعضُ من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعدٌ إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسولُ الله ﷺ: «**قوموا إلى سيِّدكم**» -فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: قد عم بها رسول الله ﷺ- فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاَّك أمر مواليك؛ لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنَّ الحكم لما حكمتُ؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا؟ في

(١) يعني: من جلد.

(٢) أنى: أي قرب، وهي بمعنى آن، وفي رواية الواقدي: آن.

الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقاص الليثي، قال: قال رسولُ الله ﷺ لسعد: «**لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**»(١)(٢).

قال ابن إسحاق: ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث -امرأة من بني النجار- ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يُخرج بهم إليه أرْسالاً(٣)، وفيهم عدوُّ الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة(٤).

في هذا الخبر تصوير لقوة الأحلاف الجاهلية وأثرها على النفوس؛ حيث لم يتخلص منها إلا أقوياء الإيمان، وما جرى في هذا الخبر من قول الأوس: «يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج» محمول على أنه صدر من بعضهم؛ إذ إنه يبعُد أن يصدر من كبارهم المشهورين بقوة الإيمان.

وكان مما يغذِّي وجود هذه العصبية والتمسك بالأخلاق الجاهلية وجود عدد من المنافقين في مجتمع الأنصار؛ حيث إن المنافقين هم من الأوس والخزرج، وكان النبي ﷺ يعاني كثيراً هذه النظرة المتأصلة لدى بعضهم، ولكنه كان يداريها بسياسته الحكيمة حتى استطاع أن يتلافى أخطارها المدمرة.

---

(١) أي: سبع سماوات.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٩١- ٢٩٣.

وأخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة -رضي الله عنها- ضمن حديث عن غزوة الخندق وبني قريظة، الفتح الرباني: ٢١/ ٨١- ٨٣، وقد سبق تخريجه في ص١٣٨، وأخرجه الإمام البخاري مختصراً، صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٤١١، رقم: ٤١٢١، ٤١٢٢.

(٣) أي: متتابعين.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٩١- ٢٩٣، وأخرجه الواقدي، وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ٢/ ٥١٠- ٥١٤.

ومن هذا الموقف الحرِج استطاع النبي ﷺ أن يخرج من هذا المأزق بتحكيم رجل من الأوس؛ لأنه إذا حكم بما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ لن يستطيع المنافقون أن يُرجفوا ولا أن يُحدثوا فتنة في مجتمع الأوس، بينما موقف النبي ﷺ محرِج فيما لو حكم على يهود بني قريظة بالقتل؛ لكونه قبل ذلك قد منَّ على حلفاء الخزرج من يهود بني قينقاع، فستكون القضية مرتعًا خصبًا للمنافقين؛ ليقوموا بإرجافهم.

ولقد اختار النبي ﷺ رجلاً منهم يعلم أن لديه من قوة الإيمان ورسوخ اليقين ما يكفي لإنقاذ الموقف، وذلك بتنفيذ ما كان عزم عليه في الحكم بقتل اليهود مع تلافي الحساسية التي لدى بعض الأوس فيما لو حكم فيهم النبي ﷺ.

ولقد واجه سعد بن معاذ رضي الله عنه حرجًا كبيرًا من بعض قومه، وتعرض لضغوط شديدة من بعضهم؛ حيث أتوا إليه ورافقوه في الطريق من المسجد النبوي إلى بني قريظة، وحاولوا إقناعه في تخفيف الحكم؛ لإعفائهم من القتل، فلما أكثروا عليه قال كلمته العظيمة: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومةُ لائم»، فطبق بذلك المبدأ الإسلامي العالي الذي لا ينظر فيه المسلم إلى أي هدف سوى إعلاء كلمة الله تعالى وابتغاء مرضاته.

ولما وصل إلى الميدان وحكَّمه الرسول ﷺ في بني قريظة حكم بقتل رجالهم وسبى ذراريهم ونسائهم وتقسيم أموالهم، فأثنى عليه النبي ﷺ ببيان أن حكمه وافق حكم الله تعالى.

وهكذا كان هذا الموقف العظيم من أبي عمرو سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ حيث حكم بالحق وإن كان ذلك يُغضب بعض قومه وجميع حلفائه من اليهود، وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى؛ حيث لم يتسرب إليه اعتبار القُوى البشرية، وأصبح المتحكم في سلوكه هو اعتبار رضى الله عز وجل وحده وإن أغضب حلفاءه والمخالفين له من قومه، وهذا علامة على كمال التوحيد.

إن كثيراً من المسلمين يستطيعون أن يؤدوا تكاليف الإسلام التي لا تحرجهم مع الناس، ولكنهم يخضعون أحيانًا لبعض الناس في أمور لا يرضاها الله عز وجل، أما المصطَفَوْن الأخيار فإنهم لا يُفرقون بين تكاليف الدين، ولا يُلقون بالاً لمواجهة المخالفين

والتعرُّض لسخطهم ماداموا قد استقاموا على الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن أجل هذا الموقف العظيم وأمثاله لسعد بن معاذ أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيراً أمام الصحابة؛ ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به، فمن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**»(١).

وجاء في رواية ابن إسحاق: «أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ حين قُبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجراً بعمامة من إستبرق، فقال: يا محمد، من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتزَّ له العرش؟ قال: فقام رسول الله ﷺ سريعًا يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات»(٢).

ومن ذلك ما أخرج الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «أُهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها، فقال: «**أتعجبون من لين هذه؟ لَمَناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين**»(٣).

وقد كان هذا بعد موت سعد بأربع سنوات كما جاء في رواية ابن إسحاق أن هذا كان في غزوة تبوك التي كانت في العَام التاسع(٤).

وهكذا كانت نهاية غدر اليهود بالمسلمين أن لقوا المصير نفسه الذي كانوا يريدونه لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فقد تحالفوا مع الأحزاب وكان من تخطيطهم أن يهجموا على المسلمين من خلفهم من الداخل وأن يهجم الأحزاب على المسلمين من أمامهم، ولو فعلوا ذلك لشغلوا المسلمين عن حراسة الخندق، ولربما استطاع فرسان الأحزاب أن يقتحموا الخندق، ولكن الله تعالى ملأ قلوب اليهود رعبًا وفزعًا، فلم يستطيعوا أن يجاوزوا حصونهم حتى هزم الله تعالى الأحزابَ، فعادت الدائرة على اليهود الخائنين.

---

(١) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم: ٢٤٦٦، ص: ١٩١٥.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣١٠.
(٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم: ٢٤٦٨، ص: ١٩١٦.
(٤) سيرة بن هشام: ٤/ ٢١٦.

ولقد وفَّى من يهود بني قريظة عمرو بن سُعْدى الذي أبى أن يدخل معهم في نقض العهد وذكَّرهم بما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من حلف، ثم نجَّاه الله بصدقه ووفائه، وفي خبره يقول الواقدي: فحدثني الضحاك بن عثمان، عن محمد بن يحيى ابن حيَّان، قال عمرو بن سُعْدى، وهو رجلٌ منهم: يا معشر اليهود، إنكم قد حالفتم محمداً، على ما حالفتموه عليه: ألا تنصروا عليه أحداً من عدوه، وأن تنصروه ممن دهمه، فنقضتم ذلك العهد الذي كان بينكم وبينه، فلم أدخل فيه ولم أشرككم في غدركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية، فوالله ما أدري يقبلها أم لا؟ قالوا: نحن لا نقر للعرب بخُرج في رقابنا يأخذوننا به، القتل خير من ذلك! قال: فإني بريء منكم.

وخرج في تلك الليلة مع بني سعيةَ، فمر بحرس النبي ﷺ وعليهم محمد بن مَسْلمة، فقال محمد بن مسلمة: من هذا؟ فقال: عمرو بن سُعدى، فقال محمد: مُر! اللهمَّ لا تحرمني إقالة عثَرات الكرام؛ فخلَّى سبيله وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح، فلَما أصبح غدا فلم يدر أين هو حتى الساعة، فسُئل رسول الله ﷺ عنه، فقال: «**ذلك رجلٌ نجَّاه الله بوفائه**»[1].

هذا الخبر يُثبت العهد الذي قطعه اليهود على أنفسهم من وجوب نصرة المسلمين إذا دهمهم عدو من خارج المدينة، وألا يناصروا أعداء المسلمين وتأتي قيمة هذا الخبر من كون هذا الاعتراف صادراً من أحد اليهود وإقرار اليهود لذلك، وإلا فإن هذا العهد قد ثبت في نصوص أخرى كما تقدم لنا في خبر المعاهدة التي تمت بين رسول الله ﷺ ويهود المدينة.

*****

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٥٠٣، وأخرجه ابن إسحاق، وذكره نحوه: ٣/ ٢٩٠.

مواقف وعبر
ما بين بني قريظة
إلى نهاية الحديبية

مغامرة فدائية

قتل ابن أبي الحُقيق اليهودي

قدَّم الإمام ابن إسحاق لهذا الخبر بمُقدمة تشتمل على الثناء على الأنصار رضي الله عنهم، فقد روى بإسناده عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: وكان مما صنع الله تعالى به لرسول الله ﷺ أن هذين الحيَّين من الأنصار؛ الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين -يعني يتسابقان في خدمته- لا يصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك.

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج: والله لا تذهبون بها فضلاً علينا أبدًا.

قال: فتذاكروا مَنْ رجل لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحُقيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله فأذن لهم[١].

ومن هذا النص ندرك نموذجًا من الأهداف السامية والمقاصد العالية التي كانت تحكم حياة الصحابة رضي الله عنهم وتوجِّه سلوكهم، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا؛ من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي ﷺ التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

وإنما اختاروا ابن أبي الحقيق؛ لأنه كان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين على المسلمين، كما جاء في رواية للإمام البخاري من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنهما- قال: وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويُعين عليه[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: ذكر ابن عائذ من طريق أبي الأسود عن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٤٨.

(٢) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٤٠، رقم: ٤٠٣٩.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٣٤٣.

وفي بيان أحداث هذه السرية أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث البراء ابن عازب رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع عبد الله بن عتيك وعبد الله بن عتبة في ناس معهم، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن، فقال لهم عبد الله بن عتيك: امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأنظر، قال: فتلطفت أن أدخل الحصن، ففقدوا حماراً لهم، قال: فخرجوا بقَبس يطلبونه، قال: فخشيت أن أُعرف، قال: فغطيت رأسي كأني أقضي حاجة.

ثم نادى صاحب الباب: من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه، فدخلت، ثم أختبأت في مربط حمار عند باب الحصن، فتعشَّوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة خرجت، قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كُوَّة، فأخذته ففتحت به باب الحصن، قال: قلت: إن نَذر بي القوم انطلقت على مهل.

ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهر، ثم صعدت إلى أبي رافع في سُلَّم، فإذا البيت مظلم قد طفئ سراجه فلم أدر أين الرجل، فقلت: يا أبا رافع، قال: من هذا؟ قال: فقصدت نحو الصوت فأضربه وصاح: فلم تغن شيئًا، قال: ثم جئت كأني أغيثُه، فقلت: مالك يا أبا رافع؟ وغيرتُ صوتي، فقال: ألا أعجَبَك لأمك الويل! دخل عليَّ رجل فضربني بالسيف قال: فعمَدْت له أيضًا فأضربه أخرى فلم تغن شيئًا، فصاح وقام أهله قال: ثم جئتُ وغيَّرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره فأضع السيف في بطنه ثم أنكفئ حتى سمعت صوت العظم.

ثم خرجت دهشًا حتى أتيت السُّلم أريد أن أنزل فأسقُط منه، فانخلعت رجلي فعصبتها، ثم أتيت أصحابي أحجُل، فقلت: انطلقوا، فبشروا رسول الله ﷺ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية، فلما كان في وجه الصبح صعد الناعية، فقال: أنعي أبا رافع، فقمت أمشي ما بي قَلَبة -أي: علة أنقلب بها- فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ فبشرته(١).

وهكذا رأينا هذا الفاتك البطل عبد الله بن عتيك رضي الله عنه قام بهذه المهمة الشاقة وحده، وتعرَّض لمخاطر كثيرة استطاع أن يجتازها حتى بعد أن أصيب في ساقه.

---

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٤١، رقم: ٤٠٤٠.

ولقد كان بارعًا في استخفائه، دقيقًا في تنكره حتى خفي أمره على البواب المسؤول عن حماية الحصن، ودخل كأي واحد من المقيمين داخله.

كما كان بارعًا في تخطيطه للهجوم؛ حيث أقفل الأبواب من ظاهرها؛ ليتمكن من أداء مهمته قبل أن يصلوا إليه، وأحسن التصرف حينما خفي عليه شخص من يريد الإيقاع به لشدة الظلام فناداه؛ ليعرف مكانه من صوته، ثم أحسن التصرف مرة أخرى حينما لم يستطع الإجهاز عليه في الضربة الأولى؛ حيث غيَّر صوته وناداه على هيئة من يريد إغاثته حتى تمكن منه.

كما كان بارعًا في تخطيطه للفرار فيما إذا علم به عدوه؛ حيث فتح باب الحصن؛ ليسهل عليه التخلص منهم.

فأي قلب يحمله هذا الرجل الشجاع؟ وما أبلغ حذره وتدبيره للأمور وهو مقدم على أداء مهمته!

ثم بعد أن أنهى هذه المهمة لم يرض بما وصل إليه حتى يتأكد من نجاحها، وذلك بسماع نعي الرجل من قومه حسب المعتاد في حياتهم، وهذا منتهى الإخلاص والطاعة.

وبعد: فمن هو عبد الله بن عتيك؟ إنه فرد واحد من أفراد الجماعة التي رباها رسول الله ﷺ على مكارم الأخلاق فأحسن تربيتها، فانطلق أفرادها يبذلون كل طاقاتهم في الإصلاح في الأرض وتطهيرها من المفسدين.

وفي هذه القصة نلاحظ عناية الله -جل وعلا- بأوليائه المؤمنين، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أصيبت رجله، وكأنه لا يشكو من علة حتى إذا انتهت مهمته تمامًا وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه كما جاء في رواية ابن إسحاق، فلما حدَّث النبي ﷺ خبره قال له كما جاء في إحدى روايات الإمام البخاري: «**ابسط رجلك**»، قال فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط(١).

---

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٤٠، رقم: ٤٠٣٩.

ويحسن بنا أن نختم الكلام على هذا الخبر ببيان الفوائد التي استخرجها الحافظ ابن حجر من هذا الحديث؛ حيث يقول: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصرَّ، وقتلُ من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلُّب غرتهم، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين، وجواز إبهام القول للمصلحة، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين، والحكم بالدليل والعلامة؛ لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته، والله أعلم[1].

*****

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٤٥.

قال الواقدي: حدثني سعيد بن مسلم بن قَمَّادين، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر، قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف، فقال: «**تجهَّز، فإني باعثك في سرية من يومك هذا، أو من غد إن شاء الله**»، قال ابن عمر: فسمعت ذلك، فقلت: لأدخلنَّ فلأُصلِّين مع النبي الغداة، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ فصليت، فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين، فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن: «**ما خلَّفك عن أصحابك؟**» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابهُ في السَّحر، فهم معسكرون بالجُرف وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببتُ يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وعليَّ ثيابُ سفري.

قال: وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامةٌ قد لفَّها على رأسه، قال ابن عمر: فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عمَّمه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: «**هكذا فاعتم يا بن عوف**» قال: وعلى ابن عوف السيف مُتوشِّحه، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اغز باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تَغُلَّ ولا تغدر ولا تقتل وليدًا**»، قال ابن عمر: ثم بسط يده، فقال: «**يا أيها الناس، اتقوا خمسًا قبل أن يُحلَّ بكم: ما نُقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قومٌ عهدهم إلا سلَّط الله عليهم عدوهم، وما منع قومٌ الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يُسقوا، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعًا، وأذاق بعضهم بأس بعض**»[(١)].

قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل، فلما حلَّ بها دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أبوا

(١) هذا الجزء من الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن: ٢/ ١٣٣٢، رقم: ٤٠١٩، عن طريق عطاء بن رباح، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- وذكر نحوه.

أول ما قدم يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصْبَغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيًّا، وكان رأسهم، فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جُهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي ﷺ أنه قد أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ تُماضر، فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها، وهي أمُّ أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

وذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة ست[1].

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: تواضع النبي ﷺ لأصحابه وشفقته عليهم؛ حيث ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامته بيده، وهذا التواضع منه ﷺ يرفع من معنوية الصحابة رضي الله عنهم، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطاقة في سبيل خدمة هذا الدين؛ لأن التلاحم والمودة بين القائد وجنوده من أهم عوامل نجاح العمل وتحقيق الأهداف.

ثانيًا: في وصية رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف بيان لبعض مقاصد الجهاد وأحكامه، فالجهاد يكون باسم الله تعالى لا بأسماء رموز الجاهلية، ويكون في سبيل الله -جل وعلا- إعلاءً لدينه، لا في سبيل القوم والوطن والمصالح الدنيوية.

فأهل الجاهلية كانوا يقاتلون باسم أصنامهم وفي سبيل إعلاء شأن قبائلهم وأوطانهم، فلما جاء الإسلام رفع من مستوى المسلمين الفكري، فهجروا رموز الجاهلية ونطقوا باسم الله تعالى وحده، وأصبح القوم الذين يعتزُّون بهم وينتصرون لهم هم المسلمين في كل مكان.

ثم نهى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف عن الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، ونهاه عن الغدر في العهود، وعن قتل الولدان، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي في الجهاد، فالقتال نوع من العنف والقسوة، ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين طهر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ والحسد أمرٌ عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وحماية المحقين من المبطلين، وليس متأصِّلاً في نفوسهم، ولذلك كان محفوفًا بالآداب السامية التي تجعل الإنسان الواحد جامعًا بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٥٦٠، ٥٦١ وأخرجه ابن إسحاق عن طريق عطاء بن رباح عن ابن عمر رضي الله عنه وذكر نحوه سيرة ابن هشام ٤/ ٤٠٢.

ثم وجَّه النبي ﷺ الكلام لعموم الحاضرين عنده وحذرهم من الفتن الكبيرة التي تترتب على المعاصي الظاهرة، فبين لهم أن التطفيف في المكاييل والموازين يؤدي إلى القحط والجدب ونقص الثمرات، وأن نقض العهود وعدم الوفاء بها يؤدي إلى تسلط الأعداء على المسلمين، وأن منع الزكاة يؤدي إلى حبس المطر، وأن ظهور الفاحشة يؤدي إلى انتشار الأمراض المهلكة؛ كالطاعون، وأن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى يؤدي إلى تفرق الأمة، وظهور العداء والقتال بين فئاتها.

ثالثًا: كان عبد الرحمن بن عوف مطبقًا للسنة في دعوة الكفار إلى الإسلام، فلم يتعجل بقتالهم، وكان من نتائج ذلك أن دخل في الإسلام سيدُهم الأصبغ بن عمرو الكلبي، ودخول الزعماء في الإسلام يعني انتشار الإسلام في أقوامهم.

لقد كانت هذه السرية دليلاً على أن المسلمين في العهد النبوي لم يكونوا يتعطشون لسفك الدماء ولم تكن تغريهم قوتهم وعددهم -كما في هذه السرية- إلى الطمع في أموال الأعداء، بل كان المطلب الأول الذي استمروا يلحُّون عليه في كل مواجهة بينهم وبين أعدائهم أن يقوموا بدعوة الأعداء إلى الإسلام، فإذا أسلموا عصموا دماءهم وأموالهم وأصبحوا في الحقوق كأفراد المسلمين.

وجاء في آخر هذا الخبر أن عبد الرحمن بن عوف كتب لرسول الله ﷺ يستأذنه في الزواج من إحدى نساء بني كلب، وأن رسول الله ﷺ وجهه إلى أن يتزوج بنت سيدهم، وجاء في رواية أخرى ذكرها الواقدي أن رسول الله ﷺ وجه عبد الرحمن بن عوف إلى الزواج ببنت سيد الأعداء إذا استجابوا لدعوته، وهذا هو الظاهر الذي اعتمده بعض المحققين كالإمام الذهبي.

وقد كان النبي ﷺ يحرص على أن يتزوج هو وقادته ببنات سادة القبائل؛ لأن في ذلك كسبًا كبيراً لدعوة الإسلام؛ حيث تكون المصاهرة سببًا في القرب وامتصاص أسباب العداء، ثم الدخول في الإسلام.

*****

سرية بني سعد بفدك[1]

ذكر الواقدي أنها كانت في شعبان سنة ستٍّ، وقال: حدثني عبد الله بن جعفر، عن يعقوب عن عُتبة، قال: بعث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه في مائة رجل إلى حيٍّ سعد بفدك، وبلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعًا يريدون أن يُمدوا يهود خيبر، فسار الليلَ وكمن النهارَ حتى انتهى إلى الهَمَج[2]، فأصاب عينًا، فقال: ما أنت؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد؟ قال: لا علم لي به، فشدُّوا عليه فأقر أنه عينٌ لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهود خَيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويَقْدمون عليهم، فقالوا له: فأين القوم؟ قال: تركتهم وقد تجمع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبَر بن عُلَيم، قالوا: فسرْ بنا حتى تدلَّنا، قال: على أن تؤمنوني! قالوا: إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمنَّاك، وإلا فلا أمان لك، قال: فذاك! فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساء ظنهم به، وأوفى بهم على فدافدَ وآكام، ثم أفضى بهم إلى سهولة، فإذا نَعَمٌ كثيرٌ وشاءٌ، فقال: هذا نَعَمهم وشاءَهم، فأغاروا عليه فضموا النَّعَمَ والشاء، قال: أرسلوني! قالوا: لا حتى نأمن الطلب! ونذر بهم الراعي رعاءَ الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذَّروهم، فتفرقوا وهربوا، فقال الدليل: علامَ تحبسني؟ قد تفرقت الأعراب وأنذرهم الرعاء، قال عليٌّ رضي الله عنه: لم نبلغ معسكرهم، فانتهى بهم إليه فلم يرَ أحدًا، فأرسلوه وساقوا النَّعم والشاء؛ النعم خمسمائة بعير، وألفا شاة.

ثم قال الواقدي: حدثني أُبير بن العلاء، عن عيسى بن عَليلة، عن أبيه، عن جده، قال: إني لَبوادي الهَمَج إلى بديع[3]، ما شعرت إلا ببني سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون، فقلت: ما دَهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم، فلقيت رأسهم وبَر بن عُليم، فقلت: ما هذا المسير؟ قال: الشرُّ، سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به قبل أن نأخذ

---

(١) فدك: قرية قريبة من خيبر، بينها وبين المدينة ستُّ ليال: وفاء الوفا: ٢/ ٢٥٥.

(٢) الهمج: ماء بين خيبر وفدك: طبقات ابن سعد: ٢/ ٦٥.

(٣) بديع: أرض من فدك، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن المغيرة المخزومي. معجم ما استعجم، ص: ١٤٤.

للحرب أُهبتَها، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر، فأخبرهم خبرنا وهو صنع بنا ما صنع، قلت: ومن هو؟ قال: ابن أخي، وما كنا نعدُّ في العرب فتى واحداً أجمع قلب منه، فقلت: إني أرى أمر محمد أمراً قد أمن وغلظ، أوقع بقريش فصنع بهم ما صنع، ثم أوقع بأهل الحصون بيثرب؛ بني قينُقَاع وبني النضير وقُريظة، وهو سائر إلى هؤلاء بخيبر، فقال لي وبَر: لا تخش ذلك! إن بها رجالاً، وحصوناً منيعة، وماءً واتناً[1]، لا دنا منهم محمد أبداً، وما أحراهم أن يغزوه في عُقر داره، فقلت: وترى ذلك؟ قال: هو الرأي لهم، فمكث علي رضي الله عنه ثلاثاً، ثم قسم الغنائم وعزل الخُمس، وصفَّى النبي ﷺ لقوحاً تُدعى الحَفَدة قدم بها[2].

وأشار ابن إسحاق إلى هذه الغزوة وذكر قائدها[3].

في هذا الخبر مثلٌ من خبرة النبي ﷺ الحربية ودقة رصده لأعدائه، فقد علم عن تحركات بني سعد بفدك التي أرادو بها إمداد يهود خيبر الذين قد عزموا على غزو المدينة، فأرسل هذه السرية بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لتفريق جمعهم والقضاء على قوتهم قبل أن ينالوا مقصدهم.

وقد نجح علي ومن معه رضي الله عنهم في تفريق جمعهم وإرهابهم وشل قوتهم بما غنموه من أموالهم التي يستعينون بها في الحرب.

وهكذا يكون التخطيط الحربي السليم، وذلك بقطع الطريق على تجمع الأعداء الكبير حتى لا يتقوى بالإمدادات الحربية الصغيرة.

*****

---

(١) وتن الماء: أي دام ولم ينقطع، الصحاح: ٢٢١٢.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٥٦٢، والتعليقات من هامش المغازي.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٧١.

مواقف في سرية بني فزارة

أخرج الإمام مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر، أمَّرهُ رسول الله ﷺ علينا، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة، أمرنا أبو بكر فعَرَّسنا(١)، ثم شنَّ الغارة، فورد الماء، فقتل من قتل عليه، وسبى.

وأنظرُ إلى عُنُق من الناس(٢)؛ فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قَشعٌ من أدَم(٣)، «قال: القشع هو النِّطع»، معها ابنةٌ لها من أحسن العرب. فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر فنفلني أبو بكر ابنتها.

فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبًا فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: «**يا سلمة، هب لي المرأة**»، فقلت: يا رسول الله! والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبًا، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: «**يا سلمة، هب لي المرأة، لله أبُوك**(٤)» فقلت: هي لك يا رسول الله! فوالله ما كشفت لها ثوبًا، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناسًا من المسلمين كانوا أسرُوا بمكة(٥).

وأخرج خبر هذه السرية الإمام أحمد من حديث سلمة رضي الله عنه، وذكر مثل رواية مسلم(٦).

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ بأسرى المسلمين وسعيه في فكاكهم، فقد طلب من سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن يهب له تلك المرأة التي وقعت في نصيبه وألحَّ عليه في ذلك؛ ليفدي به ناسًا من المسلمين أُسروا بمكة.

---

(١) أي: نزلنا آخر الليل.
(٢) يعني: جماعة.
(٣) أي: جلد.
(٤) كلمة مدح، مثل: لله دَرُّك.
(٥) صحيح مسلم، الجهاد: ٣/ ١٣٧٥، رقم: ١٧٥٥.
(٦) الفتح الرباني: ٢١/ ١٢٨.

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تقدم بعضها تدل على عظمة اهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين، وأنه كان يعيش قضاياهم بأحاسيسه ويتحين الفرص المناسبة لإنقاذهم وحل قضاياهم.

ثانيًا: بطولة سلمة بن الأكوع وجهوده الكبيرة في احتواء المعركة؛ من سرعة الحركة، والمغامرة بالنفس، واقتناص الفرص المناسبة للسيطرة على الموقف، فلقد كان لمجهوده الحربي الكبير أثر واضح في كسب تلك المعركة لصالح المسلمين.

ثالثًا: موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان أميرًا على تلك السرية في تقدير أهل الفضل؛ حيث منح سلمة بن الأكوع تلك الفتاة الجميلة التي كانت في السبي مكافأة له على ما بذل من جهد مشكور في النكاية بالأعداء وإنزال الهزيمة بهم.

*****

مواقف في الصبر والسخاء وكرامة من الله تعالى لأوليائه
(سرية العنبر)

أخرج الإمامان البخاري ومسلم -واللفظ له- من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ وأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقَّى عيرًا[1] لقريش، وزوَّدنا جرابًا[2] من تمر لم يجدْ لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرةً، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يمصُّ الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط[3]، ثم نبله بالماء فنأكله.

قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فَرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب[4] الضخم، فأتيناه، فإذا هي دابة تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ، ثم قال: لا، بل نحن رسُلُ رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا، ونحن ثلاثمائة حتى سمنَّا، قال: ولقد رأيتُنا نغترف من وقب[5] عينه بالقلال[6] الدهن، ونقتطع منه الفدَرَ[7] كَقَدْر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً، فأقعدهم في وقب عيِّنه، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها، ثم رحل[8] أعظم بعير معنا، فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق[9].

فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: «**هو رزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟**» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكلهُ[10].

---

(١) عيرًا: العير هي الإبل التي تحمل الطعام وغيره.
(٢) جرابًا: بكسر الجيم وهو وعاء من جلد.
(٣) الخَبَط: ورق شجر السَّلَم.
(٤) الكثيب: وهو الرمل المستطيل المحدوْدب.
(٥) وقب: هو داخل عينه ونقرتها.
(٦) بالقلال: جمع قُلَّة، وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه؛ أي يحملها.
(٧) الفدر: هي القطع.
(٨) أي: جعل عليه رحلاً.
(٩) هوَ اللحم الذيَ يطبخ قليلاً ويجفف ويحمل في الأسفار.
(١٠) صحيح مسلم، كتاب الصيد، حديث رقم: ١٩٣٥، ص: ١٥٣٥، صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٧٧، رقم: ٤٣٦١، والتعليقات من هامش صحيح مسلم.

وجاء في رواية الإمام البخاري: «قال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه».

قال البخاري: وكان عمرو[1] يقول: «أخبرنا أبو صالح[2] أن قيس بن سعد قال لأبيه: كنت في الجيش فجاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت ثم جاعوا، قال انحر، قال: نُهيت».

وفي رواية أخرى للبخاري: «فخرجنا وكنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع، فكان مزودَيْ تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة، فقلت[3]: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فَنَيت»[4].

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: صبر الصحابة رضي الله عنهم البليغ على الجوع؛ حيث بلغ بهم الجوع إلى حد الاكتفاء بتمرة واحدة في اليوم، ثم فقدوا الأكل كله، فصاروا يعيشون على أوراق الشجر، وكان الشجر الموجود من النوع الخشن وهو الخَبَط حتى قرح أفواههم، ولغرابة ذلك وكون الإنسان من النادر جدًا أن يأكل من ذلك الشجر سميت هذه السرية الخبط.

إن أولئك الصحب الكرام مع ما تعرضوا له من هذا البلاء الشديد لم يكن لهم أي تفكير في العودة إلى المدينة قبل أداء مهمتهم، كما أنه لم يذكر عنهم أي تضجُّر أو تسخُّط على قائدهم، وهذا دليل على عظمتهم وأنهم رجال تم إعدادهم إعدادًا تربويًا؛ لتحمل جميع الشدائد التي يمكن أن يطيقها البشر ولو بمشقة كبيرة.

ثانيًا: موقف جليل لأمير السرية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، فحينما كان يسير مع جيشه فني زادهم، فأمر بجمع الطعام الذي مع أفراد الجيش، فكان يعطيهم منه قليلاً قليلاً بقدر القوت الضروري حتى وصلت به الحال إلى إعطاء كل واحد منهم تمرة في اليوم، وهذا دليل على حزمه وحسن إدارته وسياسته؛ إذ إنه لو تركهم وشأنهم لانتهى زادهم في وقت قليل وأصبحوا معرَّضين لخطر الهلاك.

---

(١) يعني: ابن دينار.

(٢) هو ذكوان السمان، كما ذكر الحافظ ابن حجر، الفتح: ٨/ ٨١.

(٣) القائل هو: وهب بن كيسان، الراوي عن جابر رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٧٧، رقم: ٤٣٦٠.

ثالثًا: موقف في السخاء والشهامة يقدِّمه الكريم بن الكريم قيس بن سعد بن عبادة - رضي الله عنهما- فحينما فني زاد القوم وصاروا يأكلون ورق الشجر أبت شهامة قيس وأريحيته أن يترك إخوانه في تلك الحال من المسغبة وهو قادر على إنقاذ الموقف، فصار يبحث عن رجل من العرب يبيعه إبلاً بثمنها تمرًا في المدينة، وعثر على رجل من جهينة يعرف أباه[١]، فباعه تسع إبل بتمر يتقاضاه الجهني في المدينة، وقد نحر قيس كل يوم ثلاثًا من الإبل، وأراد أن يستمر في الشراء والنحر فأبى عليه أبو عبيدة، وقد استسلم لأمر الأمير مع رغبته الشديدة في الاستمرار في نحر الإبل؛ لأنه سليل الكرام، ونشأ في بيت كرم، فهو لا يهدأ ولا يستريح حتى يُسعد الناس بماله، وفي المحاورة التي جرت بن قيس وأبيه سعد يتبين كرم سعد الفياض.

وجاء في رواية للواقدي عن عمر بن عثمان بن شجاع قال: لما قدم الأعرابي على سعد بن عبادة قال: يا أبا ثابت، والله، ما مثل ابنك صنعت ولا تركت بغير مال، فابنك سيد من سادة قومه، نهاني الأمير أن أبيعه، قلت: لمَ؟ قال: لا مال له! فلما انتسب إليك عرفته فتقدَّمت لما عرفت أنك تسمو على معالي الأخلاق وجسيمها، وأنك غير مُذمٍّ بمن لا معرفة له لديك[٢]، قال فأعطى ابنه يومئذ أموالاً عظامًا[٣].

رابعًا: في هذا الخبر من نزاهة الصحابة وعفتهم عن الحرام، فقد كان بإمكانهم أن يأخذوا الإبل من ذلك الراعي أو من غيره بالقوة، ولكنهم يعلمون أن ذلك لا يحل لهم، وهم إنما أسلموا وخرجوا للجهاد طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولهذا كان الناس الذين لم يدخلوا معهم في الحرب في غاية الأمن والسلام معهم، وهذا من الفروق الواضحة بين المجاهدين من المسلمين والمحاربين من غيرهم.

خامسًا: في هذا الخبر عبرةٌ عظيمة؛ وذلك فيما أجراه الله تعالى من كرامة لأوليائه؛ حيث أخرج لهم من البحر ذلك الحوت العظيم الذي يشبه الكثيب من الرمل، وقد جاء في هذا الخبر من تعظيم خلقته ما يدل على أن خروج مثل ذلك الحوت العظيم غير مألوف عند العرب، وقد أنقذ الله -جل وعلا- به تلك الفئة المؤمنة من مجاعة مهلكة، والكرامات يجريها الله تعالى لأوليائه لعدة مقاصد، منها: إنقاذهم من مشقة وقعوا فيها.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٥٧٥.

(٢) أي: غير متهاون به.

(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٧٧.

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث عُروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان -يُصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه- قالا: «خرج رسولُ الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كان ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين**»، فوالله ما شعرَ بهم خالدٌ حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركُض نذيرًا لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يُهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَل حَل، فألَحَّتْ، فقالوا: خلأت القصواء[1].

فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطة يعظمون فيها حرمات الله[2] إلا أعطيتهم إياها**»، ثم زجرها فوثبت.

قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[3] قليل الماء يتبرضهُ الناس تبرُّضًا[4]، فلم يُلبِّثه الناسُ حتى نزحوهُ، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطشُ، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوهُ فيه، فوالله مازال يجيش لهم بالرِّيِّ حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك؛ إذ جاء بديلُ بن ورقاء الخزاعيُّ في نفر من قومه من خزاعة -وكانوا عَيْبَةَ نُصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة[5]- فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي[6] نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذ المطافيلُ[7] وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا**

---

(١) خلأت: أي حرنت وأبت أن تسير، والقصواء: اسم ناقة النبي ﷺ.

(٢) يعني: ترك القتال في الحرم.

(٣) الثمد: هو نبع الماء من أثر المطر.

(٤) أي: يأخذونه قليلاً قليلاً؛ لقلته.

(٥) أي: موضع نصحه، والعيبة: ما توضع فيها الثياب؛ لحفظها.

(٦) هم قريش الذين في مكة.

(٧) يعني: النوق التي معها أطفالها؛ أي أنهم سيزودون بالحليب ولن يعودوا إلى مكة.

مُعتمـرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرَّت بهم، فـإن شاءوا ماددتُهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس؛ فإن أظهر فـإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الـناسُ فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقـاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي(١)، **ولينفذن اللهُ أمره»**، فقال بديلٌ: سأبلِّغهم ما تقول.

قال: فانطلق حتى أتى قريشًا، قال: إنا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناهُ يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعتهُ يقول، قال: سمعتهُ يقول كذا وكذا.. فحدَّثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود، فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولستُ بالولَد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلَّحوا عليَّ(٢) جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خُطة رشد، اقبلوها ودعوني آتِه، قالوا: ائْته.

فأتاهُ، فجعل يُكلمُ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهلهُ قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وُجوهًا، وإني لأري أشوابًا(٣) من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك.

فقال له أبو بكر: امْصُص بظْرَ اللات(٤)، أنحن نفر عنه وندعه؟! فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: «**أما والذي نفسي بيده، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزك بها لأجبتك**». قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرةُ بن شُعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف(٥)، وقال له: أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ،

---

(١) السالفة: هي صفحة العنق، والمراد: القتل.
(٢) أي: امتنعوا.
(٣) أي: أخلاطًا من أجناس شتى.
(٤) كلمة سبٍّ عند العرب، وكانوا ينسبون ذلك إلى الأم، لكن أبا بكر نسب ذلك إلى اللات صنم ثقيف التي يعظمونها إمعانًا منه في تحقيرها والسخرية منها، وفي هذا دلالة على جواز الإقذاع مع الكفار في الكلام إذا كان منهم تطاول؛ لأن النبي ﷺ لم ينكر على أبي بكر ذلك.
(٥) هو ما يكون أسفل قراب السيف؛ من فضة وغيرها.

فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غُدَر، ألستُ أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: **«أمَّا الإسلام فأقبلُ، وأما المالُ فلست منه في شيء»**.

ثم إن عُروة جعل يرمقُ أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسولُ الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادُوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيمًا له.

فرجع عُروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيتُ مَليكا قط يعظمه أصحابه ما يُعظم أصحابُ محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلَّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة[1]: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسولُ الله ﷺ: **«هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدن[2]، فابعثوها له»**. فبُعثت له، واستقبله الناس يُلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدتْ وأُشْعِرتْ، فما أرى أن يُصدُّوا عن البيت.

فقام رجلٌ منهم يقالُ له: مكرزُ بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: **«هذا مكرزٌ، وهو رجل فاجر»**، فجعل يُكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمرٌ: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: **«قد سهُل لكم من أمركم»**.

قال معمرُ: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات، اكتب بيننا وبينكم كتابًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب[3]، فقال النبي ﷺ: **«بسم الله الرحمن الرحيم»**

---

(١) جاء في رواية الإمام أحمد أن اسمه الحُليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش، مسند أحمد: ٤/ ٣٣٤.

(٢) جمع بدنة، وهي الإبل، والمقصود: الهدي المقدَّم في العمرة.

(٣) هو: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما جاء في رواية ابن إسحاق.

فقال سهيلٌ: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم**»، ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله»، فقال سهيلٌ: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله**» (١)، قال الزهري: وذلك لقوله: «**لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»، فقال له النبي ﷺ: «**على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به**»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العربُ أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيلٌ: وعلى أنه لا يأتيك منا رجلٌ -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا(٢)؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أولُ من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: «**إنَّا لم نقض الكتاب بعدُ**»، قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا، قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**»، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «**بلى فافعل**»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرزٌ: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذب عذابًا شديدًا في الله.

قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألستَ نبي الله حقًّا؟ قال: «**بلى**»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**». قلت: فلمَ نعطي الدَّنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلتَ:

---

(١) جاء في رواية للإمام مسلم من حديث البراء رضي الله عنه: «فأمر عليًّا أن يمحاها، فقال علي: لا والله لا أمحاها، فقال رسول الله ﷺ: «**أرني مكانها**»، فأراه مكانها فمحاها، وكتب: «ابن عبد الله»، صحيح مسلم، الجهاد رقم: ١٧٨٣، ١٤١٠.

(٢) جاء في رواية للإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «فاشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منَّا رددتموه إلينا، فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا؟ قال: «**نعم، إنه من ذهب منَّا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا**»، صحيح مسلم: الجهاد والسير، رقم: ١٧٨٤، ص: ١٤١١.

أولَيس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومُطوِّفٌ به**».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى، قلتُ: ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصى ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوِّف به، قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[(١)].

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»، قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحبُّ ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتلُ بعضًا غمًّا[(٢)(٣)].

---

(١) أي: عمل لذلك أعمالاً صالحة؛ لتكفر ما رآه ذنبًا من مراجعته رسول الله ﷺ، وقد جاء في رواية ابن إسحاق: أن عمر رضي الله عنه قال: مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق؛ من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرًا.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أنها فهمت عن الصحابة أنه احتمل عندهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقِّهم، وأنه هو يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة في حق نفسه، فأشارت عليه أن يتحلل؛ لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به؛ إذ لم يبق بعد ذلك غاية تُنتظر، الفتح: ٨/ ٣٤٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشروط، رقم: ٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٥/ ٣٢٩- ٣٣٣.
وأخرجه الإمام أحمد بهذا الإسناد، وذكر نحوه، مسند أحمد: ٤/ ٣٢٢- ٣٢٦.
وأخرجه الإمام مسلم في عدة روايات مختصرة، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم: ١٧٨٣- ١٧٨٦، من: ١٤٠٩- ١٤١٣.
وأخرجه ابن إسحاق من حديث الزهري، وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٣/ ٤١٥- ٤٢٠.

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: في حبس ناقة رسول الله ﷺ عن المسير عبرةٌ عظيمة في تعظيم حرمات الحرم، فقد شاء الله تعالى أن ينبه رسوله ﷺ إلى تفادي القتال في الحرم ولو صُدَّ عن البيت وعاد هو وأصحابه بغير عمرة تعظيمًا للحرم؛ ولذلك قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**».

ومن ذلك عفوه ﷺ عن فرقة من المشركين حاولوا الهجوم على المسلمين فأخذوهم أسرى، وقد أخرج خبر ذلك الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرَّة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سَلمًا فاستحياهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ [الفتح: ٢٤][1].

ثانيًا: فيه معجزة للنبي ﷺ، وذلك في جريان الماء من النبع الذي جفَّ ماؤه حينما أمر ﷺ بوضع سهم من كنانته بذلك النبع فكفى الجيش حتى صدروا عن ذلك المكان وعددهم ألف وخمسمائة تقريبًا.

ثالثًا: موقف في الشجاعة والحزم من رسول الله ﷺ، وذلك حينما عرض على قريش خطة الصلح، وجعل البديل منها إن أبَوْا ذلك الجهاد القوي المتواصل الذي عبَّر عنه بقوله: «**وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، وليُنفذن الله أمره**».

وهذا الكلام القوي والوعيد الشديد لا شك أنه كان له أثر في قريش حتى قبلوا بالصلح الذي لم يكن من صالحهم كما سيأتي.

رابعًا: في هذا الخبر بيان لشدة حب الصحابة لرسول الله ﷺ واحترامهم له وتأدبهم معه وتبركهم به، ولقد أذهلت هذه المظاهر عروة بن مسعود الثقفي فعاد يحكيها لقريش مع أن حكايتها مما يغيظهم، ولكن قوة التأثر بما شاهد غلبت على مداراتهم فنطق بذلك الكلام الذي يُعد عاملاً من عوامل الانهزام النفسي لدى الكفار، فإن الزعيم الذي

---

(١) صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٨٠٨، ص: ١٤٤٢.

يعامله أصحابه هذه المعاملة لا يتوقع منهم أن يفروا ويتركوه، وإنما المتوقع أن يثبتوا معه وأن يحموه ولو قتلوا بين يديه.

خامسًا: إن من عوامل كسب القضية المتنازع عليها: الظهور بالمظهر الذي يجعل الخصم يتعاطف مع خصمه ويتحول إلى مدافع عنه أمام قومه، وهكذا أمر النبي ﷺ أصحابه أن يستقبلوا الحُلَيس بن علقمة الكناني بالمظهر الذي يفرض عليه اعتقاد كون المسلمين إنما جاءوا للعمرة؛ حيث أرسلوا أمامه الإبل المعدة للهدي، وهو ممن يُعظمون مشاعر الحج والعمرة، وقد أثَّر عليه هذا المنظر، فرجع منكرًا على قريش وقوفها في وجه المسلمين وصدِّهم عن البيت الذي جاءوا معظمين له.

وقد جاء ذلك واضحًا في رواية ابن إسحاق، وفيها: فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألَّهون فابعثوا الهدْي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ اعظامًا لما رأى فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أنَّ الحُليس غضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أيُصدُّ عن بيت الله من جاء معظمًا له: والذي نفس الحليس بيده لتخلُّنَّ بين محمد وما جاء له أو لأنْفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، قال: فقالوا: مَهْ، كُفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به(١).

وهكذا كان هذا التصرف من رسول الله ﷺ مقنعًا للحُليس؛ كي يتحول عن رأيه ويقف في صف المسلمين ويُهدد قريشًا بأن يواجههم بالحرب إن هم صدُّوا المسلمين وقد جاءوا معظمين للبيت.

ولقد تحول رأي زعماء قريش بعد هذا الموقف من الرأي المتصلب نحو صدِّ المسلمين بالقوة إلى نوع من المساومات السياسية كما في هذه الرواية؛ حيث قالوا: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به؛ يعني أننا لن نصد المسلمين بالقوة عن الوصول إلى البيت، ولكننا نريد أن نغتنم هذه الفرصة؛ لنكسب هذه القضية أمام العرب.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٠٧، ٤٠٨.

سادسًا: جاء في رواية ابن إسحاق خبر بيعة الرضوان وبيان سببها، يقول ابن إسحاق: فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يُخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت، ومعظِّمًا لحرمته.

قال: فخرج عثمانُ إلى مكة، فلقيه أبانُ بن سعيد بن العاص؛ حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلَّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطُوف بالبيت فطفْ، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قُتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قُتل: «**لا نبرحُ حتى نُناجز القوم**». فدعا رسولُ الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسولُ الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نَفر[(١)].

وهكذا تمت بيعة الرضوان على مناجزة الكفار، وقد اختلفت ألفاظ الصحابة رضي الله عنهم في بيان صيغة البيعة؛ فروى الإمام البخاري عن يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت[(٢)].

وجاء في رواية لمسلم من حديث معقل بن يسار أنه قال: «لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفر»[(٣)]، وكذلك جاء في رواية ابن إسحاق هذه من حديث جابر بن عبد الله.

والذي يظهر أنه لا يترتب على هذا الخلاف تغايُر في المدلول؛ لأن الذين عبَّروا بعدم الفرار رووا ما تم من ألفاظ البيعة، والذين عبرَّوا بالبيعة على الموت قد اهتموا ببيان

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤١٢، ٤١٣.
(٢) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٤٤٩، رقم: ٤١٦٩.
(٣) صحيح مسلم، الإمارة: ٣/ ١٤٨٥، رقم: ١٨٥٨.

مضمون البيعة؛ لأن من بايع على عدم الفرار فقد وطَّن نفسه على الموت في سبيل الله تعالى.

وإنه لموقفٌ عظيم لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث أجمعوا جميعًا على هذه البيعة وباعوا أنفسهم رخيصة لله عز وجل، ولم يتردد منهم أحد غير رجل واحد من المنافقين لم يُرد الله له أن يفوز برضوانه، كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي الزبير أنه سمع جابرًا يُسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة ومائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جَدِّ بن قيس الأنصاري، اختبأ تحت بطن بعيره(١).

وقد سجل الله عز وجل رضوانه عن هؤلاء المؤمنين الذين أقدموا على هذه البيعة مما يدل على صدقهم وإخلاصهم جميعًا، وذلك بقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ٢٧].

ولعله يندر أن يوجد في التاريخ جيش بأكمله يبايعون على الموت جميعًا ما عدا رجل واحد، مما يشهد شهادة صدق أن الصحابة هم أفضل هذه الأمة وقدوتها في الخير والرشاد.

سابعًا: ما جرى في هذا الخبر من استسلام المؤمنين لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ في قضية الصلح الذي هو في الظاهر إجحاف بيِّنٌ بالمسلمين؛ حيث رفض سهيل بن عمرو مندوب قريش أن يُكتب في الصلح بسم الله الرحمن الرحيم، ورفض أن يكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، كما رفض الموافقة على دخول المسلمين مكة وطوافهم بالبيت في عامهم ذلك، وكان من البنود الجائرة في هذا الصلح ما جاء في قول سهيل: وعلى أن لا يأتيك منَّا رجل -وإن كان على دينك- إلاَّ رددته إلينا؛ ولذلك قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ وزاد من حرجِ رسول الله ﷺ مجيءُ أبي جندل رضي الله عنه يرسُف بقيوده، وإصرار أبيه سهيل بن عمرو على ردِّه إلى مكة حيث تم الصلح.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة: ٣/ ١٤٨٣، رقم: ١٨٥٦.

ولهذا وقع المسلمون في حيرة عظيمة، وأبت نفوس كثيرة منهم قبول هذا الصلح، واشتاقوا إلى مناجزة أعدائهم والوصول إلى البيت ولو بالقوة، حتى قال عمر رضي الله عنه في محاورة له مع رسول الله ﷺ: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**»، قال عمر: فلمَ نُعط الدنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**».

وكان أبو بكر رضي الله عنه في غاية اليقين وقمة الإيمان والاستسلام؛ حيث كان جوابه لعمر رضي الله عنه كجواب رسول الله ﷺ.

وبعدما تبين للصحابة رضي الله عنهم أن هذا هو أمر الله تعالى سلَّموا جميعًا واطمأنوا لأمر لم تدرك عقولهم كل تفاصيله والغاية منه، ولكنه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ وهم يؤمنون جميعًا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فسارَعوا جميعًا إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بالإحلال من عمرتهم بعدما أحل من عمرته، ولم ينازعوا فيما بتَّ به من أمر الصلح مع ما فيه في الظاهر من الإجحاف بالمسلمين.

وقد أثنى الله عز وجل على المؤمنين في هذا الموقف وبين امتنانه عليهم بقوله: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾؛ يعني حينما رفضوا كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله ﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [الفتح: ٢٦]، يعني: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وهكذا امتنَّ الله سبحانه على أوليائه بإنزال السكينة عليهم مرتين؛ حينما اطمأنت نفوسهم إلى القتال حتى الموت وبايعوا على ذلك لَمَّا كان الأمر يستدعي ذلك، وحينما اطمأنت نفوسهم إلى الرضى بالصلح مع ما فيه من شروط جائرة لما استدعى الأمر ذلك.

ثامنًا: كان صلح الحديبية كسبًا عظيمًا لدعوة الإسلام، ولقد كان في ظاهره إجحافًا بالمسلمين في بعض بنوده، ولكن نتائجه كانت انتصاراً عظيمًا للإسلام والمسلمين، وهذا يدل على تفوق النبي ﷺ في التخطيط السياسي والنظرة المستقبلية لدولة الإسلام.

وقد سماه الله تعالى فتحًا مبينًا: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، مما يدل على أهمية نتائجه لصالح الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام.

وقد أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما- قال: «تَعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»(١).

ومما يدل على أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية ما أخرجه الشيخان من حديث سهل ابن حنيف رضي الله عنه أنه قال بعدما ذكر شيئًا من خبر الحديبية: «فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَفتحٌ هو؟ قال: «**نعم**»، فطابت نفسه ورجع»(٢).

وإنما كان صلح الحديبية فتحًا؛ لأن مكة كانت قبله مغلقة أبوابها أمام المؤمنين، فلما تم الصلح فُتح باب المعاملة مع المشركين، واستطاع المؤمنون أن يدخلوا مكة معتمرين مع رسول الله ﷺ بعد عام من الصلح.

وكانت المدينة مغلقة أمام المشركين من سائر العرب؛ لقلة المؤمنين وكثرة أعدائهم، فما كان العرب يُقدمون على الدخول في الإسلام والحالة هذه، فلما تم الصلح دخل في الإسلام أضعاف من كانوا دخلوا فيه قبله؛ وذلك أن العرب لما تسامعوا بأن محمداً ﷺ قد تصالح مع قريش ووُضعت الحرب بينه وبين أكبر أعدائه علموا بذلك عزته وأنهم لا قبل لهم بحربه، فأسرعوا إلى الدخول فى دينه، وخصوصًا بعدما قضى رسول الله ﷺ على أكبر أعدائه بعد قريش وهم اليهود في خيبر، وكان القضاء عليهم من آثار تفرغه ﷺ بعد الصلح، فلم يبق بعد القضاء عليهم من يحارب الإسلام بقوة وضراوة، وقد أدرك العرب عزة الإسلام في تلك الفترة فأسرعوا إلى الدخول فيه، وممن أسلم في هذه الفترة رجلان من صناديد قريش، هما: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد -رضي الله عنهما-(٣) وقد أصبحا بعد ذلك من أعلام المسلمين وقادتهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، فتح الباري: ٧/ ٤٤١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب: رقم: ٣٤/ ١٤١٢، صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب: رقم: ١٨، فتح الباري: ٦/ ٢٨١.

(٣) السيرة النبوية: ٣/ ٣٥٣.

يقول الزهري: فما فُتحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال؛ حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضًا والْتقوا تفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر(١).

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف(٢)(٣).

*****

---

(١) السيرة النبوية: ٣/ ٤٢٥.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٢٦.

(٣) عن كتاب: المنافقون في القرآن الكريم، للمؤلف: ٣٤٥، ٣٤٦.

مواقف وعبر
بين صلح الحديبية
وفتـــح خيبـــر

مواقف جهادية في خبر أبي بصير

أخرج الإمام البخاري خبر أبي بصير في خبر الحديبية الطويل من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان قالا: ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير -رجلٌ من قريش- وهو مسلم[١]، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا[٢]، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغَا ذا الحُليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيِّدًا، فاستلَّهُ الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيدٌ، لقد جربتُ به ثم جربتُ به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذُعرًا**»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول.

فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد -والله- أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «**ويلُ أمِّه، مِسْعَرَ حرب، لو كان له أحد**»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردهُ إليهم، فخرج حتى أتى سيفَ البحر.

قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قَريشٌ إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاهُ فهو آمنٌ فأرسل النبي ﷺ إليهم[٣].

---

(١) هو عتبة بن أسيد بن جارية كما في رواية ابن إسحاق.

(٢) في رواية ابن إسحاق «فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك، قال: يا رسول الله أتردُّني إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟ قال: يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشروط: ٥/ ٣٣٢، رقم: ٢٧٣٢

وأخرجه ابن إسحاق، وذكر نحوه - سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٢٦، وأخرجه البيهقي بإسنادين من حديث الزهري - دلائل النبوة: ٤/ ١٧٢.

فى هذا الخبر مواقف:

أولاً: نموذج عال للوفاء بالعهد والالتزام ببنود الصلح من رسول الله ﷺ، وفي ذلك مراعاة للقواعد الأخلاقية العامة التي تترتب عليها مصلحة المجتمع الإسلامي والدعوة الإسلامية، وذلك أمرٌ مقدَّم على مراعاة المصالح الفردية التي يترتب عليها إنقاذ فرد أو أفراد من المسلمين، فإن خيانة العهود وإن كان الدافع إليها تحقيق مصلحة لبعض المسلمين مما يثلم سمعة المسلمين الأخلاقية، الأمر الذي يترتب عليه الصد عن دين الله -تعالى- بإحجام بعض الكفار عن الدخول فيه لهذا السبب، فحرص النبي ﷺ على الوفاء للكفار بما عاهدهم عليه، وردَّ أبا بصير ردًّا جميلاً فتح له الأمل بما بشره به من قرب فرج الله -تعالى- وخروجه هو وأمثاله من الواقع السيئ الذي هم فيه.

ثانيًا: اغتنام كل الفرص الممكنة؛ لتسخيرها لصالح دعوة الإسلام ودولته، فحينما رأى رسول الله ﷺ من أبي بصير شجاعةً ودهاءً دفعه ليكون هو وأمثاله مشعلاً لمعارك خاطفة تزعج الكفار وتجعلهم يتنازلون بمحض اختيارهم عن شرطهم الجائر الذي يقضي برد من خرج منهم وإن كان مسلمًا، فقال لأبي بصير كلمته العظيمة ذات الأثر البالغ في حسم الموقف: «ويل أمِّه، مِسْعر حرب لو كان له أحد».

وقد فهم أبو بصير التلويح حينما لم يكن النبي ﷺ قادرًا على التصريح؛ لقيام الهدنة بينه وبين الكفار، فاختار مكانًا صالحًا لرصد تجارة قريش، وانضم إليه كل من كان على شاكلته وأبرزهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو فأقضُّوا مضاجع المشركين وأفقدوهم هدفهم الأول من قبول الصلح وهو الحصول على طريق آمن لتجارتهم نحو الشام، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ منكِّسي رؤوسهم خاضعين، يرجونه أن يؤوي كل من خرجوا إليه مسلمين، وأعلنوا تنازلهم عن شرطهم الجائر، وتحققت بشارة النبي ﷺ لأبي بصير وصحبه بأن الله -تعالى- سيجعل لهم فرجًا ومخرجًا.

وهكذا تبدو سياسة رسول الله ﷺ العملاقة إلى جانب سطحية التفكير السياسي لدى زعماء المشركين، فقد كان ذلك الشرط الذي اشترطوه -تعنتًا واستعلاءً- وبالاً عليهم؛ حيث سبَّب لهم حروب عصابات لم يحسبوا لها حسابًا، وظهرت نتائج الصلح الباهرة لصالح المسلمين ضد أعدائهم.

ثالثًا: كان أبو بصير عتبة بن أُسيد رجل حرب من الدرجة الأولى؛ ظهرت شجاعته ومهارته الحربية حينما تغلب على رجلين مسلحين وهو أعزل من السلاح، ثم في استيعابه إشارة النبي ﷺ الحربية وتطبيقها أكمل تطبيق، مع ما في ذلك من مغامرات تحتاج إلى قدر كبير من الجسارة والشجاعة.

وهكذا ترفَّع أبو بصير عن أن يبقى خاضعًا ذليلاً تحت الكفار حتى كوَّن من جماعته عصابةً قوية تتعامل مع المشركين معاملة النِّدِّ للند، حتى اضطروا إلى الاستشفاع بالنبي ﷺ؛ كي يؤوي أفراد تلك العصابة؛ ليستفيدوا من الصلح الذي عقدوه مع المسلمين.

وهنا وقفة تدل على عظمة الإسلام وقوة تمسك معتنقيه به، فلو أن هذه المصيبة التي حصلت لأبي بصير من ردِّه إلى المشركين بعدما وصل دار المسلمين حصلت مع رجل من أهل الدنيا وقامت به حكومة من حكوماتها، فماذا سيكون موقف هذا الرجل؟!

إنه سيكفر بمبادئ هذه الدولة وسيصفها بالعجز والضعف، وسيتحول حالاً إلى عدوٍّ لها بعدما جاء محبًّا ومناصرًا لها، لكن أبا بصير زاد إيمانًا بالله -تعالى- وبرسوله ﷺ، وتحول من جندي عادي في جيش المسلمين -لو آوَاه- إلى قائد كتيبة أقضَّت مضاجع المشركين وأرغمتهم على تغيير سياستهم، ثم ظل على الولاء الكامل لرسول الله ﷺ والمسلمين.

إنه الإيمان بهذا الدين العظيم، إذا وقر في القلب لا تزيده المحن إلا رسوخًا وتمحيصًا، إن الإيمان الصلب لا تؤثر عليه العواصف العاتية، بل تزيده صلابة وقوة، وتفجر في نفس صاحبه الطاقات الكامنة فينطلق بقوة نحو إعلاء الحق وتدمير الباطل.

*****

مغامرة جريئة وتضحية خالدة

(غزوة ذات القَرَد)

أخرج الإمام مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ. . ثم ذكر شيئًا من خبر الحديبية إلى أن قال: ثم قدمنا المَدينة، فبعث رسول الله ﷺ بظهره[1] مع رَبَاح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجتُ معه بفرس طلحة، أُنديِّه مع الظَّهر[2]، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاستاقهُ أجمع، وقتل راعيه.

قال: فقلت: يا رباحُ! خُذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، قال: ثم قمتُ على أكمة فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثًا: يا صباحاه! ثم خرجتُ في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجزُ، أقولُ:

أنا ابن الأكوع واليوم يومُ الرُّضَّع[3]

فألحقُ رجلاً منهم، فأصُكُّ سهمًا في رَحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، قال: قلت: خُذها

أنا ابن الأكوع واليوم يومُ الرُّضَّع

قال: فوالله! ما زلت أرميهم وأعقر بهم[4]، فإذا رجع إليَّ فارس أتيتُ شجرة فجلست في أصلها، ثم رميته، فعقرت به حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايقه، علوت الجبل، فجعلت أُرديِّهم بالحجارة، قال: فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردة وثلاثين رمحًا، يستخفُّون، ولا

(١) الظهر: الإبل.

(٢) أنديه: أي أنتقل به بين الماء والمرعى مع الإبل.

(٣) جمع راضع وهو اللئيم، وأصله: الذي يرضع حليب إبله؛ لكي لا يسمع الناس حلبه، والمعنى: اليوم هلاك هؤلاء اللئام.

(٤) أي: أقتل خيلهم.

يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا[١] من الحجارة يعرفها رسولُ الله ﷺ وأصحابه، حتى أتوا متضايقًا في ثنية[٢]، فإذا هم قد أتاهم فُلانُ بن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون «يعني يتغدون»، وجلست على رأس قرن[٣].

قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح، والله! ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفرٌ منكم أربعة، قال: فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام، قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلتُ: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرَّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجلٌ منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظنُّ، قال: فرجعوا.

فما برحتُ مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخلَّلون الشجر، قال: فإذا أولهم الأخرم الأسيدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكنديُّ، قال: فأخذت بعنان الأخرم، قال: فولَّوا مدبرين، قلتُ: يا أخرم، احذرهم، لايقتطعوك حتى يلحق رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، قال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلمُ أن الجنة حق والنار حقٌّ فلا تحُل بيني وبين الشهادة، قال: فخليتهُ فالتقى هو وعبدُ الرحمن[٤]، قال: فعقر بعبد الرحمن فرسهُ، وطعنه عبد الرحمن فقتلهُ، وتحول على فرسه ولحق أبو قتادة؛ فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فقتله فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجليّ حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبادهم شيئًا حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء، يقالُ له: ذا قرد؛ ليشربوا منه وهم عطاشٌ، قال: فنظروا إليَّ أعدُو وراءهم، فحليتهم عنه «يعني أجليتهم عنه»، فما ذاقوا منه قطرةً.

قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية، قال: فأعْدو فألحقُ رجلاً منهم، فأصكُّه بسهم في نُغْض[٥] كتفه، قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرُّضَّع، قال: يا

(١) الآرام: هي الأعلام، وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة؛ ليهتدي بها، واحدها إرم؛ كعنب وأعناب.

(٢) الثُّنية: العقبة والطريق في الجبل؛ أي حتى أتوا طريقًا في الجبل ضيقة.

(٣) هو كل جبل صغير منقطع عن الجبل الكبير.

(٤) يعني: الفزاري؛ قائد القوم المعتدين.

(٥) هو العظم الرقيق على طرق الكتف، سمِّي بذلك؛ لكثرة تحركه.

ثكلته أمهُ! أكوعه بُكرةَ[1]، قال: قلت: نعم يا عدو نفسه أكوعك بُكرةَ، قال: وأردَوا[2] فرسين على ثنية، قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ قال: ولحقني عامر بسطيحة فيها مذقة من لبن[3]، وسطيحة فيها ماء فتوضأتُ وشربتُ، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأتهم عنه، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذتُه من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحرَ ناقةً من الإبل الذي استنقذْتُ من القوم وإذا هُوَ يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها.

قال: قلت: يا رسول الله! خلِّني فأنتخبُ من القوم مائة رجل، فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبرٌ إلا قتلتهُ، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: «يا سلمة! أتراك كنت فاعلاً؟»، قلت: نعم، والذي أكرمك! فقال: «إنهم الآن ليُقْرَون[4] في أرض غطفان»، قال: فجاء رجل من غطفان، فقال: نحر لهم فلانٌ جزورًا، فلما كشفوا جلدها رأوا غُبارًا، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين.

فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رَجَّالتنا سلمة»، قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين؛ سهم الفارس وسهم الراجل، فجمعهما لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء[5] راجعين إلى المدينة.

قال: فبينما نحنُ نسير، قال: وكان رجلٌ من الأنصار لا يُسبقُ شدًّا[6]، قال: فجعل يقولُ: ألا مسابقٌ إلى المدينة؟ هل من مُسابق؟ فجعل يُعيدُ ذلك، قال: فلما سمعتُ كلامه قلتُ: أما تكرم كريمًا، ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله! بأبي وأمي! ذرني فلأسابق الرجل، قال: «إن شئت» قال: قلت: اذهب إليك، وثنيت رجلي فطفرت[7]، فعدوت، قال: فربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقى نَفَسي[8]، ثم عدوت في إثره، فربطت عليه شرفًا أو

---

(١) يعني: أنت الأكوع الذي يلاحقنا من أول النهار.

(٢) أي: أتعبوهما حتى سقطا.

(٣) السطيحة: إناء من جلود، والمذْقَة: قليل من لبن ممزوج بماء.

(٤) أي: يضافون.

(٥) العضباء: هي ناقة النبي ﷺ، والعضباء: مشقوقة الأذن، ولم تكن ناقته ﷺ كذلك، وإنما هو لقب لزمها.

(٦) أي: عدْوًا على الرجلين.

(٧) أي: وثبت وقفزت.

(٨) معنى ربطت: حبست نفسي عن الجري الشديد، والشرف: ما ارتفع من الأرض، وقوله: أستبقي نفسي؛ أي لئلا يقطعني البهر.

شرفين، ثم إني رفعتُ حتى ألحقه[1]، قال: فأصكُّه بين كتفيه، قال: قلت: قد سُبقْتَ والله، قال: أنا أظن، قال: فسبقته إلى المدينة[2].

هذه القصة الرائعة تُعد مثالاً حيًا للحروب السريعة الخاطفة، التي تعتمد على انتهاز الفرص المناسبة وسرعة الحركة والمهارة الحربية، فما هي المؤهلات التي أهلت هذا البطل المغوار سلمة بن الأكوع السلمي لتحقيق هذه النتائج السريعة المذهلة؟!

إذا عدنا إلى سياق القصة وواقع حياة الصحابة نجد أن هذا البطل يتصف أولاً بالإيمان القوي بالله -تعالى- ورسوله ﷺ، ومن أجل هذا الإيمان يبذل كل طاقته التي وهبها الله -تعالى- له، فبينما نجد الأربعة الذين صعدوا إليه حتى قربوا منه ينحدرون سراعًا منهزمين أمامه، نجده يقف لهم صامدًا ويُهددهم، ولا شك أن هؤلاء الأربعة من شجعان قومهم؛ إذ أنه لا يبرز عادة في مثل هذه المواطن إلا الشجعان، ولكنهم لم يبذلوا من طاقتهم إلا القليل؛ لأن الذي من أجله يقدمون على القتال هو الحصول على المال والجاه في هذه الحياة الدنيا، وهذا الهدف ينعدم وجوده إذا قُتلوا، فلماذا يبذلون كل طاقتهم، والحال أن ذلك يُعرِّضهم لخطر الموت، فيفوت عليهم الهدف الذي من أجله خرجوا وقاتلوا؟

أما الذين يؤمنون بالله -تعالى- ورسوله ﷺ واليوم الآخر فإنهم لا يقاتلون من أجل الجاه والمال في هذه الحياة الدنيا، ولكنهم يقاتلون لهدف أسمى وأجَل؛ يقاتلون ابتغاء مرضاة الله -تعالى- والسعادة الأخروية؛ ولذلك رأينا هذا البطل يغامر بنفسه ويركب الأهوال؛ لأنه يؤمِّل في الظفر بإحدى السعادتين؛ إما الفوز في الحياة الدنيا وفي ذلك إعزاز للإسلام وحماية للمسلمين، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وفي هذا المعنى يقول الله -تعالى- ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ** ﴾ [التوبة: ٥٢].

ونجد هذا الصحابي الجليل يتمتع ثانيًا بالشجاعة النادرة؛ فهو في هذه المعركة لا يهاب الأعداء وإن كانوا سرية كاملة، ونجده بعد ذلك يتمتع بتدريب عالي المستوى من

(١) أي: أسرعت، وهذه التعليقات أكثرها مستفاد من هامش صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٨٠٧، ١٤٣٣- ١٤٤٠، وأخرجه الإمام البخاري مختصرًا، صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٤٦٠، رقم: ٤١٩٤

الرياضة البدنية، فهو يعدو سريعًا؛ للحاق بالعدو على قدميه طول النهار، وفي أرض جبلية وعرة، فأي تدريب هذا الذي تلقاه هذا البطل؟!

ونجده يتمتع بالصبر وقوة الاحتمال، فقد ظل يومًا كاملاً مصابراً للعدو، متتبعًا له، حتى ضاق به عدوه ذرعًا فوقفوا لأخذ الراحة وتناول الطعام، فوقف لهم بالمرصاد فوق الجبل حتى يحول بينهم وبين العودة إلى أخذ ما تخففوا منه من سلاحهم وما انتهبوه، حتى قدم الصحابة رضي الله عنهم.

ونجده -كذلك- بارعًا في المهارة الحربية، وذلك من سرعة التنقل بين الظهور والاستخفاء حسب احتياجات المعركة.

ونجد أن مما ساعده على الظفر بأعدائه والمقدرة على إجلائهم أنه كان راميًا ماهراً في الرماية، فقلّما أخطأ له سهم، وذلك وفَّر أسهمه للنكاية بأعدائه، وحينما دخلوا في مضايق الجبل ووجد أن سهامه لا تصل إليهم استعمل سلاحًا آخر يثيرهم ويزعجهم؛ حيث علاهم فوق الجبل وصار يقذفهم بالحجارة.

وأخيراً في مواقف سلمة بن الأكوع: قيامه بمسابقة ذلك الرجل الأنصاري في عودتهم إلى المدينة، وقد شرح في كلامه الطريقة المثلى في العدْو، وفاز في المسابقة مع أنه كان يعدو يومًا كاملاً، فأي لياقة بدنية كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل!!

وفي ثنايا هذا الخبر نجد موقفًا للصحابي الجليل الأخرم الأسدي رضي الله عنه؛ وذلك في قوله: «يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحُل بيني وبين الشهادة»، ثم إقدامه على قتال الأعداء حتى استشهد.

فهذا الصحابي الجليل الذي غامر بنفسه وضرب في نحر العدو وحده وهو يناشد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن لا يحول بينه وبين الشهادة كان يتمتع بالشجاعة الفائقة والمغامرة الجريئة، وإن كان مردود هذه المغامرة بالنسبة لحصول النصر غير متحقق بنسبة ظاهرة؛ حيث كان في وضع مكشوف للأعداء، بخلاف ما قام به سلمة بن الأكوع؛ من الرماية عن بُعد، والاستخفاء حين اللزوم، ولكن الغاية التي سعى إليها الأخرم هي طلب الشهادة في سبيل الله -تعالى-، وقد لاح له موطن من مواطنها فأراد أن يسارع إليه، وحصل له ما أراد رضي الله عنه.

ولكن هل يحكم على عمله بأنه لا جدوى منه؛ حيث لم يحقق نصرًا للمسلمين في ذلك الموطن، بينما حقق بعض النصر للأعداء؟ أم يحكم عليه بأن له جدوى كبيرة بالنظر لاعتبارات أخرى؟

في الحقيقة أنه مع ما للشهادة من مقام كبير وفائدة عظيمة بالنسبة لصاحبها فإن الإقدام على المغامرة وإرخاص النفوس في سبيل الله -تعالى- عامل مُهم من عوامل الدعوة إلى الإسلام، وإذ أن الأعداء يفهمون من هذا التسابق على الاستشهاد أن هناك هدفًا عظيمًا يهيمن على النفوس لا يتوافر لدى غير المسلمين، فيدفعهم ذلك إلى الدخول في الإسلام؛ ولذلك ذكر الله -سبحانه- في معرض بيان الحكمة من وقوع الإصابة في جيش المسلمين يوم أُحد: ﴿**وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولقد قام بطل الإسلام وفارس رسول الله ﷺ أبو قتادة - رضى الله عنه كما جاء في الخبر- بإزالة آثار هذا الانتصار اليسير الذي حققه الأعداء؛ حيث قتل زعيمهم عبد الرحمن الفزاري الذي قتل الأخرم الأسدي، وهذا موقف في الشجاعة والتضحية يُذكر لأبي قتادة.

وأخيرًا فإن في هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ؛ حيث أخبر سلمة بن الأكوع بأن القوم قد أضافهم رجل من غطفان، فجاء رجل من غطفان فقال: نحرَ لهم فلانٌ جزوراً، وهذا من الإخبار بالمغيبات.

*****

مواقف وعبر

في

غزوة خيبر

الخروج إلى خيبر وأخبار بعض الفقراء

أخرج محمد بن عمر الواقدي أخبار غزوة خيبر بعدَّة أسانيد عن عدد من الشيوخ قالوا: قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية في ذي الحجة تمام سنة ست، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرَّم، وخرج في صفر سنة سبع إلى خيبر.

ثم ذكر خبر محاولة خروج المتخلفين عن الحديبية معه إلى أن ذكر بعض أخبار فقراء الصحابة وما حصل لهم من مشقة تأمين ما يلزمهم للخروج، فقال: وكان لأبي الشحم اليهودي عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله فلزمه، فقال: أجِّلني، فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يُغنمه إياها، وكان عبد الله بن أبي حدْرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم -حسداً وبغيًا-: تحسبُ أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها -والتوراة- عشرةُ الآف مقاتل!

قال ابن أبي حدرد: أي عدو الله! تخوفنا بعدوِّنا وأنت في ذمتنا وجوارنا؟ والله لأرفعنك إلى رسول الله! فقلت: يا رسول الله، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم، فأُسكتَ رسولُ الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئًا، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ حرَّك شفتيه بشيء لم أسمعه، فقال اليهودي: يا أبا القاسم، هذا قد ظلمني وحبسني بحقِّي وأخذ طعامي! قال رسول الله ﷺ: «أعطه حقَّه».

قال عبد الله: فخرجتُ، فبعت أحد ثوبيَّ بثلاثة دراهم، وطلبتُ بقية حقه فقضيته، ولبستُ ثوبي الآخر، وكانت عليَّ عمامةٌ فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوبًا آخر، فخرجت في ثوبين مع المسلمين، ونفلني اللهُ خيرًا، وغنمتُ امرأة بينها وبين أبي الشحم قرابةٌ فبعتها منه بمال.

وجاء أبو عبس بن جبر فقال: يا رسول الله، ما عندنا نفقة ولا زاد ولا ثوب أخرجُ فيه، فأعطاه رسول الله ﷺ شُقَيْقةً سُنْبُلانيةً[1]، فباعها بثمانية دراهم، فابتاع تمرًا بدرهمين لزاده وترك لأهله نفقةً درهمين، وابتاع بُردةً بأربعة دراهم.

(١) الشقيقة: تصغير شقة، وهي جنس من الثياب، وسنبلانية: أي سابغة الطول، سنبل ثوبه إذا أسبله وجره من خلفه أو أمامه، والنون زائدة، ويحتمل أن يكون منسوبًا إلى موضع، النهاية: ٢/ ١٨٤، ٢٣١.

فبينْما رسول الله ﷺ في طريق خيبر في ليلة مقمرة إذْ أبصر برجل يسير أمامه، عليه شيء يبرق في القمر كأنه في الشمس، وعليه بيضة، فقال رسول الله ﷺ: «**من هذا**»: فقيل: أبو عبس بن جبر، فقال رسول الله ﷺ: «**أدركُوه!**» قال: فأدركوني فحبسوني، وأخذني ما تقدم وما تأخر، وظننت أنه قد نزل فيَّ أمرٌ من السماء، فجعلت أتذكر ما فعلت حتى لحقني رسول الله ﷺ، فقال: «**مالك تقدم الناس لا تسير معهم؟**» قلت: يا رسول الله، إن ناقتي نَجيبة، قال: «فأين الشقيقة التي كسوتك؟» فقلت: بعتها بثمانية دراهم، فتزودت بدرهمين تمرًا، وتركت لأهلي نفقة درهمين، واشتريت بردة بأربعة دراهم، فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: «**أنت والله يا أبا عبس وأصحابك من الفقراء! والذي نفسي بيده لئن سلمتم وعشتم قليلاً ليكثرنَّ زادُكم، وليكثرنَّ ما تتركون لأهليكم، ولتكثرنَّ دراهمكم وعبيدكم، وما ذاك بخير لكم!**» قال أبو عبس: فكان والله ما قال رسولُ الله ﷺ(١).

فهذان الخبران وأمثالهما يدلان على شدة الفقر وانخفاض مستوى المعيشة عند الصحابة رضي الله عنهم، ومع ذلك استطاعوا أن يقاوموا أحزاب العرب وأن يغزو البلاد المنيعة كخيبر.

إن الفقير الذي تتجاذبه هموم سداد الديون وتأمين المعيشة الضرورية له ولأهله لا يُنتظر منه -عادة- أن يسهم في أمور الجهاد والإصلاح بطاقة عالية؛ لأن أغلب طاقته مصروف لهمومه الخاصة، ولكن حينما يكون الإيمان بالله -تعالى- واليوم الآخر قويًا واليقين راسخًا يتضاءل مفعول هموم الدنيا على النفس، ويكون الذي يفرض نفسه على الإنسان هو مبدؤه السامي الذي آمن به إيمانًا صادقًا قويًا، فيأتي بالعجائب في خدمة هذا المجال وإن كان محملاً بالأعباء والأثقال.

وفي الخبر الأخير عبرة في إخبار النبي ﷺ عمَّا سيكون في المستقبل؛ من انفتاح الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، وقد كان ذلك حينما فتحت بلاد الفرس وبعض ممالك الروم، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ.

وفي إخبار النبي ﷺ بخيرية أمته في حال فقرها إشارة إلى أهمية لزوم حياة الزهد والاقتصاد في المعيشة، وصرف الأموال الفائضة في عمران بلاد الإسلام وتقوية الجيوش الإسلامية، وهذا هو الذي سار عليه الخلفاء الراشدون وخاصة أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٣٤- ٦٣٦

مثل من اللجوء إلى الله تعالى وتعظيم شعائر الإسلام

(الوصول إلى خيبر)

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه، عن أبي مُعتِّب بن عمرو: أن رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه، وأنا فيهم: «قفوا»، ثم قال: «اللهمَّ ربَّ السموات وما أظْللن، وربَّ الأرَضين وما أقللْن، وربَّ الشياطين وما أضللْن، وربَّ الرياح وما أذْرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها، اقدمُوا بسم الله»، قال: وكان يقولها - عليه السلام - لكلِّ قرية دخلها[1].

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يُغرْ عليهم حتى يُصبح، فإن سمع أذانًا أمسك وإن لم يسمع أذانًا أغار، فنزلنا خيبر ليلاً، فبات رسول الله ﷺ، حتى إذا أصبح لم يسمع أذانًا، فركب وركبنا معه، فركبتُ خلف أبي طلحة، وإنَّ قدمي لتمس قدم رسول الله ﷺ، واستقبلنا عُمَّال خيبر غادين، قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش، قالوا: محمد والخميس[2] معه! فأدْبرُوا هُرَّابًا، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، خربُت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساء صباح المنذَرين»[3].

فالرسول ﷺ مع ربه -جل وعلا- بيقينه ودعائه وتوكُّله، وهو يعلم أن الخلْق جميعًا أمرهم بيده -جل وعلا-، فيسأل ربه بتضرعٍ ويقين أن يمنحه وأصحابه خير تلك القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها وأن يقيه منْ شرِّها وشر أهلها وشر ما فيها، وإذا

---

(١) وأخرج الحاكم هذا الدعاء، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، وأقره الذهبي، المستدرك: ٢/ ١٠٠.

(٢) يعني: الجيش.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٣٦، ٤٣٧، وأخرجه الأئمة؛ البخاري ومسلم وأحمد مختصرًا، صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٢١٠، صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم: ٢٤٠٦، مسند أحمد: ٥/ ٣٣٣، وذكره الهيثمي عن أحمد في روايتين قال عن أحدهما: ورجاله ثقات، وقال عن الأخرى: ورجاله رجال الصحيح: ٦/ ١٥٠- ١٥١.

حاز العبد على حفظ الله -تعالى-، فلن تستطيع قُوى الأرض مجتمعة أن تصل إليه بسوء ولا أن تمنعه من خير.

وفي اعتبار النبي ﷺ الصلاةَ علامة على الإسلام تعظيمٌ للصلاة وبيان لمنزلتها من الدين، وفي هذا بيان لأهمية صلاة الجماعة بالذات؛ حيث إن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة ونداء للاجتماع في المساجد بقول المؤذن: «حي على الصلاة»؛ أي أقبلوا أيها المسلمون إلى الصلاة في المسجد.

وفي قوله ﷺ: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**» إظهارٌ لعزة المسلمين وقوتهم ورفع لمعنويتهم.

*****

مثل من حصانة الصحابة في الحروب النفسية
(إرجاف اليهود بالمسلمين)

قال الواقدي فيما يروى عن شيوخه: وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم؛ لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم، وكانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا، ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات هيهات!! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهَّز النبي ﷺ إلى خيبر: ما أمنع -والله- خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم؛ حصون شامخات في ذُرى الجبال، والماء فيها واتن[(١)]، إن بخيبرَ لألفَ دارع، ما كانت أسدٌ وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟! فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ، فيقول أصحاب النبي ﷺ: قد وعدها الله نبيه أن يُغَنِّمه إياها، فخرج رسول الله ﷺ إليهم، فعمَّى الله عليهم مخرجه إلا بالظن حتى نزل رسولُ الله ﷺ بساحاتهم ليلاً[(٢)].

هذا الإرجاف القوي من اليهود يمكن أن يزلزل أعداءهم وأن يصرفهم تمامًا عن التفكير بغزو أهل خيبر لو كان أعداء اليهود من غير المسلمين الصادقين.

فالمسلمون يخرجون من المدينة بألف وأربعمائة مقاتل؛ ليواجهوا عشرة آلاف في بلدهم وحصونهم المنيعة المليئة بالسلاح والطعام المؤمَّنة بالماء الجاري من تحت الأرض، ولو أن خبيرًا بالحروب تأمل حال المسلمين بنظرة مادية خالية من العقيدة لحكم عليهم بالفشل، وسيحكم على خروجهم بأنه مغامرة مهلكة.

لكن المسلمين قد أيقنوا أن النصر لهم؛ لأن الله -تعالى- وعد نبيه ﷺ أن يُغنِّمه خيبر، وما دام الله -جل وعلا- قد وعد بذلك فلا يمكن أن يخلف وعده، ونظرًا لقوة إيمان المسلمين فإنهم قد ألغوا جميع الاحتمالات السيئة، ونصبوا أمامهم وعد الله -تعالى- الذي لا يخلف فأقدموا على تلك المغامرة.

*****

(١) أي: جارٍ تحت حصونهم.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٣٧.

موقف حزم وخبرة من عبَّاد بن بشر

قال الواقدي: بعث رسول الله ﷺ عباد بن بشر في فوارسَ طليعةً، فأخذ عينًا لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ أبتغي أبعرةً ضلَّتْ لي، أنا على أثرها، قال له عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود، قال: نعم، كان كنانة ابن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنةً، فجاؤوا مُعدِّين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا تُرام، وسلاحٌ وطعام كثير لو حُصروا لسنين لكفاهم، وماء واتنٌ يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط، فضربه ضربات وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: أفتؤَمِّنِّي على أن أصدقك؟ قال عباد: نعم.

فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون وجلُون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عم لي وجدوه بالمدينة، قد قدم بسلعة يبيعها، فبعثوه إلى كنانة ابن أبي الحقيق يخبرونه بقلَّتكم وقلة خيلكم وسلاحكم، ويقولون له: فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم، فإنه لم يلق قومًا يحسنون القتال! وقريش والعرب قد سُرُّوا بمسيره إليكم؛ لما يعلمون من موادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم! وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوي هوى محمد، تقول قريش: إن خيبر تظهر! ويقول آخرون يظهر محمد، فإن ظفر محمد فهو ذُلُّ الدهر! قال الأعرابي: وأنا أسمع كل هذا، فقال لي كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادنُ منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألْق إليهم كثرة عددنا ومادَّتنا فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم.

فأتى به عبادُ النبيَّ ﷺ فأخبره الخبر، فقال عمر بن الخطاب: اضرب عنقه، قال عباد: جعلت له الأمان، فقال رسول الله ﷺ: «**أمسكه معك يا عباد!**» فأوثق رباطًا،

فلما دخل رسول الله ﷺ خيبر عرض عليه الإسلام، وقال رسول الله ﷺ: «**إني داعيك ثلاثًا، فإن لم تسلم لم يخرج الحبلُ عن عنقك إلا صعدًا!**» فأسلم الأعرابي[1].

وهكذا استطاع عباد بن بشر رضي الله عنه بحزمه وخبرته الحربية أن يستخرج المعلومات الصحيحة من ذلك الجاسوس، فتبين أن هذه المعلومات ضد المعلومات التي تم تزويده بها من قِبل اليهود، فقد أرادوا تحطيم معنوية المسلمين بالإرجاف، لكن الله -تعالى- ردَّ كيدهم في نحورهم؛ حيث نطق ذلك الجاسوس بالحقيقة، فوصف ما هم فيه من الخوف الشديد والهلع البالغ.

*****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٤٠ - ٦٤١.

بدء القتال وفتح حصن النَّطاة

ذكر الواقدي في سياق روايته أن النبي ﷺ لما وصل إلى خيبر نزل قريبًا من حصن النَّطاة، وأن المسلمين قاتلوا اليهود يومهم ذلك بالنبال.

ثم ذكر أن النبي ﷺ انتقل بعيدًا عن الحصن ونزل في مكان يسمى الرجيع؛ ليكون أكثر أمانًا للمسلمين، قال: فلما أمسى رسولُ الله ﷺ تحوَّل إلى الرجيع وخاف على أصحابه البيات، فضرب عسكره هناك وبات فيه، وكان مقامه بالرجيع، سبعة أيام يغدو كل يوم بالمسلمين على راياتهم متسلحين ويترك العسكر بالرجيع ويستخلف عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويقاتل أهل النطاة يومه إلى الليل، ثم إذا أمسى رجع إلى الرجيع، وكان قاتل أول يوم من أسفل النَّطاة، ثم عاد بعدُ فقاتلهم من أعلاها حتى فتح الله عليه، وكان من جُرح من المسلمين حُمل إلى المعسكر فدُووي، وإن كان به انطلاق انطلق إلى معسكر النبي ﷺ، وكان أول يوم قاتلوا فيه جُرح من المسلمين خمسون رجلاً من نبلهم(١).

هذا النوع من القتال يبين لنا عظمة المسلمين؛ حيث يقاتلون وهم في العراء قومًا قد تحصَّنوا بحصنهم، فنبالهم أعلى من نبال المسلمين، وهم متسترون بحصنهم والمسلمون لا يسترهم شيء، ومع تفشي الجراح بالمسلمين من نبال العدو فإنهم استمروا في الحصار والقتال حتى فتح الله -تعالى- لهم ذلك الحصن، وهو مثل على صبر المسلمين وقوتهم في مصابرة أعدائهم.

*****

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٤٥ - ٦٤٦.

إسلام يسار الحبشي

قال ابن إسحاق: وكان من حديث الأسود الراعي -فيما بلغني- أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم له، كان فيها أجيرًا لرجل من يهود، فقال: يا رسول الله، اعرض علي الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدًا أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه، فلما أسلم قال: يا رسول الله، إني كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ قال: «اضرب في وجوهها، فإنها سترجع إلى ربها»، أو كما قال، فقام الأسود، فأخذ حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك أبدًا، فخرجت مجتمعة، كأن سائقًا يسوقها، حتى دخلت الحصن، ثم تقدم إلى ذلك الحصن؛ ليقاتل مع المسلمين، فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فأُتي به رسول الله ﷺ، فوُضع خلفه، وسُجِّي بشملة كانت عليه، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: يا رسول الله، لم أعرضت عنه؟ قال: إن معه الآن زوجتيه من الحور العين.

قال ابن إسحاق: وأخبرني عبد الله بن أبي نجيح أنه ذكر له: أن الشهيد إذا ما أصيب تدلت له زوجتاه من الحور العين، تنفضان التراب عن وجهه، وتقولان: ترَّب الله وجهَ من ترَّبك، وقتل من قتلك[1].

وهكذا أبصر نور الهداية عبدٌ مملوك، بينما حُجبتْ عن علماء أهل الكتاب، فالهداية نور، والنور لا يحل إلا في قلب صحيح سليم من الهوى المنحرف والحسد والغل، أما القلب المريض فإنه محجوب عن ذلك النور وإن كان الفكر في غاية الفهم والعلم.

ولقد كان إيمان يسار الحبشي قويًا صادقًا دفعه إلى الجهاد حتى نال الشهادة في سبيل الله -تعالى-، ولقد رأى رسول الله ﷺ زوجتيه من الحور العين؛ مما يدل على صدق إيمانه.

وفي هذا الخبر دلالة على أمانة الصحابة رضي الله عنهم، فحينما اتجه إليهم يسار بغنمه لم يعرض لها أحد منهم؛ لا في حال إقباله ولا في حال دفعه بالغنم إلى الحصن.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٥٩، ٤٦٠، وأخرجه الواقدي، وذكر نحوه أن اسم الراعي: يسار الحبشي، مغازي الواقدي: ٢/ ٦٤٩.

٧- فتح حصن ناعم وموقف لعلي بن أبي طالب

أخرج الإمام البخاري من حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله ويحبه اللهُ ورسوله»، قال: فبات الناس يدوكون[1] ليلتهم: أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين عليُّ بن أبي طالب؟» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، فأُتيَ به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: «انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النعم»[2].

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وذكر نحوه[3]، وفي رواية له أخرى من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في حديث طويل جاء في آخره خبر خيبر، وفيه: «ثم أرسلني -يعني رسول الله ﷺ- إلى عليّ وهو أرمد، فقال: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، قال: فأتيت عليًا، فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية، وخرج مرحب، فقال:

قد علمت خيبر أني مَرْحبُ ... شاكي السلاح بطل مجرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تلهَّبُ

فقال عليٌّ:

أنا الذي سمتني أمي حيدَرهْ[4] ... كليث غابات كريه المنظرهْ
أُوفيهُمُ بالصَّاع كيْل السَندَرَهْ[5]

(١) يدوكون: أي اختلط عليهم الأمر، فصاروا يخوضون في الحديث عن صاحب الراية.
(٢) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٤٧٦، رقم: ٤٢١٠.
(٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم: ٢٤٠٦، ص١٨٧٢.
(٤) الحيدرة: اسم للأسد؛ أي أنا الأسد في شجاعته وقوته.
(٥) السندرة: مكيال واسع، والمعنى: أقتل الأعداء قتلاً ذريعًا.

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه[1].

فهذا الخبر يشهد لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفضل الكبير؛ وذلك من جهة شهادة النبي ﷺ له بأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، وهذا شرفٌ كبيرٌ لعلي رضي الله عنه، مما جعل كل واحد من الصحابة يرجو أن يكون صاحب هذا الشرف العالي؛ وذلك لقوة شعورهم بالهدف الأعلى للإسلام وهو بلوغ رضوان الله -تعالى- والسعادة الأخروية.

كما أن في هذا الخبر فضلاً كبيراً من جهة ما امتاز به عليٌّ رضي الله عنه من الشجاعة النادرة والتمتع باقتحام الأهوال، فقد كان مرحب اليهودي أشجع اليهود، وكان يخيف مبارزيه، ولكن عليًا لم يبال به وهجم عليه بقوة وإقدام حتى جَنْدَلَه قرب حصنه، ثم ثبت ومن معه ثبات الأبطال حتى فتح الله لهم ذلك الحصن الذي يُعدُّ من أمنع حصون خيبر، وهو حصن «ناعم»، كما ذكر الواقدي في روايته[2].

ومن الأبطال الذين كان لهم إسهامٌ كبير في فتح ذلك الحصن إضافة إلى عليٍّ بن أبي طالب أبو دجانة سماك بن خرشة، ومحمد بن مسلمة، والزبير بن العوام رضي الله عنهم.

وفي ذلك يقول الواقدي فيما يرويه عن شيوخ من بني ساعدة قالوا: قَتل أبو دجانة الحارث أبا زينب، وكان يومئذ معلمًا بعمامة حمراء، والحارث مُعلم فوق مِغْفره[3].

وروى عن شيوخه قالوا: وبرز أُسير، وكان رجلاً أيدًا[4]، وكان إلى القصَر، فجعل يصيح: من يبارز؟ فبرز له محمد بن مسلمة فاختلفا ضربات، ثم قتلَه محمد بن مسلمة، ثم برز ياسر وكان من أشدائهم، وكانت معه حربةٌ يحوش بها المسلمين حوشًا، فبرز له عليٌّ عليه السلام، فقال الزبير: أقسمتُ عليك إلا خليت بيني وبينه، ففعل عليٌّ، وأقبل ياسر بحربته يسوق بها الناس، فبرز له الزبير، فقالت صفية: يا رسول الله واحَزَنَى! ابني يُقتل يا رسول الله! فقال: «**بل ابنك يقتله**»، قال: فاقتتلا

(١) صحيح مسلم، الجهاد رقم: ١٨٠٧، ص١٤٣٣- ١٤٤١.
(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٥٢.
(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٥٤.
(٤) أي: قويًا.

فقتله الزبير، فقال له رسول الله ﷺ: «**فداك عمٌّ وخال!**» وقال النبي ﷺ: «**لكل نبي حواريٌّ وحواريَّ الزبير وابن عمتي**».

فلما قُتل مرحب وياسر قال رسول الله ﷺ: «أبشروا: قد ترحبت خيبر وتيسرت!»، وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيمًا، فقال رسول الله ﷺ حين طلع عامر: «**أترونه خمسةَ أذْرعٍ؟**» وهو يدعو إلى البراز، يخطُر بسيفه وعليه درعان، مقنَّع في الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناسُ عنه، فبرز إليه عليٌّ رضي الله عنه فضربه ضربات، كلُّ ذلك لا يصنع شيئًا، حتى ضرب ساقيه فبرك، ثم ذفَّف[1] عليه فأخذ سلاحه[2].

وكل هؤلاء كانوا من شجعان اليهود الكبار، وهذا يبين تفوق أبطال المسلمين على غيرهم بكثير؛ وذلك لسمو الهدف الذي ينشدونه، وهو الشهادة في سبيل الله -تعالى-، وعِظم المثوبة المترتبة على ذلك، وهي الظفر بالدرجات العلى في الجنة.

أما الكفار فأي شيء يطلبونه من تقديم أرواحهم! إن الهدف الذي ينشدونه هو الشهرة والمجد الدنيوي، وهذا سيفوتهم إذا قُتلوا؛ ولهذا فإن أكثر طاقتهم مصروفة للدفاع عن أنفسهم، بينما جميع طاقة المسلم مصروفة للهجوم على الخصم.

*****

(١) أي: أجهز عليه.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٥٧.

فتح حصن الصعب بن معاذ

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه: وكان حصن الصعب بن معاذ في النطاة، وكان حصن اليهود، فيه الطعام والودك والماشية والمتاع، وكان فيه خمسمائة مقاتل، وكان الناس[1] قد أقاموا أيّامًا يقاتلون وليس عندهم طعامٌ إلا العَلَف.

قال مُعتِّب الأسلمي: أصابنا معشرَ أسْلم خصاصةٌ حين قدمنا خيبر، وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة[2]، لا نفتح شيئًا فيه طعام فأجمعت أسلم أن يرسلوا أسماء بن حارثة، فقالوا: إيت محمدًا رسول الله، فقل: إنَّ أسلم يقرئونك السلام، ويقولون: إنَّا قد جهدنا من الجوع والضَّعف، فقال بريدة بن الحصيب: والله إن رأيت كاليوم قطُّ أمرًا بين العرب يصنعون فيه هذا! فقال هند بن حارثة، والله إنا لنرجو أن تكون البعثة إلى رسول الله ﷺ مفتاحَ الخير، فجاءه أسماء بن حارثة، فقال: يا رسول الله، إن أسلم تقول: إنَّا قد جهدنا من الجوع والضعف فادْعُ الله لنا، فدعا لهم رسول الله ﷺ، فقال: «والله ما بيدي ما أقريهم»، ثم صاح بالناس، فقال: «اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيه، أكثره طعامًا وأكثره ودكًا».

ودفعوا اللواءَ إلى الحُباب بن المنذر بن الجموح، وندب الناس، فما رجعنا حتى فتح الله علينا الحصن -حصن الصعب بن معاذ- فقالت أم مُطاع الأسلمية، وكانت قد شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ في نساء، قالت: لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ما شكوا من شدة الحال، فندب رسولُ الله ﷺ الناس فنهضوا، فرأيتُ أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ، وإنَّ عليه لخمسمائة مقاتل، فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله، وكان عليه قتال شديد.

برز رجلٌ من اليهود يقال له يُوشع يدعو إلى البراز، فبرز إليه الحُباب بن المنذر، فاختلفا ضربات فقتله الحبابُ، وبرز آخر يقال له: الزَّيَّال، فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري فبدَرَه الغفاريُّ فيضربه ضربةً على هامته، وهو يقول: خذها وأنا الغلام

(١) أي: المسلمون.

(٢) يقصد: حي النطاة، وفيه عدة حصون.

الغفاري! فقال الناس: بطل جهادُه، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «ما بأسٌ به، يؤجر ويُحمد».

وكان أبو اليَسَر يحدِّث أنهم حاصروا حصن الصعب بن معاذ ثلاثة أيام، وكان حصنًا منيعًا، وأقبلت غنمٌ لرجل من اليهود ترتع وراء حصنهم، فقال رسول الله ﷺ: «منْ رجلٌ يطعمنا من هذه الغنم؟»، فقلت: أنا يا رسول الله، فخرجت أسعى مثل الظَّبي، فلما نظر إليَّ رسول الله ﷺ مُولِّيًا قال: «اللهم متِّعنا به!»، فأدركت الغنم وقد دخل أولها الحصن، فأخذت شاتين من آخرها فاحتضنتُهما تحت يدي، ثم أقبلت أعدو كأن ليس معي شيء حتى أتيت بهما رسول الله ﷺ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فذُبحتا ثم قسمهما، فما بقي أحدٌ من أهل العسكر الذين هم معه محاصرين الحصن إلا أكل منهما، فقيل لأبي اليسر: وكم كانوا: قال: كانوا عددًا كثيرًا، فيقال: أين بقية الناس؟ فيقول: في الرَّجيع بالمعسكر.

فسُمع أبو اليَسَر -وهو شيخ كبير- وهو يبكي في شيء غاظه من بعض ولده، فقال: لَعمري بقيت بعد أصحابي ومتِّعوا بي وما أُمتِّع بهم! لقول رسول الله ﷺ: «اللهم متِّعْنا به!»، فبقي، فكان من آخرهم[1].

وكان أبو رُهم الغفاريُّ يحدث قال: أصابنا جوعٌ شديدٌ، ونزلنا خيبر زمان البلح، وهي أرض وخيمة حارة شديدٌ حرها، فبينا نحن محاصرون حصن الصعب بن معاذ، فخرج عشرون حمارًا منه أو ثلاثون، فلم يقدر اليهود على إدخالها، وكان حصنهم له منعةٌ، فأخذها المسلمون فانتحروها وأوقدوا النيران وطبخوا لحومها في القُدور والمسلمون جياع، ومرَّ بهم رسول الله ﷺ وهم على تلك الحال، فسأل فأُخبر فأمر مناديًا: إن رسول الله ﷺ ينهاكم عن الحمر الإنسية -قال: فكفَؤا القدور- وعن مُتعة النساء، وعن كلِّ ذي ناب ومخلب.

وحدثني ابن أبي سبرة، عن الفضيل بن مبشِّر، قال: كان جابر بن عبد الله يقول: أطعمنا رسولُ الله ﷺ لحوم الخيل، فذبح قومٌ من المسلمين خيلاً من خيلهم قبل أن يُفتح حصن الصعب بن معاذ: فقيل لجابر: أرأيت البغال، أكنتم تأكلونها؟ قال: لا.

---

(١) وأخرج ابن إسحاق هذا الخبر، وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٤٧.

وحدثني ابن أبي سبرة، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعْصَعة عن الحارث بن عبد الله بن كعب، عن أم عمارة، قالت: ذبحنا بخيبر لبني مازن بن النجار فرسين، فكنا نأكل منهما قبل أن يُفتح حصنُ الصعب بن معاذ.

وكان ابنُ الأكوع يقول: كنا على حصن الصعب بن معاذ؛ أسلمُ بأجمعها، والمسلمون قد حصروا أهل الحصن، فلقد رأيتُنا وصاحب رايتنا سعد بن عبادة، فانكشف المسلمون، فأخذ الراية فغدونا معه، وغدا عامر بن سنان، فلقي رجلاً من اليهود، وبدره اليهوديُّ فيضرب عامرًا، قال عامر: فاتقيتُه بدَرَقتي، فنبا سيف اليهودي عنه، قال عامر: فأضربُ رجْل اليهودي فأقطعها، ورجع السيف على عامر فأصابه ذبابُه فنزف فمات، فقال أُسَيد بن حُضير: حبط عمله، فبلغ رسول الله ﷺ، فقال: «كذب من قال ذلك[1]، إن له لأجرين؛ إنه جَاهِد مُجاهدٌ، وإنه لَيَعوم في الجنة عوم الدُّعْموص»[2].

حدثني خالد بن إلياس، عن جعفر بن محمود بن محمد، عن محمد بن مسلمة قال: كنت فيمن ترَّس عن النبي ﷺ، قال: فرأيت رسول الله ﷺ رمى بسهم، فما أخطأ رجلاً منهم، وتبسم إليَّ رسولُ الله ﷺ، وانفرجوا ودخلوا الحصن.

حدثني ابن أبي سبرة، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله، عن أبيه، قال: لما انتهينا إلى حصن الصَّعْب بن معاذ، والمسلمون جياع والأطعمةُ فيه كلُّها، وغزا بنا الحباب بن المنذر بن الجَموح ومعه رايتنا وتبعه المسلمون، وقد أقمنا عليه يومين نقاتلهم أشدَّ القتال، فلما كان اليوم الثالث بكَّر رسولُ الله ﷺ عليهم، فخرج رجل من اليهود كأنه الدَّقَل[3]، في يده حربةٌ له، وخرج وعاديته معه، فرموا بالنبل ساعة سراعًا، وترَّسنا عن رسول الله، وأمطروا علينا بالنَّبل، فكان نبلهم مثل الجراد حتى ظننتُ ألا يُقلعوا، ثم حملوا علينا حملة رجل واحد، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف، قد نزل عن فرسه ومدعَم[4] يُمسك فرسه، وثبت الحباب برايتنا، والله ما يزول، يُراميهم على

(١) كذب هنا بمعنى أخطأ، والكذب يطلق أحيانًا في اللغة، ويراد به الخطأ.

(٢) الدعموص: الدخَّال في الأمور؛ أي أنه يسيح في الجنة.

(٣) الدَّقَل: خشبة يمد عليها شراع السفينة.

(٤) هو مولى رسول الله ﷺ، الاستيعاب: ١٤٦٨.

فرسه، وندب رسولُ الله ﷺ المسلمين وحضَّهم على الجهاد ورغَّبهم فيه، وأخبرهم أن الله قد وعده خيبر يُغَنِّمه إياها.

قال: فأقبل الناس جميعًا حتى عادوا إلى صاحب رايتهم، ثم زحف بهم الحُباب فلم يزل يدنو قليلاً قليلاً، وترجع اليهود على أدبارها حتى لحمها الشرُّ فانكشفوا سراعًا، ودخلوا الحصن وغلقوا عليهم، ووافوا على جُدُره -وله جُدُر دون جُدُر- فجعلوا يرموننا بالجندل(١) رميًا كثيراً، ونحَّونا عن حصنهم بوقع الحجارة حتى رجعنا إلى موضع الحُباب الأول.

ثم إن اليهود تلاومت بينها وقالت: ما نستبقي لأنفسنا؟ قد قُتل أهل الجدِّ والجلد في حصن ناعم، فخرجوا مستميتين، ورجعنا إليهم فاقتتلنا على باب الحصن أشدَّ القتال، وقُتل يومئذ على الباب ثلاثةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ؛ أبو صيَّاح، وقد شهد بدراً، ضربه رجل منهم بالسيف فأطنَّ قحْف رأسه؛ وعَديّ بن مُرَّة بن سُراقة، طعنه أحدهم بالحربة بين ثدييه فمات؛ والثالثَ الحارث بن حاطب وقد شهد بدراً، رماه رجل من فوق الحصن فدمغه، وقد قتلنا منهم على الحصن عدة، كلَّما قتلنا منهم رجلاً حملوه حتى يُدخلوه الحصن، ثم حمل صاحب رايتنا وحملنا معه، وأدخلنا اليهود الحصن وتبعناهم في جوفه، فلمَّا دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غَنَم، فقتلنا مَنْ أشرفَ لنا، وأسرْنا منهم، وهربوا في كل وجه يركبون الحرَّة يريدون حصن قلعة الزبير، وجعلنا ندَعهم يهربون وصعد المسلمون على جدُره فكبروا عليه تكبيراً كثيراً، ففتَتْنا أعضاد اليهود بالتكبير، لقد رأيتُ فتيان أسلم وغفار فوق الحصن يُكبِّرون.

فوجدنا -والله- من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك؛ من الشعير، والتمر، والسمن، والعسل، والزيت، والودَك، ونادى منادي رسول الله ﷺ: كلوا واعلفوا ولا تحتملوا، يقول: لا تخرجوا به إلى بلادكم، فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مُقامَهم طعامهم وعلف دوابهم، لا يمنع أحد أن يأخذ حاجته ولا يُخمَّس الطعام، ووجدوا فيه من البَزِّ والآنية، ووجدوا خوابي السَّكَر(٢)، فأُمروا فكسروها، فكانوا يكسرونها حتى سال السَّكَر في الحصن، والخوابي كِبار لا يُطاق حملها، وكان أبو ثعلبة الخُشني يقول:

---

(١) الجندل: الحجارة، لسان العرب: ١١/ ١٢٨.

(٢) أي: الخمر.

وجدنا فيه آنية من نُحاس وفَخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب، فسألنا رسول الله ﷺ، فقال: «اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها واشربوا»، وقال: «أسخنوا فيها الماء، ثم اطبخوا بعد، وكلوا واشربوا»، وأخرجنا منه غنمًا كثيرًا وبقرًا وحمرًا، وأخرجنا منه آلةً كثيرة للحرب، ومنجنيقًا ودبَّابات وعُدَّة، فنعلم أنهم قد كانوا يظنون أن الحصار يكون دهرًا، فعجّل الله خزيَهم(١).

في هذه الأخبار مواقف وعبر؛ فمن ذلك:

أولاً: فيها تصوير بليغ لما أصاب المسلمين من الجوع الشديد؛ حيث فقدوا الطعام تمامًا أثناء حصارهم لبعض حصون خيبر ولم يبق معهم إلا علف البهائم، ومع ذلك صبروا صبرًا جميلاً.

وحينما جاء رسول قبيلة أسلم يبين لرسول ﷺ حال قومه الشديد لم يعرض الأمر بأسلوب التشكّي والتضجُّر، وإنما أخبر بحالهم، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله -تعالى- لهم، فكان الدعاء وكانت إجابة الله -تعالى- بما أغناهم حتى نهاية فتح خيبر.

ثانيًا: فيها نموذجان من تربية النبي ﷺ أصحابه على الاعتدال في الأمور والتحري في الحكم على الناس.

الأول: حينما هجم عمارة بن عقبة الغفاري على قرنه اليهودي الذي بارزه قال عمارة: خذها وأنا الغلام الغفاري، فقال الناس: بطل جهادُه، يعني: حينما انتسب إلى قومه ولم ينتسب إلى الإسلام، فقال النبي ﷺ: «**ما بأسٌ به، يُؤجر ويحمد**»؛ أي يُؤجر في الآخرة ويحمد في الدنيا.

فبين النبي ﷺ أن انتماءه إلى قبيلته على سبيل الافتخار لا يؤثر على انتمائه إلى الإسلام ما دام الهدف من القتال هو نصرة الإسلام والشعار الذي قد رفعه المجاهدون هو شعار الإسلام، وإن كان عدم الانتماء للقبيلة هو الأكمل كما هو الحال في سلوك المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم جميعًا.

ولقد كان الدافع لأولئك الذي حكموا ببطلان عمل عامر الغفاري هو حماسهم القوي نحو تطبيق الانتماء إلى الإسلام، والقضاء علي الانتماء القبلي الذي قد يؤثر

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٥٨- ٦٦٤.

على الاتجاه والسلوك، ولكن النبي ﷺ لم يقرهم على ذلك الحكم الشديد؛ لعلمه بسلامة اتجاه ذلك المجاهد، ولو أنهم لم يحكموا ببطلان عمله وكلَّموه بلطف وأشعروه بأن الكمال أن ينتمي إلى الإسلام كما يفعل المهاجرون والأنصار لقَبِل منهم، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ ولم يكن بحاجة إلى أن يدافع عن ذلك الغفاريِّ.

وهذا الاتجاه نحو التشدد في الحكم على الناس يوجد غالبًا في كل زمن؛ لأنه يكون استجابة لنداء الغيرة على حرمات الدين، ولكنه يضر بالمجتمع الإسلامي كثيراً ويُحدث التصدع والانشقاق في صفوفه، ويسبب تكوّن الأحزاب المختلفة الاتجاه نحو التشدد أو الاعتدال، إلا إذا وُفقت الأمة بقادة علماء حكماء بعيدي النظر، لهم سمعة عالية ومحبة في قلوب المسلمين، فإن هؤلاء العلماء الربانيين يقومون بتوجيه هؤلاء المتحمسين وإعادتهم إلى الاتزان والاعتدال في الحكم على الآخرين متأسِّين في ذلك بإمامهم وقدوتهم ﷺ.

والنموذج الثاني: في حكم أسيد بن حضير على عامر بن سنان بأنه قد حبط عمله، وذلك حينما رجع عليه طرف سيفه وهو يهجم على اليهودي فجرحه فكان سببًا لوفاته، فخطَّأ النبي ﷺ أسيد بن حضير في حكمه هذا الذي تعجل به، وأبان بأن عامر شهيدٌ في الجنة يسبح فيها كيف شاء.

وبهذه الجهود التربوية وأمثالها قضى رسول الله ﷺ على اتجاه بعض الصحابة رضي الله عنهم نحو التشدُّد في الحكم على إخوانهم، مع الإبقاء على روح الحماس والغيرة الدينية، وتوجيه تلك الطاقة المتوثبة نحو الاتجاه السليم والسلوك القويم.

ثالثًا: بذل المسلمون جهودًا كبيرة في القتال حول هذا الحصن، ومن الأبطال الذين سُجِّلت جهودهم: الحُباب بن المنذر، وعمارة بن عقبة الغفاري، وعامر بن سنان رضي الله عنهم جميعًا، ومن أبرز جهودهم: خروجهم لمبارزة شجعان اليهود، وحرب المبارزة هي أشد أنواع الحرب، ولا يتصدى لها إلا أصحاب الشجاعة وقوة البأس، إضافة إلى قوة الإيمان.

يضاف إلى الحباب بن المنذر موقفه القوي في قيادة الجيش الإسلامي الذي تصدى لقتال اليهود حول الحصن، وذلك في ثباته في مركز القيادة حينما انهزم بعض الجيش إلى أن عادوا إليه فهجم بهم حتى تم فتح ذلك الحصن رضي الله عنهم جميعًا.

رابعًا: موقف فدائي لأبي اليَسَر كعب بن عمرو السَّلمي الأنصاري؛ حيث حقَّق رغبة النبي ﷺ في أخذ شيء من غنم اليهود؛ لإطعام المسلمين، وهو موقف خطير؛ حيث إنه لا بد أن يقترب من حصن اليهود المليء بالرماة، ومع هذه الخطورة فإنه قد سعى وراء الغنم حتى دخل أولها الحصن واحتضن منها شاتين، ولم يبال بما تعرض له من خطر؛ لأن الشيء الذي كان يهيمن على فكره هو أن يحقِّق رغبة النبي ﷺ، ثم ليُصَبْ جسمه بالجراح أو القتل فإن ذلك لا يهمه في سبيل تحقيق هدفه الكبير.

واستجاب الله -تعالى- دعوة نبيه ﷺ، فصرف أنظار اليهود عن أبي اليَسَر، فلم يتعرض لنبالهم ومتَّع المسلمين بحياته حتى كان من آخر الصحابة رضي الله عنهم وفاة.

ولفتةٌ جليلة من أبي اليَسَر رضي الله عنه حينما بكى في آخر عمره على أن مُتِّع به أصحابه فماتوا قبله ولم يمتع بهم، وهذا مثل من نظرة الصحابة إلى الحياة الدنيا، فهم يخشون أن يتعرضوا للفتن، ثم يلحقهم في دينهم منها شيء؛ فلذلك كانوا يشتاقون إلى الآخرة ويغبطون إخوانهم الذين توفاهم الله قبل أن يتعرضوا للفتن.

خامسًا: مثل من قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم وطاعتهم لرسول الله ﷺ، وذلك حينما طبخوا تلك الحُمر الأهلية وكانوا في مسغبة شديدة وجوع منهك، ومع ذلك حينما سمعوا منادي رسول الله ﷺ ينهاهم عن أكل لحوم الحمر الإنسية كفوا القدور على الأرض ولم يطعموا منها شيئًا.

هؤلاء العظماء الذين نجحوا في جهاد أنفسهم وانتصروا على أهوائهم وشهواتهم هم الذين يعقد عليهم الأمل ويعتدُّ بهم في جهاد الأعداء وركوب المخاطر وتحمُّل الشدائد.

*****

فتح حصن قلعة الزبير

أخرج الواقدي بإسناده عن إسحاق بن عبد الله قال: وتحوَّلت اليهود من حصن ناعم كلها، ومن حصن الصعب بن معاذ، ومن كل حصون النَّطاة، إلى حصن يقال له: قلعة الزبير، فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون، فحاصروهم، وغلَّقوا عليهم حصنهم وهو حَصين منيع، وإنما هو في رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال؛ لصعوبته وامتناعه، وبقيت بقايا لا ذكْر لهم في بعض حصون النَّطاة؛ الرجل والرجلان، فجعل رسول الله ﷺ بإزائهم رجالاً يحرسونهم، لا يطلع أحدٌ عليهم إلا قتلوه.

وأقام رسول الله ﷺ على محاصرة الذين في قلعة الزبير ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود يقال له: غزَّال، فقال: أبا القاسم، تُؤمِّنِّي على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النَّطاة وتخرج إلى أهل الشِّق، فإن أهل الشق قد هلكوا رعبًا منك؟ قال: فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله، فقال اليهوديُّ: إنك لو أقمت شهرًا ما بَالَوا، لهم دُبُولٌ[1] تحت الأرض، يخرجون بالليل فيشربون بها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، وإن قطعت مشْرَبهم عليهم ضجُّوا.

فسار رسول الله ﷺ إلى دُبولهم فقطعها، فلما قطع عليهم مشاربهم لم يطيقوا المقام على العطش، فخرجوا فقاتلوا أشدَّ القتال، وقُتل من المسلمين يومئذ نفرٌ، وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة، وافتتحه رسول الله ﷺ، فكان آخر حصون النَّطاة.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من النَّطاة أمر بالانتقال، والعسكر أن يُحوَّل من منزله بالرَّجيع إلى مكانه الأول بالمنزلة، وأمن رسولُ الله ﷺ من البيات ومن حرب اليهود وما يخافُ منهم؛ لأن أهل النطاة كانوا أحدَّ اليهود وأهلَ النَّجدة منهم، ثم تحوَّل رسول الله ﷺ إلى أهل الشِّق[2].

في هذا الخبر عبرة عظيمة؛ وذلك فيما قام به ذلك اليهودي من الدلالة على عورة قومه؛ فهو من جهة نصر من الله -تعالى- لنبيه ﷺ وأوليائه المؤمنين، فإن ذلك الحصن

---

(١) الدُّبول، جمع دبل، وهو جدول الماء.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٦٦، ٦٦٧ .

الذي في رأس الجبل من الصعب جدًّا الوصول إليه؛ لأن المهاجم الذي سيضطر إلى الصعود البطيء سيكون أكثر عرضة لنبال العدو، مع أنه لا يستطيع الصعود إلا عددٌ قليل مجتمعين، وهذا يجعل فتح ذلك الحصن في غاية الصعوبة إلا بعمل كبير من الفدائية، ومن جهة أخرى فإن هذا التصرف من ذلك اليهودي يدل على تفككٍ مجتمع اليهود وعدم إخلاص الأتباع للقادة، خصوصًا وقد حصل ذلك من غير واحد في أخبار أخرى؛ وذلك لكون قادة اليهود يزعمون بأنهم يُطبِّقون التوراة، بينما يجد الأَتباع أنهم يفسرونها حسب هواهم، ومن ذلك ما جاء فيها من الأوامر الصريحة بالإيمان بمحمد ﷺ وما جاء فيها من صفاته التي يعرفها حتى صغارهم بما يسمعون من علمائهم، وما ورثوه من وصايا علمائهم بالدخول في الإسلام وسبْق الناس إلى الإيمان برسول الله ﷺ، بل أشد من ذلك بالنسبة لهم ما جاء فيها بأنهم سيُبتلون بالقتل والتشريد على يد رسول الله ﷺ، ومع ذلك يُصرون على الكفر به ومعاداته وتأليب العرب على قتاله.

فشيوع هذه الأخبار في مجتمع اليهود تجعل الأتباع مترددين بين الخوف من مصيرهم الذي سُطِّر في كتبهم وبين طاعة قادتهم، إضافةً إلى ما يرونه من التناقض الظاهر بين ادعاء تطبيق التوراة وأعمال قادتهم الكثيرة المخالفة لذلك.

*****

فتح حصن أبَي

قال الواقدي: فحدثني موسى بن عمر الحارثي، عن أبي عُفير محمد بن سهل بن أبي حثمة قال: لما تحوَّل رسول الله ﷺ إلى الشِّق وبه حصونٌ ذات عدد، كان أول حصن بدأ منها حصن أُبي، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها: سُمران، فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً، وخرج رجل من اليهود يقال له: غزَّال، فدعا إلى البراز، فبرز له الحُباب بن المنذر فاختلفا ضربات، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليَمنى من نصف الذراع، فوقع السيف من يد غزَّالٍ فكان أعزل، ورجع مبادراً منهزمًا إلى الحصن، وتبعه الحُباب فقطع عُرقوبه، فوقع فذَفَّف عليه.

وخرج آخر فصاح: مَن يبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين من آل جَحش فَقُتل الجَحشيُّ، وقام مكانه يدعو إلى البراز ويبرز له أبو دُجانة قد عصَّب رأسه بعُصابة حمراء فوق المغْفر يختال في مشيته، فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجليه، ثم ذفَّف عليه وأخذ سلبه؛ درعه وسيفه، فجاء به إلى النبي ﷺ فنفَّله رسولُ الله ﷺ ذلك.

وأحجموا عن البراز، فكبَّر المسلمون، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه، يقدمهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثًا ومتاعًا وغنمًا وطعامًا، وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحموا الجُدُر كأنهم الظِّباءُ حتى صاروا إلى حصن النِّزار بالشق(١).

في هذا الخبر مواقف منها:

أولاً: موقفان لعَلميْن من أعلام المسلمين في الشجاعة والإقدام، وهما: الحُباب بن المنذر، وأبو دجانة؛ سماك بن خرشة -رضي الله عنهما-؛ حيث تصدَّى كل واحد منهما لمبارز من اليهود فقضى عليه، وكان لذلك أثرٌ في وهن الأعداء.

*****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٦٧، ٦٦٨.

فتح حصون الكتيبة والوطيح والسُّلالم

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه قالوا: ثم تحوَّل رسول الله ﷺ إلى الكتيبة والوطيح وسُلالم، حصن ابن أبي الحُقيق الذي كانوا فيه، فتحصَّنوا أشدَّ التحصُّن، وجاءهم كلُّ فلٍّ كان قد انهزم من النَّطاة والشِّق، فتحصنوا معهم في القَموص وهو في الكتيبة، وكان حصنًا منيعًا، وفي الوطيح وسُلالم، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم مُغلِّقين عليهم، حتى همَّ رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم؛ لما رأى من تغليقهم، وأنه لا يبرز منهم بارز، فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسولُ الله ﷺ أربعة عشر يومًا سألوا رسول الله ﷺ الصُّلح.

قال أبو عبد الله، قلت لإبراهيم بن جعفر: وُجد في الكتيبة خمسمائة قوس عربية، وقال: أخبرني أبي عمَّن رأى كنانة بن أبي الحُقيق يرمي بثلاثة أسهم في ثلثمائة -يعني ذراع- فيُدخلها في هدف شبرًا في شبر، فما هو إلا أن قيل: هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشقِّ في أصحابه، وقد تهيأ أهلُ القموص وقاموا على باب الحصن بالنبل، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يُوترَها من الرِّعْدة، وأومأ إلى أهل الحصون: لا ترموا! وانقمع في حصنه، فما رُئي منهم أحد، حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، فأرسلَ كنانة رجلاً من اليهود يقال له: شمَّاخ إلى النبي ﷺ يقول: أنزلُ إليك أكلِّمك! فلما نزل شماخ أخذه المسلمون، فأُتي به النبي ﷺ فأخبره برسالة كنانة، فأنعم له، فنزل كنانة في نفر من اليهود، فصالحه على ما صالحه، فأحلفه عليه.

قال إبراهيم: تلك القسيُّ والسلاح إنما كان لآل أبي الحُقَيق جماعة يعيرونه العرب، والحلي يُعيرونه العرب، ثم يقول: كانوا شرَّ يهود يثرب.

قالوا: وأرسل كنانة بن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: أنزلُ فأُكلمك؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: فنزل ابن أبي الحُقيق، فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء مَن في حصونهم من المقاتِلة، وترك الذُّرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها

بذراريِّهم، ويُخلُّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال، أو أرض، وعلى الصفراء والبيضاء والكُراع والحلقة، وعلى البزِّ، إلا ثوبًا على ظهر إنسان، فقال رسول الله ﷺ: «وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئًا»، فصالحه على ذلك[1].

في هذا الخبر عبرة واضحة في نصر رسول الله ﷺ والمؤمنين بالرعب، فابن أبي الحُقيق اليهودي الذي كان مشهوراً بالجودة في الرماية وإصابة الهدف من بُعد لَمَّا سمع بمجيء النبي ﷺ لحصار حصنه ملأ الرعب قلبه حتى أصبح لا يستطيع أن يمسك بالنبل.

وهذا مثلٌ واضح على أن الله -تعالى- مع أوليائه بنصره وتأييده إذا كانوا معه بالعبادة والتوكل والاستعانة.

*****

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٧٠، ٦٧١.

مثل من تواضع رسول الله ﷺ
(خبره مع صفية بنت حيي)

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سَبْرَة، عن أبي حَرْملة، عن أخته أم عبد الله، عن ابنة أبي القَين المُزني، قالت: كنت آلفُ صفية من بين أزواج النبي ﷺ، وكانت تحدِّثني عن قومها وما كانت تسمع منهم.

قالت: خرجنا من المدينة؛ حيث أجلانا رسول الله ﷺ فأقمنا بخيبر، فتزوجني كنانة بن أبي الحُقيق، فأعرس بي قبل قدوم رسول الله ﷺ، بأيام، وذَبح جُزُرًا ودعا باليهود، وحوَّلني في حصنه بسُلالم، فرأيت في النوم كأن قمرًا أقبل من يثرب يسير حتى وقع في حجري، فذكرت ذلك لكنانة زوجي فلَطَم عيني فاخضرَّت، فنظر إليها رسول الله ﷺ حين دخلتُ عليه فسألني فأخبرته.

قالت: وجعلت اليهود ذراريَّها في الكتيبة، وجردوا حصن النَّطاة للمقاتلة، فلمَّا نزل رسول الله ﷺ خيبر وافتتح حصون النَّطاة، ودخل عليَّ كنانةُ فقال: قد فرغ محمد من النطاة، وليس ها هنا أحد يقاتل، قد قُتلت اليهود حيث قُتل أهل النطاة وكذبتْنا العرب، فحوَّلني إلى حصن النزار بالشق، -قال: وهو أحصن مما عندنا- فخرج حتى أدخلني وابنة عمي ونُسيَّات معنا، فسار رسول الله ﷺ إلينا قبل الكتيبة فسُبيتُ في النِّزار قبل أن ينتهي النبي ﷺ إلى الكتيبة، فأرسل بي إلى رحْله، ثم جاءنا حين أمسى فدعاني، فجئت وأنا مُقنَّعة حيية، فجلست بين يديه فقال: «إن أقمت على دينك لم أُكرهك، وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك»، قالت: أختارُ الله ورسوله والإسلام.

فأعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني وجعل عتقي مهري، فلما أراد أن يخرج إلى المدينة قال أصحابه: اليوم نعلم أزوجةٌ أم سُرِّية[1]، فإن كانت امرأته فسيحجبها وإلا فهي سُرِّية، فلما خرج أمر بستْر فستُرتُ به فعُرف أني زوجة، ثم قَدَّم إليَّ البعير وقدَّم فخذَه؛ لأضعَ رجلي عليها، فأعظمتُ ذلك ووضعتُ فخذي على فخذه[2]، ثم ركبتُ.

---

(١) أي جارية مملوكة.

(٢) لعل الصواب: ووضعت ركبتي على فخذه.

وكنت أَلقَى من أزواجه، يفخرن عليَّ يقلن: يا بنت اليهودي، وكنت أرى رسول الله ﷺ يلْطُف بي ويكرمني، فدخل عليَّ يومًا وأنا أبكي، فقال: «مالك؟»، فقلت: أزواجك يفخرن عليَّ ويقلن: يا بنت اليهودي، قالت: فرأيت رسولَ الله ﷺ قد غضب، ثم قال: «إذا قالوا لك أو فاخروك فقولي: أبي هارونُ وعمِّي موسى»(١).

في هذا الخبر مواقف وعبر؛ منها:

أولاً: في الرؤيا التي رأتها صفية بنت حيي -رضي الله عنها- عبرةٌ، فقد فهمها زوجها السابق كنانة بن أبي الحقيق، فتشاءم من ذلك ولطم عينها تلك اللطمة الشرسة التي بقيت آثارها حتى جاءت إلى النبي ﷺ، وكانت بالنسبة لها ممهِّدة لتقبُّل ما سيجري عليها من السبي، ثم بُشْرى خير لها بأن النبي ﷺ سيتزوج بها.

ثانيًا: في هذا الخبر مثل عظيم من تواضع النبي ﷺ؛ حيث قدَّم فخذه؛ لتطأ عليها صفية حينما أرادت أن تركب البعير.

إن هذا التواضع الكبير لَيُخضع جميع العقلاء لاحترام رسول الله ﷺ وإكباره والإعجاب بعظمته.

امرأة من نسائه كانت مملوكة فأعتقها وكان أبوها حيي بن أخطب عدوه اللدود الذي ألَّب قبائل العرب ضده، وزوجها ابن أبي الحُقيق هو الذي تولى بعد ابن أخطب تأليب الأعداء عليه، ومع ذلك كله يضع رسول الله ﷺ فخذه لصفية؛ لتتوصل بها إلى ركوب البعير!!

إن تواضع العظماء للمستذَلِّين يُعتبر دليلاً على عظمتهم؛ لأنهم لا يرجون من هؤلاء الضعفاء أيَّ مطمع دنيوي؛ من مال أو جاه، لكن التواضع للجبارين المستكبرين علامة ضعف واستخذاء ما لم يكن هناك ملمح دعوي خاص.

ولئن كان رسول الله ﷺ عظيمًا في بشريته، فلقد تكلَّل بهاءً وعظمة وسموًّا في رسالته، فأصبح قمة لا تُسامى في التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وقدوة عليا للبشرية في التمثل بمكارم الأخلاق والبعد عن مساوئها.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٧٤، ٦٧٥، وأخرج الطبراني خبر رؤيا صفية -رضي الله عنها- ذكره الهيثمي، وقال: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٩/ ٢٥١.

وإننا حينما نقارن بين هذا السلوك الجميل العالي من رسول الله ﷺ وبين ما جرى على صفية من زوجها ابن أبي الحُقيق الذي كان زعيم قومه نجد فرقًا شاسعًا بين أخلاق الإسلام السامية التي مثَّلها سيد البشر ﷺ وبين أخلاق الجاهلية التي مثلها كنانة بن أبي الحقيق اليهودي.

ولقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي كبيرة القدر، عظيمة الأخلاق حينما أعظمت هذا الأمر، وأبت أن تضع قدمها على فخذ النبي ﷺ.

*****

قوة الإيمان

(خبر الأعرابي المجاهد)

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني من حديث شداد بن الهادي أن رجلاً من الأعراب جاء النبي ﷺ فآمن به، واتَّبعه، فقال: أهاجر معك، وأوصى النبي ﷺ به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر -أو حنين- غنم رسول الله ﷺ، فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى[1] ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قسمٌ قسمه الله لك ورسول الله ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا محمد؟ «قال: قسمٌ قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمَى ها هنا -وأشار إلى حلقه- بسهم، فأدخُل الجنة، قال: «إن تصدُق الله يصدقك»، قال: فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدوِّ، فأُتي به يُحمل، قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «أهو هو؟ صدق الله فصدقه»، فكفَّنه النبي ﷺ في جبة للنبي ﷺ، ثم قدَّمه النبي ﷺ، فصلَّى عليه، فكان مما ظهر من صلاته عليه: «اللهم هذا عبدك، خرج مهاجراً في سبيلك، فقُتل شهيداً، أنا عليه شهيد»[2].

في هذا الخبر مثل من قوة الإيمان الذي ترقَّى بصاحبه حتى أوصله في وقت سريع إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الشهادة في سبيل الله تعالى، شوقًا إلى دخول الجنة.

وهكذا يفعل الإيمان فعله السريع في النفوس المتجردة من هوى النفس، فيكون الجسد مسخَّرًا للعقل السليم الذي أدرك أن الحياة الحقيقية التي تستحق أن يعمل لها العقلاء هي الحياة الآخرة، فيتجه المسلم عند ذلك إلى تأمين القدر الضروري للنجاة من النار ودخول الجنة، ألا وهو أداء الواجبات واجتناب المحرمات، وعندها يبلغ درجة التقوى، ولكن حينما يسمو الإيمان وتعلو المدارك لا يقتنع المسلم بأن يكون من المتقين فقط، بل يريد أن يكون من السابقين بالخيرات فيسابق في باب النوافل الذي هو مرتع الصالحين.

ونجد صاحب هذا الخبر قد سابق إلى عمل من أزكى الأعمال الصالحة؛ حيث بلغ طموحه إلى الشهادة في سبيل الله -تعالى-، فأظفره الله بها، وظفر بدعوة النبي ﷺ والشهادة له.

---

(١) يعني: إبلهم.

(٢) مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٢٧٦، رقم: ٧٥٩٧، وأخرجه الإمام النسائي، سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب: الصلاة على الشهداء: ٤/ ٦٠.

مواقف وعبر

ما بين خيبر ومؤتة

فتح فدك وموقف لمحيّصة بن مسعود
وموقف آخر لعبد الله بن رواحة

١- أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا: لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها، بعث مُحيِّصة بن مسعود إلى فدك[١] يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم أن يغزوهم كما غزَا أهل خيبر ويحل بساحتهم.

قال محيِّصةُ: جئتهم فأقمت عندهم يومين، وجعلوا يتربصون ويقولون: بالنَّطاة عامر، وياسر وأُسَير، والحارث وسيد اليهود مَرْحب، ما نرى محمداً يقرب حَراهم[٢]، إنَّ بها عشرة آلاف مقاتل، قال محيصة: فلما رأيت خبثهم أردت أرحل راجعًا، فقالوا: نحن نرسل معك رجالاً يأخذون لنا الصُّلح -ويظنون أنَّ اليهود تمتنع، فلم يزالوا كذلك حتى جاءهم قتل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم، ففتَّ ذلك أعضادهم وقالوا لمحيصة: اكتم عنَّا ما قلنا لك ولك هذا الحَلْي! -لحَلْي نسائهم، جمعوه كثيرًا-، فقال محيصة: بل أُخبر رسول الله ﷺ بالذي سمعتُ منكم، فأخبر النبي ﷺ بما قالوا.

قال مُحيصة: وقدم معي رجلٌ من رؤسائهم يقال له: نُون بن يوشع، في نفر من اليهود، صالحوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويُجليهم ويُخلُّوا بينه وبين الأموال، ففعل، ويقال: عرضوا على النبي ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبي ﷺ عليهم من الأموال شيءٌ، وإذا كان جُذاذها جاؤوا فجذّوها، فأبى النبي ﷺ أن يقبل ذلك، وقال لهم محيصة: ما لكم منعة ولا رجال ولا حصون، لو بعث رسول الله ﷺ إليكم مائة رجل لساقوكم إليه، فوقع الصُّلح بينهم: أنَّ لهم نصف الأرض بتربتها، ولرسول الله ﷺ نصفها، فقبل رسول الله ﷺ ذلك، وهذا أثبت القولين[٣].

في هذا الخبر موقف جليل لمحيصة بن مسعود الأنصاري رضى الله عنه؛ وذلك في امتناعه عن أخذ الرِّشوة التي قدمها له يهود فدك في مقابل أن يكتم عن رسول الله ﷺ

(١)بينها وبين المدينة يومان، معجم البلدان: ٦/ ٣٤٢.
(٢) الحرا: جناب الرجل، يقال: اذهب فلا أراك بحراي، النهاية: ١/ ٢٢٢.
(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٠٦، ٧٠٧.

ما قالوه له، وقد أبى أن يحقق لهم مطلبهم ورفض قبول الرشوة، مع أنه فرد واحد وقد كانوا في حال حرب وقد استعزَّ يهود فدك بيهود خيبر، وأظهروا لمحيصة أن المسلمين لن يستطيعوا القضاء على أبطال اليهود المشهورين، كل ذلك يجعل في الأمر احتمال أن يعتدوا على محيصة بالقتل، ومع ذلك لم يبال بهم وأعلن لهم أنه لن يكتم عن رسول الله ﷺ مقالتهم، وهذا يدل على شجاعته، إضافة إلى ورعه واستقامته.

٢- قال الواقدي في سياق روايته: وكان رسول الله ﷺ لما فتح خيبر سأله اليهود فقالوا: يا محمد، نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها، فساقاهم[١] رسول الله ﷺ خيبر على شطر من التمر والزرع، وكان يُزرع تحت النخل، فقال رسول الله ﷺ: «أقركم على ما أقركم الله»، فكانوا على عهد رسول الله ﷺ حتى تُوفي، وأبي بكر، وصدر من خلافة عمر، وكان يبعث عبد الله بن رواحة يخرُص عليهم النخل، فكان يخرصها، فإذا خرص قال: إن شئتم فلكم وتضمنون نصف ما خرصتُ، وإن شئتم فلنا ونضمن لكم ما خرصتُ، وإنه خرص عليهم أربعين ألف وسق، فجمعوا له حليًّا من حلي نسائهم، فقالوا: هذا لك، وتجاوزْ في القَسْم، فقال: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليَّ، وما ذاك يحملني أن أحيفَ عليكم، قالوا: بهذا قامت السموات والأرض[٢].

في هذا الخبر موقف جليل لعبد الله بن رواحة رضى الله عنه في الورع والعدل، فقد عرض عليه اليهود الرشوة من أجل أن يخون الأمانة؛ وذلك بأن يزيد في نصيبهم من التمر عند الخرص، فأبى أن يأخذ منهم ما عرضوا عليه، وبيَّن لهم أن العدل يقتضي منه أن يعطيهم حقهم كاملاً وإن كانوا أبغض خلق الله إليه، فاعترفوا بحكم الحق والعدل، وقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

إن تقديم هذا الطلب والطلب السابق من اليهود دليل على عدم تصورهم لما ينتجه الدين الصحيح من تصحيح للفكر وتقويم للسلوك؛ ذلك لأن دينهم المحرَّف لا أثر له في سلوكهم، ولو أنهم عقلوا ودرسوا دين الإسلام دراسة دقيقة وسَبَروا حياة الصحابة رضى الله عنهم لعرفوا أن تحقيق هذا المطلب بعيد المنال منهم.

---

(١) أي: اتفق معهم على سقي النخل والزرع وإصلاح ذلك ولهم في مقابل ذلك نصف الإنتاج.
(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٩٠، ٦٩١.

إن الذين قطعوا حبال الصلة مع كل أحلافهم في الجاهلية مع ما يترتب على ذلك من ضرر مادي . . وإن الذين قابلوا في الميدان الحربي أصدقاءهم وحلفاءهم بل أقاربهم .

وإن الذين باعوا أنفسهم لله -تعالى- وطلبوا الموت في مظانِّه رغبة في الشهادة في سبيل الله جل وعلا.

وإن الذين سهروا الليالي يناجون الله -تعالى- وكابدوا ظمأ الهواجر تقرُّبًا إليه جلا وعلا .

إن هؤلاء العظماء لا يتصور عاقل أن نفوسهم ستضعف حتى يأخذوا الرشوة ويخونوا الأمانة .

لقد كانت أخلاق الإسلام وأمور الحلال والحرام مطبقة عند هؤلاء الصفوة من قبل أن يرتفعوا إلى مستوى الجهاد الاختياري الذي يتنافسون على الاشتراك فيه ، ويتسابقون إلى المواطن الفدائية في ملاحمه .

*****

فتح وادي القرى وتيماء

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه:

فلما أتى رسول الله ﷺ الصَّهباء سلك على برمة حتى انتهى إلى وادي القُري يريد مَن بها من اليهود، وكان أبو هريرة يحدِّث قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من خَيبر إلى وادي القرى، وكان رفاعة بن زيد بن وهب الجُذامي قد وهب لرسول الله ﷺ عبداً أسود يقال له: مَدْعم، وكان يُرحِّل لرسول الله ﷺ، فلما نزلوا بوادي القرى انتهينا إلى اليهود وقد ضوى إليها أناسٌ من العرب، فبينا مدْعَم يحُطُّ رحل النبي ﷺ، وقد استقبلتنا اليهود بالرمي حيث نزلنا، ولم نكن على تَعبية وهم يصيحون في آطامهم، فيُقبل سهم عائرٌ[1] فأصاب مَدْعمًا فقتله، فقال الناس: هنيئًا لك الجنة! فقال رسول الله: «**كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم يُصبها المقْسم تشتعل عليه نارًا**»، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك[2]، أو بشراكين، فقال النبي ﷺ: «**شراك من نار!**»، أو «**شراكان من نار**».

وعبَّى رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفَّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عُبادة، وrايةً إلى الحُباب بن المُنذر، ورايةً إلى سهل بن حنيف، ورايةً إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم: إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابُهم على الله، فبرز رجلٌ منهم وبرز إليه الزُّبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز له عليٌّ عليه السلام فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله، حتى قتل رسول الله ﷺ منهم أحدَ عشر رجلاً، كلما قُتل رجلٌ دعا من بقي إلى الإسلام، ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلي رسول الله ﷺ بأصحابه، ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا وغَدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رُمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنَّمه الله أموالهم وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القُرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها، فلما بلغ يهودَ تيماءَ ما

(١) أي: لا يدري من هو راميه.

(٢) الشراك: أحد سيور النعل التي تكون على وجهها.

وطيءَ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم[1].

في هذا الخبر مواقف وعبر، فمن ذلك:

أولاً: قول النبي ﷺ في «مَدْعم»: «والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم يصبها المقسم تشتعل عليه نارًا»، فيه عبرةٌ للمعتبرين، فليس المطلب الوحيد لدخول الجنة أن يُقتل المسلم على يد الأعداء، وإنما قبل ذلك لا بد من الاستقامة على أمور الدين، فلا بد من التقوى، وهي: أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المحرمات، وقد يكفِّر الله -تعالى- بالشهادة وغيرها من الأعمال الصالحة صغائر الذنوب؛ كما في قول الله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ [النساء: ٣١]، وقول الرسول ﷺ: «**الصلواتُ الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفِّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[2]، لكن الذنوب التي لها علاقة بحقوق الناس لا يكفرها إلا إعادة الحقوق لأصحابها مع التوبة النصوح.

ولقد استفاد من هذه العبرة أحد الصحابة، وكان قد أخذ من مغانم خيبر سيورًا من الجلد وضعها شراكًا أو شراكين لنعله، وكان قد استهان بها، فلما سمع كلام النبي ﷺ أتى بها، فلم يستهن بها النبي ﷺ، بل أفاد بأنها على حقارتها تُوصل صاحبها إلى النار، وفي هذا لَموعظة بليغة في احترام حقوق المسلمين وعدم التهاون بشيء منها.

ثانيًا: في هذا الخبر مواقف جهادية في مجال المبارزة لكلٍّ من الزبير بن العوام، وعلي بن أبي طالب، وأبي دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهم، وهؤلاء الثلاثة من الذين تتكرر مواقفهم في المبارزة في مواقف عديدة، فكم أدخلوا على إخوانهم المسلمين من السرور بانتصارهم على أقرانهم! وكم أدخلوا من الغمِّ واليأس على أعدائهم المحاربين!

*****

(١) مغازي الواقدي: ٩/ ٧٠٩- ٧١١، وأخرج خبر مَدْعم الإمامان البخاري ومسلم، صحيح البخاري، رقم: ٤٢٣٤، كتاب المغازي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم: ١١٥.

(٢)صحيح مسلم، الطهارة، رقم: ٢٣٣ ص: ٢٠٩.

مثل من سماحة النبي ﷺ وإعزاز دولة الإسلام
(سرية إلى رعْية السُّحيمي)

أخرج الإمام أحمد بإسناده إلى الشعبي عن رعْية السحيمي قال: كتب إليه رسول الله ﷺ في أديم أحمر، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فرقع به دلوه، فبعث رسول الله سريةً فلم يَدَعوا له رائحة ولا سارحة ولا أهلاً ومالاً إلا أخذوه، وانفلت عرياناً على فرس له ليس عليه سترة، حتى ينتهي إلي ابنته وهي متزوجة في بني هلال، وقد أسلمت وأسلم أهلها، وكان مجلس القوم بفناء بيتها، فدار حتى دخل عليها من وراء البيت، قال: فلما رأته ألقت عليه ثوبًا، قالت: مالك؟ قال: كل الشرِّ نزل بأبيك، ما تُرك له رائحة ولا سارحة ولا أهل ولا مال إلا وقد أُخذ، قالت: دُعيتَ إلى الإسلام؟ قال: أين بعلك؟ قالت: في الإبل، قال: فأتاه فقال: مالك؟ قال: كلُّ الشرِّ قد نزل به ما تُركت له رائحةٌ ولا سارحة ولا أهل ولا مال إلا وقد أُخذ، وأنا أريد محمداً أبادره قبل أن يقسم أهلي ومالي، قال: فخذ راحلتي برحلها، قال: لا حاجة لي فيها، قال: فأخذ قعود الراعي وزوَّده إداوة من ماء، إلى أن قال: حتى انتهى إلى المدينة فعقل راحلته، ثم أتى رسول الله ﷺ فكان بحذائه حيث يصلي، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر قال: يا رسول الله، ابسط يدك فلأُبايعك، فبسطها، فلما أراد أن يضرب عليها قبضها إليه رسول الله ﷺ، قال: ففعل النبي ﷺ ذلك ثلاثًا قبضها إليه ويفعله(1).

فلما كانت الثالثة قال: «من أنت؟» قال: رعْية السُّحيمي، قال: فتناول رسول الله ﷺ عضدة ثم رفعه، ثم قال: «يا معشر المسلَمين، هذا رعية السُّحيمي الذي كتبت إليه، فأخذ كتابي فرقع به دلوه»، فأخذ يتضرع إليه يقولَ: قلت: يا رسول الله أهلي ومالي، قال: «أما مالك فقد قسم، وأما أهلك فمن قدرت عليه منهم»(2)، فخرج فإذا ابنه قد عرف الراحلة وهو قائم عندها، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا ابني، فقال: «يا بلال، اخرج معه فسله: أبوك هذا؟ فإن قال نعم فادفعه إليه»، فخرج بلال

---

(1) يعني: أنه يريد أن يضرب على يد رسول الله ﷺ للبيعة.
(2) يعني: فخذه.

إليه، فقال: أبوك هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما رأيت أحدًا استعبر إلى صاحبه، فقال: «ذاك جفاء الأعراب»[1].

في هذا الخبر موقفان لرسول الله ﷺ:

أولهما: ما قام به من إعزاز الإسلام؛ وذلك حينما أرسل هذه السرية؛ لتأديب رعية السحيمي الذي استهان بالإسلام وبرسول الله ﷺ.

وهكذا فإن بعض الناس تهيمن عليهم النخوة الجاهلية، ويعتزون بما لديهم من مال وبنين وحلفاء، فيغلب عليهم الكبر وتقسو قلوبهم، فلا يكون فيها متسع لتَفَهُّم المبادئ السامية، وإنما تغلب عليهم المنافع الدنيوية وحماية الجاه والموروثات الجاهلية، فهؤلاء لا يجدي معهم الخطاب باللِّين والحسنى، ولكن لا بد من تبليغ الدعوة أولاً، وهذا ما فعله النبي ﷺ حينما كتب إلى رِعْية السحيمي، فحينما استهان هذا الرجل بهذا الكتاب فرقع به دلوه كان لا بد من تلقينَه درسًا يكون عبرة له ولكل من سمع به، فأرسل إليه النبي ﷺ تلك السرية التي جعلته وماله وأهله وداره كأمس الذاهب، ولم ينج أحد غيره وهو على أسوأ حال.

ثانيهما: مثل من سماحة النبي ﷺ وعفوه عند المقدرة؛ فهذا الرجل قد ارتكب جريمة كبرى في حقِّه ﷺ، ولو أنه فعل هذا الفعل الشنيع بكتاب زعيم دنيوي ثم ظفر به لجعل على كل شجرة من لحمة قطعة، لكن النبي ﷺ عفا عنه مع القدرة عليه، والعفو عند المقدرة خُلق عظيم لا يوهب إلا لعظماء الرجال، والنبي ﷺ قد حاز الكمال في كل مكارم الأخلاق.

*****

---

(١) المسند: ٥/ ٢٨٥، ٢٨٦.

وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه أحمد بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح وهو هذا، مجمع الزوائد: ٦/ ٢٠٥.

سريتان إلى فروع من قبيلة هوازن

١- أخرج الواقدي من حديث سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وأمَّره علينا، فبَيَّتنا ناسًا من هوازن، فقتلتُ بيدي سبعة أهل أبيات، وكان شعارنا: أمتْ أمتْ[١].

٢- قال الواقدي: حدثنا أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبي بكر بن عمر بن عبد الرحمن، قال: بعث رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً إلى عجُز[٢]، هَوازن بتُربة[٣]، فخرج عمر رضي الله عنه ومعه دليلٌ من بني هلال، فكانوا يسيرون الليل ويكمُنون النهار، وأتى الخبرُ هوازن فهربوا، وجاء عمر محالَّهم فلم يلق منهم أحدًا، وانصرف راجعًا إلى المدينة حتى سلك النجدية، فلما كان بالجدر قال الهلالي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: هل لك في جمع آخر تركته من خَثْعم، جاءوا سائرين قد أجدبت بلادهم؟ فقال عمر: لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم، إنما أمرني أصمد لقتال هوازن بتُربة، فانصرف عمر راجعًا إلى المدينة.

وذكر الواقدي أنها في شهر شعبان سنة سبع من الهجرة[٤].

في هذين الخبرين مواقف؛ منها:

أولاً: في خروج هذه السرايا الصغيرة إلى هذه المناطق البعيدة مغامرة جريئة، خصوصًا وأنهم سيمرون في مناطق ما تزال تحت سلطان أعدائهم، وإن مجرد الإقدام على غزو هذه المناطق البعيدة يُعتبر تضحية كبيرة وشجاعة عالية، ولقد شرُفتْ هاتان السريتان بقيادة خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- وحصل في سرية أبي بكر قتال ظفر فيه المسلمون، أما في سرية عمر فلم يحصل قتال؛ حيث هرب الأعداء من ديارهم، وهذه نتيجة كافية في إرهاب العدو، وقد كانت هوازن

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٢٢

(٢) عجز هوازن: هم بنو نصر بن معاوية، وبنو جشم بن بكر.

(٣) تربة: تقع جنوب شرق الطائف، وهي الآن بلدة معروفة.

(٤) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٢٢.

أظهرت العداء للمسلمين إلى أن تم القضاء على تجمعهم الكبير في حنين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: موقف لعمر رضي الله عنه في طاعة أمر النبي ﷺ وعدم التقدم عليه؛ وذلك حينما أشار الدليل عليه بغزو قبيلة أخرى قد رحلت من ديارها فأبى عليه وقال: «لم يأمرني النبي ﷺ بهم»، وهذا مثل من الانضباط ولزوم النظام القائم في دولة الإسلام آنذاك، وهو الذي يتمثل بتخطيط النبي ﷺ وتوجيهه وإدارته.

***

سريتا بشير بن سعد وغالب الليثي إلى بني مُرَّة بفدك

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن الحارث بن الفُضيل، عن أبيه، قال: بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مُرَّة بفدك، فخرج، فلقي رعاءَ الشاء فسأل: أين الناس؟ فقالوا: هم في بَواديهم، والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء، فاستاق النَّعَم والشاء وعاد مُنحدرًا إلى المدينة، فخرج الصَّريخ فأخبرهم فأدركه الدَّهْم منهم عند الليل[1] فباتوا يرامونهم بالنبل حتى فنيتْ نبلُ أصحاب بشير وأصبحوا وحمل المُرِّيون عليهم فأصابوا أصحاب بشير وولَّى منهم من ولى، وقاتل بشير قتالاً شديدًا حتى ضُرب كعبُه، وقيل: قد مات، ورجعوا بنَعَمهم وشائهم، وكان أول من قدم بخبر السرية ومصابها عُلْبَة بن زيد الحارثي، وأمهل بشير بن سعد وهو في القتلى، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك، فأقام عند يهودي بفدك أيامًا حتى ارتفع من الجراح، ثم رجع إلى المدينة[2].

وهيأ رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، فقال: «سرْ حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير، فإن ظفَّرك الله بهم فلا تُبق فيهم»، وهيَّأ معه مائتي رجل وعقد له اللواء، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد ظفره الله عليهم، فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام: «اجلس!» وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل، فخرج أسامة بن زيد في السرية حتى انتهى إلى مُصاب بشير وأصحابه، وخرج معه عُلْبَه بن زيد.

قال الواقدي: حدثني أفلح بن سعيد، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد، قال: كان مع غالب عُقبة بن عمرو أبو مسعود، وكعب بن عُجرة، وأسامة بن زيد، وعلبة بن زيد، فلما دنا غالب منهم بعث الطلائع، فبعث علبةَ بن زيد في عشرة ينظر إلى جماعة محَالِّهم، حتى أوفى على جماعة منهم، ثم رجع إلى غالب فأخبره، فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً، وقد اجتلبوا وعطَّنوا[3] وهدؤوا، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تعصوني ولا تخالفوا لي أمرًا، فإنه لا رأي لمن لا يطاع،

---

(١) الدّهم: العدد الكثير.

(٢) ذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة تسع.

(٣) أي: سقوا الإبل، ثم أناخوها وحبسوها عند الماء، لسان العرب: ٧/ ١٥٨ .

ثم ألَّف بينهم فقال: يا فلان أنت وفلان، يا فلان أنت وفلان -لا يفارق كلٌّ رجل زميله- وإياكم أن يرجع إليَّ أحدكم فأقول: أين فلان صاحبك؟ فيقول: لا أدري، وإذا كبَّرت فكبِّروا، قال: فكبَّر وكبَّروا، وأخرجوا السيوف، قال: فأحطنا بالحاضر وفي الحاضر نعَمٌ وقد عطَّنوا مواشيهم، فخرج إلينا الرجال فقاتلوا ساعةً، فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ونحن نصيح بشعارنا: أمتْ أمتْ[1].

في هذين الخبرين مواقف؛ منها:

أولاً: ما أصاب سرية بشير بن سعد من القتل والجراح؛ حيث هجم عليهم عدد كثير لا طاقة لهم به ومع ذلك ثبتوا لهم حتى قُتل أكثرهم وخرَّ قائدهم صريعًا وتركوه وهم يظنون أنه في الموتى.

وهذا يبين لنا أنه ليس كل المعارك الحربية تكون لصالح المسلمين، بل أحيانًا يُستأصل أكثرهم كما في هذه المعركة، ومع ذلك فإنهم صابرون محتسبون، ولم يمنعهم ما جرى في هذه المعركة من العودة إلى الجهاد، بل كانوا أشد حماسًا وأقوى عزيمة، وهذه صفة من يجاهد للآخرة؛ لأنه قد حصَّل ما يريد من الأجر؛ سواء كانت له أو عليه.

ثانيًا: ما قام به النبي ﷺ من إعداد سرية أخرى؛ لتأديب بني مرة وإعزاز دولة الإسلام، وقد قام أصحاب هذه السرية بمسؤوليتهم بقيادة غالب بن عبد الله الليثي الذي اشتهر بالحزم والحكمة وحسن الإدارة، فأوقعوا ببني مرة وقتلوا منهم عددًا كبيرًا.

وهكذا كان النبي ﷺ يهتم بإعزاز المسلمين وإظهارهم بمظهر القوة حتى لا يرام جنابهم ولا يستهان بأمرهم، ومن آثار هذه العزة أن بشير بن سعد قائد السرية الأولى لما تحامل على نفسه وانسحب من مكان المعركة ولجأ إلى رجل من اليهود في فدَك لم يتعرض له أحد من اليهود حتى شفاه الله -تعالى- ورجع إلى المدينة بالرغم من أن المسلمين قد غزوا ديار اليهود في خيبر وفدك وفي المدينة قبل ذلك؛ وذلك لأنهم يعلمون أن وراءه الأسُود الأشاوس بقيادة النبي ﷺ وأنهم لو قتلوه لأرسل إليهم النبي ﷺ من يهدم عليهم دارهم ويفني رجالهم.

*****

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٢٣، ٧٢٤.

سرية غالب الليثي إلى الميفعة[1]

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر، عن ابن أبي عَوْن، عن يعقوب بن عتبة، قال: لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة الكُدْر أقام أيامًا ما شاء الله أن يقيم، فقال له يسار مولاه: يا رسول الله، إني قد علمت غرةً من بني عبد بن ثعلبة، فأرْسل معي إليهم، فأرسل معه النبي ﷺ غالب بن عبد الله في مائة وثلاثين رجلاً.

خرج بهم يسار، فظعن بهم في غير الطريق حتى فنيت أزوادهم وجهدوا، واقتسموا التمر عدداً، فبينما القوم ذات ليلة بعدما ساء ظنُّهم بيسار، وظن القوم أن إسلامه لم يصح، وقد انتهوا إلى مكان قد فحصه السيل، فلما رآه يسار كبَّر قال: والله قد ظفرتم بحاجتكم، اسلكوا في هذا الفحْص حتى ينقطع بكم، فسار القوم فيه ساعة بحسٍّ خفيٍّ لا يتكلمون إلا همسًا حتى انتهوا إلى ضرْس[2] من الحرَّة، فقال يسار لأصحابه: لو صاح رجلٌ شديد الصوت لأسمع القوم، فارتؤوا رأيكم!

قال غالب: انطلقْ بنا يا يسار أنا وأنت، وندع القوم كمينًا، ففعلا، فخرجنا حتى إذا كانا من القوم بمنظر العين سمعا حسَّ الناس والرِّعاء والحُلُب، فرجعا سريعين فانتهيا إلى أصحابهما، فأقبلوا جميعًا حتى إذا كانوا من الحيِّ قريبًا، وقد وعظهم أميرهم غالب ورغَّبهم في الجهاد، ونهاهم عن الإمعان في الطلب، وألَّف بينهم وقال: إذا كبرتُ فكبِّروا، فكبَّر وكبَّروا جميعًا معه، ووقعوا وسط محالِّهم فاستاقوا نعمًا وشاءً، وقتلوا من أشرف لهم، وصادفوهم تلك الليلة على ماء يقال له: الميفعة، قال: واستاقوا النَّعم، فحدروه إلى المدينة، ولم يُسمع أنهم جاؤوا بأسرى[3].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: فيه صورة مما لقيه الصحابة رضي الله عنهم من الشدة والجوع في جهاد الأعداء، فقد فني زاد هؤلاء القوم حتى صاروا يقتسمون التمر بالعدد، وهي صورة

---

(١) الميفعة: وراء بطن نخل إلى النقرة بناحية نجد، بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد، الطبقات: ٢/ ٨٦.

(٢) الضرس: الأكمة، الصحاح: ٩٣٩.

(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٢٦، ٧٢٧.

تتكرر كما سبق لنا، وهذا يدل على قوة احتمال الصحابة وصبرهم الجميل واحتسابهم الأجر عند الله تعالى.

ثانيًا: موقف جهادي نبيل لقائد هذه السرية غالب بن عبد الله الليثي؛ حيث ذهب بنفسه طليعة لأصحابه مع الدليل، والطلائع دائمًا فدائيون؛ لاحتمال أن يشعر بهم العدو فيفتك بهم قبل أن يصلوا إلى أصحابهم.

*****

سرية بشير بن سعد إلى الجناب

قال الواقدي: حدثني يحيى بن عبد العزيز، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد، قال: قدم رجلٌ من أشجع يقال له: حسيل بن نويرة، وقد كان دليل النبي ﷺ إلى خيبر، فقال له رسول الله ﷺ: «من أين يا حسيل؟» قال: قدمتُ من الجناب[1]، فقال رسول الله ﷺ: «ما وراءك»، قال: تركت جمعًا من غطفان بالجناب، قد بعث إليهم عيينة يقول لهم: إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن سرْ إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعًا، وهم يريدونك أو بعض أطرافك، قال: فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر -رضوان الله عليهما- فذكر لهما ذلك، فقالا جميعًا: ابعث بشير بن سعد، فدعا رسول الله ﷺ بشيراً فعقد له لواء، وبعث معه ثلاثمائة رجل، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار.

وخرج معهم حُسَيل بن نُوَيرة دليلاً، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا أسفل خيبر فنزلوا بسلاح[2]، ثم خرجوا من سلاح حتى دنوا من القوم، فقال لهم الدليل: بينكم وبين القوم ثُلُثا نهار أو نصفه، فإن أحببتم كمنتم وخرجتُ طليعةً لكم حتى آتيكم بالخبر، وإن أحببتم سرنا جميعًا، قالوا: بل نُقدِّمك، فقدَّموه، فغاب عنهم ساعةً ثم كرَّ عليهم فقال: هذا أوائل سرْحهم، فهل لكم أن تغيروا عليهم؟ فاختلف أصحاب النبي ﷺ، فقال بعضهم: إن أغرنا الآن حذرَنا الرجالُ والعطَن[3]، وقال آخرون: نغنم ما ظهر لنا ثم نطلب القوم، فشجعوا على النَّعَم، فأصابوا نعمًا كثيراً ملؤوا منه أيديهم، وتفرَّق الرعاء وخرجوا سراعًا، ثم حذروا الجمع فتفرق الجمع وحذروا، ولحقوا بعلياء بلادهم.

فخرج بشير بأصحابه حتى أتى محالَّهم فيجدها وليس بها أحد، فرجع بالنعم حتى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عينًا لعُيينة فقتلوه، ثم لقوا جمع عُيَينة، وعيينة لا يشعر

---

(١) الجناب: من أرض غطفان، وذكره أيضًا الحازمي، وقال: من بلاد فزارة، عيون الأثر: ٢/ ١٤٨.

(٢) سلاح: موضع أسفل من خيبر، معجم البلدان: ٥/ ١٠١، ويقال له أيضًا: سلاج بالجيم، وفاء الوفاء: ٢/ ٣٢٣.

(٣) المراد بالعطن هنا: النساء، لسان العرب: ١٣/ ٢٨٧.

بهم فناوشوهم، ثم انكشف جمع عيينة وتبعهم أصحاب النبي ﷺ فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسرًا، فقدموا بها على النبي ﷺ فأسلما، فأرسلهما النبي ﷺ[1].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: في اتفاق أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- على تأمير بشير بن سعد رضى الله عنه دلالة على تفوقه في المجال القيادي والإداري، وقد كانت السمة الظاهرة في ذلك العصر وضع الرجل المناسب في المكان المناسب من غير نظر إلى شهرته ومكانته الاجتماعية، وإنما الذي كان يُلاحظ هو إمكانية نجاحه في العمل الذي يتم توجيهه إليه بأعلى قدر ممكن؛ فلذلك كتب النجاح لكل الأعمال التي وجهها رسول الله ﷺ.

ثانيًا: حصل المسلمون من المكاسب في هذه الغزوة على قدر كبير؛ وذلك أنهم فرقوا جمع غطفان الأول الذي سيجتمع معه عيينة بن حصن، ثم يغيرون على المدينة، ثم فرقوا جمعهم الثاني الذي كان بقيادة عيينة، فبذلك فشلت خطتهم في الاجتماع لغزو المدينة، إضافة إلى ما غنمه المسلمون من أموال القوم، وفي ذلك إضعاف لهم عن الإقدام على حرب المسلمين.

*****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٢٧، ٧٢٨، وذكر الواقدي أنها كانت سنة سبع.

عمرة القضاء

قال ابن إسحاق: فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر، أقام بها شهري ربيع وجمادَيَيْن ورجبا وشعبان، ورمضان وشوالا، يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه ﷺ، ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صدَّه فيه المشركون معتمراً عُمرة القضاء، مكان عمرته التي صدوه عنها[1].

وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه فى عمرته تلك، وهي سنة سبع، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عُسرة وجهد وشدة.

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن ابن عباس، قال: صفُّوا له عند دار الندوة؛ لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجدَ اضطبع بردائه، وأخرج عضُده اليمني، ثم قال: «رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوَّةً»، ثم استلم الرُّكن، وخرج يُهرول ويُهرول أصحابه معه، حتى إذا واراهُ البيت منهم، واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قُريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حجَّ حجَّة الوداع فلزمها فمضت السنة بها.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة في تلك العمرة دخلها وعبدُ الله بن رواحة آخذٌ بخطام ناقته يقول:

خلُّوا بني الكفَّار عن سبيله ... خلُّو فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمنٌ بقيله ... أعرفُ حقَّ الله في قبُوله

ثم ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاثة أيام، وأن المشركين أرسلوا إليه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا.

---

(١) قال ابن هشام: واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الدِّيلي.

ثم ذكر انصراف النبي ﷺ إلى المدينة في شهر ذي الحجة[1].

وأخرج الإمام البخاري خبر عمرة القضاء مختصراً في عدة روايات، وقد زاد في رواية البراء بن عازب -رضي الله عنهما- قوله: فخرج النبي ﷺ، فتبعته ابنةُ حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها عليٌّ، فأخذ بيدها وقال لفاطمة -عليها السلام-: دُونك ابنة عمك حمِّليها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفرٌ، قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيدٌ: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**»، وقال لعلي: «**أنت مني وأنا منك**»، وقال لجعفر: «**أشبهت خَلقي وخُلقي**»، وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**»، وقال عليٌّ: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: «**إنها ابنة أخي من الرضاعة**».

وجاء في رواية ابن عباس -رضي الله عنهما-: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم، وقد وَهَنَتْهم حُمَّى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم»[2].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: في تصرف النبي ﷺ الذي واجه به دعايات الأعداء المغرضة حينما وصفوا المسلمين بالضعف؛ حيث أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يجْروا مسرعين في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، وقال في ذلك: «**رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة**».

وهذا التصرف الحكيم يبين لنا أهمية الحفاظ على سمعة المسلمين المعنوية والمادية؛ لأن شعور الأعداء الثابت بقوة المسلمين يجعلهم يعيشون دائمًا في رعب من المسلمين، فإذا فكَّروا في غزوهم ترددوا في ذلك كثيراً، وإذا عزموا وغزوهم ضعفوا أمامهم ولم يثبتوا عند لقائهم.

وقد أراد زعماء الأعداء أن ينتهزوا هذه الفرصة؛ ليرسِّخوا في أذهان أتباعهم ضعف المسلمين ففوَّت عليهم رسول الله ﷺ هذه الفرصة حينما أمر أصحابه بسرعة السير في الطواف.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٩٧- ٥٠١.

(٢) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٢٥١- ٤٢٥٩، ٧/ ٤٩٩ - ٥٠٩.

ثانيًا: في الخبر الأخير بيان اختصام على بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة في بنت حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنهم أجمعين-، وهو مثل من التنافس على فعل الخير، فكل واحد منهم يريد أن يكفلها؛ لينال بذلك أجر كفالة اليتيم، وكل واحد منهم أدلى بما يُسوِّغ أحقيته في ذلك، فعليٌّ وجعفر ابنا عمها ولكنْ يزيدُ جعفر في كونِ خالتها زوجته، ويحتج عليٌّ أيضًا بكونه سبق إلى أخذها، وزيد يذكر أنها ابنة أخيه وكان النبي ﷺ قد آخى بينه وبين حمزة، ولكن النبي ﷺ في حكمه بينهم قد نظر إلى مصلحة البنت فقضى بها لخالتها وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**»، ثم إنه ﷺ من كمال خلقه وعظمة مشاعره أراد أن يطيب قلوب هؤلاء الصفوة الذين تنافسوا على الخير، فذكر منقبة لكل واحد منهم؛ حيث قال لعلي: «**أنت مني وأنا منك**»، وقال لجعفر: «**أشبهت خَلقي وخُلقي**»، وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**»، فما أعدله ﷺ حاكمًا! وما أعظمه مربيًا!!

*****

إسلام عمرو بن العاص

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب ابن أبي أوس الثقفي، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي قال: حدثني عمرو بن العاص منْ فيه، قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعتُ رجالاً من قُريش كانوا يرون رَأيي، ويسمعون مني، فقلت: لهم: تعلموا -والله- إني أرى أمرَ محمد يعلو الأمور علوًا منكرًا، وإني قد رأيت أمرًا، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومُنا فنحن مَن قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا لَرأيٌ، قلت: فاجمعوا لنا ما نهْديه له، وكان أحبَّ ما يُهدي إليه من أرضنا الأدَم(١)، فجمعنا له أدَمًا كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده إذ جاءَه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلتُ على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسولَ محمد.

قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقي، أهديت إليَّ من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدَمًا كثيراً، قال: ثم قرَّبته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوٍّ لنا، فأعطنيه؛ لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننتُ أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقًا منه: ثم قلت له: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر(٢) الذي كان يأتي موسى؛ لتقتله؟! قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحقِّ، وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى

(١) يعني: الجلد.

(٢) يعني: جبريل عليه السلام.

على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام قال نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمتُ أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ؛ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سُليمان؟ قال: والله لقد استقام المَنْسم(١)، وإن الرجل لنبيٌّ، أذهبُ -والله- فأُسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم، قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ، فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها»، قال: فبايعته، ثم انصرفت(٢).

وذكره الحافظ الهيثمي بمثل رواية ابن إسحاق، وقال: رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: حدثني عمرو بن العاص مِن فيه إلى أذني، ورجالهما ثقات(٣).

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه، وأضاف في إحدى رواياته أن ذلك كان لهلال شهر صفر سنة ثمان(٤).

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: موقف للنجاشي -رحمه الله تعالى- حينما غضب لرسول الله ﷺ غضبًا شديداً بلغ منه أنه ضرب أنفه تلك الضربة المنكرة، وهذا دليل على قوة إيمانه بالإسلام، وقد أتبع الإنكار العملي بالإنكار القولي؛ حيث قال: أتسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر؛ لتقتله؟

وكان لقوة إنكار النجاشي القولي والعملي أثر على عمرو بن العاص رضى الله عنه؛ حيث أزال من نفسه الشك في نبوة رسول الله ﷺ، ثم لما رأى النجاشي زوال الشك عن عمرو بادر إلى دعوته إلى الإسلام فأسلم على يديه، ونال بذلك النجاشي أجراً عظيمًا؛ حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش.

---

(١) هذا مثلٌ يُضرب لظهور الأمر ووضوحه؛ بحيث لم يبق فيه لبس ولا شك.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٥١- ٣٥٤.

(٣) مجمع الزوائد: ٩/ ٣٥٠، ٣٥١.

(٤) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٤١- ٧٤٥.

لقد كان عمرو بن العاص من دُهاة العرب وحكمائهم، ولقد أدرك بثاقب بصره أن دينًا يعرف أحقيته العجم البعيدون عن موطن الرسالة، الغرباء عن لغة هذا الدين لا ينبغي لمثله أن يجهله.

ثانيًا: سهولة إسلام عمرو وسرعة استجابته لَمَّا تبين له الحق، وهذا دليل على تجرد قلبه من الهوى المنحرف، فحينما عرف طريق الحق سار فيه، ولو كان صاحب هوىً لظل على هواه حتى مع معرفة الحق.

لقد كان إسلام عمرو بن العاص نصرًا كبيرًا للإسلام والمسلمين، فلقد سخَّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيرة؛ لأنهم كانوا يعدونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير، وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين.

*****

إسلام خالد بن الوليد

أخرج الواقدي من حديث يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن هشام قال: سمعت أبي يُحدث يقول: قال خالد بن الوليد: لَمَّا أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حُبَّ الإسلام، وحضرني رُشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء وأنَّ محمداً سيظهر.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسفان، فقمتُ بإزائه وتعرَّضت له، فصلَّى بأصحابه الظهر آمنًا منَّا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يُعزم لنا -وكانت فيه خيرةٌ- فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منِّي موقعًا، وقلت: الرجل ممنوع! وافترقنا وعدل عن سنَنَ خيلنا وأخذ ذات اليمين.

فلما صالح قريشًا بالحُديبية ودافعته قُريشٌ بالرَّواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعًا، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القَضية، فتغيبتُ فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عُمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَّ كتابًا فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلُك عَقْلُك! ومثل الإسلام جهلَه أحدٌ؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك، فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به، فقال: «ما مثله جَهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً لَه، ولقدَّمْناه على غيره»، فاستدركْ يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطنُ صالحة.

قال: فلما جاءني كتابه نشطتُ للخروج، وزادني رغبةً في الإسلام وسرَّني مقالةُ رسول الله ﷺ، قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إنَّ هذه لرؤيا، فلما قدمتُ المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر،

قال: فذكرتُها، فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك.

فلما أجمعتُ الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: مَن أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيتُ صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أَكَلَةُ رأس[1]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإنَّ شرفَ محمد لنا شرفٌ، فأبى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبدًا، فافترقنا وقلت: هذا رجلٌ موتور يطلب وترًا، قد قُتل أبوه وأخوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطو ما ذكرتُ لك، قال: لا أذكره.

وخرجتُ إلى منزلي فأمرت براحلتي تُخرج إليّ، فخرجتُ بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة، فقلت: إنَّ هذا لي لصديقٌ، ولو ذكرتُ له ما أريد! ثم ذكرتُ من قُتل من آبائه فكرهت أُذكِّره، ثم قلت: وما عليَّ وأنا راحلٌ من ساعتي، فذكرتُ له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحر، لو صُبَّ عليه ذنوب[2] من ماء لخرج، قال: وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبيه، فأسرع الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفخٍّ مناخةٌ.

قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأَجَج؛ إن سبقني أقام وإن سبقته أقمتُ عليه، قال: فادَّلجنا سحَرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها، فقال: مرحبًا بالقوم! فقلنا، وبك! قال: أين مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ، قال: وذلك الذي أقدمني.

قال: فاصطحبْنا جمعيًا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرَّة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسُر بنا، فلبستُ من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي، فقال: أسرعْ فإن رسول الله ﷺ قد أُخبر بك فسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعتُ المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسَّم إليَّ حتى وقفتُ عليه،

---

(١) أي: هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل، الصحاح: ١٦٢٤.

(٢) الذنوب: الدلو العظيمة، النهاية: ٢/ ٥١.

فسلَّمت عليه بالنبوة فرد عليَّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «الحمد لله الذي هداك! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت ألا يُسلمك إلا إلى الخير»، قلت: يا رسول الله، قد رأيتَ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن عليك مُعاندًا عن الحق فادع الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجُبُّ ما كان قبله»، قلت: يا رسول الله، على ذلك؟ فقال: «اللهم اغفر لخالد كلَّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك»، قال خالد: وتقدَّم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله ﷺ.

وكان قدومنا في صَفر سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حَزَبه[1].

في هذا الخبر مواقف وعبر؛ منها:

أولاً: في قول خالد عن المواطن التي شهدها ضد الإسلام: «وأنا أرى في نفسي أني مُوضعٌ في غير شيء»، في قوله هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام، فقد كان يحارب المسلمين وهو يعلم في قرارة نفسه أنهم سيظهرون بقيادة رسول الله ﷺ، فهذا الشعور في نفسه يعدُّ مظهرًا من مظاهر الانهزام الداخلي الذي يكون لدى بعض النفوس التي لديها قبول للخير، ولكنها تعيش تحت ضغوط قوية تمنعها من قبوله.. وفي ذلك كبت للطاقات وإهدار للكفاءات؛ حيث يُرغم الإنسان نفسه على الدخول في أمور لا يؤمن بها ولا يتحمس لها الحماس الكافي لبذل الجهد، فيُعطي في الدفاع قليلاً من طاقته، ويَبقى معطلاً لا يُستفاد منه كثيرًا، ونستطيع أن ندرك هذا بالمقارنة بين ما أنتجه خالد في مجاله الذي برز فيه وهو القيادة الحربية في السنوات التي سبقت إسلامه وبين إنتاجه في السنوات التي تلت إسلامه، وسنجد أن نسبة نجاحه قبل الإسلام ضئيلة جدًا.

ثانيًا: لما أراد النبي ﷺ دعوة خالد بن الوليد إلى الإسلام على يد أخيه الوليد أثنى عليه بقوله: «**ما مثله جهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له ولقدَّمناه على غيره**»، لقد وصف رسول الله ﷺ خالدًا بسداد الرأي ورجاحة العقل، وتعجَّب كيف يجهل الإسلام من وهبه الله -تعالى- مثل هذا العقل والرأي، ثم وعد أخاه بأنه لو أسلم لكان له شأن ولقدمه على غيره.

(1) مغازي الواقدي: 2/ 745 - 749.

لقد كان لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحوُّل قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام، ولقد كان رسول الله ﷺ مُوفقًا كل التوفيق في فهم توجهات النفوس ومواطن قيادها، فلقد أدرك حب خالد للزعامة والقيادة، فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المجال، إلى جانب الإشادة بفكره وعقله.

لقد انتزع النبي ﷺ بهذه الكلمات كل الجواذب التي تجعل خالدًا يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعًا به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادة وتصدُّر، فلما كان ما هيأه له المشركون سيحصل له إذا دخل في الإسلام، واطمأن بأنه لو أسلم فلن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملاً، شجَّعه ذلك على قطع وساوس الشيطان ورجح ما أطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على الدخول فيه.

وهكذا كسب المسلمون إلى صفِّهم زعيمًا كبيرًا من زعماء مكة وعلمًا من أعلامها، وكتب الله -تعالى- على يديه صفحات بيضاء من تاريخ المسلمين الجهادي في أواخر حياة النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر وأول عهد عمر رضي الله عنهما.

ولقد كان إسلام خالد مع إسلام عمرو بن العاص أعظم خذلان واجهه المشركون في مكة، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ لَمَّا جاءه البشير يبشره بإسلامهما: «لقد أعطت مكة المقادة بعد هذين».

*****

سرية غالب الليثي إلى بني الملوَّح

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالى- : وكان من حديثها أن يعقوب بن عُتبة بن المغيرة بن الأخنس حدثني عن مسلم بن عبد الله بن خُبيب الجُهني[١]، عن جندب بن مكيث الجُهني، قال: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي، كلب بن عوف بن ليث، في سرية كنت فيها، وأمره أن يَشنَّ الغارة على بني المُلوَّح، وهم بالكديد، فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن مالك، وهو ابن البرْصاء الليثي، فأخذناه، فقال: إني جئت أريد الإسلام، ما خرجت إلا إلى رسول الله ﷺ، فقلنا له: إن تك مسلمًا فلن يَضيرك رباطُ ليلة، وإن تك على غير ذلك كنا قد استوثقنا منك، فشددناه رباطًا، ثم خلفنا عليه رجلاً من أصحابنا أسود، وقلنا له: إن عازَّك فاحتزَّ رأسه.

قال: ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس، فكنَّا في ناحية الوادي، وبعثني أصحابي ربيئة لهم[٢]، فخرجت حتى آتى تلاً مشرفًا على الحاضر[٣]، فأسندتُ فيه، فعلوتُ في رأسه، فنظرت إلى الحاضر، فوالله إني لمنبطح على التل؛ إذ خرج رجل منهم من خبائه، فقال لامرأته: إني لأرى على التل سوادًا[٤]، ما رأيته في أوَّل يومي، فانظري إلى أوْعيتك هل تفقدين منها شيئًا، لا تكون الكلاب جرَّتْ بعضها[٥]، قال: فنظرَتْ، فقالت: لا والله ما أفقد شيئًا، قال: فناوليني قوسي وسهمين، فناولتْه، قال: فأرسل سهمًا، فوالله ما أخطأ جنبي، فأنزعُه، فأضعه، وثبتُّ مكاني، قال: ثم أرسل الآخر، فوضعه في منكبي، فأنزعُه فأضعه، وثبتُّ مكاني، فقال لامرأته: لو كان ربيئة لقوم لقد تحرَّك، لقد خالطه سهماي، لا أبالك إذا أصبحت فابتغيهما، فخذيهما لا يمْضُغهما عليَّ الكلاب، قال: ثم دخل.

قال: وأمْهلناهم، حتى إذا اطمأنوا وناموا، وكان في وجه السَّحر، شننَّا عليهم الغارة، قال: فقتلنا، واستقْنا النَّعم، وخرج صريخ القوم، فجاءنا دَهْم[٦]، لا قبل لنا

(١) في المطبوع زيادة: «عن المنذر»، وهو خطأ، والتصويب من رواية الإمام أحمد.
(٢) يعني: طليعة لهم؛ ليعرف خبر العدو.
(٣) أي: مكان إقامة القوم.
(٤) أي: شخصًا.
(٥) يعني: ظن أن الذي فوق التل وعاء من أوعيتهم.
(٦) أي: عدد كثير.

به، ومضينا بالنعم، ومرَرنا بابن البرصاء وصاحبه، فاحتملناهما معنا، قال: وأدركَنا القوم حتى قربوا منا، قال: فما بيننا وبينهم إلا وادي قُدَيد، فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى، ومن غير سحابة نراها ولا مطر، فجاء بشيء ليس لأحد به قوة، ولا يقدر على أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا، وإنا لنسوق نَعَمَهم، ما يستطيع منهم رجل أن يُجيز إلينا ونحن نَحْدُرها سراعًا، حتى فُتْناهم، فلم يقدروا على طلبنا.

قال: فقدمنا بها على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وحدثني رجل من أسْلم، عن رجل منهم: أنَّ شعار أصحاب رسول الله ﷺ كان تلك الليلة: أمتْ أمتْ، فقال راجز من المسلمين وهو يحدوها:

أبَى أبو القاسم أن تَعَزَّبي[1] في خَضلٍ نباتُه مُغْلوْلب[2][3]

وأخرجه الواقدي بإسناد ابن إسحاق وذكر نحوه، وجاء في آخره: فما أنسى رجز أميرنا غالب:

أبَى أبو القاسم أن تعزَّبي وذاك قولُ صادق لم يكذب
في خَضل نباته مُغْلولب صُفْرٌ أعاليه كلَوْن المُذهبَ

وذكر في رواية عن حمزة بن عمر الأسلمي قال: كنت معهم، وكنَّا بضعة عشر رجلاً[4]:

وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر نحوه[5].

وذكره الحافظ الهيثمي وقال: عند أبي داود طرف من أوله، رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات، فقد صرح ابنُ إسحاق بالسماع في رواية الطبراني[6].

في هذا الخبر مواقف وعبر؛ منها:

أولاً: فيما قام به جندب بن مكيث الجُهني في مُهمة الاستطلاع لأصحابه، فحافظ محافظة تامة على الاستخفاء حتى أدى مهمته بنجاح.

(١) أي: تقيمي في المرعى.
(٢) الخضل: النبات الأخضر المبتل، المُغلولب: الكثير الذي يغلب الماشية حين ترعاه.
(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٦٨- ٣٧٠.
(٤) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٥٠، ٧٥١.
(٥) الفتح الرباني: ٢١/ ١٢٨.
(٦) مجمع الزوائد: ٦/ ٢٠٢.

ونقف قليلاً؛ لنتأمل هذا الموقف الرائع الذي تجلَّت فيه مظاهر الفداء والتضحية؛ حيث قدَّم هذا الصحابي الجليل مصلحة الجماعة على مصلحته الفردية، فقد تحمل وقع السهام في جسده وهو صابر محتسب مع وجود الاحتمال القوي لذهاب نفسه في أحد هذه السهام فيما لو أصاب مَقتلاً. . تحمَّل ذلك كله من أجل ألا يدُلَّ بتحركه على وجود جماعته، الأمر الذي يؤدي غالبًا إلى فشل ما قصدوا إليه؛ حيث سيأخذ الأعداء احتياطهم الكامل، ولربما فاجؤوا المسلمين على غرَّة فأوقعوا بهم، فتحمل الأذى ساعة من أجل هذه المصالح الكبيرة، وهذا نموذج عالَ لا تبلغه الإنسانية -غالبًا- بغير الإسلام، بينما هو متوافر بكثرة لدى المسلمين وخاصة في عصور الرُّقي الديني كما في عصر الصحابة رضي الله عنهم.

وإننا إذا بحثنا عن السبب الدافع لهذه التضحية البالغة وذوبان الذات الفردية في روح الجماعة نجد أن ذلك نابع من الوزن الصحيح والتقويم الدقيق لمنزلة الدنيا ومنزلة الآخرة، فكلما عظمت الحياة الدنيا في عين الإنسان كان ميَّالاً إلى الأنانية واعتبار الذَّات، وتتفاوت درجات ذلك بمقدار اهتمام الإنسان الدنيوي، وكلما عظمت الآخرة في عين الإنسان كلما كان أقرب إلى اعتبار الجماعة وتناسي المنافع الذاتية.

ثانيًا: في هذا الخبر عبرةٌ للمعتبرين، فلقد أنقذ الله -تعالى- أولياءه المؤمنين المجاهدين في سبيله من هلاك متوقع؛ حيث تجمع الأعداء عليهم وأتوهم بجمعٍ لا طاقة لهم به، فأجرى الله - عز وجل - السيل في الوادي بشكل مفاجئ؛ حيثُ لا مطر حولهم ولا أي حال من مقدمات المطر وبسرعة منعت الأعداء من تجاوزه إليهم، فأصبح الأعداء ينظرون إلى المسلمين وأموالهم بأيديهم وهم عاجزون عن الوصول إليهم.

فهل يبقى بعد هذا لدى أي عاقلٍ متبصر في الأمور أدنى شك في أن الله -تعالى- مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده، وضِد أعدائه الكافرين ببعث جنوده التي لم يتوقعوها ولم يحسبوا لها حسابًا؟!

ولقد أثبت الله -تعالى- معيته لأوليائه المؤمنين، وأثبتها رسول الله ﷺ في آيات وأحاديثَ كثيرة، وإذا كان بعض المتشكّكين والحيارى لا يتأثرون بسماع هذه الأخبار، فما جوابهم عن مثل هذه الواقعة التي تجلت فيها منَّة الله -تعالى- على عباده المؤمنين، وتنزَّلت نقمته على أعدائه الكافرين؟!

سرية شجاع بن وهب إلى السِّيِّ

أخرج الواقدي من حديث عمر بن الحكم، قال: بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمعٍ من هوازن بالسِّيِّ، وأمره أن يُغير عليهم، فخرج، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبَّحهم وهم غارُّون، وقد أوعز إلى أصحابه قبل ذلك ألاَّ يُمعنوا في الطلب، فأصابوا نَعَمًا كثيرًا وشاءً، فاستاقوا ذلك كله حتى قدموا المدينة واقتسموا الغنيمة، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيرًا كل رجل، وعدلوا البعير بعشر من الغنم، وغابت السرية خمس عشرة ليلة.

وذكر الواقدي أن هذه السرية كانت في شهر ربيع الأول سنة ثمان[1].

هذه السرية تضاف إلى السرايا السابقة التي يقصد منها إرهاب قبيلة هوازن حتى لا تجتمع لحرب المسلمين، وقد نجح أصحاب هذه السرية في الاستخفاء مع طول الطريق، وتجاوزوا مناطق تحت سلطان الأعداء، حتى ظفروا ببغيتهم فأوقعوا بالأعداء، وتم المقصود من إرسال هذه السرية.

*****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٥٣، ٧٥٤.

سرية قطبة بن عامر إلى خثعم

أخرج الواقدي من حديث ابن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث قطبة بن عامر ابن حديدة في عشرين رجلاً إلى حيٍّ من خثعم بناحية تبالة[1]، وأمره أن يشُنَّ الغارة عليهم، وأن يسير الليل ويكمن النهار، وأمره أن يُغذَّ السير، فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها، قد غيَّبوا السلاح، فأخذوا على الفتق حتى انتهوا إلى بطن مسْجَب[2]، فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بالحاضر[3]، فقدمه قطبة فضرب عنقه، ثم أقاموا حتى كان ساعة من الليل، فخرج رجلٌ منهم طليعةً فيجد حاضر نَعَم، فيه النَّعم والشاء، فرجع إلى أصحابه فأخبرهم، فأقبل القوم يدبون دبيبًا يخافون الحَرَس، حتى انتهوا إلى الحاضر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثرت الجراح في الفريقين، وأصبحوا وجاء الخثعميون الدَّهْم[4]، فحال بينهم سيلٌ أتيٌّ[5]، فما قدر رجلٌ واحدٌ منهم يمضي حتى أتى قطبة على أهل الحاضر، فأقبل بالنعم والشاء والنساء إلى المدينة، فكان سهامهم أربعة أربعة، والبعير بعشرة من الغنم بعد أن أخرج الخمس، وكان في صفر سنة تسع[6].

كذلك فإن المقصود بهذه السرية إرهاب هذه القبيلة؛ حتى لا تجتمع مع القبائل المجاورة لحرب المسلمين، وقد نجح أصحاب السرية في الاستخفاء حتى تجاوزوا منطقة مكة والطائف إلى أن وصلوا إلى تبالة فأوقعوا بخصومهم وأضعفوهم ماديًا بما غنموا من أموالهم، وقد نجح أصحاب السرية في تحقيق الهدف من إرسالهم.

أما السيل الذي أتى من غير سحاب ولا مطر؛ لإنقاذ هذه السرية من جيش كبير لا طاقة لهم به فهو كرامة ساقها الله -جل وعلا- إلى أوليائه المؤمنين؛ لإخراجهم من ذلك الحرج الذي وقعوا فيه، وقد سبق الكلام مفصَّلاً عن موضوع مشابه لهذا الموضوع.

---

(١) وتقع جنوب شرق الطائف وهي معروفة اليوم.

(٢) موضعان جنوب الطائف. (٣) أي: بقومه الذين نزلوا على الماء.

(٤) أي: العدد الكثير.

(٥) أي: أتى من مكان بعيد ولم يكن حولهم مطر.

(٦) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٥٤، ٧٥٥.

مواقف وعبر

في

سرية مؤتة

سبب غزوة مؤتة

قال محمد بن عمر الواقدي -رحمه الله تعالى-: حدثني ربيعة بن عُثمان، عن عمر ابن الحكم، قال: بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عُمير الأزدي، ثم أحد بني لهب إلى ملك بُصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال: أين تُريد؟ قال: الشامَ، قال: لعلَّك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسولُ رسول الله ﷺ، فأمر به فأُوثق رباطًا، ثم قدَّمه فضرب عنقَه صبراً، ولم يُقتل لرسول اللهَ ﷺ غيره، فبلغ رسول الله ﷺ الخبرُ، فاشتد عليه، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرْف، ولم يُبيِّن رسول الله ﷺ الأمر.

فلمَّا صلى رسول الله ﷺ الظهر جلسَ وجلسَ أصحابُه، وجاء النُّعمان بن فُنحُص اليهودي، فوقف على رسول الله مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً، فليجعلوه عليهم**».

فقال النعمان بن فنحص: أبا القاسم، إن كنت نبيًّا فسمَّيتَ من سمَّيتَ قليلاً أو كثيرًا أُصيبوا جميعًا، إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا: إن أصيب فلان، فلو سمَّى مائة أصيبوا جميعًا، ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة: اعهدْ، فلا ترجع إلى محمد أبدًا إن كان نبيًّا! فقال زيد: فأشهد أنه نبي صادقٌ بارٌّ.

فلما أجمعوا المسير وقد عقد رسول الله ﷺ لهم اللواء ودفعه إلى زيد بن حارثة - لواء أبيض- مشى الناس إلى أمراء رسول الله ﷺ يُودِّعونهم ويدعون لهم، وجعل المسلمون يودِّعُ بعضهم بعضًا، والمسلمون ثلاثة آلاف، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم، وردَّكم صالحين غانمين(١).

تُبيِّن لنا رواية الواقدي أن سبب بعث سرية مؤتة ما جرى من أحد زعماء الغساسنة من إقدامه على قتل رسول رسول الله ﷺ بهذه الصورة الشنيعة؛ حيث ربطه ثم ضرب

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٥٥، ٧٥٦.

عنقه صبراً، وتبين الرواية أن هذا الأمر اشتد على رسول الله ﷺ، فندب الناس لغزو أهل الشام.

فهذه السرية تقع ضمن دائرة الغزوات والسرايا التي قَصد بها النبي ﷺ إعزاز الإسلام ودولته والانتقام من الأعداء الذين انتهكوا حرمة دولة الإسلام فاعتدوا على رجالها.

وإنه لموقفٌ كبير أن يبعث النبي ﷺ ثلاثة آلاف مجاهد في قتل رجل من رجال دولة الإسلام، وهذا يعني عزَّة المسلم وحرمته وكرامته في دار الإسلام.

*****

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزُّبير، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن أُصيب زيدٌ فجعفرُ بن أبي طالب على الناس، فإن أُصيب جعفرُ، فعبدُ الله بن رواحةَ على الناس».

فتجهز الناس ثم تهيَّؤوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودَّع الناسُ أمراءَ رسول الله ﷺ وسلَّموا عليهم، فلما وُدِّع عبدُ الله بن رواحة مع من وُدِّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا بن رواحةَ؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا ولا صَبَابة بكم، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾ [مريم: ٧١]، فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود، فقال المسلمون: صَحبكم الله ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنَّني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فرع تقذفُ الزَّبدَا[1]
أو طعنة بيَدَيْ حرَّان مُجهزةً ... بحربة تُنفذ الأحشاء والكبدا[2]
حتى يقُال إذا مرُّوا على جدثي[3] ... أرشده الله من غازٍ وقد رشدَا

قال ابن إسحاق: ثم إن القوم تهيؤوا للخروج، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودَّعه، ثم قال:

فثبَّت الله ما آتاك من حسَنٍ ... تَثبيتَ موسى ونصرًا كالذي نُصروا
إني تفرَّستُ فيك الخيرَ نافلةً ... الله يعلم أني ثابتُ البصر
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدرُ

(١) قوله: ذات فرع، يريد واسعة يسيل دمها، والزبد: أصله الرغوة التي تعلو السيل، وأراد به هنا ما يعلو الدم الذي ينبثق من الطعنة.
(٢) الحرَّان: الشديد العطش، المراد به المتعطش للقتل.
(٣) الجدث: القبر.

قال ابن هشام: أنشدني بعض أهل العلم بالشعر هذه الأبيات:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجهَ منه فقد أزْرى به القَدَرُ

فثبَّت الله ما آتاك من حسن ... في المرسلين ونصرًا كالذي نُصروا

إني تفرَّست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفتْ فيك الذي نظروا

يعني: المشركين، وهذه الأبيات في قصيدة له[1].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

ما كان من عبد الله بن رواحة رضى الله عنه حينما بكى لَمَّا تذكر قول الله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾، وقوله: فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود! وهو موقف من مواقف الخوف والخشية يدل على قوة تمثل الحياة الآخرة في فكر ابن رواحة وحضور قلبه مع أهوالها.

وقد ورد في معنى الآية ما رواه ابن أبي حاتم والطبري من حديث عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعًا الصراط، وورودهم: قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمرُّ مثل البرق، ومنهم من يمرُّ مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعَدْو الرجل، حتى إن آخرهم مرًا رجل نوره على موضع إبهام قدميه، يمر فيتكفَّأ به الصراط، والصراط دَحْض مزلة، عليه حسَك كحسك القتاد[2]، حافتاه ملائكة، معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس[3].

وقوله: «فمنهم من يمر كالبرق» إلخ، هو معنى قول الله تعالى: ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم: ٧٢]

*****

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٠٢- ٥٠٤، ورواه الإمام الطبراني من حديث عروة بن الزبير -رحمه الله- عن أبيه، وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله ثقات إلى عروة، مجمع الزوائد: ٦/ ١٥٧- ١٥٩.

(٢) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر، القاموس المحيط.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٤١.

خروج المسلمين ووصولهم ومشورتهم

قال ابن إسحاق: ثم خرج القومُ، وخرج رسول الله ﷺ؛ ليشيعهم حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم، قال عبد الله بن رواحة.

خَلَفَ السلامُ على امْرئ ودَّعته		في النَّخْل خيرَ مُشَيِّع وخليل

ثم مضوا حتى نزلوا مَعان، من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضمَّ إليهم من لخْم وجُذام والقَيْن وبَهْراء وبَليّ مائة ألف منهم، عليهم رجل من بَلي ثم أحدُ إرَاشة، يقال له: مالك بن زافلة، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مَعان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدوِّنا، فإمَّا أن يُمدَّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له.

قال: فشجع الناسَ عبدُ الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، قال: فقال الناس: قد -والله- صدق ابنُ رواحة، فمضى الناس، فقال عبد الله بن رواحة في مَحبسهم ذلك:

جَلَبْنا الخيلَ من أجأٍ وفَرْعٍ		تُغرُّ من الحشيش لها العُكُوم(١)

حَذَوْناها من الصَّوَّان سِبْتًا		أزلَّ كأنَّ صفحته أديمُ(٢)

أقامتْ ليلتين على مَعانٍ		فأعقب بعد فترتها جُمُومُ(٣)

---

(١) أجأ بفتح أوله وثانيه، وفي آخره همزة هو أحد جبلي طيء، والآخر يقال له سلمى، وفرع ويقال أيضًا فرغ بالغين المعجمة اسم موضع، وتغرّ يعني تطعم قليلاً قليلاً، والعكوم جمع عكم بكسر فسكون وهو ما يشد ويجمع به من ثوب ونحوه.

(٢) حذوناها: جعلنا لها أحذية وهي النعال، والصوان: الحجارة الملساء، والسبت بكسر السين: النعال التي تصنع من جلد مدبوغ، وأزل: يعني أملس، والأديم: الجلد.

(٣) معان: كسحاب اسم موضع بالأردن، والجموم: الاستراحة التي يعقبها النشاط والاستعداد للكرِّ.

فَــرُحْنا والجِــيــاد مُــســوَّمــات تَنَفَّسُ فى مناخــرها الســمُــومُ[1]
فـــلا وأبي مـــآبَ لـنأتينْـهـــا وإن كـــانت بهـــا عـــرب وروم
فـعــبَّــأنا أعنَّتــهــا فـجــاءت عــوابسَ والغُــبــارُ لهــا بَريم[2]
بذي لجَب كــأنَّ البــيض فــيــه إذا برزتْ قــوانسُــهــا النُّجُــوم[3]
فــراضــيــة المعــيــشــة طلَّقَــتْــهــا أسنَّتــهـــا فــتنكحُ أو تَئِــيمُ

قال ابن هشام: ويروى: «جلبنا الخيل من آجام قُرح»، وقوله: «فعبأنا أعنتها»، عن غير ابن اسحاق.

قال ابن إسحاق: ثم مضى الناسُ، فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن زيد بن أرقم، قال: كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حجْره، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حَقيبة رحْله، فوالله إنه ليسير ليلةً إذْ سمعته وهو ينشد أبياته هذه:

إذا أدَّيْـتَـني وحــــملت رَحْـلي مــســيــرةَ أربعٍ بعــدَ الحــســاء[4]
فـــشـــأنُك أنعُمٌ وخــــلاك ذمٌّ ولا أرجــعْ إلــى أهــل ورائــي[5]
وجـــاء المسلمـــون وغـــادَروني بأرض الشـام مُـشـتــهي الثَّــوَاء[6]
وردَّك كــلُّ ذي نـسـب قـــــريب إلى الرحـــمن مُنقطع الإخـــاء
هـنــالـك لا أبــالـي طـلـعَ بَـعْـل ولا نَخْـل أســـافلُهـــا وراء[7]

(١) مسومات: وهو من السَّوم بمعنى الرعي؛ أي مرسلات في المرعى، أو من السمة بمعني العلامة؛ أي معلمات.
(٢) الأعنة: جمع عنان بكسر العين وهو اللجام، ومعنى عبأنا: هيأنا، والبريم: يعني به الحزام.
(٣) بذي لجب: أي بجيش كبير له حركة وصوت، والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.
(٤) الخطاب في هذا البيت للناقة، الحساء هنا: جمع حسي بكسر فسكون وهو ماء يغور في الرمل إذا نقب عنه وجد.
(٥) قوله: «فشأنك أنعم وخلاك ذم»؛ أي قد أديت ما عليك، فلا عتب ولا لوم عليك، قوله: «ولا أرجع» بسكون العين مجزومًا على الدعاء يدعو على نفسه أن يُستشهد في هذه الغزوة فلا ينقلب بعدها إلى أهله.
(٦) الثواء: الإقامة، يقال: ثوى بالمكان يثوي ثواء: أقام.
(٧) البعل: هو الذي يشرب بعروقه من الأرض، ويقابله العذى: وهو الذي يشرب من ماء المطر، ورواء بكسر الراء هو الأخضر الناعم من أغصان الشجر وغيرها، واحده ريا أنثى الريان.

فلما سمعتهنَّ منه بكيتُ، قال: فخفقني بالدِّرَّة[1]، وقال: ما عليك يا لُكَع[2] أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شُعْبتي الرحل!

قال: ثم قال عبد الله بن رواحة في بعض سفره ذلك وهو يرتجز:

يا زيدُ زيدَ اليعْمَلات الذُّبَّل　　　تطاول الليلُ هُديت فانزل[3][4]

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: توقف القادة لمدة يومين؛ لإجراء المشورة مع أهل الرأي من المسلمين، والشورى بين القادة وأهل الرأي هي المنهج السديد الذي طبقه رسول الله ﷺ وعلَّمه أصحابه، فالقائد في الإسلام لا يستبدُّ بالرأي وحده، بل يجب عليه أن يستشير أهل الرأي والخبرة.

وقد رجع الجميع بعد هذه المشورة إلى رأي عبد الله بن رواحة الذي يقضي بالإقدام على قتال الأعداء، وإن كان عددُهم كبيراً.

وإذا نظرنا إلى عدد المسلمين الذي لا يزيد على ثلاثة آلاف وإلى عدد الكفار الذي يبلغ مائتي ألف تبيَّن لنا أن الأعداء ضِعْف المسلمين بأكثر من ستٍّ وستين مرة؛ ولهذا فإن الذين رأوا التوقف والكتابة لرسول الله ﷺ معذورون؛ لبعد النسبة بين الجيشين، وأن الدخول في حرب كهذه قد يُعدُّ مجازفة تضر بسمعة المسلمين.

ثانيًا: موقف عظيم لأولئك الصحابة؛ حيث عزموا على القتال لما شجعهم ابن رواحة وذكَّرهم بمطلب عزيز لديهم جميعًا، وهو الشهادة في سبيل الله -تعالى-، وقد لاح لهم موطن من مواطنها؛ حيث يفوقهم الأعداء عدداً بأكثر من ستٍّ وستين مرة، وحينما تذكروا هذا المطلب الكريم الذي حدده لهم عبد الله بن رواحة بقوله: «فإنما هي إحدى الحسنييْن؛ إما ظهور وإما شهادة»، انطَلقوا جميعًا ولم يتخلَّف منهم أحد عن الاستجابة، وهذا دليل واضح على قوة إيمانهم وصدق عزائمهم؛ إذ أن في واقعهم غير

---

(١) أي: ضربني بالسوط ضربًا خفيفًا.　　(٢) يعني: يا لئيم.

(٣) اليعملات: جمع يعملة، وهي الناقة السريعة الدؤوب في السير، والذبَّل: التي أضعفها طول السفر فهزلت وقلَّ لحمها.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٠٤-٥٠٧، وهو بقية حديث عروة السابق، انظر: ١١٠.

المتكافئ مع الأعداء ما يُسوغ تراجعهم عن قتالهم، ولو كان الجيش يضم مستويات متباعدةً في الإيمان لوقع الخلاف بينهم، فبمثل هؤلاء الأماجد الكرام تُغزَى الأمم وتفتتحُ الممالك.

وإنَّ هذا المعنى الكريم الذي دعا عبدُ الله بن رواحة المسلمين إليه هو ما أوصى الله - تعالى- به المؤمنين أن يخاطبوا به المنافقين المخذِّلين عن الجهاد في سبيل الله تعالى؛ حيث يقول: ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ** ﴾ [التوبة: ٥٢]؛ يعني هل تنتظرون بنا أيها المنافقون في خروجنا لقتال الأعداء من النتائج إلا أن نظفر بإحدى النتيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حُسنى النتائج في مجالي الحياة والموت؟! فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء، وإما موت كريم بالظفر بالشهادة، وكلاهما خيرٌ وسعادة.

ثالثًا: في هذا الخبر شعور رائع لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه؛ ففي الأبيات الأولى يحمِّس المسلمين ويحثُّهم على الإقدام على جهاد الأعداء، ويبين فيها استعدادهم للحرب، وفي الأبيات الأخيرة يتغنَّى بالشهادة في سبيل الله تعالى، ولا شك أن الذي يدخل المعركة وهو يتمنى الشهادة ستكون طاقته القتالية مضاعفة، ثم صار يتمنى الشهادة في قصيدته المذكورة، وفيها تقوية للمؤمنين ورفع لمشاعر من هم دونهم في هذا المستوى.

*****

قال ابن إسحاق: فمضى الناس، حتى إذا كانوا بتُخوم[1] البلقاء لقيَتْهم جموع هرقل؛ من الروم والعرب، بقرية من قُرى البلقاء يقال لها: مشارف، ثم دنا العدوُّ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤته، فالتقى الناس عندها، فتعبَّأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من عُذرة، يقال له: قُطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلٌ من الأنصار يقال له: عَبَاية بن مالك[2].

ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم[3].

ثم أخذها جعفر فقاتل بها، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتل، فكان جعفرُ أوَّلَ رجل من المسلمين عَقرَ في الإسلام.

وحدثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: حدثني أبي- الذي أرضعني[4]، وكان أحد بني مُرَّة بن عوف، وكان في تلك الغزوة غزوة مُؤته- قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عَقرها ثم قاتل حتى قُتل وهو يقول:

يا حبَّذا الجنة واقترابها ... طيبةً وبارد شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابها
عليَّ إذ لاقيتها ضرابُها[5]

(١) التخوم: هي الحدود التي تفصل بين الأقاليم.
(٢) قال ابن هشام: ويقال: عُبادة بن مالك.
(٣) شاط: أي هلك، تقول: شاط الرجل، إذا سال دمُه وهلك.
(٤) أي: أبوه من الرضاع.
(٥) قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم: أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل رضي الله عنه، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة، فقطعه بنصفين.

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رَواحة الراية وتقدَّم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمتُ يا نفس لتنزلنَّه ... لتنزلنَّ أو لتُكْرَهنَّه
إن أجلب الناسُ وشَدُّوا الرَّنه[1] ... مالي أراك تكرهين الجنَّه
قد طال ما قد كنت مطمئنه ... هل أنتِ إلا نُطفة في شنَّه[2]

وقال أيضًا:

يا نفس إلا تُقتَلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صَليت[3]
وما تمنَّيت فقد أُعطيت ... إن تفعلي فعْلهما هُديت

يريد صاحبيه: زيدًا، وجعفرًا، ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عمٍّ له بعَرْق[4] من لحم، فقال: شُد بهذا صُلْبَك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدَّم، فقاتل حتى قتل[5].

مواقف وعبر في هذا الخبر:

أولاً: في هذا الخبر صور من الشجاعة والبطولة، فقد غامر القائد الأول زيد بن حارثة رضي الله عنه بنفسه حتى هلك بين رماح الأعداء بعدما بذل جهدًا كبيرًا في جهادهم.

وأظهر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه شجاعة فائقة حينما عقر فرسه تحديًا للأعداء، وإيذانًا بالثبات أمامهم مهما تكن الظروف والأحوال، وفي شَدْوه بالجنة ونعيمها في شعره دليل على تمثُّل مشاهد الحياة الآخرة في أذهان ذلكم الجيل الرباني، وكونه ربط ذلك بتهديد الكفار عند اللقاء بالتصميم على القتال شاهد على أثر الإيمان بالآخرة في سلوك هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم في السِّلم والحرب، فإن الذي يندفع إلى إزهاق نفسه من أجل الظفر بنعيم الجنة سيدفع ما هو أهون من ذلك من أجلها.

---

(١) الرنة: صوت فيه ترجيع كالبكاء.
(٢) أي: ماء مهين أُودع في قربة قديمة.
(٣) أي: ذُقت حرَّه.
(٤) العَرْق بفتح العين وسكون الراء: العظم فيه شيء من اللحم.
(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٠٨-٥١١، وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الطبراني وقال: ورجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٥٩، ١٦٠.

ولقد وردت أحاديث تدل على قوة احتمال جعفر وصبره على القتال، فقد أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن -عمر رضي الله عنهما-: «أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: **«إن قُتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»**، قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية»(١).

فأي قوة كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل؟ وما هذا الصبر الحديدي الذي تغلب به على آلام أكثر من تسعين جُرحًا في جسده قبل أن يخرَّ صريعًا؟ وإذا كانت هذه السهام هي التي أصابته فكم هي السهام التي اتَّقاها أو طاشت عنه؟!، لا شك أنه مَثَل رائع لعظماء الرجال، وأنه بصبره العظيم قد جعل من نفسه قدوة عالية لأفراد جيشه.

وإني لأعجب من جعفر وقوة احتماله ومقدرته على خوض مثل هذه المعركة العنيفة مع أنه قضى أكثر من عشرة أعوام في الحبشة في حياة هادئة، وقبل ذلك عاش في مكة ولم يكن فيها قتال، ثم يتحمل تسعين إصابة قبل أن يخرَّ صريعًا مع جهد القتال!

ولكن إذا تذكرنا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يُكثرون من الصلاة وخاصة صلاة الليل علمنا أن الصلاة تمنحهم قسطًا كبيرًا من الرياضة البدنية، إلى جانب اهتمامهم بالرماية وركوب الخيل وغير ذلك من فنون القتال.

أما القائد الثالث وهو عبد الله بن رواحة رضي الله فإنه أخذ الراية وتقدم بها، وقد جاء في الرواية أنه جعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد.

إنه حينما تردد بعض الشيء وألح على نفسه؛ لتُقدم على تحمل القيادة لم يكن قبل ذلك بمعزل عن القتال، بل كان يقاتل كجندي من المسلمين، فلما آلت إليه مسؤولية قيادة هذا الجيش وهو يصارع الأهوال حصل منه ما حصل من بعض التردد، خصوصًا وأن القائد الذي يحمل الراية يكون أول المستهدفين من قبل الأعداء، وتركز عليه الهجمات القوية، وإن تردده هذا وإن كان يسيراً مع استعداده للشهادة وتمنيه إياها منذ أن كان في المدينة وحثه أصحابه على دخول هذه المعركة ليدلنا على ضراوة هذه المعركة وشدة وطئها على المسلمين؛ لضآلة عددهم إلى جانب ضخامة عدد الأعداء.

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٥١٠، رقم: ٤٢٦١.

وإن في هذه الأبيات الشعرية التي صدرت من هذا الصحابي الجليل قبيل استشهاده لعبرة عظيمة ومثلاً عاليًا في محاسبة النفس وتعنيفها على التكاسل والتخاذل عن الوصول إلى معالي الأمور، فهو يُقسم على نفسه أن تنزل طائعة أو مكرهة إلى ساحة المعترك الدامي، ويُذكرها بأن التردد في ذلك يُعد عزوفًا عن طلب الجنة، كما يذكرها بماضيها المطمئن؛ حيث عاشت طويلاً في دعة وسكينة فما عليها لو صبرت لحظات في مواجهة الأهوال التي يعقبها السعادة الدائمة، ولا ينسى تذكيرها بأنها لم تكن شيئًا مذكورًا في بداية خلقها.

ثم يعود في البيتين الأخيرين إلى تذكير نفسه بأنها لا مفرَّ لها من الموت، فليكن الموت بالشهادة التي طالما تمنَّاها قبل ذلك، إلى أن أقدم رضي الله عنه فنال ما تمنى من ذلك.

*****

موقفان لثابت بن أرقم

١- قال الواقدي: فحدثني ربيعة بن عثمان، عن المقبري، عن أبي هريرة، قال: شهدتُ مؤتة، فلما رأينا المشركين رأينا ما لا قبَل لنا به من العَدد والسلاح والكُراع[1] والديباج والحرير والذهب، فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أقرم[2]: يا أبا هريرة، مالك؟ كأنك ترى جموعًا كثيرة، قلت: نعم، قال: تشهدنا ببدر؟ إنا لم نُنصر بالكثرة[3]!.

وهكذا كان ثابت بن أقرم ثابت الجأش لم يتأثر بكثرة الروم؛ ليقينه بأن النصر ليس بكثرة الجيش وإنما هو بتأييد الله ونصره، وذلك مترتب على تحقيق أسباب النصر التي منها وأهمها: التوكل على الله -تعالى- وحده، ومنها: الصبر، وطاعة القائد، واتفاق الكلمة.

٢- قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن رجل من العرب، عن أبيه، قال: لما قُتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قطُّ في كل وجه، ثم إن المسلمين تراجعوا، فأقبل رجلٌ من الأنصار يقال له ثابت بن أقرم، فأخذ اللواء، وجعل يصيح بالأنصار، فجعل الناس يثوبون إليه من كل وجه وهم قليل، وهو يقول: إليَّ أيها الناس! فاجتمعوا إليه، قال: فنظر ثابت إلى خالد بن الوليد، فقال: خُذ اللواء يا أبا سليمان! فقال: لا آخذه، أنت أحقُّ به، أنت رجلٌ لك سنٌّ، قد شهدت بدرًا، قال ثابت خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته إلا لك! فأخذه خالدٌ فحمله ساعة، وجعل المشركون يحملون عليه، فثبت حتى تكركَرَ المشركون، وحمل بأصحابه ففض جمعًا من جمعهم، ثم دهمه منهم بشرٌ كثيرٌ، فانحاش المسلمون فانكشفوا راجعين[4].

فهذا الموقف يُذكر لثابت بن أقرم حينما جمع المسلمين أولاً، ثم حينما أعطى القوس باريها، فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد، ولم يحتفظ بالراية له؛ لكونه شهد بدرًا وله سمعة عند قومه من الأنصار، وهذا دليل على تجرده من حظ النفس وإخلاصه لدينه، فقد اختار أعظم الموجودين خبرة بالحرب وأقواهم على القيادة وإن كان من غير قومه.

---

(١) يعني: الخيل.

(٢) هو: ثابت بن أقرم البلوي، حليف الأنصار رضي الله عنه.

(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٦٠. (٤) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٦٣.

جاء في رواية ابن إسحاق أن خالد بن الوليد لما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس.

وهذا يعني أن خالدًا قد انسحب بالمسلمين من المعركة انسحابًا منظَّمًا لم يتبعه ملاحقة من الأعداء، وأنه لم يحصل للمسلمين نصر على أعدائهم.

وذكر قول المسلمين للجيش لما رجعوا: «يا فُرَّارُ، فررتم في سبيل الله»، وقول النبي ﷺ: «**ليسوا بالفرَّار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله**»(١).

أما القول الآخر، فهو أن المسلمين قد انتصروا على أعدائهم نصرًا مؤزَّرًا وأوقعوا فيهم مقتله عظيمة.

وبهذا قال الإمام الزهري كما في رواية أخرجها الإمام الطبراني عنه أنه قال بعد ذكر المعركة باختصار: وأخذ اللواء، زيد بن حارثة فقتل، ثم أخذه جعفر فقتل، ثم أخذه ابن رواحة فقتل، ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: رجاله ثقات(٢).

وذكر الواقدي هذا القول عن عطَّاف بن خالد قال: لما قُتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد، فلما أصبح غدًا، وقد جعل مُقدِّمته ساقته، وساقته مُقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقالوا: قد جاءهم مدد! فرُعبوا فانكشفوا منهزمين، فقُتلوا مقتلة لم يقتلها قوم(٣).

وهذا القول هو الراجح؛ لأنه هو الذي يتفق مع ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب،

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥١١- ٥١٥.
(٢) مجمع الزوائد: ٦/ ١٦٠.
(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٦٤.

ثم أخذ ابن رواحة فأصيب -وعيناهُ تذرفان- حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[1].

فهذا صريحٌ في أن المسلمين قد انتصروا على أعدائهم في نهاية المعركة.

أما الأخبار التي فيها أن أهل المدينة قالوا لأهل مؤتة: «أنتم الفرّارون»، فقد حملها الحافظ ابن كثير على طائفة قليلة فروا من المعركة وجاؤوا إلى المدينة، فاشتبه الأمر على بعض المؤرخين فنسبوا هذه الأخبار لعموم الجيش.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير شواهد على أن الفرار كان من فئة قليلة، ومن ذلك ما أخرجه ابن إسحاق عن أم سلمة -رضي الله عنها- أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة: مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، وكلما خرج صاح به الناس، يا فُرار، فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته فما يخرج، وقد ذكر هذا الخبر ابن إسحاق في أخبار غزوة مؤتة[2]، وهؤلاء الذين يُشهِّرون بسلمة وأصحابه لم يعلموا بعذر النبي ﷺ لهم، أو أنهم قالوه قبل العذر، وكون هذا التشهير حصل لأفراد من الجيش دليل واضح على أن المراد هؤلاء النفر وليس عموم الجيش.

وقد جمع الحافظ ابن كثير بين القولين بقوله: «ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقين، وهو أن خالداً ما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين حتى خلّصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة، فلما أصبح وحوّل الجيش ميمنة وميسرةً ومُقدمة وساقة -كما ذكره الواقدي- توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله، والله أعلم»[3].

أما ما تشتمل عليه أخبار آخر المعركة من المواقف، فإن خبر عطّاف بن خالد الذي أخرجه الواقدي يُبين براعة خالد بن الوليد الحربية؛ حيث جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته، فأوهم العدو أن المسلمين قد تلقوا مدداً جديداً، وأصبحت كل طائفة من الأعداء ترى وجوهاً غير التي رأتها بالأمس، وهذا

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٥١٢، رقم: ٤٢٦٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥١٥، ٥١٦، البداية والنهاية: ٤/ ٢٤٨، ٢٤٩.

(٣) البداية والنهاية: ٤/ ٢٤٨.

مثل من أمثلة عبقريته القيادية، فلقد كان لخطته هذه -بعد توفيق الله تعالى- أبعد الأثر في إثارة الرعب لدى الأعداء وإصابتهم بالفشل، حتى وقع ما يُشبه خوارق العادات؛ من انتصار جيش صغير على جيش ضخم يفوقه في العدد بأكثر من ست وستين مرة.

ولقد بذل خالد جهداً عظيمًا في تلك المعركة، وقد صوَّر هذا الجهد بقوله: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبَرَت في يدي صفيحة لي يمانية»، أخرجه الإمام البخاري[1].

وهذا يدل على ضراوة هذه المعركة، والجهد الكبير الذي بذله الصحابة رضي الله عنهم فيها، وقد أثنى النبي ﷺ على خالد بقوله: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»، وهذا يدل على شجاعته الفائقة، وإخلاصه التام وتجرده من حظ النفس رضي الله عنه.

****

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٥١٥، رقم: ٤٢٦٥.

أخرج الإمام مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قَتل رجل من حمير رجلاً من العدو فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد رضي الله عنه، وكان والياً عليهم، فأتى رسول الله ﷺ عوف بن مالك فأخبره، فقال لخالد: «**ما منعك أن تعطيه سلبه؟**» قال: استكثرته يا رسول الله، فقال: «**ادفعه إليه**»، فمر خالد بعوف فجرَّ رداءه، ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ؟ فسمعه رسول الله ﷺ فاستُغضب، فقال: «**لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استُرْعى إبلاً أو غنمًا فرعاها، ثم تحيَّن سقيها فأوردها حوضًا فشرعت فيه، فشربت صفْوه وتركت كدره، فصفوُه لكم وكدره عليهم**».

وفي رواية أخرى لمسلم من حديث عوف بن مالك قال: خرجت مع مَنْ خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، ورافقني مددَي من اليمن، قال: وساق الحديث عن النبي ﷺ بنحوه(١).

فهذا موقف عظيم من رسول الله ﷺ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منه، فهم بشر مُعرَّضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّص ولا إهانة، فخالد حينما منع ذلك المجاهد سلَبه لم يقصد الإساءة إليه، وإنما اجتهد فغلَّب جانب المصلحة العامة؛ حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عددًا أكبر من المجاهدين، ولم يكن يعلم أن الحكم الشرعي في ذلك يقضي للقاتل بسلب المقتول وإن كان كبيرًا.

وعوف بن مالك أدَّى مهمته في الإنكار على خالد، ثم في رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يَقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك؛ لأنه - والحال هذه- قد دخل في أمر من أمور الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يده، ولكنه تجاوز هذه المهمة؛ حيث حوَّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، رقم: ١٧٥٣، ص: ١٣٧٣.

شيئًا من التشفِّي من خالد، ولم يُقره النبي ﷺ على ذلك، بل أنكر عليه إنكارًا شديدًا، وبيَّن حق الولاة على جنودهم.

وكون النبي ﷺ أمر خالدًا بعدم ردِّ السَّلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنسانًا بجريرة غيره، فلابد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضى؛ إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه، أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر.

****

مواقف وعبر

في

سرية ذات السلاسل

مثل من إخلاص عمرو بن العاص

أخرج الإمام ابن حبان من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عمرو اشدد عليك سلاحك وثيابك**»، قال: ففعلت، ثم أتيته فوجدته يتوضأ، فرفع رأسه فصعَّد فيَّ البصر وصوَّبه، ثم قال: «يا عمرو، إني أريد أن أبعثك وجهًا يسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة»، قال: قلت: يا رسول الله، لم أسلم رغبةً في المال، وإنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك، قال: «**يا عمرو، نعمَّا المال الصالح للرجل الصالح**»[1].

فهذا موقف يُذكر لعمرو بن العاص رضي الله عنه في الإخلاص لله -جل وعلا- ولرسول الله ﷺ والإسلام، فقد كان النبي ﷺ يريد أن يتألَّفه؛ ليزيد ثباته على الإسلام، فتبين من جوابه قوة إيمانه وصدق نيته، وقد أبان له النبي ﷺ أن المال الحلال نعمةٌ إذا وقع بيد الرجل الصالح؛ لأنه يبتغي به وجه الله -تعالى- ويصرفه في وجوه الخير، ويعف به نفسه وأسرته.

****

(١) موارد الظمآن، رقم: ٢٢٧٧، ص: ٥٦٦.

موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص

قال محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالى-: وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بني عذرة، وكان من حديثه أن رسول الله ﷺ بعثه يستنفر الناس إلى الشام؛ وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بَلِيٍّ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يستألفهم لذلك، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يقال له: السلسل، وبذلك سميت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل، فلما كان عليه خاف، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدُّه فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوَّلين، فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجَّهه: «لا تختلفَا».

فخرج أبو عُبيدة حتى إذا قَدم عليه، قال له عمرو: إنما جئتَ مددًا لي، قال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة، رجلاً ليِّنًا سهلاً، هيِّنا عليه أمر الدنيا، فقال له عمرو: بل أنت مددٌ لي، فقال أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي: «لا تختلفا»، وإنك إن عصيتني أطعتك، قال: فإني الأمير عليك، وأنت مددٌ لي، قال: فدونك، فصلى عمرو بالناس[(1)].

وفي رواية موسى بن عقبة: «إن المحاورة كانت بين المهاجرين أصحاب أبي عبيدة وبين عمرو بن العاص»[(2)]، وهذه الرواية أقرب وأشبه بأخلاق أبي عبيدة رضي الله عنهم جميعًا.

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: في هذا الخبر مثلٌ من الأخلاق الإسلامية التي كان يتحلى بها الصحابة رضي الله عنهم، وذلك في إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

إن موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص لَيبين لنا سرًا من أسرار انتصار المسلمين في عصرهم الأول؛ حيث تجردوا من حظ النفس، ونظروا إلى مصلحة الجماعة، فلو أن أبا عبيدة تصرَّف تصرفًا مضادًا فأصرَّ على التمسك بالإمرة وأصر عمرو على التمسك برأيه

---

(1) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٩٠.

(2) السيرة النبوية، لابن كثير: ٣/ ٥١٦.

لحصل الشقاق والنزاع بين الطائفتين، وهذا عامل خطير من عوامل الانهزام قبل الدخول في المعركة.

إن حب الرئاسة والإمرة أمرٌ مرغوب فيه لدى بعض النفوس، وإن مقدرة الإنسان على تحجيم نفسه وإيقافها عند حدود اعتبار المصلحة العامة وإن تعارضت مع المصلحة الخاصة.. إن ذلك لأمر كبير يحتاج إلى قوة عالية من الإيمان، وهذا ما حصل من أبي عبيدة رضي الله عنه.

ثانيًا: أمر آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو الحكمة البالغة من وصية النبي ﷺ لأبي عبيدة بقوله حين وجَّهه «لا تختلفا»، فقد كان يدرك أن مقام أبي عبيدة عند المسلمين أعلى من مقام عمرو بن العاص لسبق أبي عبيدة في الإسلام ودماثة خلقه التي تحبِّبه إلى الناس، فكان يخشى أن يحمله أصحابه على التمسك برأيه، كما أنه يخشى أن يتمسك عمرو برأيه فيحصل الخلاف ثم النزاع فقدم ﷺ حلاً لمشكلة يتوقع حصولها فحصلت ونفع الله أبا عبيدة بهذه الوصية، فكان فيها علاج هذه المشكلة، وهكذا تكون البراعة في القيادة وتدبير أمور الناس.

ومما يُلاحظ في هذا الخبر أن عمرو بن العاص هو الذي صلى بالناس مع أنه حديث العهد بالإسلام ومعه في الجيش أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم من السابقين في الإسلام؛ وذلك لأنه كان هو أمير السرية، وكذلك الحال في كل القيادات والولايات في الإسلام، وإن في ذلك لحكمًا عظيمة، من أبرزها: ربط جميع أمور الدنيا بالدين، وأن يكون لدى القادة والولاَة إلمامٌ بأحكام الدين وحفظ للقرآن بما يكفي للإمامة والخطابة، وهذا يعني أن الكفاءة للولاية مرتبطة بالكفاءة في الإمامة.

****

خبر رافع الطائي مع أبي بكر

قال ابن إسحاق: وكان من الحديث فى هذه الغزاة: أن رافع بن أبي رافع الطائي، وهو رافع بن عميرة، كان يحدِّث، -فيما بلغني- عن نفسه قال: كنت امرءًا نصرانيًا، وسُمِّيتُ سَرْجس، فكنت أدلَّ الناس وأهداهم بهذا الرمل، كنت أدفن الماء في بيض النعام بنواحي الرمل في الجاهلية، ثم أغير على إبل الناس، فإذا أدخلتها الرملَ غلبت عليها، فلم يستطع أحد أن يطلبني فيه، حتى أمرَّ بذلك الماء الذي خبأت في بيض النعام فأستخرجه، فأشرب منه، فلما أسلمت خرجت في تلك الغزوة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل.

قال: فقلت: والله لأختارنَّ لنفسي صاحبًا، قال: فصحبت أبا بكر، قال: فكنت معه في رحله، قال: وكانت عليه عباءة فدكيَّة، فكان إذا نزلنا بسطها، وإذا ركبنا لبسها، ثم شكها عليه بخلال له، قال: وذلك الذي له يقول أهل نجد حين ارتدُّوا كفارًا: نحن نبايع ذا العباءة.

قال: فلما دنونا من المدينة قافلين، قال: قلت: يا أبا بكر، إنما صحبتك؛ لينفعني الله بك، فانصحني وعلمني، قال: لو لم تسألني ذلك لفعلت، قال: آمرك أن تُوحِّد الله ولا تشرك به شيئًا، وأن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج هذا البيت، وتغتسل من الجنابة، ولا تتأمر على رجلين من المسلمين أبدًا، قال: قلت: يا أبا بكر، أمَّا أنا -والله- فإني أرجو أن لا أشرك بالله أحدًا أبدًا، وأما الصلاة فلن أتركها أبدًا -إن شاء الله-، وأما الزكاة فإن يك لي مال أؤدها -إن شاء الله-، وأما رمضان فلن أتركه أبدًا -إن شاء الله-، وأما الحج فإن أستطع أحج -إن شاء الله تعالى، وأما الجنابة فسأغتسل منها -إن شاء الله-، وأما الإمارة، فإني رأيت الناس يا أبا بكر لا يَشرفُون، عند رسول الله ﷺ وعند الناس إلا بها، فلِمَ تنهاني عنها؟

قال: إنك إنما استجهدتني لأجْهد لك، وسأخبرك عن ذلك: إن الله عز وجل بعث محمدًا ﷺ بهذا الدين، فجاهد عليه حتى دخل الناس فيه طوعًا وكرهًا، فلما دخلوا فيه كانوا عوَّاذ الله وجيرانه وفي ذمَّته، فإياك لا تُخْفر الله في جيرانه، فيتبعَك الله

خفُرته[1]، فإن أحدكم يُخفر في جاره، فيظل ناتئًا عَضله[2]، غضبًا لجاره أن أصيبت له شاة أو بعير، فالله أشدُّ غضبًا لجاره، قال: ففارقته على ذلك.

قال: فلما قُبض رسول الله ﷺ، وأُمِّر أبو بكر على الناس، قال: قدمت عليه، فقلت له: يا أبا بكر، ألم تك نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين؟ قال: بلى، وأنا الآن أنهاك عن ذلك، قال: فقلت له: فما حملك على أن تلي أمر الناس؟ قال: لا أجد من ذلك بدًّا، خشيت على أمَّة محمد ﷺ الفرقة[3].

في هذا الخبر وصية نافعة من أبي بكر الصديق لرافع بن أبي رافع الطائي -رضي الله عنهما-، وقد ذكر في هذه الوصية أركان الإسلام مع وضوحها أمام السائل؛ وذلك لبيان أهميتها في الإسلام؛ إذ إن البناء يقوم على الأركان، فإذا وقع الخلل في الأركان سقط البناء، والوصية بإقامة هذه الأركان لا تعني مجرد أدائها، وإنما تعني إقامتها كاملة مع النية الخالصة وحضور القلب مع الله تعالى، فإذا أقيمت كاملة كما شرعها الله -جل وعلا- فإنها تُقوي الإيمان وتبعث على التقوى ويترتب عليها السلوك الإسلامي في كل شؤون الحياة، فلا غرابة في اشتمال وصية أبي بكر على العناية بهذه الأركان.

وإن أبرز ما لفت نظر رافع الطائي في هذه الوصية أن لا يتأمر على رجلين، وقد ناقش أبا بكر في ذلك فأفاده بأن المسلمين جيران الله -تعالى-، العائذون به، وإن ارتكاب الوالي الظلم معهم والتقصير في حقوقهم يُعدُّ إخفاراً لذمة الله تعالى في عباده، مع ملاحظة أنه إذا عدل فيهم وأوصل إليهم حقوقهم وأخلص النية حصل له الثواب على هذا العمل الصالح، لكن أبا بكر قدم درء المفاسد على جلب المصالح، وقد ائتمنه ذلك الرجل النصيحة فنصحه بما يراه الخير له في هذا الأمر.

****

---

(١) أي: يجازيك على غدرك بذمته.

(٢) أي: تبرز عضلاته من الغضب.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣١٩- ٣٩٣.

خبر عوف بن مالك مع أبي بكر وعمر

قال ابن إسحاق: أخبرني يزيد بن أبي حبيب أنه حُدِّث عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنت في الغزاة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، قال: فصَحبت أبا بكر وعمر، فمررتُ بقَوم على جَزُور لهم قد نحروها، وهم لا يقدرون على أن يُعضُّوها[1]، قال: وكنت امْرأ لبقًا جازراً، قال: فقلت: أتعطوني منها عشيراً على أن أقسمها بينكم: قالوا: نعم، قال: فأخذت الشفرتين، فجزأتها مكاني، وأخذت منها جزءًا فحملته إلى أصحابي، فاطَّبخناه فأكلناه، فقال لي أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما-: أنَّى لك هذا اللحم يا عوف؟ قال: فأخبرتهما خبره، فقال: والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا، ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما من ذلك.

قال: فلما قفل الناس من ذلك السفر، كنت أوَّل قادم على رسول الله ﷺ، قال: فجئته وهو يصلي في بيته، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قال: «**أعوفُ بن مالك؟**»، قال: قلت: نعم، بأبي أنت وأمي، قال: «**أصاحب الجَزور؟**» ولم يزدني رسول الله ﷺ على ذلك شيئًا[2].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

ما كان من أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- من التحري الشديد عن خلو طعامهما من أي شبهة، وهذا يعتبر قمة في السلوك الإسلامي المبني على التقوى والورع، كما أنه يُعد من المؤهلات التي جعلت من أبي بكر وعمر قمَّة عالية في تاريخ الإسلام، فإن السلوك اليومي للمسلم دليل على مقدار إيمانه بالله تعالى، فإذا حماه إيمانه من الوقوع في المحارم فهذا دليل على قوة إيمانه، وإذا تورع عن الشبهات فإن هذا دليل على رفعة درجته في الإيمان، والإيمان مستقرٌّ في القلوب لا يعلمه إلا الله -سبحانه وتعالى-، وإنما يتفاضل الناس في الحياة الدنيا بالعمل الصالح الذي يُقاس به الإيمان.

---

(١) أي: يقتسمونها.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٩٣، ٣٩٤.

وقد أخرج محمد بن عمر الواقدي هذا الخبر عن عدد من الرواة قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أنَّ جمعًا من «بَلي وقضاعة» قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ. . ، ثم ذكر الخبر بنحو رواية ابن إسحاق.

وقد أضاف الواقدي في روايته ما يوضح نتائج هذه السرية؛ حيث يقول: فآب إلى عمرو جمعٌ -فصاروا خمسمائة- فسار الليل والنهار حتى وَطئَ بلاد بليٍّ ودوَّخها، وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمعٌ، فلما سمعوا به تفرقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بليَّ وعُذرة وبَلقَيْن، ولقي في آخر ذلك جمْعًا ليس بالكثير، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنَّبل، ورُمي يومئذ عامر بن ربيعة بسهم فأصيب ذراعه وحمل المسلمون عليهم فهربوا وأعجزوا هربا في البلاد وتفرَّقوا ودوخ عمرو ما هناك وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا فيه[١]، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنَّعم، وكانوا ينحرون ويذبحون، لم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن غنائم تُقسم إلا ما ذُكر له[٢].

فهذا الخبر يُبين ما جرى من عمرو بن العاص ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم في جهاد الأعداء، ولقد كان من نتائج هذه السرية أن المسلمين بثُّوا الرعب في قبائل شمال بلاد العرب وحالوا بينهم وبين التجمع؛ لغزو المسلمين، كما أنهم سيحسبون حسابًا كبيرًا لغزو المسلمين بلادهم مرَّة أخرى فيما لو أظهروا شيئًا من العداء لدولة الإسلام.

****

(١) يعني: إلا سار إليهم.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٧١.

مواقف وعبر

بين ذات السلاسل

وفتح مكة

مثلٌ من الفدائية ونصر الله تعالى أولياءه

(سرية ابن أبي حَدرد إلى رفاعة الجشمي)

قال ابن إسحاق: وغزوة ابن أبي حدْرد الأسلمي الغابة[١]، وكان من حديثها -فيما بلغني- عمَّن لا أتهم، عن ابن أبي حدرد، قال: تزوجت امرأة من قومي، وأصدقتها مائتي درهم، قال: فجئت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحي، فقال: «وكم أصدقت»: فقلت: مائتي درهم يا رسول الله، قال: «**سبحان الله، لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن وادٍ ما زدتم، والله ما عندي ما أُعينك به**».

قال: فلبثت أيامًا، وأقبل رجل من بني جُشم بن معاوية، يقال له: رفاعة بن قيس، أو قيس بن رفاعة، في بطنٍ عظيم من بني جشم، حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة، يريد أن يجمع قيسًا على حرْب رسول الله ﷺ، وكان ذا اسم في جُشم وشرف، قال: فدعاني رسول الله ﷺ ورجليْن معي من المسلمين، فقال: «**اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم**»، قال: وقدَّم لنا شارفًا عجفاء[٢]، فحمل عليها أحدنا، فوالله ما قامت به ضَعفًا حتى دعَمَها الرجال من خلفها بأيديهم، حتى استقلت وما كادت، ثم قال: «تبلَّغوا عليها واعتقِبُوها».

قال: فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف، حتى إذا جئنا قريبًا من الحاضر[٣]، عُشَيْشةً مع غروب الشمس، قال: كمنْت في ناحية، وأمرت صاحبيَّ فكمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم، وقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبَّرت وشددت في ناحية العسكر فكبِّرا وشُدَّا معي.

قال: فوالله إنَّا لكذلك ننتظر غرَّة القوم، أو أن نُصيب منهم شيئًا قال: وقد غشينا الليل حتى ذهبت فحمةُ العشاء، وقد كان لهم راع قد سرَّح في ذلك البلد، فأبطأ عليهم حتى تخوَّفوا عليه، قال: فقام صاحبهم ذلك رفاعةُ بن قيس، فأخذ سيفه، فجعله في عنقه، ثم قال: والله لأتبعنَّ أثر راعينا هذا، ولقد أصابه شرٌّ، فقال له نفر ممن معه:

(١) يعني: ومن الغزوات غزوة ابن أبي حدرد الأسلمي؛ لمكان يسمى الغابة.

(٢) أي: ناقة مسنة هزيلة.

(٣) أي: مكان إقامة القوم.

والله لا تذهب، نحن نكفيك، قال: والله لا يذهب إلا أنا، قالوا: فنحن معك، قال: والله لا يتبعني أحدٌ منكم، قال: وخرج حتى يمرَّ بي، قال: فلما أمكنني نفحته بسهمي، فوضعته في فؤاده، قال: فوالله ما تكلم، ووثبت إليه، فاحتززت رأسه، قال: وشددت في ناحية العسكر، وكبَّرت وشدَّ صاحباي، وكبَّرا، قال: والله ما كان إلا النجاة ممن فيه: عندك عندك، بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم، وما خفَّ معهم من أموالهم، قال: واستقنا إبلاً عظيمة، وغنمًا كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله، قال: وجئت برأسه أحمله معي، قال: فأعانني رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً في صَداقي فجمعتُ إليَّ أهلي[1].

في هذا الخبر مواقف وعبر؛ منها:

أولاً: موقف الرسول ﷺ من المغالاة في المهور؛ حيث أنكر على من تجاوز حد القصد والاعتدال في المهر، وهذا دليل على أن المشروع في المهر هو التيسير والاقتصار على حد الكفاية، مع أن هذا الصحابي الجليل لم يزد على مائتي درهم، لكنها في ذلك العهد تُعد مقداراً كبيرًا بالنسبة لأوساط الناس، فليت المسلمين اليوم يتعلمون من هذا الدرس النبوي الكريم ما يدفعهم إلى الاعتدال واجتناب المغالاة والتفاخر.

ثانيًا: في هذه القصة العجيبة عبرة؛ حيث تغلب ثلاثة نفر على جيش كبير قد تجمَّع حول قائده، وقَرُب من المدينة يريد أن يلتمس من المسلمين غرَّة فيغير عليهم فقضى الله أمره ورد كيده بهؤلاء الثلاثة.

إن هذه النتيجة الكبيرة تمت بتكاليف قليلة بالنسبة للمسلمين، وهذا يدلنا أولاً على عناية الله تعالى بهذه الأمة الإسلامية، فلقد هيأ سبحانه أسباب النصر لهؤلاء النفر؛ من غياب راعي الكفار وتأخره حتى أظلم الليل، وإصرار أمير القوم على أن يخرج هو لطلبه، ثم إصراره على أن يخرج وحده؛ ليموت بسهم مسدد من يد مسلم غامَر بنفسه وبصاحبيه في ظلام ليلٍ حالك وفي مواجهة عدوٍّ كبير متربص.

فلما تم تكبير المسلمين وهجومهم بعد غياب قائد الكفار أيقنوا بهلاكه، ولم يكونوا يتوقعون أن المكبرين ثلاثة فقط ليس معهم جيش، فأصيبوا بالرعب وكان همُّ كل واحد

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤٠٠-٤٠٢.

منهم أن ينجو بنفسه وأهله وماله، ولم يفكِّروا بالمقاومة فذهبوا في الأرض فرارًا، وخلت دارهم لهؤلاء الثلاثة الذين ساقوا الغنائم إلى المدينة.

وإن من أهم عوامل نصر المسلمين إصابة الأعداء بالرعب القاتل، الذي هو سلاحٌ منَّ الله به على هذه الأمة، فلقد كان بإمكان هذا الجيش أن يصبر قليلاً وأن يردَّ بالرماية على اتجاه عدوه، ولكنهم لم يفكروا بالمقاومة، وإنما كان همُّهم مقصورًا على النجاة بأنفسهم وماخفَّ من أموالهم؛ لهيمنة الرعب على قلوبهم.

ثالثًا: مما ينبغي الإشارة إليه ما كان يتمتع به قائد المسلمين الثلاثة من براعة فائقة في الرمي؛ حيث استطاع في ظلام دامس أن يصيب قلب ذلك الرجل الذي مات في الحال، وهكذا يجب على أفراد الأمة الإسلامية أن يتمتعوا بمثل هذه المقدرة؛ ليصونوا دينهم وأمتهم.

كما يلاحظ أن هذا القائد كان ماهرًا في التخطيط لتلك المعركة التي لم تكن متكافئة بأي ميزان من الموازين المادية، وكان لمهارته وحسن تدبيره واغتنامه الفرص الأثر الواضح في نجاح تلك السرية.

****

مثل من المعاملة الكريمة في الدعوة
(أسر ثمامة بن أثال وإسلامه)

أخرج الإمامان البخاري ومسلم -واللفظ له- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسولُ الله ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد[(١)]، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة**»؟، فقال: عندي يا محمد خيرٌ، إن تقتل تقتُل ذا دام، وإن تُنْعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تُريد المال فسل تُعط منه ما شئت[(٢)]، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**»، قال: ما قلت لك؛ إن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن تقتل تقتُل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة**»؟ فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تُنعم على شاكر، وإن تقتل تقتُل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت.

فقال رسول الله ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**»، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحب الوجوه كلها إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوْت[(٣)]؟ فقال: لا، ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبةُ حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[(٤)][(٥)].

---

(١) في رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال: «أحسنُوا إسَاره».

(٢) في رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال له: «أسْلِم يَا ثمامةُ».

(٣) يعني: أخرجتَ من دينك.

(٤) جاء في رواية ابن هشام: أن النبي ﷺ قال: «أحسنُوا إسارَه»، وأنه قال: «أسْلم يا ثمامة»، وجاء فيها: ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل.

(٥) صحيح مسلم، الجهاد رقم: ١٧٦٤، ص: ١٣٨٦، صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٨٧، رقم: ٤٣٧٢، وأخرجه ابن إسحاق وفيه بعض الزيادات، سيرة ابن هشام: ٤/ ٤١٤- ٤١٧.

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: فيه مثلٌ من منهج النبي ﷺ الدعوي، فقد عامل ثمامة بن أثال معاملة كريمة، وأمر الصحابة رضي الله عنهم بإكرامه مع ما سبق منه من عداءٍ للمسلمين.

وقد أثَّرت هذه المعاملة الكريمة في نفس ثُمامة حتى رغب في الإسلام، وتغيرت الصورة القاتمة التي كان يحملها عن الإسلام والمسلمين إلى صورة مشرقة استنارت بها بصيرته فانجذب إلى الإسلام.

ثانيًا: موقف ثمامة في إعلان إسلامه، والبيان الرائع الذي عرضه فيه من تجلية ألوان الغشاوة التي كانت مهيمنة على قلبه، وكيف انجلت بنور الله -تعالى- إلى أضدادها، فأصبحت أبغضُ الأشياء عنده أحبَّها إليه، وهكذا يبدأ المسلم بإعلان إسلامه تاريخًا جديدًا يمحو به آثار الجاهلية.

ثالثًا: ما قام به ثمامة من محاولة التضييق على أعداء الإسلام والمسلمين؛ حيث هدَّد مشركي مكة بمنع بيع الحنطة لهم، وكانت اليمامة آنذاك مصدرًا مهمًّا لتصدير الطعام إلى مكة.

وكون ثمامة ربط السماح بتصدير الحنطة إليهم بإذن النبي ﷺ يعدُّ إعزازًا منه للمسلمين وتقويةً لموقفهم مع أعدائهم، ولقد قام فعلاً بتنفيذ هذا التهديد كما جاء في رواية ابن هشام المذكورة، حتى اضطر كفار مكة إلى أن يخضعوا لرسول الله ﷺ فيكتبوا له كتابًا يتوسَّلون إليه فيه بصلة الرحم أن يأذن بذلك.

وهكذا أشعر ثمامةُ المشركين بحاجتهم إلى رسول الله ﷺ، وذلك مما يضعف من قوتهم، وصمودهم على الوقوف في وجهه.

رابعًا: موقف ثمامة حينما أعلن إسلامه في مكة المكرمة وهي آنذاك تغلي بأهلها في عداوة الإسلام وأهله، وفي هذا إعزاز للإسلام وتقويةٌ للمسلمين، وقد تعرَّض بسبب هذه الجرأة إلى الأذى من الكفار حتى قدموه؛ ليضربوا عنقه، ولم ينقذه منهم إلا تذكر أحدهم لمصالحهم الاقتصادية في بلاده.

وقد ثبت على إسلامه رضي الله عنه حينما ارتد قومه وتابعوا مُسيلمة الكذاب، وارتحل بمن أطاعه من قومه إلى البحرين فقاتل المرتدين مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه[1].

(١) الإصابة: ١/ ٢٠٤، رقم: ٩٦١.

إسلام أبي العاص بن الربيع

قال ابن إسحاق: وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة، حتى فرَّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام - وكان رجلاً مأمونًا- بمال له وأموال لرجال من قريش، أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيتْه سرية لرسول الله ﷺ[(١)]، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هاربًا.

فلما قَدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح -كما حدثني يزيد بن رومان- فكبَّر وكبَّر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء، أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، قال: فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: «**أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتُ؟**» قالو: نعم، قال: «**أما والذي نفسُ محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم**»، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فدخل على ابنته، فقال: «**أي بنُية، أكْرمي مثواه، ولا يخلصنَّ إليك، فإنك لا تحلين له**».

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبدُ الله ابن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: «إن هذا الرجل منَّا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردُّوا عليه الذي له، فإنَّا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحقُّ»، فقالوا: يا رسول الله، بل نردُّه عليه، فردُّوه عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ويأتي الرجل بالشنَّة وبالإداوة[(٢)]، حتى إن أحدهم ليأتي بالشظاظ[(٣)]، حتى ردوا عليه ماله بأسره، لا يفقد منه شيئًا.

---

(١) لم يكن هناك سرايا ولا قتال بين المسلمين ومشركي مكة بين صلح الحديبية وفتح مكة، وإنما الذين أخذوا تجارة أبي العاص هم جماعة أبي بصير وأبي جندل التي مرَّ ذكرُها، كما جاء في رواية البيهقي لخبر تلك الجماعة، دلائل النبوة: ٤/ ١٧٤ .

ويفهم من هذا الخبر أن هجومهم على تلك القافلة كان في آخر مقامهم في «العيص»؛ حيث قدموا إلى المدينة بأمر النبي ﷺ لما طلبت قريش ذلك، فكان هذا الحوار معهم حول ردِّ ما أخذوه من أبي العاص بن الربيع.

(٢) الشنة والشن بفتح الشين: القربة القديمة، والإداوة بكسر الهمزة: الإناء الذي يُتوضأ به.

(٣) الشظاظ بوزن كتاب: عود يشد به فم الغرارة.

ثم احتمل إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ومن كان أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا! فقد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدَّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وحدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس، قال: ردَّ عليه رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول لم يُحدث شيئًا بعد ست سنين.

قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة أن أبا العاص بن الربيع لمَّا قدم من الشام ومعه أموال المشركين قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين؟ فقال أبو العاص: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي(١).

وأخرج هذا الخبر الحاكم من خبر محمد بن إسحاق ولم يحكم عليه(٢).

في هذا الخبر مواقف:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ بدعوة الرجال الذين يرى لهم من مكارم الأخلاق ما يؤهلهم للدخول في الإسلام، ومن ذلك اهتمامه بأبي العاص بن الربيع، وكانت دعوته إياه إلى الإسلام عن طريق المعاملة الكريمة؛ حيث تشفَّع له عند أولئك المرابطين الذين استولوا على جميع ما معه من تجارة، وهم جماعة أبي بصير، وهذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ لأبي العاص كان لها أبلغ الأثر في انجذابه إلى الإسلام.

ثانيًا: في هذا الخبر دليل على قوة إيمان أبي بصير وأبي جندل ومن معهما من المسلمين المرابطين في «العيص» وتجردهم من الهوى؛ حيث قبلوا وساطة النبي ﷺ لأبي العاص، فردُّوا عليه كل ما أخذوا منه من غير تلكؤ ولا تردد، ولا شك أن الذين أظهروا الإسلام أمام عُتاة الكفار وتحملوا قيودهم وتعذيبهم من أجل الله تعالى لن يغريهم بريق الدنيا وإن قوي لمعانُه، وما خرجوا من مكة ليجعلوا من أنفسهم عصابة

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٥٣- ٣٥٦.

(٢) المستدرك: ٣/ ٢٣٦، ٣٢٧.

هدفها الاستيلاء على أموال الناس، وإنما اضطروا إلى اعتراض تجارة قريش؛ ليتخذوا من ذلك وسيلة للضغط عليها؛ كي تتنازل عن شرطها الجائر، بلزوم ردِّ كل من خرج منهم إلى المسلمين وإن كان مسلمًا.

ثالثًا: ظهر في هذا الخبر نماذج من مكارم الأخلاق التي كان يتمتع بها أبو العاص بن الربيع، فمن ذلك: أنه قام برد الأمانات التي تحملها لقريش مع أنه كان يريد مفارقتهم، وكان معتزًا بالإسلام مدركًا أنه دين مكارم الأخلاق والمعاملة الحسنة؛ فلذلك لما قيل له: هل لك أن تُسْلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين؟ قال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي.

****

مواقف وعبر
في
فتح مكة

سبب مسير الجيش الإسلامي إلى مكة

ذكر الإمام محمد بن إسحاق خبر ذلك؛ حيث قال: حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدَّثاه جميعًا قالا: كان في صلح الحديبية: أنه من شاء أن يدخل في عقْد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة، وقالوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم.

فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له: الوتير، وهو قريب من مكة، وقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا من أحد، فأعانوهم عليهم بالكُراع[1]، والسلاح، وقاتلوهم معهم؛ للضغن على رسول الله ﷺ[2].

****

---

(١) أي: الخيل.

(٢) سيرة ابن كثير: ٣/ ٥٢٦، وانظر: سيرة ابن هشام: ٤/ ٣.

وفد خزاعة إلى النبي ﷺ

أخرج ابن إسحاق بإسناده السابق من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا: وإن عمرو بن سالم ركب عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم على رسول الله ﷺ يخبر الخبر وقد قال أبيات شعر فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشدها إياه:

يا رب إنِّي ناشدٌ محمدًا	حلفَ أبينا وأبيه الأتْلدا[1]
قد كنتم ولدًا وكنَّا والدًا	ثُمَّتَ أسلمنا ولم ننزع يدًا
فانصر رسول الله نصرًا أيِّدا[2]	وادع عباد الله يأتوا مددًا
فيهم رسول الله قد تجرَّدًا	إن سيمَ خسفًا وجهُه تربَّدًا
في فيلق كالبحر يجري مزبدًا	إنَّ قريشًا أخلفوك الموعدًا
ونقضوا ميثاقك المؤكدًا	وجعلوا لي في كداء رصدا[3]
وزعموا أن لست أدعو أحدًا	فهم أذل وأقل عددًا
هم بيتونَا بالوتير هُجَّدًا	وقتلونا ركعًا وسجدًا

فقال رسول الله ﷺ: «**نصرتَ يا عمرو بن سالم**»، فما برح حتى مرَّت بنا عنانة[4] في السماء، فقال رسول ﷺ: «**إن هذه السحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب**»[5].

وأخرجه الواقدي من حديث حزام بن هشام بن خالد الكعبي عن أبيه وذكر نحوه، ثم قال: وحدثني عبد الحميد بن جعفر بن عمران بن أبي أنس؛ عن ابن عبَّاس رضي الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ وهو يجرُّ طرَف ردائه وهو يقول: «**لا نُصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصرُ منه نفسي!**».

وحدثني حزام بن هشام عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدِّد العهد وزدْ في الهُدنة وهو راجعٌ بسخطه**»، ثم قال رسول الله ﷺ

(١) أي: قديم. (٢) أي: قويًا.
(٣) كداء: جبل بأعلى مكة. (٤) أي: سحابة.
(٥) سيرة ابن كثير: ٣/ ٥٢٦، ٥٢٧، وانظر: سيرة ابن هشام: ٤/ ١١.

لعمرو بن سالم وأصحابه: «**ارجعوا وتفرَّقوا في الأودية!**»، وقام رسول الله ﷺ فدخل على عائشة وهو مُغضب، فدعا بماء فدخل يغتسل، قالت عائشة: فأسمعه يقول وهو يصبُّ الماء عليه: «**لا نُصرت إن لم أنصُر بني كعب**»(١).

في هذا الخبر موقف عظيم لرسول الله ﷺ في نصر المسلمين المستضعفين من أعدائهم، فقد وعد هؤلاء المسلمين من خزاعة المستنصرين به بنصرهم وقومهم على أعدائهم من بني بكر وقريش الذين اعتدوا عليهم، وصدق رسول الله ﷺ في وعده، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وإن للمسلمين جميعًا في رسول الله ﷺ لأُسوة حسنة في هذا الموقف العظيم، فإن من واجب كل مسلم أن يهُبَّ في نصرة إخوانه المسلمين في كل مكان على قدر استطاعته، وليس من الإسلام في شيء أن تُنتزع بلاد المسلمين بلدًا تلو الآخر ولا يهتم بذلك إلا أهل البلد المنكوب؛ لأن ذلك يتنافى مع واجبات الأخوة الإسلامية، ولو وعى المسلمون سنة نبيهم ﷺ وطبقوها لبقيت لهم مكانتهم العالية ودام عزُّهم في الأرض.

****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٨٩- ٧٩١، وانظر: سيرة ابن هشام: ٤/ ١٣ .

إيذان قريش بالحرب

أخرج مسدد بإسناده من حديث محمد بن عبَّاد بن جعفر قال: بعث رسول الله ﷺ إلى قريش: «**أما بعد، فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أو تدُوا خزاعة**[1]**، وإلا أُوذنكم بحرب**»، فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم مشائيم، فلا نَدي ما قتلوا، أن لا يبقى لنا سبدٌ، ولا لَبَد[2]، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهم، ولكن نؤذنه بحرب.

ذكره الحافظ ابن حجر، وقال: هذا مرسل صحيح الإسناد[3].

وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشًا بالحرب، وإنما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاثة فاختاروا الحرب.

****

(١) أي: تدفعوا دية قتلاهم.

(٢) السَّبَد: الشعر، واللبد: الصوف، يعني: إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء.

(٣) المطالب العالية: ٤/ ٢٤٣، رقم: ٤٣٦١.

موقف جهادي لحسان بن ثابت

ولما نقضت قريش الصلح وكان الإيذان بالحرب من رسول الله ﷺ قال حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدته الدالية العصماء في تبكيت الكفار ووعيدهم، وقد ذكرها ابن إسحاق -رحمه الله تعالى-، ومنها قوله:

عــدمنْا خــيلنا إن لـم تروها ... تُثـيـر النقع مـوعـدُها كـداَء[1]
يُنازعن الأعنة مُـصـغـيـات ... على أكـتـافـهـا الأسَلُ الظمـاءُ[2]
تظلُّ جـيـادُنا مُـتـمطِّرات ... تُلطِّمُـهنَّ بالخُـمُـر النسـاءُ[3]
فـإمَّـا تُعـرضـوا عنَّا اعـتـمـرنا ... وكـان الفـتحُ، وانكشف الغطاء
وإلا فـاصـبـروا لجـلاد يوم ... يُعين اللـه فـيـه من يشـاء
وجـبـريلٌ رسـولُ الله فـينا ... ورُوح القـدْس ليس له كـفـاءُ
وقـال الله: قـد أرسلتُ عـبدًا ... يقـولُ الحق إن نفع البـلاءُ
شـهـدت به فـقـومـوا صدِّقُوه ... فـقلتمْ: لا نقـومُ ولا نشـاءُ
وقـال الله: قـد سـيَّـرْتُ جندًا ... هم الأنصـارُ عـرضـتـهـا اللقـاءُ
لـنا في كل يوم منْ مَـعَـدٍّ ... سـبـابٌ أو قـتـال أو هجـاءُ
فنحكم بالقـوافي من هجـانا ... ونضـرب حين تخـتلط الدِّمـاءُ
ألا أبْلغْ أبا سـفـيـان عنِّي ... مُـغلْغلةً فـقـد برحَ الخـفـاءُ[4]
بأن سُـيـوفنا تركـتكَ عـبـدًا ... وعـبـدُ الدَّار سـادتُهـا الإمـاءُ

(١) قوله: «عدمنا خيلنا»، جملة دعائية؛ أي فقدناها ولا ركبناها، وتثير النقع أي: تهيج الغبار، وكداء بفتح الكاف ممدودًا: هي الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وتسمى: المَعْلَى.

(٢) ينازعن الأعنة: أي يجاذبن اللُّجم إذا أُريد كفهن عن الجري، ومصغيات: أي مستمعات مصيخات، والأسل بفتحتين: الرماح، والظماء: العطاش.

(٣) متمطرات: أي متسابقة مسرعة، وتلطمهن: أي تضرب خدودهن، والخُمر: جمع خمار، وهو: ما تغطي به المرأة رأسَها.

(٤) المغلغلة: الرسالة تُنقل من بلد إلى بلد، وبرح الخفاء: أي ظهر ما كان خافيًا، وأبو سفيان هو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وقد أسلم بعد ذلك وحسُن إسلامه.

هجَوتَ محمدًا، وأجبت عنه		وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
أتهجُوه ولست له بكفء		فشرُّكُما لخيركُما الفداءُ
هجوت مباركًا برًا حنيفًا		أمينَ الله شيمته الوفاء
أمَنْ يهجو رسول الله منكم		ويمدحه وينصرهُ سواء؟
فإنَّ أبي ووالدَه وعِرضي		لعِرض محمد منكم وقاءُ
لساني صارمٌ لا عيب فيه		وبحري لا تكدِّره الدِّلاء(١)

وقد روى الإمام مسلم أبياتًا من هذه القصيدة من حديث عائشة -رضي الله عنها-، وقد جاء في هذه الرواية: قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «**إنَّ روحَ القُدُس لا يزال يُؤيدك ما نافحتَ عن الله ورسوله**»، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هجاهم حسان فشفَى واشتفَى**»(٢).

فهذه القصيدة قد حازت إعجاب النبي ﷺ؛ لجزالة ألفاظها وجودة معانيها، ولما يعلمه ﷺ من الأثر القوي للشعر عند العرب؛ ولذلك أمر شعراء الصحابة بهجاء المشركين، كما جاء في حديث عائشة المذكور: أن رسول الله ﷺ قال: «**اهجوا قريشًا، فإنه أشد عليها من رشق النَّبل**».

ومن شدة إعجاب النبي ﷺ بهذه القصيدة أمر أن تدخل الخيل يوم الفتح من «كداء»؛ حيث قال حسان(٣).

وحينما رأى النساء يومئذ يلطِّمن الخيل بالخُمر تبسَّم إلى أبي بكر رضي الله عنه، وذكر بيت حسان بن ثابت، فأنشده أبو بكر رضي الله عنه:

تظلُّ جيادنا متمطِّرات		تُلطِّمُهن بالخُمر النساءُ(٤)

وإن في موقف حسان هذا رضي الله عنه لمثلاً عاليًا للجهاد باللسان والقلم، الذي قد يفوق أثره على الأعداء أحيانا الجهاد بالسنان؛ لما له من الأثر البالغ في تخذيل الأعداء وتثبيط هممهم، ودفع المسلمين إلى الجهاد وتقوية عزائمهم.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٥٧-٥٩.
(٢) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم: ٢٤٩٠، ص: ١٩٣٥.
(٣) دلائل النبوة، للبيهقي: ٥/ ٤٩.
(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ٩٥، مغازي الواقدي: ٢/ ٨٣١.

قال ابن إسحاق: ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب؛ ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يابُنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجسٌ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرٌّ.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلَّمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلَّمه أن يُكلم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على عليِّ بن أبي طالب -رضوانُ الله عليه-، وعنده فاطمة بنتُ رسول الله -ﷺ ورضي عنها-، وعندها حسنُ بن عليٍّ، غلامٌ يدبُّ بين يديها، فقال: يا عليُّ إنك أمسُّ القوم بي رحمًا وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعنَّ كما جئت خائبًا، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بنيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يُجير أحدٌ على رسول الله ﷺ، قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئًا يُغني عنك شيئًا، ولكنك سيِّد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال، لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرتُ بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئتُ محمدًا فكلمته، فوالله لم يردَّ عليَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قُحافة، فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدتُه أدنى العدو[1]، ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني

(١) قال ابن هشام: أعدى العدو.

أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمدٌ؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجلُ على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك[1].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: موقف أمِّ المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان -رضي الله عنهما- وذلك حينما طوت فراش النبي ﷺ عن أبيها حينما كان مشركًا، وهذا مثلٌ مما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم، من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين.

وقولها لأبيها: «أنت رجلٌ مشركٌ نجسٌ» لا تعني بذلك النجاسة الحسية، فإن المشركين كانوا يفدون على رسول الله ﷺ ويُجلسهم أحيانًا على فراشه، وإنما تعني النجاسة المعنويةَ، وقد أرادت بذلك أن تُبرز عزَّة النبي ﷺ والإسلام، وأن الكافر محتقرٌ مهانٌ وإن كان زعيم قريش، وكونها خاطبت أبا سفيان بذلك مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليلٌ على قوة إيمانها ورسوخ يقينها.

لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار صفتهم الدينية، ومحاولة إبراز معالم التميز على الكافرين، وهذا أمرٌ له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية.

فأم حبيبة لا شك أنها تحب أباها حبًّا كبيرًا من واقع حب الوالدين، وتقدر مكانته في قومه؛ حيث كان سيد قريش، ولكنها آثرت إبراز مكانة النبي ﷺ وتضخيم شأنه في عين أبي سفيان، حتى في هذه القضية الصغيرة انطلاقًا من المفهوم الإسلامي السائد بين الصحابة الذي يقضي برفع شأن المسلم مهما كانت منزلته الاجتماعية وخفض شأن الكافر وإن كان عظيمًا في قومه أو ذا قرابة.

ثانيًا: موقف الصحابة الذين كلَّمهم أبو سفيان؛ ليشفعوا لقومه عند النبي ﷺ، وهم: أبو بكر وعليٌّ وفاطمة -رضي الله عنهم-؛ حيث لم يتقدم منهم أحد بتحقيق هذا الطلب الذي يعدُّ تجاوزًا للحدود وتقدُّمًا على النبي ﷺ في خلاف ما عزم عليه، وهذا يُعد من كمال ورعهم وحسن أدبهم.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٤- ١٦.

أخرج الواقدي من طريق الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم، قال: لَمَّا ولَّي أبو سفيان راجعًا قال رسول الله ﷺ لعائشة: «**جهزينا وأخفي أمرك**»، وقال رسول الله ﷺ: «**اللهم خُذ على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتةً**»، ويقال: قال: «اللهم خذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلا بغتة، ولا يسمعون بي إلا فجأة»، قالوا: وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيِّمًا بهم، فيقول: لا تدعوا أحدًا يمرُّ بكم تنكرونه إلا رددتُموه -وكانت الأنقاب مُسلمة- إلا من سلك إلى مكة فإنه يُتحفَّظ به ويسأل عنه، أو ناحية مكة.

قالوا: فدخل أبو بكر على عائشة وهي تُجهِّز رسول الله ﷺ؛ تعمل قمحًا سَويقًا ودقيقًا وتمرًا، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يا عائشة أهمَّ رسول ﷺ بغزو؟ قالت: ما أدري، قال: إن كان رسول الله همَّ بسفر فآذنينا نتهيَّأ له، قالت ما أدري لعلَّه يريد بني سليم، لعلَّه يريد ثقيفًا، لعلَّه يريد هوازن! فاستعجمتْ عليه حتى دخل رسول الله ﷺ، فقال له أبو بكر: يا رسول الله، أردت سفرًا؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، قال: أفأتجهز؟ قال: «**نعم**»، قال أبو بكر: وأين تريد يا رسول الله؟ قال: «**قريشًا، وأخْف ذلك يا أبا بكر**»، وأمر رسول الله ﷺ بالجَهاز، قال: أو ليس بيننا وبينهم مدة؟ قال: «**إنهم غدروا ونقضوا العهد، فأنا غازيهم**»، وقال لأبي بكر: «**اطْوِ ما ذكرتُ لك**»، فظانٌّ يظن أنَّ رسول الله ﷺ يريد الشام، وظانٌّ يظنُّ هوازن.

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر إلى بطن إضم(١)؛ ليظنَّ ظانٌّ أن رسول الله ﷺ توجَّه إلى تلك الناحيَة، ولأنْ تذهب بذلك الأخبار(٢).

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: التزام أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بالسِّرية التامة وثباتها على ذلك حتى أمام أبيها أبي بكر رضي الله عنه؛ لقول النبي ﷺ لها: «**وأخفي أمرك**»، مع أن

---

(١) إضم: ماء يطؤه الطريق بين مكة والمدينة عند السمينة: معجم البلدان: ١/ ٢٨١.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٧٩٦.

أباها هو الرجل الثاني في الإسلام، وهي تعلم أن رسول الله ﷺ لا يخفي عنه شيئًا من أمور الأعداء، ولكنه حينما أمرها بالإخفاء لم يستثْن أباها فالتزمت بالسرية حتى معه.

ثانيًا: الاهتمام الكبير من رسول الله ﷺ بتحقيق المقصود من سرِّية هذا الأمر وهو عزمه على غزو أهل مكة؛ حيث دعا الله -تعالى- أن يأخذ علَى قريش الأخبار والعيون، ولا شك أن دعاء الله -تعالى- هو أهم الأسباب الموصلة إلى تحقيق المقصود؛ ولذلك بدأ به النبي ﷺ وقدَّمه على غيره.

ثم أمر النبي ﷺ مجموعة من المسلمين بأن يأخذوا بمخارج المدينة، فلا يدعوا أحدًا يمر بهم خاصة ما كان جهة مكة، وأمَّر عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يدور عليهم ويراقب عملهم.

ثم إن النبي ﷺ من باب الاحتياط للأمر أرسل سرية إلى «إضم» في طريق مكة؛ لتذهب الأخبار بذلك ويتحدث الناس بأنه يريد القبائل التي بين مكة والمدينة.

وهذه دروس بليغة في إتقان السِّرِّية في الأمور المهمة وأخذ الحيطة والحذر حتى يكون أدعى لنجاح المقاصد.

****

موقف تربوي للنبي ﷺ
(خبر حاطب بن أبي بلتعة)

أخرج الإمام البخاري من حديث علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير -وكلنا فارسٌ- قال: «انطلقُوا حتى تأتوا روضةَ خاخ، فإن بها امرأةً من المشركين معها كتابٌ من حاطب بن أبي بَلتعة إلى المشركين»، فأدركناها تسيرُ على بعير لها حيثُ قال رسول الله ﷺ، فقلنا: الكتاب، فقالت: ما معنا كتاب، فأنخناها، فالتمسنا، فلم نرَ كتابًا، فلما رأت الجدَّ أهوَت إلى حُجزَتها -وهي محتجزة بكساء- فأخرجته، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ.

فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «**ما حملك على ما صنعتَ؟**» قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ، أردتُ أن تكون لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحدٌ من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «**صدق، ولا تقولوا له إلا خيرًا**»، فقال عمر: إنه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال: «**أليس من أهل بدر؟!**»، فقال: «**لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكمُ الجنة، أو فقد غفرت لكم**»، فدمعت عينا عُمر، وقال: اللهُ ورسوله أعلم»[(١)].

في هذا الخبر مثلٌ عظيمٌ في التسامح مع أهل الفضل والتقدم في الإسلام، والغضِّ عن سيئاتهم وإن كانت كبيرة.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه من شدَّة حماسه الديني وغيرته على الإسلام وحياطته لدولته بادَر إلى الإنكار الشديد على حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، ووصفه بالخيانة، وطلب من رسول الله أن يأذن له بقتله، ولكن النبي ﷺ المربي الكبير، الرحيم بالمؤمنين لم ينظر إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسْب وإن كانت كبيرة، وإنما راجعَ رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى وإعزاز الإسلام،

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٠٤، رقم: ٣٩٨٣.

فوجد أنه قد شهد معركة بدر، ولم يشهد بدرًا إلا مؤمنٌ صادق قوي الإيمان؛ لأن الإقدام على معركة بدر كان إقدامًا على الموت المرجح، ولا يصل إلى المغامرة بالأنفس إلا من ارتفع رصيده الإيماني إلى الحد الذي يجسِّم أمام ناظريه الهدف الأعلى للمسلم، ألا وهو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة وإن كان في ذلك ذهاب النفوس والأموال.

وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرةً متكاملة، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال التعليم والإفتاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى، فإن الذي يُسهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمة يستحق التقدير والاحترام، وإن بدرت منه بعض الأخطاء.

هذا فيما إذا كان ما صدَر من هؤلاء خطأ محض وزَلَّة قدم، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأيٌ عملي ناتج عن الاجتهاد وهم من أهل ذلك؟!

إن بعض طلاب العلم في عصرنا هذا يتعجَّلون في نقد العلماء والدعاة لمجرد وقوعهم في آراء اجتهادية يرى بعض العلماء أنهم أخطؤوا فيها، وقد يصل النقد إلى حدِّ السخرية وانتهاك الأعراض، ومُغْفلين تمامًا رصيدهم الماضي في الدعوة والجهاد وإنكار المنكر وتعليم العلم، وترى هؤلاء الطلاب يُجسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ويبرزونها بشكل يوحي للسامعين والقراء أن أولئك الذين تعرض إنتاجهم للنقد ليس لهم أي رصيد في خدمة الإسلام والمسلمين.

والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أولاً ويعرَّف المسلمون بجهادهم وبلائهم في الإسلام وجهودهم في مجال العلم والدعوة، ثم تذكر الأمور التي يراها المنتقدون أخطاء وما يرونه من الصواب في ذلك مع لزوم الأدب في النقد العلمي، والبعد عن أسلوب السخرية والتنقيص.

هذا شيء مما يوحيه لنا سلوك النبي ﷺ في مواجهة هذا الخطأ الكبير الذي ارتكبه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

إن رصيد حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله كان حائلاً دون إدانته وإجراء العقوبة عليه، بل كان حاميًا له مما هو دون ذلك؛ حيث لم يسمع من مسلم كلمة واحدة في نقده والإساءة إليه بعد قول النبي ﷺ: «ولا تقُولوا له إلاَّ خيرًا».

وأخيراً موقف جليل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تحوَّل في لحظات من رجل غاضب ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطب إلى رجل يبكي من الخشية والتأثر ويقول: الله ورسوله أعلم؛ ذلك لأن غضبه كان لله تعالى ولرسوله ﷺ، فلما تبين له أن الذي يُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ هو غضُّ النظر عن ذلك الخطأ ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد.. لمَّا تبين له ذلك استسلم لهذا الأمر وحوَّل غضبه إلى رضًى ظهرت آثاره بقطرات من الدمع الغالي الذي يشف عن كمال الرقة والرحمة على الرغم من كمال القوة والصلابة فيمن صدر منه، وهذا دليل على التوحيد الخالص والإيمان الراسخ.

****

موقف لرسول الله ﷺ ولأبي بكر

قال الواقدي: وحدثني قُران بن محمد، عن عيسى بن عُمَيلة الفزاري، قال: كان عيينة[1] في أهله بنجد، فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يُريد وجهًا، وقد تجمعت العرب إليه، فخرج في نفر من قومه حتى قدم المدينة، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين، فسلك عن ركوبة فسبق إلى العَرْج[2]، فوجده رسول الله ﷺ بالعرج، فلما نزل رسول الله ﷺ العرجَ أتاه فقال: يا رسول الله، بلغني خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعًا ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جَلَبة كثيرة، ولستُ أرى هيأة حرب، لا أرى ألويةً ولا رايات! فالعمرةُ تريد؟ فلا أرى هيأة الإحرام! فأين وجهك يا رسول الله؟ قال: «حيث شاء الله»، وذهب وسار معه.

ووُجد الأقرعُ بن حابس بالسُّقيا، قد وافاها في عشرة نَفَر من قومه، فساروا معه، فلما نزل قُدَيد عقد الألوية وجعل الرايات، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عضَّ على أنامله، فقال أبو بكر: علام تندم؟ قال: على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد، فأين يريد محمد يا أبا بكر؟ قال: حيث يشاءُ الله، فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعُيينة[3].

في هذا الخبر موقفٌ لرسول الله ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه في الحفاظ على سرِّية الهدف الذي قصده رسول الله ﷺ، وقد استمر كتمان هذا الهدف حتى وصل الجيش الإسلامي إلى مكة، وهذا التخطيط المحكم كان من أسباب نجاح رسول الله ﷺ في الوصول إلى مكة من غير أن يعلم أهلُها بذلك.

****

---

(١) يعني: عُيَيْنة بن حصْن، زعيم غطفان.

(٢) ركوبة والعرج: مَوضعان على طريق مكة من المدينة.

(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٠٣، ٨٠٤.

مثلٌ من رحمة النبي ﷺ
(إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية)

قال ابن إسحاق: وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله ابن أبي أميَّة بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضًا بنيْق العُقاب، فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدُّخول عليه، فكلمته أمُّ سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصِهْرك، قال: «لا حاجة لي بهما؛ أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصِهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال»، قال: فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بُنيٌّ له، فقال: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيدي بنيَّ هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما، ثم أذن لهُما، فدخلا عليه، فأسلما.

وأنشد أبو سفيان بن الحارث قوله في إسلامه، واعتذر إليه مما كان مَضى منه، فقال:

لعَمْرك إني يوم أحملُ رايةً ... لتغْلبَ خيلُ اللات خيلَ محمَّد
لكالمُدلج الحيران أظلم ليلُهُ ... فهذا أواني حين أُهدَى وأهتدي
هداني هاد غيرُ نفسي ونالَني ... مع الله من طرَّدتُ كل مُطرَّد
أصدُّ وأنأى جاهدًا عن محمد ... وأُدعَى وإن لم أنتسب من محمَّد
هُمُ ما هم منْ لم يقُل بهواهمُ ... -وإن كان ذا رأي- يُلَمْ ويُفَنَّد(1)
أريد لأرضيهم ولستُ بلائط(2) ... مع القوم ما لم أُهْدَ في كل مقعد
فقُل لثقيف: لا أريد قتالها ... وقل لثقيف تلك غَيْريَ أوْعدي
فما كنتُ في الجيش الذي نال عامرًا ... وما كان عن جرًّا لساني ولا يدي
قبائل جاءتْ من بلاد بعيدة ... نزائع جاءت من سهام وسَرْدَد

قال ابن هشام: ويروى «ودلَّني على الحقِّ من طردت كلَّ مطرَّد».

---

(1) يفند: يعني يخطأ ويسفَّه.
(2) أي: لاصق.

قال ابن إسحاق: فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله: «**ونالني مع الله من طرَّدت كل مطرَّد**» ضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «**أنت طردتني كل مطرَّد؟**»(١).

أما قوله: «وأُدْعَى -وإن لم أنتسب- من محمد»، فله قصة ذكرها الواقدي فقال: وأما قوله: وأُدعى وإن لم أنتسب من محمد، فإنه هرب وقدم على قيصر ملك الروم، فقال: ممن أنت؟ فانتسب له أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، قال قيصر: أنت ابن عمِّ محمد إن كنت صادقًا، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ قال: قلت: نعم، أنا ابن عمِّه، فقلت: لا أراني عند ملك الروم وقد هربت من الإسلام، لا أُعرف إلا بمحمد! فدخلني الإسلامُ وعرفت أن ما كنت فيه باطلٌ من الشرك، ولكنَّا كُنَّا مع قوم أهل عقُول باسقة، وأرى فاضل الناس يعيش في عقولهم ورأيهم، فسلكوا فجًّا فسلكناه، ولمَّا جعل أهل الشرف والسن يقتحمون عن محمد وينصرون آلهتهم ويغضبون لآبائهم اتبعناهم(٢).

في هذا الخبر مثلٌ من رحمة رسول الله ﷺ البالغة؛ فهذا ابن عمه أبو سفيان بن الحارث الذي هجاه بشعره كثيرًا، وابن عمته عبد الله بن أبي أمية الذي قال له بمكة، فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلَّمًا، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك(٣).

ومع فداحة جرمهما فإن النبي ﷺ عفا عنهما وقبِلَ عذرهما، وهذا مثل عال في الرحمة والعفو والتسامح.

ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسُن إسلامه وكان له موَقف مشرف في الجهاد مع رسول الله ﷺ في معركة حُنين.

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢- ٢٤، وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي، المستدرك ٣/ ٤٣- ٤٥، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني، وقال: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٦/ ١٦٤- ١٦٧.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٨١١، ٨١٢.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام: ١/ ٢٩٥- ٣٠٠.

مثلٌ من التخطيط الحربي الدقيق

أخرج الواقدي -رحمه الله تعالى- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما كنَّا بالكَديد بين الظهر والعصر، أخذ رسول الله ﷺ إناءً من ماء في يده حتى رآه المسلمون، ثم أفطر تلك الساعة، وبلغ رسول الله ﷺ أن قومًا صاموا، فقال: «أولئك العُصاة!»، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم مُصبِّحو عدوِّكم، والفطر أقوى لكم!**» قال ذلك بمر الظهران، فلما نزل رسول الله ﷺ العرَج، والناس لا يدرون أين توجَّه رسول الله ﷺ؛ إلى قريش، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف! فهم يحبون أن يعلموا، فجلس في أصحابه بالعَرج وهو يتحدَّث، فقال كعب بن مالك: آتي رسول الله ﷺ فأعلمُ لكم علم وجهه، فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبتيه، ثم قال:

قضينا من تهامةَ كلَّ رَيْبٍ ... وخيْبرَ ثم أجممْنَا(1) السُّيوفا

نُسائلها ولو نطقت لقالت ... قواطعُهُن دوسًا أو ثقيفا

فلَستُ لحاضر إن لم ترَوها ... بساحة دَاركُم منها أُلُوفا

فنَنتزعُ الخيام ببطن وجٍّ(2) ... ونترُكُ دورَهم منهم خُلوفا

أنشدنيها أيُّوب بن النُّعمان، عن أبيه، قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ولم يزد على ذلك، فجعل الناس يقولون: والله ما بيَّن لك رسول الله ﷺ شيئًا؛ ما نَدري بمن يبدأ، بقريش أو ثقيف أو هَوازن(3).

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم حائرين طوال الطريق لا يدرون أين هدف النبي ﷺ، وكان أبو بكر يعلم ذلك كما سبق أن النبي ﷺ أخبره بأنه يريد مكة وأمره بكتمان ذلك، ومع ما كان من محاولة كعب بن مالك رضي الله عنه بقصيدته المذكورة، فإن النبي ﷺ لم يخبره بوجهته ولم يزد على أن تبسم؛ لأنه عرف مقصده، وهذا مثلٌ على القدرة الإدارية العالية والتخطيط الحربي الدقيق عند رسول الله ﷺ.

(1) أجممنا: أرحنا، شرح أبي ذر، ص: ٤٠٧.
(2) هو: وادي الطائف المشهور.
(3) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٠٢.

مثلٌ من رحمة النبي ﷺ بالحيوان

قال الواقدي: حدثني عبد الرحمن بن محمد، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، قال: لما سار رسول الله ﷺ من العَرج، فكان فيما بين العرج والطَّلوب، نظر إلى كلبة تَهِرُّ على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له: جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها، لا يعرض لها أحدٌ من الجيش ولأولادها[1].

وهكذا شملت رحمة النبي ﷺ الحيوان، فأوقف أحد الصحابة يحرس تلك الكلبة حتى لا تتضررَّ هي وأولادها من مرور الجيش، وهناك أمثلة أخرى من رحمته ﷺ بالحيوانات والطيور، وإن تلك الأخبار لأبلغ بكثير وأعظم أثرًا من كل ما تقوم به جمعيات الرفق بالحيوان.

****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٠٤.

مثلٌ من حزم الصحابة ودقة رصدهم

قال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد، عن عبد الله بن سعد، قال: لما راح رسول الله ﷺ من العَرَج تقدَّمت أمامه جَريدة من خيل[1] طليعةً تكون أمام المسلمين، فلمَّا كانت بين العرج والطلُّوب أتوا بعَيْن من هوازن إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، رأيناه حين طلعنا عليه وهو على راحلته، فتغيَّب عنَّا في وهدة[2]، ثم جاء فأوفى على نَشَز فقعد عليه، فركضنا إليه، فأراد أن يهرب منَّا، وإذا بعيره قد عقله أسفل من النَّشز وهو يُغيِّبه، فقلنا: ممن أنت؟ قال: رجلٌ من بني غفار، فقلنا: هم أهل هذا البلد، فقلنا: من أي بني غفار أنت؟ فَعَيَي ولم يُنفذ لنا نسبًا، فازددنا به ريبةً وأسأنا به الظن، فقلنا: فأين أهلُك؟ قال: قريبًا! وأومأ بيده إلى ناحية، قلنا: على أي ماء، ومن معك هنالك؟ فلم يُنفذ لنا شيئًا، فلما رأينا ما خلط، قلنا: لَتَصدُقَنَّا أو لنضربن عنقك! قال: فإن صدقتكم ينفعني ذلك عندكم؟ قلنا: نعم، قال: فإني رجلٌ من هوازن من بني نَصْر، بعثتني هوازن عينًا، وقالوا: ائت المدينة حتى تَلقى محمَّدًا فتستخبر لنا ما يريد في أمر حلفائه: أيبعث إلى قريش بعثًا أو يغزوهم بنفسه، ولا نراه إلا يستغورهم[3]، فإن خرج سائرًا أو بعث بعثًا فسر معه حتى تنتهي إلى بطن سرَف، فإن كان يريدنا أوَّلاً فسيسلك في بطن سَرف حتى يخرج إلينا، وإن كان يريد قريشًا فسيلزم الطريق.

فقال رسول الله ﷺ: «**وأين هوازن؟**» قال: تركتُهم ببَقْعاء وقد جمعوا الجموع، وأجلبوا في العرب، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم، فتركتُ ثقيفًا على ساق قد جمعوا الجموع، وبعثوا إلى الجُرَش[4] في عمل الدَّبابات والمنجنيق، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعًا، قال رسول الله ﷺ: «**وإلى من جعلوا أمرهم؟**»، قال: إلى فتاهم مالك بن عوف، قال رسول الله ﷺ: «**وكل هوازن قد أجاب إلى ما دعا إليه**

(١) الجريدة من الخيل: هي التي جردت من معظم الخيل؛ للقيام بمهمة.
(٢) الوهدة: الأرض المنخفضة.
(٣) المقصود: أنه سيفاجئهم بالإغارة.
(٤) الجُرَش: من مخاليف اليمن من جهة مكة، معجم البلدان، ٣/ ٨٤ .

مالك؟» قال: قد أبطأ من بني عامر أهل الجدِّ والجَلَد، قال: «**من؟**»، قال: كعبُ وكلابٌ، قال: «**ما فعلت هلال؟**» قال: ما أقل مَن ضَوى إليه منهم، وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدِم عليهم أبو سفيان بن حرب فرأيتهم ساخطين لما جاء به، وهم خائفون وَجِلون[1].

في هذا الخبر موقف لهؤلاء الصحابة الذين كانوا طليعة للمسلمين؛ وذلك في دقة رصدهم وحزمهم في استجواب ذلك العين الذي بعثه الأعداء من هوازن؛ لرصد تحرك الجيش الإسلامي ومعرفة وجهة سيره، ويشاء الله أن ينكشف أمر ذلك الجاسوس، وأن يتحول الأمر لصالح المسلمين؛ حيث أخبرهم عن جمع هوازن وعن وضع أهل مكة.

****

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٠٤، ٨٠٥.

خبر مسير النبي ﷺ إلى مكة

أخرج الحافظ إسحاق بن راهويه من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: خرج رسول الله ﷺ إلى مكة لعشر مضين من رمضان، فصام، وصام الناس، حتى إذا كان بالكديد أفطر، فنزل مَرَّ الظهران في عشرة آلاف من الناس، فيهم ألف من مُزينة، وسبعمائة من بني سليم، وقد عُمِّيت الأخبار على قريش، فلا يأتيهم خبر عن النبي ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعله، وقد خرج تلك الليلة أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء الخزاعي، يتحسَّسون الأخبار.

قال العباس: فلما نزل رسول الله ﷺ حيث نزل، قلت: واصباحَ قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة، ليكوننَّ هلاكهم إلى آخر الدهر، فركبت بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حتى جئت الأراك؛ رجاء أن ألتمس بعض الحطَّابة أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بأمر رسول الله ﷺ فيخرجوا إليه، فوالله إني لأسير ألتمس ما جئت به، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبُديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، فقال أبو سفيان: والله ما رأيت كالليلة نيرانًا ولا عسكرًا، فقال له بديل: هذه والله خزاعة قد حَمَشتها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعةُ والله أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها، فقلت: يا أبا حنظلة، تعرف صوتي؟ فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: مالك فداك أبي وأمي؟ فقلت: هذا والله رسولُ الله في الناس، واصباح قريش! قال: فما الحيلة، فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك، فاركب عجُز هذه البغلة، فركب ورجع صاحباه، فخرجت به، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمُّه، قالوا: هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليَّ، فلما رآه على عجز البغلة عرفه، فقال: والله عدوُّ الله، الحمد الله الذي أمكن منك، فخرج يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ ودخل، ورفعت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابة البطيئةُ الرجلَ البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر، فقال: هذا عدُّو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه، في غير عهد ولا عقد، فدعني فأضرب عنقه، فقلت: قد أجرته يا رسول الله، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ،

فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجلٌ دوني، فلما أكثر عُمر، قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان رجلاً من بني عدي ما قلت هذا، ولكنه من بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عبَّاس، لا تقل هذا، فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحبَّ إلي من إسلام الخطاب أبي لو أسلم، وذلك أني عرفت إن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عباس، اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتنا به**».

فذهبت به إلى الرَّحل، فلما أصبحتُ غدوت به، فلما رآه رسول الله قال: «ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال: بأبي وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك، لقد كاد أن يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئًا بعدُ، فقال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**»، فقال: بأبي وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك، أمَّا هذه فكان في النفس منها حتى الآن شيءٌ، قال العباس: فقلت: ويلك، أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله قبل أن يُضرب عنقك، فشهد أن لا إله الله وأن محمداً رسول الله، قال العباس: فقلت: يا رسول الله! إنَّ أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، فقال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**».

فلما انصرف إلى مكة؛ ليخبرهم، قال رسول الله ﷺ: «**احبسه بمضيق من الوادي عند حطم الخيل**[1] **حتى تمر به جنود الله**»، فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ فمرَّت القبائل على ركبانها، فكلما مرت قبيلة، قال: من هذه؟ فأقول: بنو سليم، فيقول: ما لي ولبني سليم، ثم تمرُّ أخرى، فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة، فلم يزل يقول ذلك حتى مرَّت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء[2] فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرَى منهم إلا الحَدَق[3]، قال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قبَل، والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا، فقلت: ويحك يا أبا سفيان، إنها النُّبوة، قال: فنعم إذًا، فقلت: النجاء إلى قومك، فخرج حتى أتاهم بمكة، فجعل يصيح بأعلى صوته، يا معشر

(١) أي: ازدحامها، فتح الباري: ٨/ ٨.

(٢) قال ابن هشام: وإنما قيل لها الخضراء؛ لكثرة الحديد وظهوره فيها.

(٣) أي: العيون.

قريش، هذا محمد، قد أتاكم بما لا قِبل لكم به، فقامت امرأته هند بنت عتبة، وأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَميت الدَسم الأحمس[1]، قُبِّح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان: لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا: قاتلك الله، وما تُغني عنَّا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن.

ذكر الحافظ ابن حجر ونسبه إلى إسحاق بن راهويه وقال: هذا حديث صحيح[2].

وهكذا وصل رسول الله ﷺ مكة المكرمة بذلك الجيش الكثيف ولم يعلم به أهل مكة، وهذا يرجع أولاً إلى عناية الله -تعالى- ولطفه؛ حيث استجاب -جلَّ وعلا- دعاء رسول الله ﷺ السابق، ويرجع ثانيًا إلى دقة التخطيط وحُسن التدبير من رسول الله ﷺ.

وفي هذا الخبر موقف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حيث قال للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «والله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم؛ وذلك أني عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب»، وهذا تعبير بليغ عن عمق محبة عمر لرسول الله ﷺ؛ حيث قدَّم ما يحبه وهو إسلام العباس على ما يحبه هو وهو إسلام الخطاب.

****

(١) الحميت: وعاء السمن، والأحمس: الكثير اللحم، تريد وصفه بضخامة الجسم.

(٢) المطالب العالية: ٤/ ٢٤٤-٢٤٨، رقم: ٤٣٦٢، وأخرجه الإمام الطبراني من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- وذكر نحوه، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٦/ ١٦٤-١٦٧.

وأخرجه الإمام البخاري مختصرًا من حديث عروة بن الزبير، صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٥، رقم: ٤٢٨٠، وأخرجه ابن إسحاق والواقدي، وذكرا نحو رواية إسحاق بن راهويه، وقد تم تصحيح بعض الأخطاء من روايتي ابن إسحاق والواقدي.

سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٤-٢٩.

مغازي الواقدي: ٢/ ٣١٦-٣٢٠.

١ - أخرج الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: دخل رسول الله ﷺ يومئذ وعليه عمامة سوداءُ، ورايتُه سوداءُ، ولواؤه أسود، حتى وقف بذي طُوى وتوسط الناس، وإن عُثْنُونه[1] لَيَمس واسطة الرَّحل أو يقرب منه، تواضعًا لله تعالى؛ حيث رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال: «العيشُ عيشُ الآخرة»[2]!

وهكذا دخل رسول الله ﷺ مكة وتحت قيادته عشرة آلاف مقاتل، وهو الذي خرج منها مستخفيًا قبل ثماني سنوات وليس معه إلا صاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وإنه لفرق شاسع بين وضعه في خروجه ودخوله.

إنه لموقف يستهوي النفوس البشرية أن تبلُغ الذروة في الكبرياء والجبروت والتعالي على الناس، خصوصًا إذا علمنا أن من قدم عليهم رسول الله ﷺ بهذه الجموع الكثيرة هم الذين آذوه كثيرًا وحاولوا قتله حتى خرج من بين أظهرهم مستخفيًا، فكان الوضع البشري المعتاد: أن تبرز مظاهر الأُبهة والخُيلاء والرغبة في الانتقام؛ لإذلال من سبقت منهم العداوة والإهانة، ولكنه ﷺ دخل مكة مُطأطئا رأسه تواضعًا لله تعالى، حتى ليكاد ذقنه يمس رحل بعيره، وهذا مشهد رائع مثير لا يكاد يتصف به إلا من اصطفاهم الله تعالى لرسالته.

وإن رسول الله ﷺ بهذا الخُلق الإسلامي الرفيع لَيضرب المثل للقادة من أمته؛ كي يتشبهوا به في التواضع لله عز وجل، والانتصار الكبير على هوى النفوس المخالف للمبادئ الإسلامية.

فهل أفرزت جميع الانتصارات الكبرى التي دوَّنها التاريخ مثل هذا الخلق الرفيع؟ اللهم لا، بل إنه من المستحيل أن يوجد مثل هذا الخُلق بغير الإسلام.

---

(١) أي: ذقنه.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٢٣، ٨٢٤، وأخرجه ابن إسحاق، وذكر نحوه: سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩، ٣٠، وأخرجه البيهقي من طريقين عن أنس بن مالك رضي الله عنه وعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، دلائل النبوة: ٥/ ٦٨ .

إن هذا المشهد الرائع لَيدلنا على عمق استحضار النبي ﷺ لعظمة الله عز وجل حتى كأنه يراه متمثلاً أمامه، وإن من النتائج المسلَّمة في هذا أن يحتقر كل مظاهر الدنيا؛ لأنها لا تساوي شيئًا أمام عظمة الله -جل وعلا-، وإنه على قدر وجود الإيمان بالله -تعالى- في قلب المؤمن واستحضاره لعظمته تكون درجة إيمانه، ولا شك أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وعلى رأسهم رسول الله ﷺ- قد بلَغوا الكمال الأعلى في ذلك.

٢- أخرج الحافظ البيهقي بإسناده عن قيس بن أبي حازم البجلي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يكلِّمه فأرعد الرجل، فقال له: «**هوِّن عليك، فإني لست بمَلك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديدَ**»، ورواه من طريق آخر موصولاً عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولكنه قال عن المرسل: هو المحفوظ(١).

فهذا مثلٌ من تواضع النبي ﷺ للناس، فهو في هذه القصة لم يغتنم فرصة هيبة الناس له المبنية على الحب البالغ والإعجاب الكبير بأخلاقه العالية.. لم يغتنم ذلك ليرسِّخ لنفسه مظاهر العظمة والتعالي، وحاشاه أن يفعل ذلك، بل سارع في هذه القصة إلى محو ما قد يعلق في بعض النفوس من تصوُّر المظاهر التي تعارف الناس عليها بالنسبة للسادة والزعماء، وإلى تقليص الحواجز التي قد تحول بين الرعية والراعي، فذكر لذلك الرجل أنه ﷺ ابن امرأة من قريش قد نشأت على التواضع والزهد؛ حيث كانت تأكل اللحم المجفف.

أقول: بل أنت -صلى الله عليك وسلم- إمام الدنيا وهادي البشرية ومحييها بشرع الله بعد موتها ومُرَوِّيها بعد جفافها.. ولكنه التواضع العظيم الذي يحمل أصحاب النفوس الكبيرة على التهوين من شأنهم؛ ليرفعوا من شأن الآخرين، ويزيلوا الحواجز والكلفة في نفوسهم.

لم يذكر ﷺ لذلك الرجل أنه هادي البشرية وقائدها نحو النجاة، بل لم يذكر ما هو أقل من ذلك؛ حيث لم ينسب نفسه إلى النَّسب الشريف والحسب الرفيع، وأنه سليل

---

(١) دلائل النبوة: ٥/ ٦٩، وقوله ﷺ: «أنا ابن امرأة من قريش» لا يعارضه ما اشتهر من أن بني النجار من الأنصار أخواله، فإن أمَّه من بني زهرة من قريش وليست من بني النجار، وإنما بنو النجار أخوال جده عبد المطلب؛ لأن أم عبد المطلب سلمَى بنت عمرو من بني النجار.

السادة والنجباء من قريش؛ وذلك ليمحو من قلبه أثر الرعب الذي خالطه وهو يحدِّثه، وليثبت له ولسائر الناس أن أعظم الناس هداية للأمة هو أشدهم تواضعًا وأكرمهم أخلاقًا.

إن عظمة الرجل ليست في مقدرته على إرهاب من يقدر عليهم، وإنما في رفع معنوياتهم حتى يستطيعوا التعبير عما في أنفسهم.

ولقد كان من عادة العرب أن ينتسبوا إلى آبائهم عند التفاخر، ولكن النبي ﷺ انتسب إلى أمه في خطابه لهذا الرجل، وهذا منتهى التواضع الذي يُعدُّ من القمة في مكارم الأخلاق.

٣- أخرج ابن إسحاق من حديث أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- قالت: لما دخل رسول الله ﷺ مكَّة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقودُه، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟**» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قال: قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسْلِم، فأسْلَمَ»، قالت: فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «**غيِّروا هذا من شعره**»(١).

وهذا مثال آخر على تواضع النبي ﷺ للناس، فقد كان على استعداد لزيارة والد أبي بكر -رضي الله عنهما- في بيته مع ما هو فيه من قيادة الأمة وما ينتظره من مهام الأمور.

وقد سنَّ النبي ﷺ في هذا الخبر سُنَّة توقير كبار السن واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «**ليس منَّا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**»(٢)، وقوله: «**إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم..**» الحديث(٣).

كما أن مما سنَّه رسول الله ﷺ في هذا الخبر إكرام أقارب ذوي البلاء والتقدم في الإسلام مكافأة لهم على ما قدموه من خدمة للمسلمين ونصر للدعوة الإسلامية.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٠، ٣١، وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمامين أحمد والطبراني عن أسماء -رضي الله عنها-، وذكر نحوه، وقال: ورجالهما ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٧٣، ١٧٤.

(٢) مسند أحمد: ١/ ٢٥٧، سنن الترمذي، كتاب البر، باب: ١٥.

(٣) سنن ابن داود، كتاب الأدب، باب: ٢٠.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني عبد الله بن أبي نجيح في حديثه أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد، فدخل من اللِّيط، أسفل مكة، في بعض الناس، وكان خالد على المُجنَّبة اليمنى، وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصفِّ من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدي رسول الله ﷺ، ودخل رسولُ الله ﷺ من أذاخر، حتى نزل بأعلى مكة، وضُربت له هنالك قبته.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح وعبد الله بن أبي بكر: أن صفوان بن صفوان بن أميَّة وعكرمة بن أبي جهل وسُهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسًا بالخَندمة؛ ليقاتلوا، وقد كان حماس بن قيس بن خالد، أخو بني بكر يُعدُّ سلاحًا قبل دُخول رسول الله ﷺ، ويُصلح منه، فقالت له امرأته: لماذا تعدُّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله إني لأرجو أن أُخدمك بعضهم، ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فما لي علَّهْ ... هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّهْ(1)

وذو غرارين سريع السَّله(2)

ثم شهد الخَندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد، ناوشوهم شيئًا من قتال، فقُتل كُرز بن جابر، أحد بني محارب بن فهر، وخُنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم، حليف بني منقذ، وكانا في خيل خالد بن الوليد فشذَّا عنه، فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلاَ جميعًا؛ قُتل خنيس بن خالد قبل كرز بن جابر، فجعله كرز بن جابر بين رجليه، ثم قاتل عنه حتى قتل: وهو يرتجز ويقول:

قد علمتْ صفراء من بني فهرْ ... نقيَّة الوَجه نقيَّة الصَّدرْ

لأضربنَّ اليومَ عن أبي صَخرْ

(1) الألة: الحربة ذات السنان الطويل.

(2) ذو غرارين: يعني السيف، والغرار بكسر الغين معناه: الحد، وسريع السلَّة يعني: سريع الخروج من الغمد.

وقال ابن هشام: وكان خُنيس يُكنى أبا صخر، قال ابن هشام: خنُيس بن خالد من خزاعة.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نجيح وعبد الله بن أبي بكر، قال: وأصيب من جُهينة سلمةُ بن الميلاء، من خيل خالد بن الوليد، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً، ثم انهزموا، فخرج حماسٌ منهزمًا حتى دخل بيته، ثم قال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي، قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخَندمهْ ... إذْ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمهْ

وأبُو يزيد قائم كالمؤتمهْ ... واستَقبلتْهم بالسيوف المسلمه[1]

يقطعن كلَّ ساعد وجمجمهْ ... ضربًا فلاُ يسمع إلا غمغمه

لهم نهيتٌ خلْفنا وهمهمهْ ... لم تنطقي في اللَّوم أدنى كلمه[2]

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحنين والطائف، شعارُ المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم[3].

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا: ومكث رسول الله ﷺ في منزله ساعةً من النهار[4]، واطمأنَّ واغتسل، ثم دعا براحلته القصواءَ فأُدنيت إلى باب قُبَّته، ودعا للُبْس السلاح، والمغفر على رأسه، وقد صفَّ له الناسُ، فركب براحلته والخيل تمْعج بين الخَندمة إلى الحَجون، ومر رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه يسير يحادثه، فمرَّ ببنات أبي أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبي أُحيحة، وقد نشرن رؤوسهنَّ،

(١) أبو يزيد: هو سهيل بن عمرو، والمؤتمة بكسر التاء: هي المرأة التي قُتل زوجها في الحرب، وترك لها أولادًا صغارًا.

(٢) النهيت: نوع من زئير الأسد، والهمهمة: الصوت الذي يخرج من الصدر.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٢- ٣٥.

(٤) يعني في المكان الذي نزل فيه، وذلك في الحجون.

يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسم وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبو بكر رضي الله عنه:

تظلُّ جيادُنا متمطِّرات   تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُر النساءُ[1]

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها، ومعه المسلمون، تقدم على راحلته فاستلم الرُّكن بمحجنه، وكبَّر فكبَّر المسلمون؛ لتكبيره، فرجَّعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيرًا حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم: «**اسكتوا!**» والمشركون فوق الجبال ينظرون[2].

وهكذا دخل الرسول ﷺ إلى الكعبة ولم يكن قتال إلا ما كان من طائفة من المشركين لم يقبلوا أمان النبي ﷺ، فقاوموا عند الخندمة وتصدَّى لهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيشه حتى هزمهم، وكون النبي ﷺ يصل إلى الكعبة بدون مقاومة تُذكر ولا قتال دليل على حسن إدارته وتدبيره للأمور وتعظيمه لحرمات الحرم.

وبهذا تم فتح مكة المكرمة، وتلاشى أكبر عدوٍّ للإسلام والمسلمين، ودخل أهلُ مكة بعد ذلك في الإسلام، وكانوا من أعظم المجاهدين في سبيل الله تعالى.

وقد أضاف النبي ﷺ كما جاء في هذا الخبر أمانًا آخر لأهل مكة، وذلك بأمره قادته أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وبذلك أمَّنَ الذين انهزموا من لقاء الخَندمة والذي صعدوا على الجبال.

وفي هذا الخبر إشادةٌ بحسَّان بن ثابت رضي الله عنه؛ حيث وقع ما أخبر به في شعره بقوله:

تظلُّ جيادُنا متمطِّرات   تُلطِّمهُن بالخُمر النساءُ

وذلك حينما خرجت النساء يلطمن وجوه الخيل بخمرهن في البطحاء؛ مما أثار إعجاب النبي ﷺ؛ حيث نظر إلى أبي بكر رضي الله عنه، وتبسم وذكر بيت حسان هذا، وهذا من إلهام الله تعالى لحسان.

---

(١) وذلك من قصيدته الهُمزية العصماء التي سبق ذكرها.

(٢) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٣١.

مثلٌ من أمانة النبي ﷺ ووفائه
(رد مفتاح الكعبة لبني شيبة)

قال ابن إسحاق: وحدَّثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله ابن أبي ثور، عن صفيه بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة، واطمأنَّ الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففُتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفَّ له الناس(١) في المسجد.

قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم أنَّ رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة، فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدَق وعدَه ونصَر عبْده، وهَزَم الأحزَابَ وحدَه، ألا كُل مَأثُرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قَدَميَّ هاتَين، إلاَّ سدَانة البيت وسقاية الحجاج، ألا وقتيلُ الخطأ شبه العمْد بالسَّوط والعصا، ففيه الدية مغلَّظة: مائةٌ من الإبل؛ أربعون منها في بطونها أولادُها، يا معشر قريش، إن الله قد أَذهب عنكم نخْوَة الجاهلية، وتعظُّمها بالآباء، الناسُ من آدمَ، وآدمُ من تُراب**»، ثم تَلا هذه الآيَة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣]، ثم قال: «**يا معشَر قُريْش، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُم؟**» قالُوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كَرِيم، قال: «**اذْهبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاء**».

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه عليٌّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمانُ بنُ طلحةَ؟**»، فدعي له، قال: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء**»(٢).

وذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني مُرسلاً ورجاله رجال الصحيح(٣).

(١) أي: اجتمعوا له.
(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤٠- ٤٢، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر، فتح الباري: ٨/ ١٨.
(٣) مجمع الزوائد: ٦/ ١٧٦، ١٧٧.

وروى نحوه عبد الرزاق الصنعاني، ثم قال: فحدَّثت به ابن عيينة، فقال: أخبرني ابن أبي مُليكة أن النبي ﷺ قال لعلي يومئذ حين كلَّمه في المفتاح: «**إنما أعطيتكم ما تُرْزَؤُونَ ولم أُعْطكُم ما تَرْزَؤُونَ**»، يقول: أعطيتكم السِّقاية؛ لأنكم تَغْرَمُون فيها، ولم أعطكم البيت؛ أي أنهم بأخْذه يأخذون من هديته[1].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: ردُّ النبي ﷺ مفتاح الكعبة إلى بني شيبة، لقد كانت السلطة الكاملة آنذاك بيد النبي ﷺ، وكان باستطاعته أن يمنح بني هاشم شرف حجابة البيت، ولكنه يعلم أن ذلك يتعارض مع خلق الوفاء والبرِّ، فبنو شيبة لهم حق التوارث في ذلك، فمن البرِّ بهم ألا ينزعه منهم، ومن الوفاء أن يرد المفتاح إليهم؛ ولذلك قال لعثمان بن طلحة الشيبي: «هاكَ مفتاحُك يا عثمان، اليوم يومُ برٍّ ووفَاء».

وفي هذا الخبر مثل واضح لتمييز النبي ﷺ بين بر الأقارب وإقرار العدالة في إعطاء الناس حقوقهم.

إن للقرابة حقًّا ثابتًا من البر والإحسان، ولكن يجب ألا يطغى لزوم ذلك على مبدأ إقرار العدالة في الأرض؛ لأن ذلك من الظلم، وقد يحدث بسبب عدم تطبيق العدالة فساد في الأرض، وقد كان رسول الله ﷺ يراعي هذا المبدأ في كل توجيهاته وأحكامه.

ثانيًا: ما جاء في خطبة النبي ﷺ من بيان بعض العقائد والأحكام ومخاطبة قريش بالعفو والتسامح، فمن ذلك إلغاء مآثر الجاهلية التي تتنافى مع الإسلام، ولقد كان النبي ﷺ قويًا حازمًا في هذا القرار؛ لأن بعض المآثر يعتزُّ بها المشركون.

ومن ذلك إقرار المساواة بين المسلمين في الأنساب التي يعتز بها أهل الجاهلية، فالناس يجمعهم جميعًا آدم عليه السلام، وإنما أحدث الناس التميز في الإنسان حسب أهوائهم، وقد بين النبي ﷺ الشيء الوحيد الذي يتفاضل فيه المسلمون، ألا وهو التقوى؛ حيث تلا قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٨٣، ٨٤، رقم: ٩٠٧٣.

وقد ختم النبي ﷺ خطبته بموقفه العظيم في العفو عن قومه والتسامح معهم؛ حيث قال: «**اذْهبُوا فأنتُم الطُّلَقَاء**».

لقد قابل ﷺ إساءة قومه بالإحسان، وعداوتهم بالعطف والرحمة، وغضِّ الطرف عن كل ما وصل إليه منهم من أذى وإهانة.

تُرَى لو كانوا هم الذين ظفروا بالنبي ﷺ ماذا كانوا يصنعون به؟!

إن كل ما يتصوره البشر من وسائل التعذيب والإهانة يمكن أن يجعلوها مقدمة لقتله والتخلص منه.

لكنه ﷺ أطلقهم كاملي الحرية من غير أن يمس كرامتهم ولا أن يجرح مشاعرهم.

ولقد كان لهذا السلوك الكريم الأثر الكبير في هدايتهم؛ حيث أسلموا جميعًا على فترات.

وهذا منهج عال يرسم معالمه النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى؛ ليسير المسلمون على نهجه في التجرُّد من حظِّ النفس والنظر الخالص إلى ما فيه هداية الناس وإعزاز الإسلام.

****

مثل من إعزاز الإسلام والمسلمين
(أذان بلال في الكعبة)

قال ابن هشام: وحدثني[1] أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذّن، وأبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوسٌ بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محقٌّ لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم النبي ﷺ، فقال: «قد علمت الذي قُلتم»، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتّاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطَّلع على هذا أحدٌ كان معنا، فنقول: أخبرك![2].

في هذا الخبر مثلٌ على اهتمام النبي ﷺ بإظهار عزَّة الإسلام وإغاظة المشركين، وإكرام المؤمنين.

لقد أراد النبي ﷺ من أمر بلال بالأذان في الكعبة أن يُظهر عزَّة الإسلام؛ حيث ارتفع نداؤه فوق أقدس مكان، وأن يُعلِم المشركين بأن الشرك لم يعدْ له بقاء في تلك الأراضي المقدسة بعد أن ارتفع نداء التوحيد.

وفي أمر بلال بذلك إشعارٌ لسادة قريش الذين لا زالوا يعتزُّون بسيادتهم الجاهلية أنه بإمكان بلال ونحوه من الذين كانوا مستضعفين تحت أيديهم أن يتبوَّؤوا في الإسلام مكاناً عاليًا.

وقد كان من نتائج هذا الموقف أن صدرت من عَتَّاب بن أسيد هذه المقالة التي تمخَّض عنها إسلامه هو والحارث بن هشام حينما أخبرهم النبي ﷺ بما قالوا، وهو غائب عنهم، فعرفوا أنه رسول الله ﷺ حقًّا بهذه المعجزة النبوية.

---

(١) يعني: من يثق به من أهل العلم الذي ذكره في خبر سابق.
(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤٣.

وهكذا قال عتاب هذه المقالة حال كفره حينما كانت القيم العالية عنده هابطة، والموازين مقلوبة، ولكن حينما نوَّر الله تعالى بصيرته بالإسلام، فلا شك أنه سيتمنى أن أباه كان من المهتدين، وأن يشهد عظمة الإسلام وعزَّة المستضعفين.

لقد تحول هذا المشهد في عينَي عتاب إلى برد وسلام بعد أن كان لهيبًا وأحقادًا، وهكذا تكون عظمة الإسلام في علاج النفوس المريضة الهابطة ودفعها إلى الآفاق العالية.

ولقد كان إيمان عتاب بن أسيد قويًا، مما جعل النبي ﷺ يثق به فيوليه إمارة مكة، ولقد كان موضع الثقة؛ حيث كان قويًا في تنفيذ أحكام الدِّين، شديدًا على المتهاونين بتنفيذ هذه الأحكام.

****

مثلٌ من وفاء النبي ﷺ
إشفاق الأنصار من بقاء النبي ﷺ بمكة

أخرج الإمام مسلم بإسناده حديثًا عن أبي هريرة رضي الله عنه في فتح مكة، وقد جاء فيه: «فقالت الأنصارُ بعضُهم لبعض: أمَّا الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ: «**يا معشرَ الأنصارِ**»، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: «**قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته**»، قالوا: قد كان ذاك، قال: «كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ورسوله يُصدِّقانكم ويعذُرانكم**»(1).

وهكذا أشفق الأنصار رضي الله عنهم من أن يقيم رسول الله ﷺ بمكة ويتركهم، ولكن النبي ﷺ الكريم الوفي لن يخلف وعده الذي وعدهم به يوم بيعة العقبة من عدم التحوُّل عنهم إذا نصره الله تعالى وظهر أمره، وحتى لو لم يكن هناك وعدٌ فإن وفاءه لأولئك الأماجد الكرام الأسُود الأشاوس الذين نصر الله بهم الإسلام وأقام بهم دولته.. إن وفاءه لهم يمنعه من أن يتحول عنهم؛ ولذلك قال: «المحيا محياكم والممات مماتكم»، وبهذا اطمأن الأنصار وامتلؤوا سعادة وحبوراً.

****

(1) صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٧٨٠، ص: ١٤٠٥.

١- أخرج الإمامان البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ستُّون وثلاثمائة نُصب[١]، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩][٢].

وقد سقطت هذه الأصنام كلها، كما جاء في رواية أخرجها الإمام البيهقي من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم، قال: فأخذ قضيبه فجعل يُهْوي به إلى صنم صنم، وهو يَهْوي حتى مر عليها كلها[٣].

٢- أخرج الواقدي من حديث سعد بن عمرو الهُذلي قال: قدم رسول الله ﷺ مكَّة يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رمضان إلى أن قال: وبعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى يهدمُها، فخرج خالد في ثلاثين فارسًا من أصحابه حتى انتهى إليها وهدمها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال: «هدمتْ؟» قال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**هل رأيت شيئًا ما؟**» قال: لا، قال: «**فإنك لم تهدمْها، فارجع إليها فاهْدِمهَا**».

فرجع خالد وهو متغيِّظ، فلما انتهى إليها جرَّد سيفه، فخرجت إليه امرأةٌ سوداء عريانة ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، قال خالد: وأخذني اقشعرارٌ في ظهري، فجعل[٤] يصيح.

أيا عُـزَّ شـدِّي شـدَّة لا تُكذِّبي ... على خـالد ألقي القناعَ وشَـمِّـري

أَيَا عُـزَّ إن لـم تقـتلي المرءَ خـالدًا ... فـبـوئي بذنبٍ عـاجل أو تَنَصَّـري

---

(١) يعني: الأصنام، سميت بذلك لأنها تنصب للعبادة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، رقم: ٤٢٨٧، ٨/ ١٥، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، رقم: ١٧٨١، ١٤٠٨.

(٣) دلائل النبوة: ٥/ ٧١، وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦/ ١٧٦، وقال: رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

(٤) يعني: السادن.

قال: وأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول:

يا عُـزَّ كـفـرانك لا سـبـحـانك   إني وجـــدت الله قـــد أهانك

قال: فضربها بالسيف فجزلها باثنين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «نعم، تلك العُزَّى وقد يئستْ أن تُعبد ببلادكم أبدًا».

ثم قال خالد: أي رسول الله، الحمد لله الذي أكرمنا وأنقذنا من الهَلَكة، إني كنت أرى أبي يأتي إلى العزَّى بحتْره[1]؛ مائة من الإبل والغنم فيذبحها للعُزى، ويقيم عندها ثلاثًا ثم ينصرف إلينا مسرورًا، فنظرت إلى ما مات عليه أبي، وذلك الرأي الذي كان يُعاش في فضله، كيف خُدع حتى صار يذبح لحجَر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرُّ ولا ينفع، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ هذا الأمر إلى الله، فمن يسَّره للهُدى تيسَّر، ومن يسَّره للضَّلالة كان فيها**».

قال: وكان هدْمُها لخمس ليالٍ بقين من رمضان سنة ثمان[2].

وأخرج خبر هدم العزى ابن إسحاق بأخْصر من هذا[3].

وأخرجه كذلك البيهقي من حديث أبي الطفيل رضي الله عنه، وفيه: «فرجع خالد، فلما نظرت إليه السدنة -وهم حُجَّابها- أمعنوا في الجبل، يقولون: يا عُزَّى خبِّليه، يا عُزى عوِّريه[4]، وإلا فمُوتي برَغْم»[5].

٣- أخرج الواقدي من حديث سعد بن عمرو الهذلي قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكَّة بعث السرايا. . إلى أن قال: وبعث عمرو بن العاص إلى صنم هذيل -سواع- فهدمه، فكان عمرو يقول: انتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريُد؟ فقلت: هَدْم سُواع، فقال: مالك وله؟ فقلت: أمرني رسول الله ﷺ! قال: لا تقدر على هدمه، قلت: ولم؟ قال: يمتنع، قال: عمرو: حتى الآن أنت في الباطل! ويحك هل يسمع أو يُبصر؟ قال عمرو: فدنوت إليه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، ولم يجدوا فيها شيئًا، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

---

(١) أي: بعطيته.

(٢) مغازي الواقدي: ٣/ ٨٧٣، ٨٧٤.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٧٩، ٨٠.

(٤) أي: أُصيبيه بعقله وجسمه.

(٥) دلائل النبوة.

ثم نادى منادي رسول الله ﷺ بمكة: من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن في بيته صنمًا إلا كَسره، قال: فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام.

وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره(١).

٤- قال محمد بن سعد -رحمه الله تعالى-:

قالوا: بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة، وكانت بالمُشلَّل للأوس والخزرج وغسَّان، فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي يهدمها، فخرج في عشرين فارسًا حتى انتهى إليها وعليها سادن، فقال السادن: ما تريد؟ قال: هدم مناة! قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج إليه امرأة عُريانةٌ سوداءَ ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال السادن: مَناة دونك بعضَ غضباتك، ويضربها سعد بن زيد الأشهلي ويقتلها، ويقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئًا وانصرف راجعًا إلى رسول الله ﷺ، وكان ذلك لستٍّ بقين من شهر رمضان(٢).

في هذا الأخبار مواقف وعبر؛ منها:

أولاً: مبادرة النبي ﷺ إلى إزالة معالم الوثنية منذ أن قدر على إزالتها؛ لأن الدعوة إلى التوحيد مع بقاء معالم الشرك لا تنفع إلا قليلاً؛ حيث لا يتأثر بالدعوة إلا قلة من الناس، فإن السَّواد الأعظم منهم قد تعلَّقت قلوبهم بمعالم الوثنية التي توارثوا تقديسها، وتحُول بينهم وبين التأثر بدعوة الحق.

لقد شاهد الكفار أصنامهم التي ورثوا تعظيمها كابرًا عن كابر وهي تهوي وتتحول إلى حطام من الحجارة والخشب، وثبت لكل ذي عقل سليم أنها لا تضر ولا تنفع، وإنما هي مجرَّد وسائل يتلبس بها شياطين الإنس والجن؛ ليهيمنوا بها على قلوب الناس.

كان شياطين الإنس يحرسون هذه الأصنام ويقاتلون دونها؛ لأنها كانت تؤمِّن لهم سلطة روحية على الناس، وباسمها يشرعون للناس على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم المنحرفة.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٦٩، ٨٧٠، انظر: طبقات ابن سعد: ٢/ ١٤٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٤٦، ١٤٧.

وكان شياطين الجن يستترون وراء هذه الأصنام فيخاطبون عابديها أحيانًا، ويقضون لهم بعض حوائجهم التي هي في مقدورهم مقابل عبادتهم إياها، كما جاء في رواية أخرجها الإمام البيهقي عن ابن أبزى قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقال: «**تلك نائلة أيستْ أن تعبد ببلدكم هذا أبدًا**»(١).

ونائلة: اسم صنم حول الكعبة، فهذا دليل على أن المعبودين حقيقة هم شياطين الجن، وقد ماتوا كمدًا وحسرةً حينما فُتحت مكة وانقطع الناس عن عبادتهم، وزالت الأصنام التي كانت وسائطَ بينهم وبين الناس.

ومما يدلُّ أيضًا على أن شياطين الجن كانوا من وراء الأصنام اعتمادًا على سذاجة بعض الإنس ما جاء في الخبر الثاني الذي فيه أن خالد بن الوليد رضي الله عنه هدم العُزَّى فخرجت له امرأة من الجن فقتلها، وكذلك ما جاء في الخبر الرابع أن سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه خرجت له امرأة من الجن من صنم مناة فقتلها.

وهكذا تبين لنا كيف أن أولئك العرب في جاهليتهم كانوا يركعون ويتذللون لنساء من الجن.. فما أحقر العقول وأهونها حينما تكون بعيدة عن الله تعالى!

لقد كانوا مجتمعين بما لَهم من قوة ومنعة لا يستطيعون أن يتفوَّهوا بكلمة سوء لهذه الأصنام؛ خوفًا من أن تضرهم، بينما يستطيع القضاء عليها رجل واحد من الموحدين كما فعل خالد وسعد رضي الله عنهما.

فما أعلى هذا الأفق الذي رفع الناسَ إليه رسولُ الله ﷺ بدعوة التوحيد!!

وما أبلغ هذا المستوى الفكري الذي وصل إليه المسلمون بهذه الدعوة!!

إنها الدعوة الساميَة التي تهدف إلى إعتاق الفكر البشري وتحريره من قيود الجاهلية الخانقة؛ لينطلق في ساحات الإيمان الرحيبة، فيضع الأمور في مواضعها، ويقدر الله تعالى حق قدره، ويعطي لكل كائن حي ما يلائم تكوينه الذي خلقه الله عليه.

---

(١) دلائل النبوة: ٥/ ٧٥.

مثلٌ من عفو النبي ﷺ وحلمه ودعوته
(خبر فضالة بن عُمير وإسلامه)

ذكر ابن هشام في رواية له أنَّ فضالة بن عمير بن المُلَوح الليثيَّ أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «**أَفُضالة؟**»، قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: «**ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟**»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «**استَغْفِر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما منْ خلق الله شيءٌ أحبُّ إليَّ منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدَّث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلتُ لا ... يأبَى عليك اللهُ والإسلامُ

لوْ مَا رأيت محمدًا وقَبيله ... بالفتح يوم تُكسَّر الأصْنامُ

لرأيت دينَ الله أضْحَى بيِّنا ... والشِّركَ يغشَى وجهَه الإظلامُ[1]

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: ما اشتمل عليه من أخلاق النبي ﷺ العالية في العفو والتسامح والحلم؛ حيث واجه من كان يريد قتله بالبشاشة وعفا عنه وتوجه لدعوته إلى الإسلام الحق.

إن الذي كان يشغل بال النبي ﷺ هو أن يهدي الله تعالى على يديه أكبر قدر ممكن من البشر، وكانت هذه المهمة تطغى في حياته على كل أمر دُنيوي؛ ولهذا حينما علم بما كان يُضمره فضالةُ من إرادة الفتك به لم يُلْق لأمر حمايته منه بالاً، ولم يشغل فكره بكيفية الانتقام منه، وإنما توجَّه فكرُه حالاً لمحاولة هدايته من الضلال.

ولقد كان لمظهر النبي ﷺ وهو يبتسم له ويأمره بالاستغفار مع شعوره بأنه قد عرف مقصده وما يتضمنه ذلك من حلم النبي ﷺ وعفوه عنه أثرٌ ظاهر في محو كل أثر للشرك والكراهية من قلب فُضالة إلى جانب بركة يد النبي ﷺ التي وضعها على صدره، لقد

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤٨، ٤٩.

تحوَّل أبغض الناس إليه إلى رجل هو أحب الناس إليه في لحظات يسيرة، وما ذاك إلا لأنه ﷺ عامله بأعلى ما يتصور من مكارم الأخلاق من الحلم والعفو والبشاشة، في الوقت الذي كان يتوقع لو انكشف أمرُه أن يُعامَل بأقسى ما يمكن أن يُتصور من المعاملة.

ثانيًا: موقف فضالة بن عمير الليثي رضي الله عنه في الورع والاستقامة رغم حداثة عهده بالإسلام، فقد رفض أن يتحدث مع تلك المرأة التي كان يتحدث إليها قبل إسلامه، وأشعرها بأن ذلك لا يحلُّ له في الإسلام.

لقد كان إسلامُه قويًا وإيمانه صادقًا؛ حيث تكوَّن لديه بهذه السرعة الوازع الديني الذي جعله يرفض الاستجابة للحرام؛ إجلالاً لله تعالى، ولشرف الشهادتين اللَّتين نطق بهما عن يقين وقناعة.

وهذا مثلٌ ظاهر على الأثر البالغ لإيمان الصحابة رضي الله عنهم البالغ في سلوكهم ومعاملتهم مع الناس.

****

مواقف عالية لرسول الله ﷺ في الدعوة

١- إسلام سهيل بن عمرو

قال الواقدي: فحدَّثني موسى بن محمد، عن أبيه، قال: قال سهيل بن عمرو: ولمَّا دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمتُ[١] بيتي وأغلقتُ عليَّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سُهيل[٢]، أن اطلب لي جواراً من مُحمد، وإني لا آمن أن أُقتل، وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه، فليس أحدٌ أسوأ أثرًا منِّي، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحدٌ، وكنت الذي كاتبتُه مع حضُوري بدراً وأُحُدًا، وكلما تحرَّكتْ قريش كنت فيها.

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، تُؤمّنه؟ فقال: نعم، وهو آمنٌ بأمان الله، فليظهر، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدُّ النَّظر إليه فليخرج، فلعَمري إنَّ سهيلاً له عقلٌ وشرف، وما مثل سُهيل جَهلَ الإسلامَ»، ولقد رأى ما كانُ يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع، فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ، فقال سهيل: كان والله براًّ، صغيراً وكبيراً، فكان سُهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حُنين مع النبي ﷺ وهو على شِركه حتى أسلم بالجعرَّانة[٣].

وهكذا كان رسول الله ﷺ يعرف معادن الرجال ويقدِّر كرام القوم، ولقد عرف ما دخل أصحابه من الغل على سهيل بن عمرو؛ حيث كان هو الذي تولى عقد ذلك

---

(١) أي: رميت بنفسي.

(٢) هو عبد الله بن سهيل بن عمرو -رضي الله عنهما-، أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة في المرة الثانية، ثم قدم مكة للهجرة إلى المدينة فحبسه أبوه، فأظهر له الرجوع إلى دينه والشدَّة على المسلمين حتى أخرجه معه إلى بدر في نفقته وحملانه وهو لا يشك أنه على دينه، فلما تواقفوا انحاز إلى المسلمين قبل القتال، فغاظ ذلك أباه، ثم كان يقول بعد إسلامه حين أسلم يوم فتح مكة: لقد جعل الله لي في إسلام ابني عبد الله خيراً كثيراً، استُشهد في معركة جُواثَى في البحرين أيام الردة وله ثمان وثلاثون سنة، فلقي سهيل أبا بكر رضي الله عنه، فعزَّاه أبو بكر، فقال سهيل: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**يشفع الشهيد في سبعين من أهله**»، وأنا أرى أن لا يُقَدِّم عليَّ ابني أحدًا، أنساب الأشراف: ١/ ٢٥٢ .

(٣) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٤٦، ٨٤٧، وانظر: المستدرك، للحاكم: ٣/ ٢٨١ .

الصلح الجائر يوم الحديبية الذي بسببه منُع المسلمون من العمرة في ذلك العام، فخشي ﷺ أن ينظر إليه الصحابة نظرات جارحة، فيكون ذلك سببًا في تمنُّعه من الإسلام، فأمر أصحابه ألا ينظروا إليه نظرات حادَّة، ووصف سهيلاً بالعقل والشرف، وبنى على ذلك أن من كان في مثل عقله وشرفه فإنه لا يجهل الإسلام.

لقد كان لهذه الكلمات التربوية العالية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو؛ حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبرِّ طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك.

إن هذا السلوك العالي من رسول الله ﷺ في معاملة سهيل يعدُّ قدوة عليا للدعاة من بعده وخاصة القادة منهم، وذلك في سلوك السُّبل التي تسلُّ سخائم الصدور وترفع الحرج عن الأعزة الأكابر الذين وقعوا في شيء من الذُّل حتى لا يتعرضوا لجرح المشاعر.

لقد نهى رسول الله ﷺ الصحابة عن أن يشْفُوا غليلهم من سُهيل بالنظرات الحادة؛ لاحتمال أن يقع ذلك من بعضهم ما دام سهيل على كفره؛ لأن هذا الأمر هو الذي يقدرون عليه؛ إذ إنهم لا يقدرون على قتله، ولا على إيذائه بأكثر من ذلك وهو في الأمان، فنهاهم عن ذلك؛ لأنه يريد كسبه للإسلام، وكسبُ مثله يعني كسب الكثيرين ممن ألفوا التبعية للأكابر.

وبهذا وأمثاله كان رسول الله ﷺ في أعلى قمم الدعوة إلى الله تعالى.

هذا وقد حسن إسلام سُهيل بن عمرو، وكان مكثرًا من الأعمال الصالحة، يقول الزبير بن بكَّار: كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا، ويقال: إنه صام وتهجَّد حتى شحب لونُه وتغيَّر، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميرًا على كردوس(١) يوم اليرموك(٢).

****

---

(١) أي: فرقة كبيرة.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٩٥.

٢- إسلام صفوان بن أمية

أخرج الواقدي من حديث عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- قال: وأمَّا صَفوان ابن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة[١]، وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: ويْحَك، انظر من ترى! قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمدًا عليَّ، فلحقه، فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حمَّلتني ديْنك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وَهْب، جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبرِّ الناس وأوْصل الناس، وقد كان عُمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربًا؛ ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤمِّنه، فأمِّنه فداك أبي وأمي! فقال رسول الله ﷺ: «**قد أمَّنته**».

فخرج في أثره، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أمَّنك، فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، جئتُ صَفوان هاربًا يريد أن يَقتل نفسه فأخبرته بما أمنته: فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال: رسول الله ﷺ: «**خذْ عمامتي**».

قال: فرجع عُمَير إليه بها، وهو البُرْد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذ مُعتجرًا[٢] به، بُرْد حبَرَة[٣]، فخرج عمير في طلبه الثانية، حتى جاء بالبُرْد فقال: أبَا وَهْب، جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبرِّ الناس، وأحلم الناس، مَجْدُه مَجْدك، وعزُّه عزك، وملكُه ملكُك، ابن أمك وأبيك، أُذكرك الله في نفسك، قال له: أخاف أن أُقتل، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيَّرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرُّهم، وقد بعث إليك ببُرده الذي دخل به معتجرًا، تعرفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى

---

(١) الشعيبة: مرفأ السفن في ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، معجم البلدان: ٥/ ٢٧٦، وهو معروف الآن بهذا الاسم.

(٢) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلُفَّها على رأسه ويردُّ طرفَها على وجهه، ولا يعمل منها شيئًا تحت ذقنه، النهاية: ٣/ ٦٩ .

(٣) الحبِرةُ: ضربٌ من ثياب اليمن، شرح أبي ذر: ٣٦٩ .

رسول الله، ورسول الله ﷺ يُصلي بالمسلمين العصر في المسجد، فوقفا، فقال صفوان: كم تصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم، فلما سلَّم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببُردك، وزعم أنك دعوتني إلى القُدوم عليك، فإن رضيت أمرًا وإلا سيَّرتني شهرين، قال: «**انزلْ أبَا وَهْب**»، قال: لا والله حتى تُبين لي، قال: «**بل تُسيَّر أربعة أشهر**»، فنزل صفوان.

وخرج رسول الله ﷺ قبلَ هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال رسول الله ﷺ: «عاريةٌ مؤدَّاة»، فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ، فحملها إلى حُنين، فشهد حُنينًا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعْب مليء نعمًا وشاءً ورعاءً، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: «أبا وهب، يُعجبك هذا الشِّعْب؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه»، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبيٍّ، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسولُه، وأسْلَم مكانه[1].

وأخرجه ابن إسحاق من حديث عُروة بن الزبير، وذكر نحوه[2].

في هذا الخبر موقفٌ دعوي جليلٌ لرسول الله ﷺ؛ فقد حاول أن يتألَّف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم؛ وذلك بإعطائه الأمان أوَّلاً، ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من المال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أوَّلاً مائةً من الإبل مع عدد من زعماء مكة، ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم، فقال: ما طابت نفسُ أحدٍ بهذا إلا نفسُ نبيٍّ، ثم أسلم مكانه.

هذا الرجل الذي عمل الكثير في عداء الإسلام ومحاولة اغتيال النبي ﷺ يكافئه الرسول ﷺ بهذه الأعطيات الجزيلة، ويتناسى كل أعماله السابقة، ويهتم بشيء واحد هو: أن يدخل في الإسلام؛ لأنه زعيم قومه، وبإسلامه سيسلم من لم يسلم بعدُ من

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٥٣- ٨٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤٩، ٥٠.

بني جمح، حتى نجح أخيراً في جذبه إلى الإسلام بشيء اعترف هو بأنه لا يصدر إلا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا رأينا مثلاً من اهتمام النبي ﷺ الكبير بدعوته، وبذل المحاولات المتعدِّده من أجل هداية الناس إلى الإسلام.

وفي وصف عطاء النبي ﷺ لصفوان وتأثُّر صفوان بذلك يقول عن نفسه: والله قد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ»، أخرجه الإمام مسلم[1].

****

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل رقم: ٢٣١٣، ص: ١٨٠٦.

إسلام عكرمة بن أبي جهل

أخرج الواقدي بإسناده إلى عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- قال: قالت أمُّ حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله ﷺ: «**هو آمنٌ**»، فخرجت أمُّ حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميٌّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تُمنِّيه حتى قدمت على حيٍّ من عكٍّ[1]، فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له: أخلصْ! فقال: أي شيء أقول: قال: قل لا إله الله، قال عكْرمة: ما هربتُ إلا من هذا.

فجاءَت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تُلحُّ إليه وتقول: يا ابن عمٍّ، جئتك من عند أوصلِ الناس وأبرِّ الناس وخيرِ الناس، لا تُهلك نفسك، فوقف لها حتى أدركته، فقالت: إني قد أستأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ، قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمَّنك، فرجع معها، وقال: ما لقيتِ من غلامك الروميِّ؟ فخبَّرته خبره فقتله عكْرمة، وهو يومئذ لم يُسلم.

فلمَّا دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**يأتيكم عكْرمة بن أبي جهل مُؤمنًا مُهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإنَّ سبَّ الميِّت يُؤذي الحي ولا يبلغ الميت**».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأتَه يُجامعها، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول: إنَّ أمرًا منعك مني لأمرٌ كبيرٌ.

فلمَّا رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه -وما على النبي ﷺ رداء- فَرحًا بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ، فوقف بين يديه، وزوجته منتقبة، فقال: يا محمَّد، إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت، فأنت آمن!**» فقال عكرمة: فإلى ما تدعو يا محمد؟ قال: «**أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة...**» وتفعل، وتفعل، حتى عدَّ خصال الإسلام.

---

(١) عك: مخاليف مكة التهامية: معجم ما استعجم: ٢٢٣.

فقال عكرمة: والله ما دعوتَ إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت -والله- فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثًا وأبرُّنا برًا، ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فسُر بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، علِّمني خير شيء أقوله، قال: «تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله»، قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «**تقول: أُشهد الله وأُشهد من حضَر أنِّي مُسلم مهاجرٌ ومجاهِد**»، فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسألني اليوم شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه**»، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كلَّ عداوة عاديتُكَها، أو مسير وَضعتُ فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اغفر له كلَّ عداوة عادانيها، وكلَّ مسير سار فيه، إلى موضع يُريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض؛ في وجهي أو وأنا غائب عنه**»، فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، ثم قال عكرمة: أما والله يا رسول الله، لا أَدَع نفقةً كنت أُنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله[1].

في هذا الخبر مواقف؛ منها:

أولاً: مواقف عظيمة لرسول الله ﷺ في الدعوة والرغبة الشديدة في هداية الناس، وخصوصًا من لهم تأثير في قومهم، فقد أعطى الأمان لعكرمة بن أبي جهل؛ على الرغم من كونه ظل يقاتل المسلمين حتى آخر لحظة حينما دخل المسلمون مكة المكرمة.

ثم أخبر الصحابة رضي الله عنهم بأن عكرمة سيأتي مُسلمًا مهاجرًا، وقال: «فلا تسبوا أباه فإن سبَّ الميِّت يؤذي الحيَّ ولا يبلُغُ الميِّت»، وإن من أسوإِ نتائج الأذى من ذلك أن يحصل من عكرمة تَمنُّع من الإسلام بسبب ذلك.

وهكذا تنبه النبي ﷺ إلى أمر قد يقع، فعمل بالاحتياط له حتى يزيل أي عقبة تحُول بين عكرمة والإسلام، أو تجعله ضعيف الشخصية في الإسلام؛ لما يحصل له من التذكير بالماضي الذي لا يُشرِّف المسلم، وإذا ضعفت شخصية المسلم تضاءلت طاقته وضعف عطاؤه.

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٥١- ٨٥٣.

ومن ذلك قيامه ﷺ لاستقبال عكرمة حتى أعجل نفسه عن أخذ ردائه من شدة فرحه بمجيء عكرمة، وقال له كما جاء في بعض الروايات: «مرحبًا بالراكب المُهاجر»[1].

إن هذا السلوك من رسول الله ﷺ يُعدُّ قمة في التواضع واللُّطف.. إن قيامه لعكرمة مع كونه آنذاك كافرًا يشبه قيامه لأعزِّ أحبابه المسلمين؛ وما ذاك إلا ليمحو من نفس عكرمة أي شعور يخالج فكره من الخوف والرهبة مما سيواجهه؛ من السلوك الخشن، والمعاملة الجافة من المسلمين بسبب ترسُّب أحداث الماضي في ذاكرتهم.

إن هذا السلوك اللطيف الحاني من رسول الله ﷺ نحو عكرمة يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام.

رجلٌ تراكمت في سجلِّ تاريخه وتاريخ أبيه أحداثٌ مُرَّة مؤلمة نحو رسول الله ﷺ والمسلمين، ثم يقدم عليهم بثياب الوَجل المتردِّد الذي ينتظر مواجهات ومعاملات مبنية على تراكمات الماضي، فإذا به يُفاجأ برسول الله ﷺ يقوم إليه مستقبلاً قد أعجل نفسه عن لبس ردائه، يبتسم له ويرحِّبُ به ترحيب من غُمر بفضائل من قام لاستقباله!!

إنه موقف عظيم هائل.. لو جُسِّم ثم وُجِّه إلى الجبال الراسيات لفتتها، فكيف لا يؤثر في الإنسان الذي يملك الأحاسيس والمشاعر؟!

لقد أسلم عكرمة رضي الله عنه حالاً بمجرد أن عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وأثنى على النبي ﷺ من قبل أن يُبعث رسولاً.

ثانيًا: موقف أمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة التي أخذت لزوجها الأمان من رسول الله ﷺ، ثم غامرت بنفسها فخرجت تبحث عنه، لعلَّ الله يهديَه إلى الإسلام الذي هداها إليه، خرجت إلى البحر وليس معها إلا غلامها الرُّومي الذي خان الأمانة معها، فأخذته بالسياسة والحكمة حتى وجدت قومًا منعوها منه، ثم سارت حتى أدركت عكرمةَ على السفينة، فأنقذته من الضلال والهلاك بإلحاحها وأسلوبها المؤثِّر حتى رجع معها إلى رسول الله ﷺ.

---

(1) ذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني بإسنادين، قال عن أحدهما: مرسل ورجاله رجال الصحيح، وقال عن الآخر: رجاله رجال الصحيح، إلا أن مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة، مجمع الزوائد: ٩/ ٣٨٥، وانظر: تاريخ المدينة المنورة، لابن شبَّة: ٢/ ٤٩٨.

وحينما أرادها زوجها امتنعت منه، وعلَّلت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظُم الإسلام في عينيه، وأدرك أنه أمام دين عظيم.

هذه المرأة المحبة لزوجها التي غامرت بنفسها وعرَّضتها للهلاك من أجله تمتنع منه بالإسلام!

إنه دين عظيم يحمل معتنقيه على مقاومة أهوائهم التي تتنافى مع تشريعاته.

إن دينًا يصل بالمرأة إلى أن تمتنع من زوجها لا يمكن أن يكون من وضع البشر؛ لأن مفكري البشر حريصون على أن يحققوا للبشر رغباتهم وإن كانت جامحة عن سَنَن الاعتدال.

إنه دين أعظم من ذلك... إنه لا يمكن أن يكون إلا الدين الإلهي.. كل ذلك توحيه كلمة عكرمة ... إن أمرًا منعك مني لأمرٌ كبير.

وهكذا تَخطُّ أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام وتضعه على أول درجات الهداية.

إنها -رضي الله عنها- امرأة عظيمة مجاهدة وفيَّةٌ لزوجها، قوية في تمسكها بدينها على الرغم من حداثة إسلامها.

ثالثًا: كان عكرمة رضي الله عنه صادق الإسلام، قوي الإيمان من حين أن أسلم؛ ولذلك لما برَّه النبي ﷺ بتحقيق مطلبه في أي شيء يريده مما أعطاه غيره لم يسأله دُنيا، وإنما سأله أن يستغفر الله تعالى له في كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية.

ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يبلي في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية.

وهذا دليل على صدقه وإخلاصه، ولقد صدق في وعده، فكان من أبرز المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة، ثم في حروب الروم حتى وقع شهيدًا في معركة اليرموك بعدما أبلى بلاءً عظيمًا رضي الله عنه.

****

إسلام هبَّار بن الأسود

قال الواقدي: حدثني هشام بن عمارة، عن سعيد بن محمد بن جُبير بن مُطعم، عن أبيه، عن جده قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ في أصحابه في مسجده، مُنصَرفُه من الجعرانة، فطلع هبَّار بن الأسود من باب رسول الله ﷺ، فلما نظر القوم إليه قالوا: يا رسول الله، هبَّار بن الأسود! قال رسول الله ﷺ: «**قد رأيته**»، فأراد بعض القوم القيام إليه، فأشار النبي ﷺ أن اجلس، ووقف عليه هبَّار فقال: السلام عليك يا رسول الله، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ولقد هربتُ منك في البلاد وأردتُ اللحوق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وفضلَك وبرَّك وصفحك عمَّن جَهل عليك، وكنَّا يا رسول الله أهل شرك، فهدانا الله عز وجل بك، وأنقذنا بك من الهَلَكة، فاصفح عن جهلي وعمَّا كان يبلغك عني، فإني مقرٌّ بسوء فعلي، معترف بذنبي، فقال رسول الله ﷺ: «**قد عفوتُ عنكَ**»، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام، والإسلام يجبُّ ما كان قبله.

وأخرجه من طريق آخر عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، وفيه قال الزبير: فجعلت أنظر إلى النبي ﷺ، وإنه ليطأطئ رأسه استحياءً مما يعتذر هبار(١).

فهذا الخبر فيه موقف لرسول الله ﷺ في العفو والتسامح؛ فهبار بن الأسود هو الذي أشار بالرُّمح إلى زينب بنت رسول الله ﷺ وهي مهاجرة فأسقطت حملها، وقد تأثر النبي ﷺ كثيراً من إساءته تلك.

ويشاء الله أن يأتي إلى النبي ﷺ مُسلمًا ويعتذر إليه بهذه الكلمات الرقيقة، فيتأثر النبي ﷺ من اعتذاره، ويطأطئ رأسه حياءً من هبار، من شدة تواضعه في الاعتذار، ويجيبه بالعفو عنه وتهنئته بالإسلام.

فما أعظم أخلاق النبي ﷺ الذي حوّله الاعتذار الرقيق إلى التأثُّر حياءً من ظالمه الذي كان سابقًا قد تأثر من إساءته!!

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٨٥٨، ٨٥٩.

موقفٌ لهند بنت عتبة

قال الواقدي: حدَّثني عبد الله بن يزيد، عن أبي حصين الهُذلي، قال: لمَّا أسلمتْ هندُ بنتُ عتبة أرسلت إلى رسول الله ﷺ بهدية -وهو بالأبطَح- مع مولاة لها، بجَدْيَيْن مرضوفين[1]، وقَدٍّ[2]، فانتهت الجارية إلى خيمة رسول الله ﷺ فسلَّمت واستأذنت، فأذن لها، فدخلت على رسول الله ﷺ، وهو بين نسائه؛ أم سلمة زوجته وميمونة، ونساء من نساء بني عبد المطلب، فقالت: إنَّ مولاتي أرسلت إليك بهذه الهدية، وهي معتذرة إليك، وتقول: إنَّ غنمَنا اليوم قليلة الوالدة، فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكم في غنمكم، وأكثر والدتَها**».

فرجعت المولاة إلى هند فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ فسُرَّتْ بذلك، فكانت المولاة تقول: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتنا ما لم نكن نرى قبلُ ولا قريبًا، فتقول هند: هذا دعاءُ رسول الله ﷺ وبركتُه، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام! ثم تقول: لقد كنت أرى في النوم أني في الشمس أبدًا قائمة، والظلُّ منِّي قريبٌ لا أقدر عليه، فلمَّا دنا رسول الله ﷺ منَّا رأيت كأني دخلت الظلَّ[3].

في هذا الخبر موقفُ كرمٍ من هند بنت عتبة بن ربيعة -رضي الله عنها-، سليلة بيت الكرم؛ حيث أهدت إلى رسول الله ﷺ تلك الهدية مع الاعتذار بأن غنمهم في ذلك الوقت قليلة الولادة.

وقد كسبت هندُ أكثر مما جادت به؛ حيث كسبت دعوة النبي ﷺ لغنمهم بالبركة، فلاحظُوا بعد ذلك كثرةً واضحةً في غنمهم ببركة دعاء النبي ﷺ.

****

(١) أي: مشويين على الحجارة، وهي الرضف.

(٢) القدُّ: جلد السَّخلة.

(٣) مغازي الواقدي: ٣/ ٨٦٨، ٨٦٩.

اهتمام النبي ﷺ بإقرار العدالة
(خبر المخزومية التي سرقت)

أخرج الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير: «أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلَّمهُ أسامة فيها تلوَّن وجهُ رسول الله ﷺ، فقال: «**أتكلمني في حدٍّ من حدود الله؟**» قال أسامه: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشيُّ قام رسولُ ﷺ خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال: «**أما بعدُ، فإنما أهلك الناسَ قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركُوهُ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، والذي نفسُ محمد بيده، لو أنَّ فاطمةَ بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها**»، ثمَّ أمر رسولُ الله ﷺ بتلك المرأةً فقُطعت يدُها، فحسنت توبتها بعد ذلك، وتزوَّجت.

قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتها إلى رسول الله ﷺ(1).

هذا الحديث من الأمثلة التي تدل على اهتمام النبي ﷺ بإقرار العدالة بين الناس، وتطبيق الحدود الإسلامية على جميع المسلمين؛ كبيرِهم وصغيرِهم.

إنه موقف عظيم للنبي ﷺ أمام مدخل خطير للانحراف الذي يؤدي في نهايته إلى تعطيل إقامة الحدود، ومن ثمَّ سيادة الفوضى والجرائم في المجتمع، وقد بين النبي ﷺ أن التفريق بين الأكابر والضعفاء في تطبيق الحدود كان سبب هلاك الأمم من قبلنا، وفي هذا تحذيرٌ بليغ لهذه الأمة من أن تسلك هذه السبل المعوجة حتى لا تصل بها في النهاية إلى النتائج المشؤومة نفسها، ويزيد الأمر تأكيدًا بالقسم على تطبيق الحدود حتى على أقرب الناس إليه فيما لو وقعت منه المخالفة ولو كان ذلك من ابنته العفيفة الطاهرة؛ حتى لا تضعف نفوس الحكام عن تطبيق الحدود على أقاربهم.

وإن في هذا الموقف الذي أثار غضب النبي ﷺ الشديد واهتمامه الكبير لعبرةً للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحكام من أجل تعطيل الحدود الإسلامية.

---

(1) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٢٤، ٢٥، رقم: ٤٣٠٤.

مواقف وعبر

في

غزوة حنين وحصار الطائف

اجتماع الأعداء من هوازن وأحلافها

قال ابن إسحاق: ولما سمعتْ هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النَّصرى، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كُلُّها، واجتمعت نصر وجُشم كلها، وسعد بن بكر، وناسٌ من بني هلال، وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيْلان إلا هؤلاء، وغاب منها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب، ولم يشهدها منهم أحد له اسم، وفي بني جُشم دُرَيْد بن الصمة شيخ كبير، ليس فيه شيء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخًا مجرَّبًا، وفي ثقيف سيدان لهم، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن معتِّب، وفي بني مالك ذو الخمار سُبيع بن الحارث بن مالك، وأخوه أحمر بن الحارث، وجماعُ أمر الناس إلى مالك بن عوف النصْرى.

فلما أجمع السَّير إلى رسول الله ﷺ حطَّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دُرَيْد بن الصِّمة في شجار[1] له يُقَاد به، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعمَ مجالُ الخيل! لا حَزْن ضرْس، ولا سهْلٌ دَهسٌ[2]، مالي أسمع رُغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك، ودُعي له، فقال: يا مالك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائنٌ له ما بعدَه من الأيام، مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال: ولم ذلك؟ قال: أردتُ أن أجعل خلف كلِّ رجل منهم أهله وماله؛ ليقاتل عنهم، قال: فانقَضَّ به[3]، ثم قال: راعي ضأن والله! وهل يَرُدُّ المنهزم شيءٌ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحتْ في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلتْ كعبٌ وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد، قال: غاب الحَدُّ والجدُّ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب، ولوَددتُ أنكم فعلتم ما فعلتْ

---

(١) هو بوزن كتاب: مركب يشبه الهودج، لكنه غير مغطى.

(٢) يعني: لا غليظ صلب، ولا تراب ناعم تغوص فيه الأقدام.

(٣) يعني: زجره وعاب رأيه.

كعبٌ وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، قال: ذانكَ الجذَعان من عامر لا ينفعان ولا يضران، يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيْضَة بيضَة هوازن[١] إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم وعُليًّا قومهم، ثم الْقَ الصُّباء[٢] على متون الخيل، فإن كانت لك لحَق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والَله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرتَ وكبر عقلك، والله لتطيعُنَّني يا معشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدُريد بن الصمة فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أطعناك، فقال دريد ابن الصمة: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني:

يا لَيتني فيها جَذَعْ أخبُّ فيها وأضَعْ

أَقُودُ وطْفاءَ الزَّمَعْ كأنها شاةٌ صدَعْ

قال ابن إسحاق: ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم فاكسرُوا جفون سيوفكم، ثم شدُّوا شدة رجل واحد[٣].

هذا الذي حصل في تجهيز جيش الأعداء فيه عبرة؛ حيث حشدوا معهم نساءهم وذراريهم وأنعامهم، وكأنما ساقوها؛ لتكون غنيمة للمسلمين، ولقد كان رأي دُريد بن الصمة سديدًا حينما أشار بقوة ووضوح إلى الخطأ الذي ارتكبه مالك بن عوف في حشد النساء والذراري والأنعام، ولكنَّ مالكًا استبدَّ برأيه وأصرَّ عليه فأطاعه قومُه وحلفاؤهم.

ولم يكن العرب يعرفون من مبدأ الشورى إلا القليل، وإنما كانوا يطيعون زعماءهم من غير تفكير أحيانًا، يطيعونهم حتى لو عرفوا أنهم مخطئون.

وقد أطاع أفراد هذه القبائل زعيمهم مالك بن عوف طاعة عمياء؛ إما بدون تفكير، أو مع معرفة خطئه بحمل النساء والذراري والأنعام.

---

(١) يعني: النساء والذرية التي تحتاج إلى حماية.

(٢) يعني: المسلمين، وكان المشركون يسمونهم بذلك؛ بدعوى خروجهم عن دين قومهم.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٨١- ٨٤، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى، ورواه البزَّار باختصار، وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٦/ ١٧٩، ١٨٠، ورواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، وأقرَّه الذهبي المستدرك: ٣/ ٤٨، ٤٩.

عبرة فيما أصاب جواسيس المشركين

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: قالوا: انتهى رسول الله ﷺ إلى حُنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلوْن من شوَّال، وبعث مالكُ بن عوف رجالاً من هوازن ينظرون إلى محمدَ وأصحابه -ثلاثة نفر- وأمَرهَم أن يتفرقوا في العسكر، فرجعوا إليه وقد تفرَّقت أوصالهم، فقال: ما شأنكم ويلكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضًا على خيل بُلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما تَرَى! وقالوا له: ما نُقاتل أهل الأرض، إن نُقاتل إلا أهل السموات، وإنَّ أفئدة عيونه تخفُق، وإن أطعتنا رجعتَ بقومك، فإن الناس إن رأوا مثل ما رأينا أصابهم مثل الذي أصابنا، قال: أفٍّ لكم! بل أنتم قومٌ أجبن أهل العسكر، فحبسهم عنده؛ فرقًا أن يشيع ذلك الرُّعْب في العسكر، وقال: دُلُّوني على رجل شجاع، فأجمعوا له على رجل، فخرج، ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم، فقال: ما رأيت؟ قال: رأيت رجالاً بيضًا على خيل بُلْق، ما يُطاق النظر إليهم، فوالله ما تماسكت أن أصابني ما ترى! فلم يَثْنه ذلك عن وجهه[1].

في هذا الخبر عبرةٌ لهؤلاء الأعداء المتحزِّبين ضد المسلمين لو كانوا يستفيدون من العبر، لكن زعيمهم مالك بن عوف قد صمم على الحرب لأمر قد أراده الله تعالى، وقد كان يدفعه إلى الحرب الحفاظ على سمعته؛ لأنه لو تراجع لانحطت سمعته عند القبائل، كما أنه في اعتقاده أن النبي ﷺ لن يتركهم وقد حزَّبوا الأحزاب ضده، وأنه سيقصدهم في بلادهم متفرِّقين، فلعله رأى أن مواجهة الجيش الإسلامي وهم مجتمعون أقرب إلى النصر.

وهذا الخبر من الأخبار التي تثبت مشاركة الملائكة مع المسلمين يوم حُنين.

****

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٨٩٢.

موقف لابن أبي حدْرد الأسلمي في التجسُّس على الكفار

قال الواقدي -فيما يروي عن شيوخه قالوا-: ودعا رسول الله ﷺ ابن أبي حدْرد الأسلمي، فقال: «انطلقْ، فادخل في الناس حتى تأتي بخبرٍ منهم، وما يقول مالك»، فخرج عبد الله فطافَ في عسكرهم، ثم انتهى إلى ابن عَوف فوجد عنده رؤساءَ هَوازن: فسمعه يقول لأصحابه: إن محمدًا لم يقاتل قطُّ قبل هذه المرَّة، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم، فإذا كان في السَّحر فصُفُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم صفُّوا صفوفكم، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا جُفون سيوفكم فتلقَونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن، واحملوا حملةَ رجلٍ واحد، واعلموا أنَّ الغلبة لمن حمل أوَّلاً! فلما وعى ذلك عبد الله بن أبي حدْرد رجعَ إلى النبي ﷺ فأخبره بكلِّ ما سمع[1].

في هذا الخبر موقفٌ جريءٌ لابن أبي حدْرد الأسلمي؛ حيث غامر بنفسه ودخل في وسط جيش الأعداء إلى أن وصل إلى مركز القيادة، فسمع قائدهم مالكًا وهو يخطط للهجوم على المسلمين مع فجر اليوم التالي.

وهكذا استطاع بمغامرته ودهائه أن يأتي النبي ﷺ بخطة الأعداء الحربية، وهو رجل المغامرات المعروف الذي سبق ذكره في سريَّة الغابة.

****

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٨٩٣، وأخرجه الحاكم مختصرًا ضمن خبرٍ عن حُنين، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه، وأقره الذهبي، المستدرك: ٣/ ٤٨، ٤٩.

موقف لأنس الغنوي في حراسة المسلمين

أخرج الإمام أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فأطنبوا السَّير(١)، حتى كان عشيَّة، فحضرتُ الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجلٌ فارس، فقال: يا رسول الله، إني انطلقت بين أيديكم، حتى طلعتُ جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهُوازن على بكرة آبائهم(٢) بظُعُنهم(٣) ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حُنين، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله**»، ثم قال: «**من يحرسُنا الليلة**»؟ قال أنس بن أبي مرْثد الغنوي: أنا يا رسول الله، قال: «فاركب»، فركب فرسًا له، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**استقبل هذا الشِّعب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغرَّنَّ من قبلك الليلة**»، فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مُصلاه فركع ركعتين، ثم قال: «**هل أحسسْتم فارسكم**»؟ قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثُوِّب بالصلاة(٤)، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**»، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلَّم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشِّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطَّلعتُ الشِّعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدًا، قال له رسول الله ﷺ: «**هل نزلت الليلة**»؟ قال: لا، إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: «**قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها**»(٥).

في هذا الخبر موقفٌ جليل لأنس الغنوي رضي الله عنه؛ حيث وقف طوال الليل يحرس المسلمين فوق الجبل.

ولقد حاز بعمله هذا على إعجاب النبي ﷺ حتى قال: «فلا عليك أن لا تعمل بعدها»، وهذا محمول على النوافل التي يُكفِّر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملاً صالحًا كبيرًا يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات.

---

(١) أي: أسرعوا. (٢) يعني: جميعًا، وهو كناية عن كثرة العدد.

(٣) يعني: بنسائهم. (٤) أي: أقيمت الصلاة.

(٥) سنن أبي داود، رقم: ٢٥٠١، الجهاد: ٣/ ٢٠، وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، المستدرك: ٢/ ٨٣، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر، فتح الباري: ٨/ ٢٧.

ابتداء المعركة والمفاجأة(١)
ومثل من شجاعة النبي ﷺ

١- قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: لما استقبلنا وادي حُنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حَطوط(٢)، وإنما ننحدر فيه انحدارًا، قال: وعماية الصُّبح(٣)، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدُّوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطُّون إلا الكتائبُ قد شدُّوا علينا شدَّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يَلوي أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «**أين الناس؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**»، قال: فلا شيء، حملت الإبلُ بعضُها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته عليٌّ بن أبي طالب، والعباسُ بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث وابنهُ، والفضلُ بن العباس، وربيعةُ بن الحارث، وأسامةُ بن زيد، وأيمنُ بن عبيد، قُتل يومئذ(٤).

٢- وأخرج الإمام مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقهُ، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروةُ بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ

(١) كانت هذه المعركة في اليوم الخامس من شهر شوال من السنة الثامنة، البداية والنهاية: ٤/ ٣٢٢.
(٢) أي: شديد الانحدار.
(٣) أي: ظلامه.
(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ٨٩، ٩٠.
وذكر الحافظ الهيثمي أن هذا الخبر رواه الأئمة أحمد وأبو يعلى والبزّار، قال: وفيه ابن إسحاق وقد صرَّح بالسماع في رواية أبي يعلى، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٦/ ١٧٩، ١٨٠.

يركضُ بغلته قِبل الكفار، قال عباسٌ: وأنا آخذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، أكُفُّها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أي عباس ناد أصحاب السَّمُرة**»(١)، فقال عباس -وكان رجلاً صيِّتًا-: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله لكأنَّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوةُ في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، قال: ثم قُصرت الدعوةُ على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «**هذا حين حمي الوطيس**»(٢)، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنَّ وجوهَ الكفار، ثم قال: «**انهزموا ورب محمد**»! قال: فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدَّهم كليلاً وأمرهم مُدبرًا(٣).

٣- وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي إسحاق السبيعي قال: جاء رجلٌ إلى البراء، فقال: أكنتم ولَّيتم يوم حنين يا أبا عُمارة؟ فقال: أشهدُ على نبيِّ الله ﷺ ما ولَّى، ولكنه انطلق أخفَّاءُ من الناس، وحُسَّرٌ إلى هذا الحيِّ من هوازن، وهم قوم رماةٌ، فرموهم برشق من نبل كأنها رجلٌ من جراد(٤)، فانكشفوا، فأقبل القومُ إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلتهُ، فنزل ودعَا واستنصر، وهو يقول:

«أنا النبيُّ لا كَذب   أنا ابنُ عبد المطلب

اللهم نزِّل نصرك».

قال البراء: كُنَّا والله إذا احمرَّ البأس(٥)، نتقي به، وإن الشجاع منَّا لَلذي يحاذي به؛ يعني النبي ﷺ(٦).

---

(١) هي الشجرة التي بايع تحتها الصحابةُ رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية.

(٢) أي: اشتدت الحرب، تشبيها للحرب بالتنور الذي تسجَّر فيه النار.

(٣) صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٧٧٥، ص: ١٣٩٨، وانظر مصنف عبد الرزاق، رقم: ٩٧٤١، ٥/ ٣٧٩، وسيرة ابن هشام: ٤/ ٩٣.

(٤) يعني: قطعة عظيمة من الجراد.

(٥) كناية عن شدة الحرب، والتعبير بالاحمرار من تشبيه الحرب بالنار.

(٦) صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٧٧٦ ص، ١٤٠١ وانظر صحيح البخارى، المغازى رقم ٤٣١٧ (٨/ ٢٨).

٤- وأخرج الإمامان البزَّار والطبراني من حديث أبي عبد الرحمن الفهري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة حُنين.. وذكر شيئًا من خبرها إلى أن قال: فقال رسول الله ﷺ: «**يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله**»، واقتحم عن فرسه فنزل فأخذ كفًّا من حصى، قال: فحدثني من هو أقرب إليه مني أنه ضرب وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه**»، فهزم الله المشركين، قال: فحدثني أبناؤهم أن آباءهم قالوا: فما بقي منَّا يومئذ أحد إلا امتلأت عينه وفمه ترابًا، وسمعنا صلصلة من السماء إلى الأرض كإمرار الحديد على الطست.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجالهما ثقات(١).

وأخرج الإمام الطبراني من حديث يزيد بن عامر السوائي -وكان قد شهد حُنينا مع المشركين، ثم أسلم- أنه سئل عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم يوم حُنين كيف كان؟ فأخذ حصاة فرمى بها طستا فَطنَّ، قال: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله ثقات(٢).

في هذه الأخبار مواقف وعبر، منها:

أولاً: موقف النبي ﷺ أمام تلك المفاجأة؛ حيث كان الأعداء قد سبقوا المسلمين إلى وادي حنين وكمنوا لهم في منعطفاته، فلما انحدر المسلمون إلى الوادي رماهم المشركون رميًا كثيفا متتابعًا، حتى كأنَّ النبل قطعة عظيمة من الجراد قد ملأت الجو، ولم يكن بعض الذين في مقدمة جيش المسلمين قد استعدوا بالدروع فانهزموا وحالوا بين بقية الجيش والتقدم إلى الإمام، لكن النبي ﷺ نزل إلى الوادي واستقر في يمينه، ثم نزل عن دابته، ودعا الله تعالى واستنصره وقال: «**اللهم نزِّل نصرك**».

ونقف قليلاً؛ لنتأمل كيف أن النبي ﷺ لم يشغله هول تلك المفاجأة عن دعاء الله تعالى، ولم يقم أولاً بعمل الترتيبات اللازمة التي يقوم بها القادة عادة؛ لتلافي الهزيمة والحصول على النَّصر، بل ارتفع فكره قبل كل شيء إلى السماء فدعا الله تعالى واستنصره، ثم قام بنداء الخُلَّص من أصحابه؛ ليجتمعوا حول مركز القيادة؛ ذلك لأنه

(١) مجمع الزوائد: ٦/ ١٨١- ١٨٢.

(٢) مجمع الزوائد: ٦/ ١٨٣.

ﷺ يوقن أن النصر والهزيمة بيد الله تعالى وحده، وأن تميُّز المسلمين على غيرهم إنما هو بكون الله تعالى معهم بنصره وتأييده، ويخشى أن يكون قد وقع من المسلمين خللٌ يقتضي تخلف نصر الله تعالى إياهم، فكان دعاء الله تعالى أهم شيء فكَّر فيه النبي ﷺ.

وقد كان سبب الفشل في غزوة حُنين في بداية المعركة أن بعض المسلمين أُعجبوا بكثرتهم، فقالوا: لن نُغلب اليوم من قلَّة، ولعل الذين قالوا هذه العبارة من حديثي العهد بالإسلام، فوقع الخلل بسبب تخلف عنصر مهم من عناصر النصر لدى بعض المسلمين، ألا وهو التوكل على الله وحده؛ حيث اعتمدوا بعض الشيء على كثرة عددهم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

وحينما عاد المسلمون وصدَقوا مع الله نصرهم الله -تعالى- نصرًا مؤزرًا، وأثابهم غنائم عظيمة إلى جانب ما يدَّخر لهم من الثواب في الآخرة.

ثانيًا: هذه المعركة تُبين بوضوح شجاعة النبي ﷺ الفائقة، وثباته الراسخ، فحينما حدثَ الهجوم المفاجئ على المسلمين لم ينهزم، بل اختار مكانا من الوادي مناسبًا وثبت فيه، وصار ينادي أصحابه بأن يفيئوا إليه.

لم يستخف النبي ﷺ بنفسه؛ حتى لا يكون عرضة لهجوم الأعداء، بل كان ينادي بأعلى صوته يقول:

«أنا النبيُّ لا كَذب   أنا ابنُ عبد المطلب»

وقوله: «لا كَذب»، قال الحافظ ابن حجر: فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي ﷺ، والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر حقٌّ فلا يجوز عليَّ الفرار(١).

(١) فتح الباري: ٨/ ٣١.

ومما يبين شجاعة رسول الله ﷺ الفذَّة في هذه الأخبار ما جاء في رواية مسلم الأخيرة من قول البراء بن عازب -رضي الله عنهما-: «كنَّا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا لَلَّذي يحاذي به».

وكذلك قول العباس رضي الله عنه في رواية مسلم الأولى: «فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبَلَ الكفار، قال: وأنا آخذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادة أن لا تسرع»، وكان هذا في المرحلة الأولى التي أُفرد فيها النبي ﷺ بقلَّة من أصحابه.

إن رسول الله ﷺ حينما يقود المعارك بنفسه ويتعرَّض لبأسها وضراوتها إنما يسنُّ السنة الحسنة للقادة من بعده.

إنه لا يقود المعارك من أبراج محمية وهو لا يدري عما يدور من تفاصيل المعركة فيصدر الأوامر على غير هدى، بل كان ﷺ يتقدم مع أصحابه ويُنظم الصفوف ويتفقد جيشه، فإذا أُصيب الجيش بشيء من الخلل فتفرق ثبت في مركز القيادة ونادى بالناس؛ ليجتمعوا إليه، كما في هذه الغزوة وما سبق بيانه في غزوة أحد.

ثالثًا: جرت في هذه المعركة مواقف للصحابة رضي الله عنهم في الثبات والجهاد؛ فمن ذلك موقف القلة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ في المرحلة الأولى من المعركة وهم بعض الذين كانوا قريبين منه أثناء هجوم الأعداء، وكذلك الذين استجابوا لنداء الرسول ﷺ الذي ألقاه إلى عمِّه العباس رضي الله عنه؛ لكونه جهوري الصوت، وقد جاء في حديث العباس المذكور وصف عودتهم بالسرعة الشديدة؛ وذلك لما علموا بمكان النبي ﷺ، وعلى هؤلاء الذين ثبتوا مع النبي ﷺ دارت رحى الحرب في مرحلتها الثانية التي انتهت بانهزام الأعداء وانتصار المسلمين.

رابعًا: في رمي الرسول ﷺ الأعداء بالحصيات، ثم إدبار أمرهم بعد ذلك عبرةٌ عظيمةٌ، وقد قال الله -تعالى- عن مثل ذلك يوم بدر: ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ١٧]، فالله تعالى هو الذي رمى الأعداء بواسطة رسول الله ﷺ فانهزموا، وهذا نوعٌ من نصر الله تعالى للمؤمنين في تلك المعركة، فإن تلك القبضة من التراب أصابت جميع الأعداء، كما جاء في الرواية الأخيرة عن الذين شهدوا المعركة منهم أنهم قالوا: فما بقي منا يومئذ أحدٌ إلا امتلأت عينُه وفمه ترابًا.

كما أن الله تعالى أصاب المشركين بالرعب الذي وجدوه في أجوافهم كصوت الحصاة يرمى بها الطِّست، كما جاء في الرواية الأخيرة.

وذلك من نصر الله تعالى لأوليائه المؤمنين، وفي ذلك عبرة للمسلمين في كل زمان ومكان إذا هم نصروا الله جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧].

ومما يلاحظ أن النبي ﷺ رمى الكُفَّار بالحصيات بعد عودة المسلمين إلى المعركة واحتدامها بينهم، وذلك يشير إلى أنه ليس من سنة الله تعالى أن ينصر المسلمين بخوارق العادات من غير أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا جهدهم في قتال الأعداء، فإذا أخذوا بالأسباب التي شرعها الله تعالى وجعلها وسائل لتحقيق النصر، فإن شاء الله -جل وعلا- أكرمهم بالنصر بخوارق العادات.

****

موقفان جهاديان لعلي وأبي دجانة

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: بينا ذلك الرجل من هوازن صاحبُ الراية على جمله يصنع ما يصنع؛ إذ هوَى له عليٌّ بن أبي طالب -رضوان الله عليه- ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتيه عليٌّ بن أبي طالب من خلفه، فضرب عُرقُوبَي الجمل، فوقع على عجُزه، ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطنَّ قدَمه بنصف ساقه، فانجعف عن رحله، قال: واجْتَلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتَّفين عند رسول الله ﷺ[1].

وأخرجه الواقدي بنحوه، وذكر أن الأنصاري الذي كان مع علي هو أبو دجانة سماك بن خرشة، رضي الله عنهما[2].

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الأئمة أحمد وأبي يعلى والبزَّار من طريق ابن إسحاق، وقال: وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية أبي يعلى، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح[3].

في هذا الخبر موقف جهادي لعليٍّ بن أبي طالب وأبي دجانة -رضي الله عنهما-؛ حيث خلَّصا المسلمين من أذى ذلك القائد الذي يفتك بالمسلمين ويقود طائفة من جيش الأعداء، والقضاء على القائد يعني ارتباك الجنود من خلفه وتفرقهم، فيسهل القضاء عليهم متفرقين.

والوصول إلى القادة يُكلِّف من سيهاجمهم جهدًا كبيرًا؛ لأنهم عادة يكونون محميين من خلفهم ومن جوانبهم، فالهجوم عليهم يُعدُّ نوعًا من المغامرة، ولقد غامر هذان البطلان بأنفسهما حتى وصلا إلى ذلك القائد فقضيَا عليه.

****

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٩٤.

(٢) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٠٢.

(٣) مجمع الزوائد: ٦/ ١٧٩، ١٨٠.

٧- موقف جهادي لأبي قتادة ودفاع عن الحق من أبي بكر

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: «لـمَّا كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتلُ رجلاً من المشركين، وآخرُ من المشركين يختله من ورائه؛ ليقتله، فأسرعتُ إلى الذي يختله، فرفع يده ليضربني، وأضربُ يده فقطعتها، ثم أخذني فضمَّني ضمًّا شديدًا حتى تخوفتُ، ثم برك فتحلل، ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلتُ له: ما شأنُ الناس؟ فقال: أمر الله، ثم تراجع الناسُ إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**من أقام بيِّنة على قتيل قتلهُ فله سلبُه**»، فقمتُ؛ لألتمس بيِّنة على قتيلي، فلم أرَ أحدًا يشهدُ لي، فجلستُ، ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله ﷺ، فقال رجلٌ من جُلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكرُ عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا، لا يُعطه أصيبغ من قريش(١)، ويدعَ أسَدًا من أُسد الله يُقاتل عن الله ورسوله، قال: فقام رسولُ الله ﷺ، فأداه إليَّ، فاشتريت منه خرافًا(٢)، فكانَ أول مال تأثلتُه في الإسلام(٣).

في هذا الخبر موقفان:

أولهما: لأبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه الذي أنقذ ذلك الرجل المسلم وقتل ذلك الكافر الذي كان يريد قتله بعد جهد كبير.

ثانيهما: لأبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ حيث دافع عن أبي قتادة مع أنه ليس من قومه، وعنَّف ذلك الرجل الذي يريد أخذ حقِّ أبي قتادة مع أنه من قوم أبي بكر، وهذا يُبين لنا رسوخ إيمان أبي بكر، وعمق يقينه؛ حيث عدَّ رابطة الدين فوق أي رابطة.

****

---

(١) رُوي بالصاد والغين، وهو نوع من الطير أو نبات ضعيف، ورُوي بالضاد والعين تصغير الضبع على غير قياس، وعلى كلا الروايتين فهو تعبير عن الضعف والمهانة، فتح الباري: ٨/ ٤١.

(٢) أي: بستانًا من النخل.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٣٢٢، ٨/ ٣٦، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد، رقم: ١٧٥١، ص: ١٣٧٠، وذكر نحوه.

مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه
(خبر شيبة بن عثمان الحجبي)

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: وذكر ابن سعد عن شيبة بن عُثمان الحَجَبي، قال: لما كان عامُ الفتح، دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة، قلت: أسيرُ مع قريش إلى هوازن بحُنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرَّة، فأثأر منه، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبقَ من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً، ما تبعته أبداً.

وكنت مُرصداً لما خرجتُ له لا يزدادُ الأمر في نفسي إلا قوةً، فلما اختلط الناسُ، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، فأصْلَتُّ السيف، فدنوت أريدُ ما أريدُ منه، ورفعت سيفي حتى كدتُ أشعره إياه، فرُفع لي شواظٌ من نار كالبرق كاد يمحشُني، فوضعتُ يدي على بصري خوفًا عليه، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ، فناداني: «**ياشيبُ، ادنُ منِّي**»، فدنوت منهُ، فمسَح صدري، ثم قال: «**اللهم أعذهُ من الشيطان**»، قال: فوالله لهو كان ساعتئذ أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي، ثم قال: «**ادْن فقَاتِل**».

فتقدمت أمامه أضرب بسيفي، الله يعلمُ أنِّي أحب أن أقيه بنفسي كلَّ شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيًا لأوقعتُ به السيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون، فكرُّوا كرةَ رجل واحد، وقُرِّبتْ بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها، وخرج في أثرهم حتى تفرَّقوا في كلِّ وجه، ورجع إلى معسكره، فدخل خباءه، فدخلت عليه، ما دخل عليه أحدٌ غيري حبًا لرؤية وجهه، وسروراً به، فقال: «**يا شيب الذي أراد الله بك خيرٌ مما أردت لنفسك**»، ثم حدثني بكلِّ ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط، قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسُول الله، ثم قلت: استغفر لي، فقال: «**غفر الله لك**»[1].

---

(١) زاد المعاد: ٣/ ٤٧٠، وذكره الحافظ ابن حجر، وعزاه إلى ابن أبي خيثمة وابن إسحاق والبغوي، الإصابة: ٢/ ١٥٧، رقم: ٣٩٤٥.

وهكذا أطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما أضمره له شيبة بن عثمان الحجبي من إرادة الفتك به، وحماه ﷺ منه بملائكته، فلما انكشف أمرُه ووقع بين يديه لم يعاقبه ولم يعنِّفه وإنما قصد هدايته من الضلال فمسح بيده على صدره ودعا له، فتحوَّل شيبة في لحظة من مبغض حاقد بلغ به الغيظ من النبي ﷺ إلى محاولة الإقدام على قتله.. تحوَّل إلى محب للنبي ﷺ حبًّا يفوق حب نفسه، وبعد أن كان يتصيد الفرص للفتك به أصبح يقاتل بين يديه ويقيه بنفسه.

وهذا مثلٌ مما تنتجه الهداية إلى الدين الحق من تحوُّل جذري في السلوك والفكر.

هذا التحول من محاولة طمس مصدر النور الذي أضاء الدنيا كلها إلى بذل كل الجهد في حماية ذلك المصدر كان من أهم أسبابه ما جُبل عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق.

****

بعث أبي عامر الأشعري إلى المنهزمين في أوطاس

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «لما فرغ النبي ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أُوطاس، فلقي دُريد بن الصِّمة، فقُتل دُريدٌ، وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جشميٌّ بسهم فأثبتهُ في رُكبته، فانتهيتُ إليه، فقلتُ: يا عمِّ، من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدتُ له، فلحقته، فلما رآني ولَّى، فأتبعتهُ، وجعلت أقولُ له: ألا تستحي، ألا تثبت فكفَّ! فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتُه، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعتهُ فنزا منه الماء.

قال: يا بن أخي، أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمل[1] وعليه فراشٌ قد أثَّر رمالُ السرير بظهره وجنبيه، فأخبرتهُ بخبرنا وخبر أبي عامر، وقال: قل له: استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «**اللهم اغفر لعُبَيد أبي عامر**»، ورأيتُ بياض إبطيه، ثم قال: «**اللهم اجعلهُ يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس**»، فقلتُ: ولي فاستغفر، فقال: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا**».

قال أبو بردة[2]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى[3].

في هذا الخبر بيانُ أن بعض المنهزمين من جيش الأعداء اجتمعوا في أُوطاس وهو قريب من حنين، وقد جاء ذكر دُريد بن الصمة وأنهم أصحابه، وهذا يعني أن الذين اجتمعوا هم بنو جُشم وقد يكون معهم من غيرهم، وقد هزم الله

---

(١) أي: معمول بالرمال، وهي حبال الحصر.

(٢) أبو بردة: هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.

(٣) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٤١، ٤٢، رقم: ٤٣٢٣.

الأعداء، وقُتل دريد وهو شيخ كبير لم يصحبوه معهم إلا لرأيه وخبرته الحربية كما سبق.

وفي هذا الخبر موقف لأبي موسى الأشعري؛ حيث تبارز مع قاتل أبي عامر الأشعري فقتله.

وفيه خبر عن زهد النبي ﷺ؛ حيث كان ينام على سرير من خوص النخل المعمول بالحبال، وقد أثرت الحبال في ظهره وجنبيه؛ حيث نام عليه بدون فراش.

****

مواقف جهادية في حصار الطائف

قال محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالى-: ولما قدم فَلُّ ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال.

ثم قال -بعد أن ذكر مسير النبي ﷺ من حنين-: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريبًا من الطائف، فضرب به عسكره، فقُتل به ناس من أصحابه بالنبل؛ وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكانت النبل تنالهم، ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، أغلقوا دونهم، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل، وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، فحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة.

ثم قال: حتى إذا كان يوم الشَّدخة(١)، عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة(٢)، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف؛ ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون.

ثم قال: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو محاصر ثقيفًا: يا أبا بكر إني رأيت أني أهديتْ لي قعبة(٣)، مملوءة زبدًا فنقرها ديك فهراق ما فيها، فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ وأنا لا أرى ذلك.

ثم ذكر أمر النبي ﷺ بالرحيل(٤).

وقال محمد بن عمر الواقدي -رحمه الله تعالى- فيما روي عن شيوخه: فنصب النبي ﷺ المنجنيق، قال: وشاور رسول الله ﷺ أصحابه، فقال سلمان الفارسي: يا رسول الله، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم، فإنا كنا بأرض فارس ننصب

---

(١) سمي بذلك؛ حيث أصيب به بعض المسلمين.

(٢) هي آلة تصنع من الجلود والخشب يدخل فيها الرجال فيدفعونها نحو الحصون ويتقون بها من سهام العدو. (لسان العرب، مادة: دب).

(٣) أي: إناء كبير.

(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٤٢- ١٥٠، انظر مغازي الواقدي: ٣/ ٩٢٢- ٩٣٧.

المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق، وإن لم يكن المنجنيق طال الثواء، فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقًا بيده، فنصبه على حصن الطائف.. إلى أن قال: ودخل المسلمون تحت الدبابة وهي من جلود البقر[1].

وأخرج الحافظ ابن عساكر -رحمه الله تعالى- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لقد بعث رسول الله ﷺ يوم الطائف حنظلة بن الربيع إلى أهل الطائف، فكلمهم، فاحتملوه؛ ليدخلوه حصنهم، فقال رسول الله ﷺ: «**من لهؤلاء؟ وله مثل أجر غزاتنا هذه**»، فلم يقم إلا العباس بن عبد المطلب، حتى أدركه في أيديهم قد كادوا أن يُدخلوه الحصن، فاحتضنه العباس -وكان رجلاً شديدًا- فاختطفه من أيديهم، وأمطروا على العباس الحجارة من الحصن، فجعل النبي ﷺ يدعو له حتى انتهى به إلى النبي ﷺ.

ذكره العلامة علاء الدين علي المتقي الهندي[2].

في هذه الأخبار مواقف، منها:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ بالاستفادة من الوسائل الحربية المتاحة في عصره، فقد جاء في هذا الخبر ذكْر استعمال المنجنيق في حصار أهل الطائف، وهذه أول مرة يُستعمل فيها المنجنيق في الإسلام، وفي هذا تعليم للصحابة رضي الله عنهم ولسائر الأمة بأن يبادروا إلى تعلُّم الصناعات الحربية وإعداد الأسلحة المناسبة للعصر.

ثانيًا: موقفٌ جهادي كبير لأولئك الفدائيين الذين زحفوا إلى حصن العدو داخل الدبابة، فهذا موقف يغلب على الظن فيه الهلاك، ولكنه في نظر المؤمنين المتقين موطن من مواطن الشهادة، فلا غرابة في أن يسارع هؤلاء الصحابة إلى هذا العمل الجهادي الذي يتردد الأمر فيه بين نصرٍ كبير للمسلمين أو استشهاد في سبيل الله تعالى.

ثالثًا: أنهى النبي ﷺ الحصار عن الطائف فجأة مع أنه كان يستطيع أن يبقى مدة طويلة في حصار أهله من غير أن يخشى من نقص في المُؤَن ولا من مساعدة لأعدائه من خارج حصنهم، وهم أعجز من أن يخرجوا للقتال، وإذا طال عليهم الحصار فإن المتعارف

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٢٧.

(٢) كنز العمال: ١٠/ ٣٦١، ٣٦٢.

عليه حربيًّا أن يسلِّم المحاصَرون خشية نفاد المُؤن عندهم، إضافة إلى أنه كان بإمكان النبي ﷺ أن يستخدم عددًا من المجانيق في رمي ذلك الحصن، فهو الأقوى من الناحية المعنوية والمادية، ومع ذلك فكَّ الحصار؛ لأنه فهم من الرؤيا التي رآها أن الله تعالى لم يأذن له في فتح الطائف في ذلك الحصار، فاستسلم لأمر الله -جل وعلا- وأمَر أصحابه بالرحيل.

وهذا يدلنا على عظمة النبي ﷺ في توحيده لله تعالى، والتقيد بأمره، والتجرُّد من حظ النفس؛ وذلك لأن تراجع القائد عن القتال يُعتبر منقصةً وإساءةً لسمعته عند أنصاره وأعدائه، خصوصًا إذا كان هو الأقوى، لكن النبي ﷺ لم يُبال بما يترتب على هذا الأمر من تساؤل وانتقاد؛ لأنه بتصرفه هذا يُنفذ أمر الله -جل وعلا-، وفي هذا تربية عالية لقادة الحروب من هذه الأمة؛ وذلك بأن يجعلوا نُصب أعينهم تطبيق شريعة الله -جل وعلا- مهما كلَّفهم ذلك من نتائج.

رابعًا: في الخبر الأخير موقفٌ جليل للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ حيث أنقذ حنظلة بن الربيع الأسيدي التميمي رضي الله عنه من أيدي الكفار، ولقد كان في موقفه هذا مغامرة جريئة؛ مما يدل على شجاعته وإقدامه، كما يدل موقفه هذا على قوة إيمانه؛ حيث أقدم على عمل خطير يترتب عليه الهلاك غالبًا ابتغاء رضوان الله -جل وعلا- وثوابه الجزيل.

****

١- أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري، من طريق محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ممَّن شهد معه حُنينًا قال: والله إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي وفي رجلَي نعل غليظة، إذْ زحمت ناقتي ناقةَ رسول الله ﷺ، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعه، قال: فقرع قدمي بالسوط، وقال: «**أوجعتني فتأخَّرْ عنِّي**»، فانصرفت، فلما كان من الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني، قال: قلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجْل رسول الله ﷺ بالأمس، قال: فجئته وأنا أتوقع، فقال لي: «**إنَّك قد أصبت رجلي بالأمس فأوجعتني، فقرَعت قدمك بالسَّوْط، فدعوتك لأعوضك عنها**»، فأعطاني ثمانين نعجةً بالضربة التي ضربني(١).

٢- قال الواقدي في سياق رواية له:

وكان عبد الله بن أبي حدْرد الأسلمي يقول: كنت مع النبي ﷺ في مسيره وهو يحادثني، فجعلت ناقتي تلصق بناقته، وكانت ناقتي ناقة شهمة، فجعلت أريد أن أنحِّيها فلا تطاوعني، فلصقت بناقة النبي ﷺ، وأصيبت رجله، فقال: «**أخْ! أوْجَعتني!**»، فرفع رجله من الغرز كأنها جُمَّارة(٢)، ودفع رجلي بمحجن في يده، فمكث ساعة لا يتحدث، فوالله ما نزلتُ حتى ظننت أن سينزل فيَّ عذاب.

قال: فلما نزلت قلتُ لأصحابي: إنِّي أرعى لكم! ولم يكن ذلك يوم رعيتي، فلما أرحتُ الظهر عليهم قلت: هل جاء أحدٌ يبغيني؟ فقالوا: رسول الله ﷺ جاء يبغيك، فقلت في نفسي: هي والله هي! قلت: من جاء؟ قالوا رجلٌ من الأنصار، قال: فكان أكره إلي، وذلك أنَّ الأنصار كانت فيهم علينا غلظة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٩.

(٢) الجمارة: أصل عذق النخل، وهي بيضاء، والمقصود: وصف رجله بالبياض.

قال: ثم جاء بعدُ رجلٌ من قريش يبتغيني، قال: فخرجتُ خائفا حتى واجهتُ رسول الله ﷺ، فجعل يبتسم في وجهي وقال: «**أوْجعتك بمحجني البارحة**»، ثم قال: «**خذ هذه القطعة من الغنم**»، قال: فأخذتها فوجدتها ثمانين شاةً ضائنة(١)(٢).

٣- قال الواقدي في سياق رواية له: وكان أبو زرعة الجُهني يقول: لما أراد ﷺ أن يركب من قَرْن راحلته القصواء وطئتُ له على يديها، والزِّمام في يديَّ مطوىٌّ، فركب على الرَّحل وناولته الزمام، ودرْتُ من خلفه، فخلف الناقة بالسوط، كل ذلك يُصيبني، فالتفتَ إليَّ فقال: «**أصابك السوطُ؟**» قلت: نعم بأبي وأمي! قال: فلما نزل الجعرانة إذا ربضةٌ(٣) من الغنم ناحيةً من الغنائم، فسأل عنها صاحب الغنائم فخبَّره عنها بشيء لا أحفظه، ثم صاح: أين أبو زُرعة؟ قال: قلت: ها أنا ذا! قال: «**خذ هذه الغنم بالذي أصابك من السَّوط أمس**»، قال: فعددتها فوجدتها عشرين ومائة رأس، قال: فتأثَّلتُ بها مالاً(٤).

هذه الأمثلة الثلاثة تُبين لنا عدل النبي ﷺ وورعه وتحرِّيه الشديد في حقوق الناس، فعلى الرغم من أن الإصابة التي أصاب كل واحد منهم بها تُعدُّ طفيفة وبسيطة فإنه لم ينس ذلك، بل أعطى كل واحد منهم عطية كبيرة من خمس الغنيمة؛ لئلا يخرج من الدنيا وعليه حق لأحد.

ولقد كان ما جرى منه ﷺ في حق الأول والثاني إنما كان مقابل ما جرى منهما من خطأ في حقِّه؛ ولذلك كان كل واحد منهما يخشى أن ينزل فيه شيء بسبب ذلك، فالأمر إصابة مقابل إصابة، ولكن لما كان الأمر بالنسبة لهما من قبيل الخطأ، وهو منه ﷺ تعمد على سبيل التنبيه، خشي أن يلحق ذمته شيء من ذلك فأعطاهم ما أعطاهم؛ لتبرأ ذمته من حقوقهم.

****

---

(١) أي: ذات صوت.

(٢) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٣٩ - ٩٤٠.

(٣) أي: مجموعة.

(٤) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٠.

قال الواقدي في سياق رواية له: وقال سراقة بن جُعْشُم: لقيت رسول الله ﷺ وهو منحدرٌ من الطائف إلى الجعرانة فتحصَّلتُ[1]، والناس يمضون أمامه أرْسالاً[2]، فوقعت في مقنب[3] من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعوني بالرِّماح ويقولون: إليك! إليك! ما أنت؟ وأنكروني، حتى إذا دنوت وعرفت أنه يسمع صوتي أخذت الكتاب الذي كتب أبو بكر، فجعلته بين إصبعين من أصابعي، ثم رفعتُ يدي وناديتُ: أنا سراقة بن جُعْشم، وهذا كتابي! فقال رسول الله ﷺ: «**يومُ وفاء، ادْنوه!**»، فأدنيت منه، فكأني أنظر إلى ساق رسول الله ﷺ في غرزه كأنها جُمارةٌ[4]، فلما انتهيتُ إليه سلَّمت، وسقتُ إليه الصَّدقة، فما ذكرت شيئًا أسأله عنه إلا أنِّي قلت: يا رسول الله، أرأيت الضالَّة من الإبل تغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر إن أسقيتُها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، في كلِّ ذاتِ كبِدٍ حَرَّى أجرٌ**»[5].

هذا هو الكتاب الذي كتبه أبو بكر رضي الله عنه لسُراقة بن مالك بن جُعشم يوم الهجرة حينما لحق برسول الله ﷺ، فدعا عليه فساخت فرسُه في الأرض، فعلم أن النبي ﷺ سينتصر، فطلب منه كتاب أمان، فكتب له أبو بكر ذلك الكتاب، ومازال محتفظًا به حتى يوم الفتح، وقد عرفه النبي ﷺ فقرَّبه إليه ووفَّى له بالأمان الذي أعطاه إياه.

تُرى ماذا كان شعور سراقة وهو يقارن بين الصورتين؟! صورته وهو يلاحق رسول الله ﷺ يريد أن يقبض عليه ويُسلمه لقريش، وصورته وهو يحاول الوصول إلى رسول

---

(١) أي: ثبتُّ ووقفت.

(٢) أي: أفواجًا يتبع بعضهم بعضًا.

(٣) أي: مجموعة ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

(٤) الجمارة: أصل عذق النخل، وهي بيضاء، والمقصود: وصف رجله بالبياض.

(٥) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤١، وأخرجه الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده بنحوه: ٢/ ٤٠١، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مختصراً: ٤/ ١٧٥ .

الله ﷺ والصحابة يمسُّونه برماحهم مسًّا خفيفًا؛ لأنهم أنكروه، حتى وصل إليه من بين تلك الجحافل العظيمة بجهد جهيد!

لا شك أنه سيحمد ذلك اليوم الذي كف فيه عن رسول الله ﷺ وطلب منه الأمان.

وما دام قد رأى هذا الموقف العظيم الذي احتاج فيه لإبراز كتاب الأمان، فإنه موقن ببشرى النبي ﷺ له بأنه يلبس سواري كسرى، وقد دارت الأيام دورتها ولبسهما، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

****

مثل من رحمة النبي ﷺ

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا: وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، والسَّبْي والغنائم بها محبوسة، وقد اتخذ السَّبي حظائر يستظلون بها من الشمس، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى تلك الحظائر سأل عنها، فقالوا: يا رسول الله، هذا سبي هوازن استظلوا من الشمس، وكان السبي ستة آلاف، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغَنَم لا يُدْرَى عددُها؛ قد قالوا: أربعين ألفًا، وأقل، وأكثر، فلما قدم رسول الله ﷺ أمر بُسْر بن سفيان الخزاعي يقدم مكة فيشتري للسَّبي ثيابًا يكسوها ثياب المعقَّد(١)، فلا يخرج المرء منهم إلا كاسيًا، فاشترى بُسر كسوة فكسَا السَّبي كلَّهم(٢).

هذا مثلٌ من رحمة النبي ﷺ بالأسرى، وقد كان يأمر أصحابه بالإحسان إليهم، بينما كانوا يُعامَلون في عصره بالإساءة والاحتقار، وهذا مثل مما تميز به المسلمون عن غيرهم في المعاملة، حتى إن بعضهم يُرَدُّ إلى أهله حسب الاتفاق فيأبى أن يرجع إليهم.

****

(١) نوع من الثياب يُجلب من هجر.

(٢) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٣.

١ - قال الواقدي في سياق رواية له: وبدأ[١] بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفةَ قلوبهم أول الناس، وكان رسول الله ﷺ قد غنم فضَّة كثيرة؛ أربعة آلاف أوقية، فجمعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ، فجاء أبو سفيان بن حرب وبين يديه الفضة، فقال يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً! فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: أعطني من هذا المال يا رسول الله! قال: «يا بلال، زنْ لأبي سُفيان أربعينَ أوقيةً، وأعطُوه مائةً من الإبل»، قال أبو سفيان: ابني يزيد أَعْطه! قال رسول الله ﷺ: «زنُوا ليزيدَ أربعينَ أوقيةً، وأعطُوه مائةً من الإبل»، قال أبو سفيان: ابني معاوية، يا رسول الله! قال: «**زنْ له يا بلال أربعينَ أُوقيةً، وأعطُوه مائةً من الإبل**»، قال أبو سفيان: إنك الكريم، فداك أبي وأمي، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً[٢]!

٢ - قال الواقدي: حدَّثني معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، قالا: حدثنا حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ بحُنين مائة من الإبل فأعطانيها، ثم سألته مائة فأعطانيها، ثم سألته مائة فأعطانيها، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا حكيم بن حزام، إنَّ هذا المال خَضرةٌ حُلوةٌ، فمن أخذه بسَخاوة نفس بُورك له فيه، ومنْ أخذَه بإشْراف نفس لم يُبارك لهَ فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبعُ، واليدُ العُليا خيرٌ من السفلى، وابدأ بمَن تعُول!»، قال: فكان حكيم يقول: والذي بعثك بالحقِّ، لا أرزأ[٣] أحدًا بعدك شيئًا! فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه، فيقول عمر: أيها الناس، إني أُشهدكم على حكيم أني أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه.

قال: حدثنا ابن أبي الزناد قال: أخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك[٤].

---

(١) يعني: رسول الله ﷺ.
(٢) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٤، ٩٤٥.
(٣) أي: لا أطلب أحدًا.
(٤) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٥.

٣- قال ابن إسحاق: وحدَّثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ من أصحابه: يا رسول الله، أعطيتَ عُيينة بن حصن والأقرعَ بن حابس مائة مائة، وتركت جُعَيل بن سراقة الضَّمري! فقال رسول الله ﷺ: «**أما والذي نفسُ محمَّد بيده لجُعيل بن سراقة خيرٌ من طلاع الأرض**[1] **كلهم مثل عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكني تألفتهما؛ ليسلما ووكَلْتُ جُعيل بن سراقةَ إلى إسلامه**»[2].

هذه الأخبار وأمثالها تبين منهجًا من مناهج رسول الله ﷺ في الدعوة، وهو أنه كان يتألف الكفار إلى الإسلام بالمال وخاصةً سادتهم وأشرافهم الذين لهم أتباع يأخذون برأيهم؛ وذلك أن هؤلاء الكبار إذا أسلموا أسلم أتباعُهم؛ فلذلك أعطى عددًا من زعماء أهل مكة وبعض القبائل، ولقد كان لهذه العطايا أثر في إسلام بعضهم، كما سبق في خبر إسلام صفوان بن أمية، وفي ثباتهم على الإسلام، كما في خبر أبي سفيان وحكيم بن حزام.

وفي الخبر الأخير إشارة إلى أنه ﷺ أعطى من أعطى؛ ليتألفه إلى الإسلام، وأنه وكل المؤمنين الصادقين إلى إسلامهم.

****

(١) يعني: ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٧١، ١٧٢، وأخرجه الواقدي وذكر مثله، مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٨.

قال ابن إسحاق: ولما فرغ رسول الله ﷺ من ردِّ سبايا حُنين إلى أهلها[1] ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله، اقْسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجؤوه إلى شجرة، فاختطفت عنه رداءه، فقالَ: «**أدُّوا عليَّ ردائي أيها الناس، فوالله أن لو كان لكُم بعدد شجرِ تهامة نعَمًا لَقسمتهُ عليكم، ثم ما ألفيْتُموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذَّابًا**»، ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامه، فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها، ثم قال: «**أيها الناس، والله ما لي من فيْئكُم ولا هذه الوبَرة إلا الخُمس، والخُمس مردُودٌ عليكم، فأدُّوا الخياط والمخيط، فإنَّ الغَلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا[2] يومَ القيامَة**»، قال: فجاء رجل من الأنصار بكبة من خُيوط شعر[3]، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الكبة أعملُ بها برْذعة بعير لي دبر[4]، فقال: «**أما نصيبي منها فلك!**» قال: أمَّا إذا بلغتْ هذا، فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده[5].

قال ابن هشام: وذكر زيدُ بن أسلم، عن أبيه: أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حُنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة، وسيفه متلطِّخ دما، فقالت: إني قد عرفت أنك قد قاتلت، فماذا أصبت من غنائم المشركين؟ فقال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شيئًا فليردَّه، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل، فقال: ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت، فأخذها، فألقاها في الغنائم[6].

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: حلم النبي ﷺ على أولئك الذين ألحُّوا عليه بقسمة الفيء حتى ألجؤوه إلى تلك الشجرة التي خطفت رداءه، فلم يغضب عليهم، وإنما أجابهم بتلك الكلمات البليغة:

(١) أي: قسمتها على الغانمين. (٢) الشنار: أقبح العيب.

(٣) الكبَّة: اللفيفة من الخيوط. (٤) أي: ليصلح بها رحل بعيره الذي أصابته الدبرة وهي القروح.

(٥) وأخرجه الإمام أحمد بإسنادين، وذكره الهيثمي وقال: ورجال أحد إسنادَيه ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٨٧، ١٨٨، وأخرجه الإمام البخاري مختصرًا، صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس: ٦/ ٢٥١، رقم: ٣١٤٨.

(٦) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦٣- ١٦٥.

«فوالله أنْ لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذّابًا» .

وحاشا للنبي ﷺ أن يتصف بهذه الصفات التي تثلم الشرف وتحجب السيادة، فإن من أبرز صفات السيادة: الكرم والشجاعة والصدق، ولقد كان لرسول الله ﷺ أعلى ما يمكن أن يتخلّق به بشرٌ من هذه الصفات وغيرها من مكارم الأخلاق.

ثانيًا: دقة النبي ﷺ في الأمور المالية وحقوق الناس، فحينما ذكر الوعيد على من أخذ شيئًا من الغنيمة، فقال: «**أدُّوا الخياطَ والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يومَ القيامة**»، جاء رجلٌ من الأنصار بلفيفة من الخيوط أخذها من المَغنم؛ ليصلح بها رحل بعيره فكان جواب النبي ﷺ: «**أما نصيبي منها فلكَ**».

لقد أخذها هذا الأنصاري وهو لا يظن أن ذلك غلول؛ لقلة ثمنها وعدم تعلق أنظار الناس بها، ولكن النبي ﷺ المربي العظيم الذي يُعد قمةً عُليا في الورع لم يحتقر تلك اللفيفة، بل سمح لذلك الرجل بنصيبه منها الذي هو الخُمس، أما أربعة أخماسها فإنه حقٌّ المسلمين المجاهدين، فكيف يعطيه حقهم منها؟!

إنه درس تربوي مؤثرٌ في تعليم الورع والدقة في محاسبة النفس واحترام حقوق الناس.

ثالثًا: مثلان من ورع الصحابة رضي الله عنهم:

الأول: خبر ذلك الأنصاري الذي جاء بلفيفة الخيوط ولم يسكت عليها؛ لما خشي أن يكون ذلك من الغلول.

والثاني: خبر عقيل بن أبي طالب حينما سمع منادي رسول الله ﷺ يقول: «**من أخذ شيئًا فليرده حتى الخياط والمخيط**»، فردَّ إبرةً كان أخذها من المغنم على الرغم من أنه كان حديث عهدٍ بالإسلام.

وفي خبرٍ سابق جاء أن الغنائم اشتملت على أربعة آلاف أُوقية من الفضة، ولقد كان بإمكان الذينَ غنموها أن يخفوا شيئًا منها؛ لسهولة ذلك، ولكنهم كانوا مُثلاً عليًا في الأمانة والورع، فأدَّوا ما غنموه بأمانة وإخلاص، وبهذا أصبحوا مثالاً يحتذى لمن جاء بعدهم.

(وفادة هوازن وإطلاق الأسرى)

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دَحْنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس، ومعه من هوازن سبيٌ كثير، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله، ادع عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ ثقيفًا وائْت بهم**»، ثم أتاه وفدُ هُوازن بالجعرانة، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذَّراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عدَّتهُ.

قال ابن إسحاق: حدثني عمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه عبد الله بن عمرو: أنَّ وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخْف عليك، فامنُن علينا، منَّ الله عليك، قال: وقام رجل من هوازن، ثم أحدُ بني سعد بن بكر، يقال له زهير، يُكنى: أبا صرد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كُن يكفلنك، ولو أنَّا ملَحْنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر[1]، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

قال ابن هشام: ويُروى: ولو أن مالحنا الحارث بن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر.

قال ابن إسحاق: فحدثني عمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤُكُم ونساؤُكُم أحبُّ إليكم أم أموالكُم؟» فقالوا: يا رسول الله، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبُّ إلينا، فقال لهم: «**أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكُم، وإذا ما أنا صليتُ الظُّهر بالنَّاس، فقُوموا فقُولوا: إنَّا نستشفعُ برسول الله ﷺ إلى المُسلمين، وبالمسلمينَ إلى رسولِ الله ﷺ في أبنائنَا ونسَائنَا، فسأُعطيكم عندَ ذلكَ، وَأسألُ لكُم**»، فلما صلَّى رسولَ الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ،

---

(١) يعني: لو كان أحدهما رضع فينا كما رضعت.

وقالت الأنصار وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرعُ بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عُيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزَارَة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سُليم فلا، فقالت بنُو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

قال: يقول عباس بن مِرادس لبني سليم: وهَّنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: «**أمَّا من تمسَّك منكُم بحقِّه من هذا السَّبي فله بكُل إنسانٍ ستُّ فرائض من أوَّل سبي أُصيبه، فرُدُّوا إلى الناس أبناءَهم ونساءَهم**»[1].

في هذا الخبر مواقف، منها:

أوَّلاً: عدم استجابة النبي ﷺ للرجل الذي طَلب منه الدُّعاء على قبيلة ثقيف وإجابته بضد ذلك؛ حيث دعا الله تعالى لهم بالهداية، وهذا مثلٌ من رحمته ﷺ العظيمة التي لم تقتصر على المسلمين، بل شملت الكُفار حتى المحاربين منهم، فإن قبيلة ثقيف قد حاربوا المسلمين يوم حُنين، ثم اعتصموا بحصنهم وحاربوا المسلمين وقتلوا عدداً منهم، ومع ذلك لم يدْعُ عليهم رسول الله ﷺ؛ لأنه كان يرجو هدايتهم إلى الإسلام، وهذا مطلبٌ كبير يَنسى معه القائد الرحيم ما اقترفه الأعداء من الإضرار بالمسلمين، ولقد سبق خبر الطفيل بن عمرو الدُّوسي حينما لم يستجب قومُه لدعوته، فطلب من النبي ﷺ أن يدعو عليهم، فقال: «**اللهم اهْد دُوساً، ارْجعْ إلى قَومكَ فادعُهم وارفُقْ بهم**».

ومن هذين الخبرين وأمثالهما نعلم أن المشروع في معاملة الأعداء هو الدعاء لهم بالهداية وليس الدعاء عليهم، وتغليب جانب الرحمة بهم والإشفاق عليهم من المصير السيئ في الآخرة على الرغبة في التشفِّي والانتقام منهم في الدنيا.

أما دُعاء النبي ﷺ على بعض الكفار في القنوت فإنه في أحوال خاصة كما في حادث سرية الرجيع وسرية بئر معونة؛ حيث طلب بعض الكفار إرسال دعاة معهم من المسلمين؛ ليدعوا قبائلهم إلى الإسلام فغدرُوا بهم وقتلوهم، وكما في دعاء النبي ﷺ على كفار قريش حينما اشتدُّوا في أذى المسلمين المستضعفين عندهم.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٥٦- ١٥٩، وأخرجه الإمام البخاري من حديث مروان والمسور بن مخرمة مختصراً، صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٣٢- ٣٣، رقم: ٤٣١٨، ٤٣١٩، وأخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو، ذكره الهيثمي وقال: رجال أحد إسناديه ثقات: ٦/ ١٨٨، وأخرجه الواقدي عن شيوخه، وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٩- ٩٥٢.

فالدعاء على عامة الكفار غير مشروع ، بل يُشرع الدعاء لهم بالهداية ، وإنما يشرع الدعاء على المحاربين منهم في حال إصرارهم على حرب المسلمين .

ثانيًا: سياسة النبي ﷺ الحكيمة وحُسن تصرفه ومقدرته على الإقناع ؛ فقد جاء إليه وفدٌ من قبيلة هوازن التي نُكبت في نسائها وأبنائها وأموالها ، جاؤوا إليه مسلمين راغبين في فكاك أسراهم وإعادة أموالهم إليهم ، فخلَّص لهم النبي ﷺ نساءهم وأبناءهم من الرِّق في موقف واحد وكلمات معدودات ، من غير أن يغتصب هذا من المسلمين الغانمين بعدما امتلكوه ، بل بحسنِ السياسة والقدوة الحسنة والتدبير المحكم .

إن تصرف النبي ﷺ يُعد مثالاً عاليًا للتربية بالقدوة الحسنة ، فقد ضرب المثل في البذل والتضحية بنفسه وقرابته الأدنين ، ولسان حاله يقول : ارتفعوا أيها المسلمون إلى هذا المستوى العالي الذي رفعت إليه نفسي وقرابتي ، ولا شك أن هذا من أبلغ الأساليب في التأثير على النفوس ، خاصة إذا صدر ممن هو محطُّ الأنظار وموضع القدوة .

ولقد نجح النبي ﷺ نجاحًا كبيرًا ؛ حيث حلَّ هذه القضية المشكلة بعد صلاة الظهر في كلمات . . نجح حينما حمل أكثر المسلمين على التنازل عما في أيديهم من الأسرى تأسِّيًا به ﷺ ، ونجح حينما حل مشكلة المتمنِّعين المتمسكين بما في أيديهم ؛ حيث ألزمهم بتسليم ما في أيديهم من الأسرى في مقابل ستة أسهم من أول فيء يفيئه الله تعالى عليه ، فهو في هذه الحال لم يقرَّ التفرقة بين الأسرى ؛ بحيث يعتق فريق ويبقى فريق على الرقِّ ، ولم يجبر أصحاب الحق على تسليم ما في أيديهم بدون مقابل ، بل أعطاهم ما أرضاهم مقابل حقِّهم .

فما أحكم هذه السياسة ! وما أعظم هذه القدوة ! وما ألطف هذا التدبير !

ثالثًا: موقف جليلٌ للصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار وبني سليم ؛ حيث تنازلوا حالاً عما في أيديهم من الأسرى تأسيًا برسول الله ﷺ وبني عبد المطلب ، وهذا دليل على قوة إيمانهم وتجرُّدهم من حظ النفس وتنافسهم في الخير وعمل الآخرة .

وبما يلاحظ أنهم بادروا إلى هذا العمل الصالح من غير تردُّد، وكان السابقون إلى التنازل هم المهاجرين وهذه منقبة تُذكر لهم.

كما أنه يلاحظ أن هذه الطوائف كانت متحدة الكلمة فيما بينها؛ حيث لم يقم أحد من الأتباع يخالف ما أمضاه السادة الذين يتكلمون عادة بلسان قومهم، وهذه فضيلة تُذكر لهؤلاء الأماجد الكرام، إلا ما كان من بني سُليم وزعيمهم، فقد تداركوا الموقف وخالفوه ووافقوا المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

****

نموذج من دعوة النبي ﷺ وسياسته العالية
(إسلام مالك بن عوف)

قال ابن إسحاق: قال رسول الله ﷺ لوفد هوازن، وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: «**أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مسلمًا رددتُ عليه أهله ومالَه، وأعطيتُه مائةً من الإبل**»، فأُتي مالكُ بذلك، فخرج إليه من الطائف، وكان مالك قد خاف ثقيفًا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه، فأمر براحلته فهيِّئت له، وأمر بفرس له، فأتي به إلى الطائف، فخرج ليلاً، فجلس على فرسه، فركضَه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحبس، فركبها، فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فردَّ عليه أهلَه وماله، وأعطاه مائةً من الإبل، وأسلم فحسُن إسلامه، فقال مالك بن عوف حين أسلم:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... في الناس كلِّهم بمثل محمد
أوفَى وأعطَى للجزيل إذا اجْتُدي ... ومتى تشأ يُخبركَ عمَّا في غد
وإذا الكتيبةُ عرَّدَت أنيابها ... بالسَّمهريِّ وضرْب كلِّ مُهند[1]
فكأنه ليثٌ على أشباله ... وسْط الهباءة خادرٌ في مَرصد[2]

فاستعمله رسولُ الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل: ثُمالة، وسلمةُ، وفَهْم، فكان يُقاتل بهم ثقيفًا، لا يخرج لهم سرحٌ إلا أغار عليه، حتى ضيَّق عليهم، فقال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي:

هابت الأعداءُ جانبنا ... ثم تغزونا بنو سَلَمهْ
وأتانا مالكٌ بهمُ ... ناقضًا للعهد والحُرَمَهْ
وأتوا في منازلنا ... ولقد كنَّا أولي نقَمَهْ[3]

(١) عردت أنيابها: أي خرجت كلها واشتدت، وهو كناية عن كمال استعدادها، والسَّمهري: الرمح، والمهند: السيف.

(٢) الهباءة: الغبار، والخادر: المقيم في عرينه، والمرصد: مكان الرَّصد.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦١، ١٦٢، وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق، ذكره الهيثمي وقال: ورجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٨٩، وأخرجه الواقدي وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ٣/ ٩٥٤- ٩٥٦.

وأخرج الإمام الطبراني من حديث محمد بن سلام الجُمحي قال: وهو يعني مالك بن عوف، على هوازن حين لقيهم مع رسول الله ﷺ، وساق مع الناس أموالهم وذراريهم، فخالفه دُريد بن الصَمة فلجَّ وأبَى، فصاروا إلى أمره فلم يحمدوا رأيه، وكان يومئذ رئيسُهم، فلما رأى هزيمة أصحابه قصد نحو النبي ﷺ وكان شديد الإقدام؛ ليصيبه -كما زعم- فوافاه مرثد بن أبي مرثد الغَنوي فقاتَله، وحمل فرسه، فعاج فلم يُقدم، ثم أراده وصاح به فلم يقدم.

قال: ثم انهزم من حُنين فصار إلى الطائف، فقال رسول الله ﷺ: «**لو أتاني لأمَّنتُه وأعطيتُه مائةً**»، فجاء، ففعل به ذلك، ووجَّهه على قتال أهل الطائف.

وقال في أخباره بعد ذلك: وكتب سعد بن أبي وقاص(١) إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما- يستمدُّه، فكتب إليه: تسمتدني وأنت في عشرة آلاف ومعك مالك بن عوف وحنظلة بن ربيعة، وهو الذي يقال له حنظلة الكاتب.

قال ابن هشام: فحدثني بعض قومه أنه قال لعمر بن الخطاب: إنَّ رسول الله ﷺ أعطاني يتألفني على الإسلام فلم أحب أن آخذ على الإسلام أجرًا فأنا أردُّها، قال: إنه لم يعطكها إلا وهو يرى أنها لك حقٌّ.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه الطبراني عن خليفة بن خياط، عن محمد بن سلام الجُمحي وكلاهما ثقة(٢).

في هذين الخبرين مواقف، منها:

أولاً: موقف عظيم لرسول الله ﷺ في حُسن السياسة والحكمة في إدارة الأمور الحربية، والتخطيط العالي في الدعوة؛ وذلك حينما خطَّط لاجتذاب الزعيم الكبير الذي استطاع أن يسود عددًا من القبائل وأن يجمع ذلك الجيش الكثيف مع أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ألا وهو مالك بن عوف النَّصري.

لقد كان النبي ﷺ يُخطط لهذا الأمر من قبل مجيء وفد هُوازن، ومما يدل على ذلك أنه عزل أهل مالك وماله فلم يقسم ذلك مع الغنائم، فلما جاء وفد هوازن اغتنم

(١) يعني: يوم أن كان واليًا على العراق وقائدًا لمعركة القادسية.
(٢) مجمع الزوائد: ٦/ ١٨٤، ١٨٥.

الفرصة، وقال لهم: «**أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مسلمًا رددتُ عليه أهلَه ومالَه وأعطيتُه مائةً من الإبلِ**».

تُرَى ما هي مشاعر مالك بن عوف حينما انهزم قومه وذهب منهم كل شيء حتى نساؤهم وأبناؤهم، وكان هو السبب في كل ما جرى لهم؟!

وكيف سيواجه انتقادات القبائل اللاذعة؟!

وكيف سيستعيد سمعته العالية بين القبائل؟!

وما هي مشاعره حينما أصبح بعيدًا عن قومه لاجئًا عند ثقيف؟!

وما هي أفكاره نحو ما سيقوم به رسول الله ﷺ من مطاردته ومحاولة القضاء عليه؟!

كل هذه الأفكار وأضعافُها من المفترض أن تجول في عقل مالك.

ولكن بينما هو في خضَم هذه الأفكار، وإذا بيد حانية وصوت رحيم من عدُوه الذي أجلب عليه قبائل العربَ يدعوه إلى أخذ أهله ومالهً إضافة إلى رفده بمائةً من الإبل.

كل هذه في مقابل ماذا؟ في مقابل أن يدخل في الإسلام!

سبحان الله! هذا النبي الكريم والسيد العظيم الذي أشعل في وجهه تلك الحرب الضروس يتنازل عن كل ما يتصوَّر عادة من الغضب والحقد ورغبة الانتقام، ومحاولة إذلال الخصم، ثم لا يكتفي بذلك، بل يرد على مالك أهله وماله مع مائة من الإبل في مقابل أن يُسلم!!

إن هذا أمر خارج عن ما اعتاده البشر، وإن هذا الدين الذي سيُجعل عوضًا عن كل هذه التنازلات وعن كل هذه المكرمات لَدينٌ عظيم يفرض على العقلاء أن يعتنقوه.

وهكذا أسلم مالك بمجرد أن عُرض عليه ذلك؛ لأنه من عقلاء الرجال وحكمائهم.

إن هذا التخطيط المحكم، والتدبير المنظَّم من رسول الله ﷺ له ما بعده من النتائج العالية في مجال الدعوة؛ وذلك أنه إذا أسلم زعيم القبيلة يُسلم أفرادها أو أكثرهم، وكذلك في مجال الحرب؛ حيث ولاَّه الرسول ﷺ على من أسلم من قومه والقبائل المجاورة، فصار مشعل حرب على قبيلة ثقيف التي امتنعت عن الإسلام حتى دوَّخهم

وألجأهم إلى التفكير في مسالمة النبي ﷺ، الأمر الذي قادهم إلى الإسلام، كما سيأتي.

كل هذه النتائج الضخمة ساقها ما خطط له النبي ﷺ؛ من اجتذاب مالك بن عوف إلى الإسلام، فما أعظمه ﷺ من قائد محنَّك، وداعية مسدد، وإداري حكيم!!

ثانيًا: موقف مالك بن عوف الذي أخلص في خدمة الإسلام ودولته، وقطع أحلافه التي كانت في الجاهلية، وأبدلها برابطة الإسلام، واستعمل ذكاءه وسياسته وشجاعته النادرة في غزو أعداء الإسلام من قبيلة ثقيف حتى حصرهم داخل حصنهم، وأصبحوا لا يأمنون على أموالهم خارجه، فدفع بهم إلى محاولة مسالمة النبي ﷺ، ثم إلى الإسلام.

لقد دخل بإسلامه عهدًا جديدًا ذهبت معه كل تلك الأفكار الضاغطة التي حوَّلت الليث الهِزَبْر إلى حَمَل وديع يعيش في كنف قبيلة أخرى؛ ليعود القائد الحربي البارع بعد أن ولَّاه الرسول ﷺ على قبيلته والقبائل المجاورة، وليمارس كفاءاته الإدارية والحربية في نصر الإسلام ودولته.

ومما يذكر له قصيدته البليغة في مدح النبي ﷺ التي جاءت في هذه الرواية، وهي تدل على حبه البالغ لرسول الله ﷺ وإعجابه به.

ثالثًا: أما الرواية الأخيرة التي رواها الإمام الطبراني من حديث محمد بن سلام الجُمحي فهي مجموعة من أخبار مالك بن عوف، وفيها ما يتعلق بحُنين وفيها ما جرى بعد ذلك، وما دام الحديث هنا عن مالك، فلا بأس من التعليق على ما جاء في هذا الخبر عنه.

فقد ذكر قيادة مالك لقومه يوم حنين، وأنه لما رأى هزيمة قومه توجَّه لقتل النبي ﷺ وأن فرسه أبى عليه أن يقدم.

فهذا الذي حصل لفرسه أمرٌ غير معتاد، فلعل جنود الله تعالى التي نزلت ذلك اليوم حالت دون الفرس فلم يُقدم، فكان ذلك خيرًا لمالك.

وذكر منقبة عاليةً لمالك في الشجاعة؛ وذلك حينما كتب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يستمد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فكتب إليه: «تستمدني وأنت في عشرةٍ

آلاف ومعك مالك بن عوف وحنظلة بن ربيعة» ؛ وهذا يعني شهرة مالك بالشجاعة والإقدام، ولا يقال هذا غالبًا إلا في البطل الذي يعدل بألف .

ثم ذكر أخيرًا خبرًا عن ورع مالك ؛ وذلك حينما قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إن رسول الله ﷺ أعطاني يتألفني على الإسلام فلم أحب أن آخذ على الإسلام أجرًا فأنا أردها ، ولكن عمر أبى أن يأخذها ، وقال : إنه لم يعطكها إلا وهو يرى أنها لك حقٌّ .

ولقد طابت نفس مالك بذلك حينما أفتاه عمر باستحقاقه لذلك المال ؛ لغزارة علم عمر ، ولكونه شديد التحري في أمور المال ، ويكفي مالكًا بهذا ما ذكَّره به عمر من أن النبي ﷺ حينما أعطاه المال كان يرى أنه حقٌّ له .

وهذا يدل على قوة إيمان مالك وورعه في أمور دينه ، رضي الله عنه وأرضاه .

****

مثل من مقدرة النبي ﷺ على الإقناع
(خبر شكوى الأنصار)

قال ابن هشام: حدثني زياد بن عبد الله، قال: حدثنا ابن إسحاق: قال وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثُرت منهم القالةُ، حتى قال قائلهم: قد لقي والله رسولُ الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم؛ لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمْتَ في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة.

قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد، قال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، مقالةٌ بلغتني عنكم، وجدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم، ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟**»، قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثم قال: «**ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضلُ، قال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوَجَدْتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعة[1] من الدنيا تألفتُ بها قومًا؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشَّاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفسُ محمد بيده لولا الهجرةُ لكنتُ امرءًا من الأنصار، ولو سلك النَّاس شعبًا وسلكت الأنصارُ شعبًا، لسلكتُ شِعْب الأنصار، اللهُم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**».

---

(١) هي: البقية اليسيرة من الشراب في الإناء.

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا[1].

وقال الحافظ ابن كثير بعدما ذكره: وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق، ولم يروه أحدٌ من أصحاب الكتب من هذا الوجه، وهو صحيح[2].

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: ما قام به النبي ﷺ من إقناع الأنصار رضي الله عنهم؛ وذلك ببيانه البديع الذي غيَّر به مشاعرهم، وذلك بعدما بيّن بأسلوبه الرائع السبب الذي من أجله تَصَرَف ذلك التصرف في قسمة الفيء، والأمر الذي كان غائبًا عن الأنصار تصورُه، فلما فهموا مراد النبي ﷺ اقتنعوا حالاً، وعلموا أنه ما تركهم إلا إعلاءً لشأنهم واعتقادًا منه بعلو كعبهم في الإيمان بهذا الدين.

ومن هنا نعلم أن الخطأ في تصور الأمور على حقيقتها والقصور في إدراك المقاصد قد يتعرض له بعض أقوياء الإيمان مما ينجم عنه اعتراض على تصرفات القادة، الأمر الذي قد يترتب عليه الخللُ في سير العمل، ولكن سرعان ما يزول هذا التصور الخاطيء وتعود المياه إلى مجاريها إذا وُفِّق المسلمون بالقادة الحكماء الذين يزنون الأمور ويضعونها في مواضعها.

ولقد قدَّم النبي ﷺ لبيان السبب في إعطاء تلك العطايا الكبيرة في بعض زعماء القبائل بمقدمة بيَّن بها فضل الأنصار، كما ختم كلمته ببيان فضلهم والدعاء لهم ولذرياتهم، ولقد وُفق ﷺ تمام التوفيق في إقناع الأنصار بوجهة نظره، فتغيرت مشاعرهم وملامحهم من إضمار السخط وإظهار النقد إلى إضمار الرضى وإظهار الفرح والسرور والتأثُّر البالغ مما صدر منهم، الذي عبَّروا عنه بالدموع الغالية التي انسكبت على لحاهم، وبقَولهم: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٧٥ - ١٧٨، وأخرجه الإمام البخاري وذكر نحوه، صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٤٧، رقم: ٤٣٣٠، وأخرجه الإمام مسلم، وذكر نحوه، صحيح مسلم، الزكاة، رقم: ١٠٥٩، ص: ٧٣٣، وأخرجه الواقدي وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ٣/ ٩٥٦ - ٩٥٨.

(٢) البداية والنهاية: ٤/ ٣٥٧، ٣٥٨.

ثانيًا: موقف يذكر لسعد بن عبادة رضي الله عنه حينما قال له رسول الله ﷺ: «**فأين أنتَ من ذلك يا سَعدُ؟**»، قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، فهذا يدل على اتصافه بخُلق الصراحة والصدق، فهو لم يبرئ نفسه من الموْجَدة على رسول الله ﷺ، مع علمه بأنه يكره ذلك ما دام أنه قد أضمر في نفسه هذا الأمر.

وقد جاء في إحدى روايات مسلم، فقال: يعني رسول الله ﷺ: «**ما الذي بلغني عنكم؟**» قالوا: هو الذي بلغك، وكانوا لا يكذبون.

وهكذا كانت أخلاق الصحابة رضي الله عنهم قائمة على الصدق والوضوح والصراحة، بينما نجد الحال الآن من أبناء الدنيا يشاركون في الإنكار على المسؤول، ثم يجاهرونه بغير ما يضمرونه في أنفسهم خشية إثارة نقمته أو التعرض لسخطه.

****

مما يلاحَظ: أن النبي ﷺ في غزوة حُنين خرج معه بأناس بقوا على شركهم من أهل مكة، مع أنه كان يرفض أن يستعين بأهل الشرك على قتال أهل الشرك، كما سبق، والظاهر أن خروجه بالمشركين معه في تلك الغزوة من أجل أن يتألفهم للإسلام؛ وذلك بما يروْن من انتظام المسلمين واستقامتهم وتخلُّقهم بمكارم الأخلاق.

كما أنه خرج معه بمسلمة الفتح مع أنهم حديثو عهد بالإسلام، وفي هذا دلالة ظاهرة على أنه لا يُشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تمامًا من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثابُ عليه فاعله وإن قصَّر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسةٌ تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد والأحكام والآداب؛ وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث وتلاقح الأفكار.

ولقد حدث من بعض مسلمة الفتح هؤلاء أمرٌ يخلُّ بتوحيد الألوهية، وذلك كما أخرج الإمام أحمد من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة، فقلتُ: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط[1] كما للكفار ذَات أنواط، وكان الكفار ينوطون بسلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، هذا كما قالت بنُو إسرائيلَ لُموسَى: اجْعَل لنا إلهًا كما لهُم آلهةً، إنكم تركبون سَنَن الذين من قبلكم**»[2].

وأخرجه الإمام الترمذي من حديث أبي واقد رضي الله عنه وذكر نحوه[3].

وهذا يدل على أن هؤلاء المسلمين الذين قالوا هذا الكلام لم يكونوا يُفرقون بين التوحيد والشرك في بعض الصور، ومع ذلك لم يؤخر النبي ﷺ مشاركتهم في الجهاد حتى يتعلموا أمور العقيدة، بل كان خروجهم للجهاد سببًا في حدوث هذه المناسبة التي تعلموا منها أصلاً من أصول العقيدة.

---

(١) أي: ذات تعاليق.
(٢) مسند أحمد: ٥/ ٢١٨.
(٣) سنن الترمذي، الفتن: ٤/ ٤٧٥، رقم: ٢١٨٠، وأبو واقد الليثي أسلم يوم الفتح على القول الراجح، وقد جاء في إحدى الروايات: «ونحن حديثو عهدٍ بكفرٍ»، الإصابة: ٤/ ٢١٢، رقم: ١٢١١.

مواقف وعبر
ما بين حنين وتبوك

إسلام كعب بن زهير ومدحه رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق: ولما قدم رسولُ الله ﷺ من مُنصَرَفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سُلْمى إلى أخيه كَعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شُعراء قريش؛ كابن الزِّبَعْرَى وهُبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كلِّ وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا، وإن أنت لم تفعل فانْجُ إلى نجائك مَن الأرض.

قال ابن إسحاق: فلما بلغ كعبًا الكتابُ ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدُوه، فقالوا: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بُدًّا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوِّه، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينةَ، كما ذكر لي، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا رسول الله ﷺ، فقم إليه فاستأمنْه، فذُكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إنَّ كعب بن زُهير قد جاء؛ ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

ثم ذكر قصيدته التي مدح بها رسول الله ﷺ ومطلعُها:

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبولُ ... مُتَيَّمٌ إثرها لم يُفْد مكْبُول

إلى أن قال:

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينَّك إني عنك مشغول

فقلت: خلُّوا سبيلي لا أبا لكُم ... فكلُّ ما قدر الرحمن مفعول

كلُّ ابن أُنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء[1] محمُول

---

(١) يعني: النعش.

نُبِّــئتُ أن رســـول الله أوْعــدني ... والعـفـو عندَ رسـول الله مَـأمـول

مـهــلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قـرآن فـيـهـا مـواعـيظٌ وتفـصـيل

لا تأخــذنِّي بأقــوال الوشــاة ولم ... أذنب ولو كــثــرت فيَّ الأقــاويل

لقــد أقــوم مــقــامًــا لو يقــوم به ... أرى وأسـمـع مـا لو يسـمـع الفـيل

لَظلَّ يـرعـــــــد، إلا يـكـون لـه ... من الـرســــول بـإذن الـلـه تـنـويل

مــازلت أقــتطع البـيــداء مُـدَّرِعًــا ... جنح الظلام وثوب الليل مـسـدول

حــتى وضــعـت يميني مــا أُنازعــه ... في كفِّ ذي نقـمـات قـيلُه القـيل[١]

فلَهْـــو أخـــوف عندي إذ أكلمـــه ... وقـيل إنك منســوبٌ ومـســؤول

من ضَـيغَم بَضـراء الأرض مَـخْدَرُه ... في بطن عَـثَّـر غـيلٌ دونه غـيل[٢]

إلى أن قال:

إن الرســـولَ لنورٌ يُســتــضــاءُ به ... مـهنَّد من سـيـوف الله مـسلُول[٣]

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: مثلٌ من أمثلة كثيرة مرَّ بعضُها في عفو النبي ﷺ عن الذين أساؤوا إليه تألفًا لهم إلى الإسلام، ومنهم كعب بن زهير الذي كان قد هجَا النبي ﷺ من قبل، فتغاضى ﷺ عن ذلك لَمَّا جاء مسلمًا.

وهكذا كـان النبي ﷺ لا ينتـصر لنفسه، بل كـان يَغُض الطَّرفَ عن الإسـاءات التي تُوجه إليه من أجل أن يكسب الناسَ للإسلام.

---

(١) نقمات: جمع نقمة بفتح فكسر، وهي المكافأة بالعقوبة والمؤاخذة على الذنب، وقيله: يعني قوله، ويقصد به: رسول الله ﷺ.

(٢) الضَّيغم: الأسد، وضراء الأرض: أرض مستوية تأوي إليها السباع وبها نبذ من الشجر، والمخدر: العرين، وبطن عثر: اسم مكان، والغيل: الشجر الملتف.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٨٠- ١٩٥، وأخرجه الإمام البيهقي موصولاً إلى عبد الرحمن بن كعب بن زهير، دلائل النبوة: ٥/ ٢٠٧- ٢١١.

ثانيًا: موقف لبُجَير بن زهير؛ حيث دعا أخاه إلى الإسلام بالطريقة التي تؤثر عليه؛ فهدَّده بقوة دولة الإسلام، وهو يعلم أنه إذا جاء مستسلمًا بدافع من الخوف على نفسه سيتفهم الإسلام ويقتنع به، وهذا قد حدث فعلاً؛ حيث حسُن إسلام كعب وكان له ذكرٌ حسنٌ في الإسلام.

ثالثًا: موقفٌ لكعب بن زهير في هذه القصيدة العصماء المشهورة التي مدح بها رسول الله ﷺ، وأشاد فيها بعزته وشجاعته ورفعة مقامه وهيبته التي خلعت قلوب الأبطال مع ما هو فيه من التواضع العظيم.

****

مثل من الفداء والتضحية في سبيل الدعوة
(إسلام عروة بن مسعود ودعوته قومه)

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا: كان عُروة بن مسعود حين حاصر النبي ﷺ أهل الطائف بجُرش، يتعلَّم عمل الدَّبَّابات والمُنجنيق، ثم رجع إلى الطائف بعد أن ولَّى رسول الله ﷺ، فعمل الدبابات والمنجنيق والعرَّادات[1]، وأعد ذلك حتى قذف الله عز وجل في قلبه الإسلام.

فقدم المدينة على النبي ﷺ فأسلم، ثم قال: يا رسول الله، ائذن لي فآتي قومي فأدعوهم إلى الإسلام، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب، فأقدُم على أصحابي وقومي بخير قادم، وما قدم وافدٌ قطُّ على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمتُ به، وقد سُبقتُ يا رسول الله في مواطن كثيرة، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّهم إذًا قاتلُوك!**» قال: يا رسول الله، لأنا أحبُّ إليهم من أبكار أولادهم، ثم استأذنه الثانية فأعاد عليه الكلام الأول، وقال رسول الله ﷺ: «**إنهم إذًا قاتلوك**»، قال: يا رسول الله، لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني، واستأذنه الثالثة فقال: «**إن شئتَ فاخرُجْ**».

فخرج إلى الطائف، فسار إليها خمسًا، فقدم على قومه عشاءً فدخل منزله، فأنكر قومُه دخوله منزله قبل أن يأتي الرَّبة[2]، ثم قالوا: السفر قد حصَره، فجاؤوا منزله فحيوه تحية الشِّرك، فكان أول ما أنكر عليهم تحية الشرك، فقال: عليكم تحية أهل الجنة، ثم دعاهم إلى الإسلام.

وقال: يا قوم، أتتَّهمونني؟ ألستم تعلمون أنِّي أوسطكم نسبًا وأكثركم مالاً، وأعزُّكم نفرًا؟ فما حملني على الإسلام إلا أنِّي رأيتُ أمرًا لا يذهب عنه ذاهب! فاقبلوا نُصحي، ولا تستعصوني، فوالله ما قدم وافدٌ على قوم بأفضل مما قدمتُ به عليكم، فاتَّهموه واستغشُّوه وقالوا: قد -واللاَّت- وقع في أنفسنا حيثُ لم تَقْرُب الرَّبَّة ولم تحلق رأسك عندها أنك قد صبوت[3]! فآذوه، ونالوا منه، وحلم عليهم.

(١) العرَّادات: من آلات الرماية، وهي أصغر من المُنجنيق.
(٢) يعني: صنم اللات.
(٣) أي: تركتَ دين قومك، ودخلتَ في الإسلام.

فخرجوا من عنده يأتمرون كيف يصنعون به، حتى إذا طلع الفجر أوْفَى على غرفة له، فأذَّن بالصلاة، فرماه رجلٌ من رهطه من الأحلاف يقال له: وهب بن جابر - ويقال: رماه أوس بن عوف من بني مالك، وهذا أثبتُ عندنا- وكان عروة رجلاً من الأحلاف، فأصاب أكحلَه فلم يرقأ دمُه[1]، وحشد قومه في السِّلاح، وجمع الآخرون وتجايشوا، فلما رأى عروة ما يصنعون قال: لا تقتتلوا فيَّ، فإنِّي قد تصدقت بدمي على صاحبه -ليُصلحَ بذلك بينهم- فهي كرامة الله أكرمني الله بها؛ الشهادة ساقها الله إليَّ، أشهد أن محمدًا رسول الله، خبَّرني عنكم هذا أنكم تقتُلونني، ثم قال لرَهْطه: ادفنوني مع الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، قال: فدفنوه معهم، وبلغ رسول الله ﷺ قتْلُه، فقال: «**مثلُ عُروة مَثَل صاحب ياسِين، دعَا قومَه إلى الله عز وجل فقتَلُوه**»[2].

وهكذا رأينا كيف جاد عروةُ بن مسعود رضي الله عنه بنفسه في سبيل الله -تعالى- ابتغاء هداية قومه إلى سبيل الرشاد بعد أن لقي من قومه ما لقي من الإهانة والأذى، ولم يكن خافيًا صعوبة الأمر الذي سيواجهه من قومه وهو يدعوهم إلى الإسلام الذي قاتلوا من أجله رسول الله ﷺ، ولكن صاحب الإيمان القوي لا يهدأ له بال ولا يقرُّ له قرار وهو يرى أقرب الناس إليه لم ينعموا بعدُ بنعمة الإيمان التي أصبح يتَفيَّأ ظلالها، وكيف يشعر بالسعادة وهو يوقن بأن أقرب الناس إليه سيكونون بعد الموت من حطام جهنم وبئس القرار؟

من أجل هذا الشعور القوي المتدفق ضحَّي بصحبة النبي ﷺ التي هي أغلى ما يمكن أن يطلبه المسلم في ذلك العهد، وسارع لمحاولة هداية قومه وإنقاذهم من ضلال الكفر، ولكنَّ تمكُّن الجاهلية من قلوبهم وتعصبهم الأعمى لموروثاتهم حال بينهم وبين الهداية، ولقد كان هذا التعصب مستحكمًا في عقولهم إلى الحدِّ الذي لم يبق فيها منفذًا للتفكير في كونها حقًا أو باطلاً؛ ولهذا لم يتيحوا الفرصة لمن أراد أن يُبصِّرهم بما هم عليه من باطل، ولم يفتحوا معه باب الحوار حتى للدفاع عن باطلهم، بل عجَّلوا بالقضاء عليه وإن كان سيِّدًا من ساداتهم، فأطفأوا النور الذي ساقه الله لهم؛ لإخراجهم من الظلمات.

---

(١) أي: لم يقف، والأكحل: عرقٌ معروف في اليد.

(٢) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٦٠، ٩٦١، وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام الطبراني أخرجه من طريقين مرسلاً بإسناد حسن، مجمع الزوائد: ٩/ ٣٨٦، وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٣٦، ٢٣٧.

وفي قوله لقومه لما حشدوا السلاح لقتال من اعتدوا عليه: «لا تقتتلوا فيَّ فإني قد تصدقت بدمي على صاحبه» دلالةٌ على مبلغ استهانة المؤمن الحق بنفسه ودنياه في سبيل رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، فهو يبين لقومه أنهم إن كانوا يهتمون بقضية الثأر التي هي إشباع لغريزة التشفِّي والانتقام، فإنه لا يهتم بشيء من ذلك؛ لأنه لا يريد إلا الجزاءَ من الله تعالى، ويعدُّ هذا القتل كرامة أكرمه الله بها.

وهكذا يرفع الإسلام من تفكير معتنقيه ويشدُّهم إلى الاهتمام بمعالي الأمور.

إن موقف عروة بن مسعود رضي الله عنه في دعوة قومه والتضحية بنفسه في سبيل ذلك جعله جديراً بثناء النبي ﷺ عليه بقوله: **«مثلُ عروة مثلُ صاحب ياسين، دعا قومَه إلى الله عز وجل فقتلُوه»**.

وإنه ليجدر بنا أن نُورد موجزًا لقصة صاحب ياسين -رحمه الله-؛ لتتم المقارنة بين المشبه والمشبه به.

وقد ذكر الله سبحانه قصته بقوله: ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٥].

وقد ذكر ابنُ إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وكعب الأخبار ووهب بن منبه: أن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى؛ أي لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب، وفي رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس قال: اسم صاحب ياسين: حبيب النجار.

قال ابن إسحاق في روايته: فلما قال ذلك وثَبُوا عليه وثبةَ رجلٍ واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه(١).

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٩٢.

قال تعالى: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

وهكذا تكون عاقبة المتقين، أما عاقبة الكافرين المكذِّبين فقد ذكرها الله -جل وعلا- بقوله: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ [يس: ٢٨، ٢٩].

****

سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفلس في بلاد طيء

قال الواقدي: حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز قال: سمعت عبد الله بن أبي بكر ابن حزم يقول لموسى بن عمران بن منَّاح، وهما جالسان بالبقيع: تعرف سرية الفُلْس؟ قال موسى: ما سمعت بهذه السرية، قال: فضحك ابن حزم، ثم قال: بعث رسول الله ﷺ عليًا -عليه السلام- في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرسًا، وليس في السرية إلا أنصاريٌّ، فيها وجوه الأوس والخزرج، فاجتنبوا الخيل واعتقبوا على الإبل حتى أغاروا على أحياء من العرب، وسأل عن محَلَّة آل حاتم، ثم نزل عليها، فشنُّوا الغارة مع الفجر، فسَبَوا حتى ملؤوا أيديهم من السبى والغنم والشاء، وهدموا الفُلس وخرَّبوه، وكان صنمًا لطَيء، ثم انصرف راجعًا إلى المدينة.

قال عبد الرحمن بن عبد العزيز: فذكرتُ هذه السرية لمحمد بن عمر بن عليٍّ، فقال: ما أرى ابن حزم زاد على أن ينقل من هذه السرية ولم يأتك بها، قلت: فأت بها أنت! فقال: بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفُلْس؛ ليهدمه، في مائة وخمسين من الأنصار، ليس فيها مُهاجرٌ واحد، ومعهم خمسون فرسًا وظَهرًا، فامتطوا الإبل وجنَّبوا الخيل، وأمره أن يشنَّ الغارات، فخرج بأصحابه معه رايةٌ سوداء ولواءٌ أبيض، معهم القَنا والسِّلاح الظاهر، وقد دفع رايته إلى سهل بن حُنيف، ولواءَه إلى جبَّار بن صخر السَّلمي، وخرج بدليل من بني أسد يقال له: حُرَيث، فسلك بهم على طريق فَيد، فلما انتهى بهم إلى موضع قال: بينكم وبين الحيِّ الذي تُريدون يومٌ تامٌّ، وإن سرناه بالنهار وطئنا أطرافَهم ورعاءهم، فأنذروا الحيَّ فتفرقوا، فلم تُصيبوا منهم حاجتكم، ولكن نُقيم يومنا هذا في موضعنا حتى نُمسي، ثم نَسري ليلتنا على متون الخيل فنجعلها غارةً حتى نُصبِّحهم في عماية الصبح.

قالوا: هذا الرأي! فعسكروا وسرَّحوا الإبل، واصطنعوا، وبعثوا نفرًا منهم يتقصَّون ما حولهم، فبعثوا أبا قتادة والحُباب بن المُنذر وأبا نائلة، فخرجوا على متون الخيل لهم يطوفون حول المعسكر، فأصابوا غلامًا أسودَ، ، فقالوا: ما أنت؟ قال: أطلب بُغْيتي، فأتوْا به عليًا رضي الله عنه، فقال: ما أنت؟ قال: باغ، قال: فشدوا عليه، فقال: أنا غلامٌ لرجل من طيء من بني نبْهان، أمروني بهذا المَوضع، وقالوا: إن رأيتَ خيلَ

محمد فطرْ إلينا فأخبرنا، وأنا لا أدرك أسْرًا، فلما رأيتكم أردتُ الذِّهاب إليهم، ثم قلت: لا أَعجلُ حتى آتي أصحابي بخبر بيِّن من عددكم وعدد خيلكم وركابكم، ولا أخشى ما أصابني، فلكأني كنت مُقيَّداً حتى أخذتني طلائعكم، قال عليٌّ رضي الله عنه: أصدقْنا ما وراءك! قال: أوائل الحيِّ على مسيرة ليلة طَرَّادة[1]، تصبِّحهم الخيلُ ومَغارُها حين غَدوا.

قال عليٌّ رضي الله عنه لأصحابه: ما تَرون؟ قال جبار بن صخر: نرى أن ننطلق على متون الخيل ليلتنا حتى نُصبِّح القومَ وهم غارُّون فنُغير عليهم، ونخرج بالعبد الأسود دليلاً، ونخلِّف حُرَيثًا مع العسكر حتى يلحقوا إن شاء الله، قال عليٌّ: هذا الرأي! فخرجوا بالعبد الأسود، والخيل تَعَادى، وهو ردْف بعضهم عُقْبةً، ثم ينزل فيُردفُ آخر عُقْبةً، وهو مكتوف، فلما انهار الليل كذب العبد، وقال: قد أخطأتُ الطريق وتركتُها ورائي، قال: عليٌّ رضي الله عنه فارجع إلى حيث أخطأت! فرجع ميلاً أو أكثر، ثم قال: أنا على خطأ، فقال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّا منك على خدعة، ما تريد إلا أن تثنينا عن الحيِّ، قدِّموه: لتَصْدُقنَّا أو لنضربَنَّ عنقك، قال: فقدِّم وسُلَّ السيفُ على رأسه، فلما رأى الشر قال: أرأيت إن صدقتُكم أينفعني؟ قالوا: نعم، قال: فإني صنعت ما رأيتم أنه أدركني ما يدرك الناسَ من الحياء، فقلت: أقبلتُ بالقوم أدلُّهم على الحيِّ من غير محنة ولا حقٍّ فآمنهم، فلما رأيت منكم ما رأيتُ وخفتُ أن تقتلوني كان لي عُذْر، أنا أحملكم على الطريق، قالوا: اصدقنا، قال: الحيُّ منكم قريب.

فخرج معهم، حتى انتهى إلى أدنى الحيِّ، فسمعوا نباح الكلاب وحركة النعم في المراح والشاء، فقال: هذه الأصرام[2] وهي على فرسخ، فينظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: فأين آل حاتم؟ قال: هم متوسطو الأصرام، قال القوم بعضهم لبعض: إن أفزعنْا الحي تصايحوا وأفزعوا بعضهم بعضًا فتغيب عنا أحزابهم في سواد الليل، ولكن نمهل القوم حتى يطلع الفجر معترضًا فقد قرب طلوعه فنُغير، فإن أنذر بعضهم بعضًا لم يخْفَ علينا أين يأخذون، وليس عند القوم خيلٌ يهربون عليها ونحن على متون الخيل، قالوا: الرأي ما أشرت به.

---

(١) أي: طويلة.

(٢) أي: جماعات الحي.

قال: فلمَّا اعترضوا الفجر أغاروا عليها فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا، واستاقوا الذرِّية والنساء، وجمعوا النَّعَم والشَّاء، ولم يخف عليهم أحد تغيب فملأوا أيديهم، قال: تقول جاريةٌ من الحيِّ وهي ترى العبد الأسود -وكان اسمه أسْلَم- وهو مُوثَق: ما له هَبَل! هذا عمل رسولكم أسْلَم، لا سَلم، وهو جلبهم عليكم، ودلَّهم على عَوْرتكم! قال: يقول الأسود: أقْصري يا ابنة الأكارم، مادللتهم حتى قُدِّمتُ؛ ليُضربَ عنقي.

قال: فعسكر القوم، وعزلوا الأسرى وهم ناحية نُفَير، وعزلوا الذرية وأصابوا من آل حاتم أخت عدي ونُسيَّات معها، فعزلوهن على حدة، فقال أسلم لعليٍّ رضي الله عنه: ما تنتظر بإطلاقي؟ فقال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، قال: أنا على دين قومي هؤلاء الأسرى، ما صنعوا صنعت! قال: ألا تراهم مُوثقين، فنجعلك معهم في رباطك؟ قال: نعم، أنا مع هؤلاء موثقًا أحبُّ إليَّ من أن أكون مع غيرهم مطلقًا، يصيبني ما أصابهم، فضحك أهل السرية منه، فأوثق وطُرح مع الأسرى، وقال: أنا معهم حتى ترون منهم ما أنتم راؤون، فقائلٌ يقول له من الأسرى: لا مرحبًا بك، أنت جئتنا بهم! وقائل يقول: مرحبًا بك وأهلاً، ما كان عليك أكثر مما صنعت! لو أصابنا الذي أصابك لفعلنا الذي فعلت وأشدَّ منه، ثم آسيْت بنفسك.

وجاء العسكر واجتمعوا، فقرَّبوا الأسرى فعرضوا عليهم الإسلام، فمن أسلم تُرك ومن أبى ضربت عنقه، حتى أتوا على الأسود فعرضوا عليه الإسلام، فقال: والله إن الجَزَع من السيف للُؤم، وما من خلود! قال: يقول رجلٌ من الحيِّ ممن أسلم: يا عجبًا منك، ألا كان هذا حيث أُخذْت! فلما قُتل من قُتل، وسُبي من سُبي منا، وأسلم منَّا من أسلم راغبًا في الإسلام تقول ما تقول! ويحك، أسلم واتبع دين محمد! قال: فإني أُسلم وأتبع دين محمد، فأسلم وتُرك، وكان يَعدُ فلا يَفِي حتى كانت الرِّدة، فشهد مع خالد بن الوليد اليمامة فأبلى بلاءً حسنًا.

قال: وسار عليٌّ رضي الله عنه إلى الفُلْس فهدمه وخرَّبه، ووُجد في بيته ثلاثة أسياف، رَسوب، والمخْذَم، وسيفًا يقال له اليمانيُّ، وثلاثة أدراع، وكان عليه ثيابٌ يُلبسونه إيَّاها، وجمعوا السَّبْي، فاستُعمل عليهم أبو قتادة، واستُعمل عبدالله بن عَتيك

السُّلمي على الماشية والرِّثَّة، ثم ساروا حتى نزلوا رَكَك[1]، فاقتسموا السَّبْي والغنائم، وعزل للنبي ﷺ صفيًّا[2] رسوبًا والمخْدَم، ثم صار له بعدُ السيفُ الآخر، وعزل الخُمُس، وعزل آل حاتم، فلم يقسمهم حتى قدِم بهم المدينة[3].

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: موقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في القيادة الحكيمة التي كانت من أسباب نجاح المسلمين في هذه السرية، ومن ذلك أخذه بمبدأ الشورى؛ حيث كان يستشير أصحابه قبل الإقدام ويأخذ بالرأي الصائب وإن كان من غيره.

ثانيًا: مواقف لعموم الصحابة المشاركين في هذه السرية مع قائدهم؛ في تفاهمهم واجتماع كلمتهم ونجاحهم في القضاء على عدوِّهم، ثم فيما قاموا به من هدم الصنم «الفُلْس» الذي كانت قبيلة طيء تعبده، وهذا إنجاز كبير؛ حيث سينتهي الشرك بعد ذلك في بلاد طيء.

ثالثًا: ما قام به علي رضي الله عنه، من إكرام أخت عدي بن حاتم، وعدم إدخالها في السبي الذي قُسم، وهو يقتدي بذلك بالنبي ﷺ؛ حيث عزل أهل مالك بن عوف فلم يقسمهم تألُّفًا له للإسلام، وكذلك فعل عليٌّ؛ ليتألف النبي ﷺ أخاها للإسلام.

****

---

(١) اسم مكان في جبل سلمى أحد جبلي طيء.

(٢) الصفي: ما كان يأخذه رئيس الجيش من الغنيمة قبل القسمة، النهاية: ٢/ ٢٦٨.

(٣) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٨٤-٩٨٨.

نموذج من دعوة النبي ﷺ الحكيمة

(إسلام عدي بن حاتم)

قال ابن إسحاق: وأما عدي بن حاتم فكان يقول -فيما بلغني-: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امْرءًا شريفًا، وكنت نصرانيًا، وكنت أسيرُ في قومي بالمرباع(١)، فكنتُ في نفسي على دين، وكنت مَلكًا في قومي؛ لما كان يُصنع بي، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي، وكان راعيًا لإبلي: لا أبالك، اعْدُدْ لي من إبلي أجمالاً ذُلُلا(٢) سمانًا، فاحتبسها قريبًا منِّي، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطيء هذه البلاد فآذنِّي، ففعل، ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عديُّ ما كنت صَانعًا إذا غشيتك خيلُ محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد، قال: فقلت: فقرِّب إليَّ أجمالي فقرَّبهاَ، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحقُ بأهل ديني من النَّصارى بالشام فسلكتُ الجوْشية -ويقال: الحوشية فيما قال ابن هشام-، وخلفت بنتًا لحاتم في الحاضر(٣)، فلما قدمت الشام أقمتُ بها.

وتُخالفني خيلٌ لرسول الله ﷺ فتصيب ابنةَ حاتم فيمن أصابت، فقُدم بها على رسول الله ﷺ في سبايَا من طيء، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشَام، قال: فجُعلَت بنتَ حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا يُحبسن فيها، فمرَّ بها رسول الله ﷺ، فقامت إليه -وكانت امرأة جزْلة(٤)-، فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك، قال: «**ومن وافدك؟**» قالت: عديُّ بن حاتم، قال: «**الفارُّ من الله ورسوله؟**» قالت: ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني، حتى إذا كان الغدُ مرَّ بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، قالت: حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بي وقد يئست منه، فأشار إليَّ رجل من خلفه أن قُومي فكلِّميه، قالت:

(١) وهو ربع الغنيمة يأخذه سيد القوم قبل القسمة.

(٢) جمع ذلول، وهو الذي روض وذلل بالركوب عليه.

(٣) يعني: في مكان إقامة قومه.

(٤) أي: عاقلة أصيلة الرأي.

فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك، فقال ﷺ: «**قد فعلتُ، فلا تعجلي بخروجٍ حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقةً، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني**»، فسألتُ عن الرجل الذي أشار إليَّ أن أكلمه، فقيل: عليُّ بن أبي طالب -رضوان الله عليه-، وأقمت حتى قدم ركب من بليٍّ أو قضاعة، قالت: وإنما أريد أن آتيَ أخي بالشام، قالت: فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهطٌ من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ، قالت: فكساني رسول الله ﷺ، وحَملني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عديٌّ: فوالله إني لقاعد في أهلي؛ إذ نظرتُ إلى ظعينة تصُوبُ(١) إليَّ تؤمُّنا، قال: فقلت: ابنةُ حاتم، قال: فإذا هي هي، فلما وقَفتْ عليَّ انسحَلَت(٢) تقول: القاطع الظالم، احتملتَ بأهلك وولدك، وتركت بقيَّة والدك عورتك، قال: قلت: أي أخيَّة، لا تقولي إلا خيرًا، فوالله مالي من عذر، لقد صنعتُ ما ذكرت، قال: ثم نزلتْ فأقامت عندي، فقلت لها -وكانت امرأة حازمة-: ماذا تَرَيْن في أمر هَذا الرجل؟ قالت: أرى -والله- أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًّا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكًا فلن تَذل في عز اليمن، وأنت أنت، قال: قلت: والله إن هذا للرأي.

قال: فخرجت حتى أقدم علَى رسول الله ﷺ المدينة، فدخلتُ عليه وهو في مسجده، فسلَّمت عليه، فقال: «**من الرجل؟**»، فقلت: عديُّ بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعَامدٌ بي إليه؛ إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي والله ما هذا بملك، قال: ثم مضى بي رسولُ الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وَسادةً من أدم(٣) محَشوةً ليفًا، فقذفها إليَّ، فقال: «**اجلسْ على هذه**»، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «**بل أنت، بل أنت**»، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، قال: قلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال: «**إيه يا عديُّ بن حاتم! ألم تك رَكوسيًا**»(٤)؟ قال: قلت: بلى، قال: «**أو لم تكن تسيرُ في قومك بالمرْبَاع؟**»، قال: قلت: بلى، قال: «**فإن ذلكَ لم**

---

(١) أي: امرأة على ناقتها تنحدر من أعلى. (٢) أي: أخذت تلوم وتشتم.

(٣) هو بفتحتين: الجلد.

(٤) الركوسية: دين بين النصارى والصابئين، النهاية: ٢/ ٢٥٩.

يكن يحلُّ لكَ في دينك»، قال: قلت: أجل والله، وقال: وعرفْتُ أنه نبي مُرسل يعلم ما يُجهل، ثم قال: **«لعلك يا عديُّ إنما يمنعك من دُخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يوجد منْ يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوِّهم وقلَّة عددهم، فوالله ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية**[1] **على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم، وايمُ الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم»**، قال: فأسلمتُ.

وكان عديٌّ يقول: قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكوننَّ؛ قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحجَّ هذا البيت، وايمُ الله لتكوننَّ الثالثة، ليُفيضنَّ الله المالَ حتى لا يوجد من يأخذه[2].

وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه باختصار، وجاء في رواية الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال لعدي بن حاتم: **«أسْلِمْ تَسْلَم»** ثلاثًا، قال: قلت: إني على دين، قال: **«أنا أعلم بدينك منك»**، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: **«نعم، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟»** قلت: بلى، قال: **«فإن هذا لا يحل لك في دينك»**، قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعتُ لها[3].

مواقف وعبر في هذا الخبر:

أولاً: معاملة رسول الله ﷺ الكريمة لأخت عدي بن حاتم؛ حيث بقيت معزَّزةً مكرَّمة، ثم كساها النبي ﷺ وأعطاها ما تتبلَّغ به في سفرها، وقد كان النبي ﷺ أبقاها؛ لترى حياة المسلمين وتصف لأخيها أخلاقهم ومعاملاتهم.

وقد كان لهذه المعاملة الكريمة أثرٌ واضحٌ في قدوم أخيها وإسلامه، وقد كان النبي ﷺ يحرصُ دائمًا على اجتذاب سادة القبائل إلى الإسلام حتى يكسب بذلك أقوامهم.

---

(١) في رواية الإمام أحمد: «من الحيرة».

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣١٣- ٣١٧.

(٣) الفتح الرباني: ٢١- ١٩١، وذكره الهيثمي، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش وهو ثقة، مجمع الزوائد: ٦/ ٢٠٧، ٢٠٨، وأخرجه الإمام البخاري مختصرًا، كتاب المناقب: ٦/ ٦١٠، رقم: ٣٥٩٥.

ثانيًا: تخلُّق النبي ﷺ بمكارم الأخلاق العالية كان أقوى العوامل التي جذبت عديَّ بن حاتم إلى الإسلام؛ فقد رأى من رسول الله ﷺ مظهريْن من مظاهر التواضع.

أولهما: وقوفه الطويل مع امرأة كبيرة السن تحدثه في حاجتها.

وثانيهما: جلوسه على الأرض وتقديمه الوسادة لضيفه؛ ليجلس عليها.

وقد كان عديٌّ وهو مقبل على رسول الله ﷺ يحمل في تصوره أنه أحد رجلين؛ إما نبي، أو ملك؛ لأن تبعية الناس له على هذا النطاق الواسع لا تكون إلا بأحد هذين العاملين، فلما رأى تواضع النبي ﷺ البالغ انسلخ من ذهنه عامل المُلك، وبقي التصورُ الآخر وهو عامل النبوَّة.

وقد كان النبي ﷺ مُوفَّقًا حينما انتقد عديًّا في مخالفته للدين الذي يعتنقه؛ حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله ﷺ الذي يعلم من دينه ما لا يعلمه الناس من حوله.

ثم لما تبين للنبي ﷺ أن عديًّا قد حصل عنده اليقين بنبوته تطرق إلى المُعوقات التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها: ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم وما هم فيه من الفقر، فأبان له النبي ﷺ بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأةُ من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وكان عدي مندهشًا لهذا الخبر، لكنه قد ثبت له صحة نبوة رسول الله ﷺ وأنه لا يقول إلا حقًّا، فصدقه في ذلك، كما أبان له ﷺ أن المال سيفيض حتى لا يقبله أحدٌ.

فلما زالت عن عدي هذه المُعوقات، وعلم أن وضع المسلمين آنذاك لن يستمر على ما هو عليه انقشعت عنه الحُجب، فأسلم حالاً.

وهكذا كان النبي ﷺ مُوفَّقًا كل التوفيق في دعوته؛ حيث كان خبيرًا بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يعامل كل إنسان بما يلائم علمه وفكره وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، حتى استطاع أن يجتذب أكابر الناس وسادتهم بالطرق التي يراها تؤثر عليهم، وبذلك دخل الناس في دين الله أفواجًا.

ثالثًا: في انتقاد النبي ﷺ عديًّا في دينه السابق عبرة؛ فالرسول ﷺ لم ينتقد الدين نفسه مع كونه غير صحيح، وقد نُسخ بالإسلام. . لم ينتقد الركوسية نفسها؛ لأن عديًّا لم يكن مستقيمًا على ذلك الدين، فكأنه لا دين له.

ومن هنا نعلم أن التدين الحقيقي ليس بمجرد الانتساب وإظهار الولاء، وإنما يكون بالاستقامة على تكاليف الدين وعدم سلوك ما يناقضه، وكما كان عدي على غير دينٍ حقيقةً؛ لأنه لم يستقم على ذلك الدين الذي انتسب إليه فكذلك من يظهر الانتسابَ للإسلام ولكن لا يُطبق أحكامه، أو يرتكب ما يناقضه فإنه لا يكون مسلمًا حقًّا.

وكما كان عدي بكونه غير مستقيم على دينه السابق يعدُّ دعايةً سيئة لذلك الدين ومنفِّرًا عن اعتناقه، فكذلك من ينتسبون إلى الإسلام وسلوكهم في هذه الحياة يتناقض مع أحكامه وآدابه فإنهم بذلك يَصُدون الناس عن الإسلام.

****

مثلان من هدي النبي ﷺ في إكرام الكرماء
(وفادة جرير البُجلي ووائل بن حجر)

١- أخرج الإمامان أحمد والبيهقي من حديث جرير بن عبد الله البُجلي رضي الله عنه قال: لما دنوت من المدينة أنختُ راحلتي، ثم حللت عيبتي ثم لبست حلتي، ثم دخلت، فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق[1]، فقلت لجليسي: يا عبدالله، ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ذكرك آنفًا بأحسن ذكر، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: «**يدخل عليكم من هذا الباب** -أو من هذا الفجِّ- **من خير ذي يمن، وإنَّ على وجْهه مسْحةَ ملكٍ**»، قال جرير: فحمدتُ الله عز وجل على ما أبلاني[2].

٢- أخرج الإمام البخاري من حديث وائل بن حُجر رضي الله عنه قال: بلغني ظهور النبي ﷺ، فتركت مُلكًا عظيمًا وطاعةً عظيمة، فهبطت إلى النبي ﷺ فأخبرني أصحابه، فقالوا: بشَّرنا النبي ﷺ بمقدمك قبل أن تقدم بثلاثة أيام، ثم لقيته فقرَّب مجلسي وأدناني وبسط لي رداءه وأجلسني معه وقبلَ إسلامي، ثم هبط إلى منبره فصعد وأصعدني معه، فقمت دونه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبيين، وقال: «هذا وائل بن حجر، أتاكم من أرض بعيدة من حضرْمَوت طائعًا غير مُكره، راغبًا في الله عز وجل وفي رسوله وفي دينه، بقية أبناء الملوك، اللهم بارك في وائل بن حجر وفي ولده وولد ولده»، ثم أنزلني معه، فبعث معي معاوية بن أبي سفيان قال: وأمره أن يعطيني أرضًا فيدفعها إليَّ، وكتب لي كتابًا خاصًّا يفضلني فيه على قومي وكتابًا لي ولأهل بيتي بمالنا، وكتابًا لي ولقومي، فخرجت في الهاجرة فركبت راحلتي واشتدَّت الرمضاء وأوضعت[3]، فقال لي معاوية: أردفني، قلت: ما بي ضنٌّ عن هذه الناقة ولكن لستَ من أرداف الملوك، قال: فألق إليَّ حذاءك أتوقى به، قلت: لست أضنُّ بالحذاء ولكن لستَ ممن يلبس لباس الملوك، قال: فقصِّر عليَّ من راحلتك أمشي في ظلها، قلت: ذاك لك وكفى لك به شرفًا[4].

(١) أي: نظروا إليه بعيونهم.
(٢) الفتح الرباني: ٢١/ ٢١٦، دلائل النبوة: ٥/ ٣٤٦، ٣٤٧.
(٣) أي: أسرعت السير.
(٤) التاريخ الكبير: ٤/ ١٧٥، رقم: ٢٦٠٧.

وذكره الحافظ ابن حجر وزاد في آخره: فلما استخلف معاوية قصده فتلقاه وأكرمه، قال وائل: فوددت لو كنت حملته بين يدي(١).

في هذين الخبرين مواقف وعبر، منها:

أولاً: موقفان لرسول الله ﷺ في إكرام كرماء الأقوام وسادتهم؛ ففي الخبر الأول نوَّه بجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه وأثنى عليه؛ ليكرمه الصحابة رضي الله عنهم، ويعتنوا به، وفي الخبر الثاني بشَّر النبي ﷺ أصحابه بقدوم وائل بن حجر رضي الله عنه قبل وصوله بثلاثة أيام، وقد أكرمه النبي ﷺ بعد وصوله إكرامًا بالغًا؛ نظرًا لسيادته الكبيرة في قومه.

إن السادة والكرماء قد ألفُوا من الناس على حياة الاحترام والتقدير، فإذا انتقلوا من أقوامهم ومواطن عزِّهم وجاؤوا مسلمين طائعين مختارين فإنهم بحاجة إلى أن يُعامَلوا بالتكريم والاحترام؛ حتى لا يصابوا بردَّة فعل فيما إذا عوملوا بشيء من الجفاء، فيكون ذلك سببًا في صدِّهم عن الإسلام، وليس من المسلَّم به أن يقال: إنهم ما داموا دخلوا في الإسلام، فلا بد أن يتواضعوا وأن يُعاملوا بمثل ما يعامل به أفراد المسلمين؛ لأن خلفيات الحياة الأولى تبقى في نفوس هؤلاء؛ حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم ويتعلموا أخلاق الإسلام وآدابه، وما هذه المعاملة التي عامل بها وائل بن حجر معاوية -رضي الله عنهما- إلا من آثار حياة السيادة والملك؛ ولهذا كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بهؤلاء بقوله: «**إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكْرمُوه**».

وفي هذين الخبرين معجزتان لرسول الله ﷺ؛ حيث أخبر عن قدوم هذين السيدين الكريمين قبل وصولهما، ففي ذلك عبرةٌ للمعتبرين وآية للمتذكِّرين.

وأخيرًا: موقف لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- حينما وفد عليه وائل بن حجر فتلقاه وأكرمه ولم يتأثر بموقفه القديم معه، وهذا مثلٌ من أمثلة عظمة الإسلام في تهذيب النفوس وتقويمها.

****

(١) الإصابة: ٣/ ٥٩٢، رقم: ٩١٠٢.

سرية جرير بن عبد الله إلى ذي الخلصة

أخرج الإمام البخاري من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا تُريحني من ذي الخلصة؟**» فقلتُ: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ، فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري، وقال: اللهم ثبته، واجعله هاديًا مهديًا، قال: فما وقعتُ عن فرس بعدُ.

وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نُصُب تُعبد، يقال له: الكعبة، قال: فأتاهم فحرَّقها بالنار وكسرها.

قال: ولما قدم جريرٌ اليمنَ كان بها رجلٌ يستقسمُ بالأزلام، فقيل له: إنَّ رسولَ رسولِ الله ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك، قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير، فقال: لتكسرنَّها ولتشهدنَّ أن لا إله إلا الله أو لأضربن عُنقك، قال: فكسرها وشَهدَ، ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنى: أبا أرطاة إلى النبي ﷺ يُبشره بذلك، فلما أتى النبيَّ ﷺ قال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما جئتُ حتى تركتها كأنها جملٌ أجرب[1]، قال فبرَّك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات»[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: عبرة في بركة النبي ﷺ ودعائه؛ حيث وضع يده على صدر جرير بن عبد الله البُجلي رضي الله عنه ودعا له بالثبات، فأصبح جرير لا يسقط من الخيل وكان قبل ذلك لا يثبت عليها، وهذا من شواهد نبوة رسول الله ﷺ.

---

(١) يعني: أنها أصبحت سوداء من الحريق كالجمل الأجرب إذا طلي بالقطران، فتح الباري: ٨/ ٧٣.

(٢) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٧٠، رقم: ٤٣٥٧، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في فضائل الصحابة: ٤/ ١٩٢٥، رقم: ٢٤٧٦.

ثانيًا: موقفٌ لجرير بن عبد الله ومن معه من فرسان قبيلة أحمس، حيث قاموا بتحطيم صنم «ذي الخلصة» وتحريقه وإقرار الإسلام في بلاد خثعم وبجيلة، وإزالة معالم الجاهلية منها مثل الاستقسام بالأزلام.

وهكذا نجد أن رسول الله ﷺ بعد فتح مكة صار يبعث البعوث؛ لتحطيم الأصنام وإزالة معالم الجاهلية من بلاد العرب، فتم تحطيم صنم العُزَّى ومناة وسواع والحُمس وذي الخلصة وغيرها من الأصنام الصغيرة؛ وذلك للقضاء على منابع الشرك، وإقرار التوحيد.

****

مواقف وعبر

في

غـزوة تبـوك

سبب غزوة تبوك وتجهيز الجيش لذلك

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: قالوا: كانت الساقطة -وهم الأنباط- يقدمون المدينة بالدرمك[1] والزيت في الجاهلية، وبعد أن دخل الإسلام فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم؛ لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط، فقدمت قادمةٌ فذكروا أنَّ الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأنَّ هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخمٌ، وجُذام، وغسَّان، وعاملة، وزحفوا وقدَّموا مقدماتهم إلى البَلْقاء، وعسكروا بها، وتخلَّف هرقل بحمص، ولم يكن ذلك، إنما ذلك شيءٌ قيل لهم فقالوه، ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم؛ وذلك لما عاينوا منهم -إذ كانوا يقدمون عليهم تجارًا- من العَدَد والعُدَّة والكُراع[2].

وكان رسول الله ﷺ لا يغزو غزوةً إلاَّ ورَّى بغيرها؛ لئلاَّ تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، واستقبل غُزًّى وعددًا كثيرًا، فجلَّى للناس أمرهم؛ ليتأهبوا لذلك أهبة غزوهم، وأخبر بالوجه الذي يريد.

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهم، فبعث إلى أسلم بُريدة بن الحُصَيب، وأمره أن يبلغ الفُرْع، وبعث أبا رُهم الغفاريَّ إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم، وخرج أبو واقد الليثي في قومه، وخرج أبو الجَعْد الضمريُّ في قومه بالساحل، وبعث رافع بن مكيث، وجندب بن مكيث في جهينة، وبعث نعيم بن مسعود في أشجع، وبعث في بني كعب بن عمرو بديل بن ورقاء، وعمرو بن سالم، وبشر بن سفيان، وبعث في سُليم عدة، منهم: العبَّاس بن مرداس[3].

****

(١) الدرمك: الدقيق الأبيض.

(٢) أي: الخيول.

(٣) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٩٠.

أخرج الإمام أبو داود من حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**»، قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**»، قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[(١)].

وأخرجه الإمام الترمذي من حديث زيد بن أسلم عن أبيه، وذكر مثله، وقال: هذا حديث حسن صحيح[(٢)].

وذكره الواقدي ضمن خبر عن إنفاق الصحابة في تجهيز جيش تبوك، وذكر فيه أيضًا إنفاق العبَّاس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف ومحمد بن مسلمة وعاصم بن عدي رضي الله عنهم[(٣)].

ومما جاء في إنفاق عثمان رضي الله عنه على ذلك الجيش: ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث عبد الرحمن بن خُباب قال: شهدتُ النبي ﷺ وهو يحثُّ على جيش العُسرة، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائةَ بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزلُ عن المنبر وهو يقولُ: «**ما علَى عُثمانَ ما عملَ بعد هذه، ما على عُثمانَ ما عمِل بعد هَذه**».

قال أبو عيسى: هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة[(٤)].

(١) سنن أبي داود، الزكاة: ٢/ ٣١٢- ٣١٣، رقم: ١٦٧٨.
(٢) سنن الترمذي، المناقب: ٥/ ٦١٤- ٦١٥، رقم: ٣٦٧٥.
(٣) مغازي الواقدي: ٣/ ٣٩١.
(٤) سنن الترمذي، المناقب: ٥/ ٦٢٥، ٦٢٦، رقم: ٣٧٠٠.

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد -واللفظ له- والترمذي من حديث عبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنهما- قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيشَ العُسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يُقلبها بيده ويقول: «**ما ضرَّ ابنَ عفَّان ما عمِلَ بعد اليومِ**» يُرددها مرارًا[1].

في هذه الأخبار مواقف، منها:

أولاً: ما قام به رسول الله ﷺ من جمع المسلمين وحثِّهم على الإنفاق في سبيل الله تعالى، وكان النبي ﷺ يقوم بذلك في حال احتياج المسلمين، إما لتجهيز جيش كبير كجيش تبوك، وإما لجائحة وقعت على بعض المسلمين.

وبهذه الطريقة كان يتم تجهيز الجيوش وتأمين المال اللازم لذلك.

لقد كان ذلك يتم بكلمات معدودات يستثير بها النبي ﷺ المشاعر ويستنهض بها الهمم، فتتشوق قلوب المؤمنين إلى بلوغ أعلى الدرجات من الإيمان؛ وذلك لما ينفقونه من أموالهم في سبيل الله تعالى.

وبهذا يكون النبي ﷺ قد جمع أمرين:

الأول: الحصول على المال الذي به يتم تجهيز الغزاة في سبيل الله تعالى.

والثاني: دفع المؤمنين إلى التنافس في أداء هذه العبادة المهمة وهي الإنفاق في سبيل الله -جل وعلا- عن طواعية ورغبة في رضوان الله -سبحانه- والدار الآخرة، ولو أنه فرض على جميع المؤمنين مبلغًا مُعينًا -ولو كان زهيدًا- فإنه يتحقق الأمر الأول وهو الحصول على المال الكافي، ولكن يتخلف الأمر الثاني وهو أداء هذه العبادة العظيمة.

كما أن هذه السنة النبوية يترتب عليها أمرٌ مهم، وهو ظهور أهل الإيمان القوي على مراتبهم في ذلك؛ ليكونوا بعد ذلك موضع الثقة في إسناد الأمور المهمة إليهم حسب كفاءاتهم، وليكونوا بهذا البذل السخي قدوةً صالحة لمعاصريهم، وللأجيال التي تأتي بعدهم.

---

(١) مسند أحمد: ٥/ ٦٣، سنن الترمذي، المناقب: ٥/ ٦٢٦، رقم: ٣٧٠٢.

وهذه السنة النبوية لم تقتصر على حثِّ المسلمين على الإنفاق على الغزاة في سبيل الله تعالى، ولكنها تجاوزت ذلك إلى حثِّ المسلمين على الإنفاق؛ لإنقاذ المُعْوزين والفقراء من المسلمين، ومما يبين ذلك: ما أخرجه الإمام مسلم والنسائي من حديث جرير ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كنا في صدر النهار مع رسول الله ﷺ، فجاءه قوم عراة مجتابي النمار[1] أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مُضر، أو كلهم من مضر، فتمعَّر وجه النبي ﷺ؛ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج فأمر بلالاً فأذَّن وأقام فصلى، ثم خطب، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨] تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره»، حتى قال: «ولو بشقِّ تمرة»، قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرَّة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كُوَمين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ تهلَّل كأنه مُذْهَبَه، فقال رسول الله ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنَّة سيئةً كان عليه وزرُها ووزرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[2].

وهكذا رأينا كيف استطاع النبي ﷺ ببلاغته العالية وحكمته الفائقة أن يستخرج من الأغنياء والمتوسطين ما يرفع به من مستوى الفقراء ويسدُّ خلتهم.

ثانيًا: موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما جاء بماله كله وأنفقه في سبيل الله تعالى، وهو بهذا يُعدُّ أعظم المتصدقين، وإن المتأمل لَيعجب كيف تصدق بماله كله، ألا خطر بباله احتياج أهله في غيابه؟! ثم ألا خطر بباله احتياجه هو إلى المال في المستقبل؟! بلى، سيخطر بباله ذلك كله كأي بشر، ولكنَّه وأمثاله من الكمَّل يرتِّبون الأمور حسب أولوياتها، وقد رأى بثاقب بصره النابع من إيمانه القوي أن حاجة المسلمين الطارئة الحالية أولى من حاجته وحاجة أهله المستقبلية.

---

(١) أي: لابسي النمار، وهي ثياب مخططة من مآزر الأعراب.

(٢) صحيح مسلم، الزكاة: ٧٠٤، ٧٠٥، رقم: ١٠١٧، سنن النَّسائي، الزكاة: ٥/ ٧٥.

وقد ساعده على تقرير هذا القرار الذي يُعد كبيراً في حياة الناس قوة ثقته بالله عز وجل بأن الرزق بيده، وعظيم أمله بأنه تعالى لن يُضيع أولياءه، ثم ساعده على ذلك ما أخذ به نفسَه وأهله من حياة الزهد والتقشُّف، فليس عنده وأمثاله من النفقة الضرورية إلا اللباس ويكفيهم منه القديم وإن اخْلولق، والطعام ويكفيهم كمية من التمر والشعير وإن قلَّ ذلك، فهذه النفقة هي التي تدخل في عداد الضروريات، أما ما عدا ذلك فإنه أمر كمالي تُقدم عليه حاجة المسلمين العامة الماسةَ آنذاك.

إن أبا بكر وهو يحمل ذلك المال الذي لا يملك غيره؛ لينفقه في سبيل الله تعالى كان يحمل همَّ دولة الإسلام الفتية التي هددها الروم وعرب الشام، فلنفرض جدلاً أن أبا بكر شحَّ بماله فلم يُخرج منه إلا القليل، وأن الآخرين فعلوا مثل ذلك ولم يتمكن رسول الله ﷺ من تجهيز ذلك الجيش الضخم الذي أرهب الأعداء، وأن الأعداء استهانوا بالمسلمين فغزوهم في عقر دارهم واكتسحوا بلادهم. . لنفرض أن ذلك وقع، هل سينفع أبا بكر ماله الذي أعده للمستقبل وهل سينفع الآخرين أموالُهم؟ كلا بل ربما أصبحت هذه الأموال غنيمة للروم.

إن فهم أبي بكر كان عظيمًا وثاقبًا ولا يُعدُّ، ولا يُعد متهوراً حينما أنفق ماله كله، ولا يعد بذلك قد ضيَّع أهله ومن يعولهم؛ لأن التهور الكبير والضياع الخطير إنما هو بإمساك المال الذي قد يؤدي إلى هلاك الأمة ودمارها على يد الأعداء.

ثالثًا: موقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يبلغ نهاية الكمال مثل أبي بكر رضي الله عنه في الإنفاق، لكنه حاز درجة عليا من الكمال؛ حيث أنفق نصف ماله، ولو أنه كان يشعر بأن تجهيز الجيش سيتوقف على بقية ماله لم يبخل به.

وموقف آخر يُذكر له، وهو اعترافه لأبي بكر بالفضل؛ لسبقه وتقدُّمه عليه في الأعمال الصالحة، والاعتراف للآخرين بالفضل والتقدم في مجال التنافس على الخير دليل على تجرد الإنسان من حظِّ النفس والتحكم في الهوى.

رابعًا: مواقف لعدد من الصحابة الأغنياء جاؤوا بأموال كثيرة سدُّوا بها حاجة كثير من المسلمين الضعفاء، ومكنوا النبي ﷺ من الاستمرار في تجهيز الجيش، وقد ذكر الواقدي في روايته أسماءهم رضي الله عنهم.

خامسًا: الموقف الكبير المدهش الذي أثار إعجاب النبي ﷺ وسروره البالغ، وهو ما قدمه ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه من مال كثير جهَّز به النبي ﷺ جيش العسرة حتى عُرف عثمان بمجهِّز جيش العسرة، ولقد تنوعت نفقته؛ ما بين مال نقدي وتجهيز للإبل التي تحمل المجاهدين تجهيزًا كاملاً.

وهنا في مثل هذه الحال يظهر فضل الأغنياء المنفقين الذين بذلوا جهودًا كبيرة في التجارة، لا من أجل جمع المال وكنزه لتكون المائة مائتين والألف ألفين؛ وإنما ليكونوا بأموالهم رصيدًا لاحتياج أمتهم، فإذا هُدِّدت دولة الإسلام من الأعداء أو أصيب المسلمون بجوائح كانوا موئل المحتاجين وأمل المتضرِّرين، والدروع الواقية للأمة بتجهيز الغزاة في سبيل الله تعالى.

لقد ذكر العلماء أن العبادات المتعدية التي يتعدى نفعها للمسلمين أفضل من العبادات الخاصة التي يقتصر نفعها على فاعلها وذلك في مجال النوافل، وإن من أهم العبادات المتعدية: الإنفاق في سبيل الله تعالى، وما يسبق ذلك من استثمار المال وتنميته من أجل هذا الهدف النبيل.

****

موقف لعبد الله بن الجدّ بن قيس
(امتناع الجد بن قيس من الخروج)

قال الواقدي -فيما يرويه عن شيوخه-: وقال رسول الله ﷺ للجدِّ بن قيس: «**أبا وهب، هل لك العام تخرج معنا لعلَّك تحْتقب من بنات الأصفر؟**»، فقال الجدُّ: أو تأذن لي ولا تفتنِّي؟ فوالله، لقد عرف قومي ما أحدٌ أشدُّ عجبًا بالنساء مني، وإني لأخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر لا أصبر عنهنَّ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فقال: «**قد أذنتُ لك!**»، فجاءه ابنه عبد الله بن الجد، وكان بدريًا، وهو أخو معاذ بن جبل لأمه، فقال لأبيه: لمَ ترد على رسول الله ﷺ مقالته؟ فوالله ما في بني سلمة أكثر مالاً منك، ولا تخرج ولا تحمل أحدًا!، قال: يا بُني، مالي وللخروج في الريح والحرِّ والعسرة إلى بني الأصفر؟ والله، ما آمن خوفًا من بني الأصفر وإنِّي في منزل بخُرْبَى، فأذهبُ إليهم فأغزوهم، إني والله يا بُني عالمٌ بالدوائر! فأغلظ له ابنه، فقال: لا والله ولكنه النفاق، والله لينزلنَّ على رسول الله ﷺ فيك قرآنٌ يقرؤونه، قال: فرفع نعله فضرب بها وجهه.

فانصرف ابنُه ولم يُكلمه، وجعل الخبيث يُثبِّط قومه، وقال لجبار بن صخر ونفر معه من بني سلمة: يا بني سلمة، لا تنفروا في الحرِّ، يقول: لا تخرجوا في الحرِّ زهادةً في الجهاد، وشكًا في الحق، وإرجافًا برسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿**وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾، إلى قوله: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [التوبة: ٨١- ٨٢]، وفيه نزلت: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ [التوبة: ٤٩] الآية؛ أي كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، إنما تعذَّر بالباطل، فما سقط فيه من الفتنة أكثر بتخلفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه، يقول الله عز وجل: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾، يقول: إن جهنم لَمَنْ ورائه، فلما نزلت هذه الآية جاء ابنه إلى أبيه، فقال: ألم أقل لك إنَّه سوف ينزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون؟ قال: يقول: أبوه: اسكتْ عني يا لُكَعُ! والله لا أنفعك بنافعة أبدًا! والله لأنت أشدُّ عليَّ من محمد[1]!.

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٩٢، ٩٩٣.

في هذا الخبر موقف لعبد الله بن الجدِّ بن قيس رضي الله عنه؛ حيث وقف لأبيه الذي أظهر نفاقه في أيام تجهيز جيش تبوك، وأخذ يُثبط الناس عن الخروج للجهاد، فلامه ابنه عبد الله وشدَّد عليه وحذَّره من نزول القرآن بفضيحته، وقد تحمل من أبيه الضرب على وجهه بالنعل، فذلك من الأذى في سبيل الله تعالى.

ثم لما استمر عبد الله في لوم أبيه وتعنيفه أقسم أبوه ألا ينفعه بشيء من المال وهو يظن أن ذلك سيؤثر عليه، ولكن النفوس المؤمنة لا تبالي بالدنيا كلها إذا ذهبت في سبيل خدمة الدين وإرضاء الله تعالى ورسوله ﷺ.

****

مثل من رغبة الصحابة في الجهاد مع عذرهم بالفقر

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله أسأله الحُملان لهم؛ إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبيَّ الله، إنَّ أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «والله لا أحملكُم علي شيء»، ووافقته وهو غضبانُ ولا أشعُر، ورجعتُ حزينًا مع منع النبي ﷺ ومن مخافة أن يكون النبيُّ ﷺ وجد في نفسه عليَّ، فرجعتُ إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي ﷺ، فلم ألبثْ إلا سوُيعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبد الله بن قيس، فأجبتهُ، فقال: أجبْ رسول الله ﷺ يدعوك، فلما أتيتهُ قال: «خذ هذين القرينَيْن -لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد- فانطَلقْ بهنَّ إلى أصحابك، فقل: إنَّ الله -أو قال: إنَّ رسول الله ﷺ- يَحملكم على هَؤلاء، فاركبُوهن»، فانطلقتُ إليهم بهنَّ، فقلت: إنَّ النبي ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكني والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ؛ لا تظنوا أني حدَّثتكم شيئًا لم يقله رسول الله ﷺ، فقالوا لي: إنك عندنا لُمصدَّق، ولنفعلنَّ ما أجبتَ، فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ، منْعَه إياهم، ثم إعطاءهم بعدُ، فحدَّثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى»(١).

في هذا الخبر مثل من شوق الصحابة رضي الله عنهم إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فهؤلاء الذين لا يجدون ما يحملهم معذورون في القعود، ولكنهم لشوقهم إلى الجهاد يطلبون من النبي ﷺ أن يوفر لهم الإبل التي تحملهم، وقد يسَّر الله تعالى لهم ذلك، وتحققت أمانيهم في الخروج للجهاد.

****

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ١١٠، رقم: ٤٤١٥.

مثل من الشوق البالغ إلى الجهاد
(خبر البكائين)

قال ابن إسحاق: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم.. وذكر أسماءهم إلى أن قال: فاستحملوا[1] رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: «**لا أجدُ ما أحملُكُم عليه**»، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا أن لا يجدوا ما ينفقون[2].

وأخرجه الواقدي عن شيوخه وذكر نحوه، وذكر أن اثنين منهم حملهما يامين بن عمير النَّضري على جمل له وزوَّدَهما كل واحد صاعين من تمر، وأن اثنين منهما حملهما العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأن بقيتهم وهم ثلاثة حملهم عثمان بن عفان رضي الله عنه[3].

وقد نزل في هؤلاء البكائين قول الله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

هؤلاء السبعة من الفقراء الذين لا يجدون ما يركبون عليه من الإبل؛ ليخرجوا مع المسلمين، وهم معذورون في تخلفهم؛ لعدم تمكنهم من الخروج، ولكن الشوق البالغ يحدوهم إلى الخروج، وحب الجهاد الذي خالط دماءهم يدفعهم إلى محاولة الحصول على ما يحملهم، ولكن النبي ﷺ يعتذر منهم؛ لأن كل ما حصل عليه من مال وإبل أعطاه للمجاهدين.

وينصرف هؤلاء من عند النبي ﷺ وقلوبهم في حسرة على ترك الجهاد وأسف على القعود عن إخوانهم المجاهدين، ولقد كان الأسى شديدًا على قلوبهم، الأمر الذي عبَّروا عنه بالدموع الغزيرة التي فاضت من أعينهم، ولكن الله تعالى يسَّر أمرهم؛ حيث حصلوا من أهل المعروف والإحسان على ما يحملهم مع إخوانهم المجاهدين.

---

(١) أي: طلبوا منه أن يحملهم.
(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠٠.
(٣) المغازي، للواقدي: ٣/ ٩٩٣، ٩٩٤.

موقف لعُلبة بن زيد بن حارثة من البكائين

ذكر الحافظ ابن حجر أن الحافظ ابن مندة روى من حديث أبي عيسى بن جبر قال: كان علبة بن زيد بن حارثة رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، فلما حضَّ على الصدقة جاء كل رجل منهم بطاقته وما عنده، فقال علبةُ بن زيد: اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدقَ بعرضي على من ناله من خلقك، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى: أين المتصدق بعرضه البارحة؟ فقام علبة، فقال: «**قد قُبلتْ صدقتُك**».

وقد ذكر الحافظ ابن حجر عدَّة طرقٍ لهذا الخبر، ثم ذكر أن له شاهدًا صحيحًا إلا أنه لم يُسمَّ فيه[1].

في هذا الخبر مثلٌ من الحب الكبير للعمل الصالح الذي يتنافس فيه المتنافسون من السابقين إلى الخيرات، فقد كان الصحابة يتنافسون في الصلاة والذكر والصيام وغير ذلك من الأعمال الصالحة المتيسرة لهم، ولكن حينما جاء التنافس في الإنفاق في سيبل الله صار فرسان الحلبة فيه هم الأغنياء والمتوسطون، وقعد عنه الفقراء، فلما رأى ذلك علبةُ ابن زيَد وهو من الفقراء تاقت نفسه للإنفاق؛ ليسهمَ في هذا العمل الصالح الذي حثَّ عليه النبي ﷺ، ولكن لم يكن في مقدوره ذلك، فدعا بهذا الدعاء العجيب: «**اللهم إنَّه ليس عندى ما أتصدَّقُ به، اللهم إني أتصدَّقُ بعِرْضي على من ناله من خلقِك**».

وهكذا يبلغُ حب الخير والتنافس فيه عند هذا الصحابي الجليل حدًا شغل تفكيره حتى كان يُفكر به في الليل، ولقد تفتق ذهنه من ألم الحرقة وكثرة التفكير في هذا الأمر إلى أن يتصدق بعرضه على من ناله من عباد الله تعالى.

لقد تصدق بشيء ما، ولكن هل تُقبل هذه الصدقة؟ وهل يكون في عداد السابقين بالخيرات الذين بذلوا من أموالهم؟ هذا ما رجاه علبةُ بن زيد، وهذا هو الذي كان في ميسوره.

ولقد كان الأمر من الأهمية؛ بحيث نزل فيه الخبر من السماء على رسول الله ﷺ؛ حيث بشَّر علبةَ بأن صدقته تلك قد قبلها الله تعالى.

---

(١) الإصابة: ٢/ ٤٩٣.

أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة -أو عن أبي سعيد رضي الله عنهما «شك الأعمشُ»- قال: لما كان غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعةٌ، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[1] فأكلنا وادَّهنَّا، فقال رسول الله ﷺ: «**افعلُوا**»، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله! إن فعلتَ قلَّ الظهرُ[2]، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك[3]، فقال رسولُ الله ﷺ: «**نعم**»، قال: فدعا بنطع[4] فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم.

قال: فجعل الرجل يجيء بكفِّ ذُرَة، قال: ويجيءُ الآخر بكفِّ تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيءٌ يسيرٌ، قال: فدعا رسولُ الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: «**خذُوا في أوْعيتكم**»، قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملأوه، قال: فأكلوا حتى شبعُوا، وفضلت فضلةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسولُ الله، لا يلقي الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيُحجب عن الجنة**»[5].

في هذا الخبر بيان شيء مما كان يعاني منه الصحابة رضي الله عنهم من الشدائد؛ حيث تعرَّضوا للجوع الشديد والعطش الشديد مع ما يعانونه من حرارة الجو، ولم يكن رسول الله ﷺ من هذه الشدائد بمعزل، ولم يكن يُفضل نفسه عليهم بشيء من أمور الدنيا، بل كان يقاسي من شدة الحرِّ ما يقاسون، ويجوع كما يجوعون ويعطش كما يعطشون، وكان هذا يخفف على الصحابة بعض ما يقاسون؛ إذ إنهم ينسون أنفسهم في جانب النبي ﷺ الذي يفدونه بأرواحهم وجميع ما يملكون، إلى جانب ما يعتقدون به من احتساب الأجر عند الله تعالى.

وفي هذا الخبر معجزة للنبي ﷺ؛ وذلك في تكثير الطعام ببركة دعائه، وإن في هذه المعجزة وغيرها من معجزات النبي ﷺ عبرةٌ للمعتبرين وآيات عظيمة للمستبصرين.

---

(١) يعني: الإبل، والأصل فيها الإبل التي يستقى عليها.

(٢) أي: الدواب التي تُركب، سميت ظهراً؛ لكونها يركب ظهرها.

(٣) يعني: بركة، حذف المفعول به؛ لظهوره.

(٤) أي: ببساط من جلد.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان: ١/ ٥٦، ٥٧، رقم: ٤٥.

مثل من انتصار الإيمان على هوى النفس
(خبر أبي خيثمة)

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حارٍّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[1]؛ قد رشَّت كلٌّ واحدة منهما عريشها، وبرَّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضحِّ[2] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد، وطعام مهيَّأ وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيِّئا لي زادًا، ففعلتا، ثم قدَّم ناضحه[3] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**كُنْ أبا خَيْثَمَةَ**»، فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**أولى لك يا أبا خيثمة**»[4]، ثم أخبر رسولَ الله ﷺ الخبرَ، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير.

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعرًا، واسمه مالك بن قيس:

لَمَّا رأيتُ الناس في الدين نافقوا ... أتيتُ التي كانت أعف وأكْرما
وبايعتُ باليمني يدي لمحمَّد ... فلم أكتسبْ إثمًا ولم أغْشَ مَحْرما
تركتُ خضيبًا في العريش وصرمةً ... صفايا كرامًا بُسْرها قد تحمَّما[5]
وكنتُ إذا شكَّ المنافق أسمحتْ ... إلى الدين نفسي شطره حيثُ يَمَّما[6]

(١) أي: بستانه.
(٢) أي: في الشمس.
(٣) أي: جمله.
(٤) أي: أجدر بك.
(٥) خضيبًا: عني به امرأته؛ أي مخضبةً، وصرمة: أراد بها النخل المصروم؛ أي المجدود، وصفايا: جمع صفي، وهو المنتقى المختار، وتحمم: أي قرب وقت إرطابه.
(٦) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠٤- ٢٠٦.

في هذا الخبر صورة من محاسبة النفس في حال حضور القلب ويقظة الضمير، فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أعدَّت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظِّل المبرد والإقامة، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر أبصر وتذكر وتيقَّظ ضميره وحاسب نفسه، ثم عزم على الخروج، وخرج وحده يقطع الفيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجُمحي، ولعله كان قادمًا من مكة.

هذه الصورة تبين لنا مثلاً من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعدها أقوى إيمانًا مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم، وفي بيان ذلك يقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠١].

لقد تذكر أبو خيثمة رسول الله ﷺ الذي كان في شعوره أنه يحبه أكثر مما يحب نفسه، ولكن ما باله هذه المرة يُؤْثر نفسه بالراحة والمتعة ورسول الله ﷺ يقاسي الشدائد؟!

لقد تذكر سريعًا وخرج؛ لعله يدرك ما فاته، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك وحصل على رضاه وسروره.

****

مثلٌ من قوة الإيمان وتحمل الشدائد

(خبر أبي ذر الغفاري)

أخرج الإمام البيهقي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لا يزال يتخلفُ الرجلُ، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوهُ، إن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه»، حتى قيل: يا رسول الله، تخلف أبو ذرٍّ، وأبطأ به بعيرهُ، فقال: «دعوه إن يك فيه خيرٌ فسيلحقهُ الله بكم، وإن كان غير ذلك فقد أراحكم منه»، فيلزم أبو ذر بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فجعله على ظهره، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظرٌ من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله ﷺ: «**كنْ أبَا ذَر**»، فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «**يرحمُ الله أبا ذرٍّ! يمشي وحْدَه، ويموتُ وَحده، ويُبعثُ وحدَه**».

فضرب الدهر من ضربه(١)، وسُيِّر أبو ذر إلى الرَّبذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني وكفناني، ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرُّون بكم فقولوا: هذا أبو ذر.

فلما مات فعلوا به كذلك، فطلع ركبٌ فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهلَّ ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ: «يرحمُ الله أبَا ذر! يمشي وحدَه، ويموتُ وحدَه، ويُبعث وحْده»، فنزل فوليه بنفسه حتى أجنَّه(٢).

في هذا الخبر مثلٌ مما تعرض له أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من الصعوبات والمخاطر التي نجَّاه الله منها وقواه بالصبر عليها، لقد بذل أبو ذر جهدًا كبيرًا في المشي

(١) هذا من قول الراوي عن ابن مسعود، وهو محمد بن كعب القُرظي.

(٢) دلائل النبوة: ٥/ ٢٢١، ٢٢٢، وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٤/ ٢١٠- ٢١٢، وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه، وقال الذهبي: فيه إرسال، المستدرك: ٣/ ٥٠، ٥١ . وقوله «أجنَّة» يعني ستره والمراد حتى وضعه في قبره.

على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين وهم نازلون في أحد منازل السفر .

وفي هذا الخبر عبرة من إخبار الرسول ﷺ عن أبي ذر بأنه يموت وحده، وقد مات وحده ليس معه أحد من أصحابه .

كما أن فيه دلالة على علم ابن مسعود رضي الله عنه وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ ؛ حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سيؤول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته رضي الله عنه .

****

قال الواقدي: حدثني ابن أبي سَبْرة، عن يونس بن يوسف، عن عُبيد بن جُبير، عن أبي سعيد الخدري قال: رأيت رسول الله ﷺ أوضعَ راحلته حتى خلَّفها، قال: وارتحل رسول الله ﷺ لما أصبح ولا ماءَ معهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ على غير ماء.

قال عبد الله بن أبي حدْرد: فرأيت رسول الله استقبل القبلة فدعا -ولا والله ما أرى في السماء سحابًا- فما برح رسول الله ﷺ يدعو حتى إني لأنظر إلى السحاب تأتلف من كل ناحية، فما رام مقامه حتى سحَّتْ علينا السماء بالرَّواء[1]، فكأني أسمع تكبير رسول الله ﷺ في المطر، ثم كشف الله السماء عنَّا من ساعتها وإن الأرضُ إلا غُدُرٌ تناخس[2]، فسقى الناس وارتووا عن آخرهم، وأسمع رسول الله ﷺ يقول: أشهدُ أني رسول الله! فقلت لرجل من المنافقين: ويحك، أبعد هذا شيءٌ؟ فقال: سحابةٌ مارَّة! وهو أوْسُ بن قيْظِي[3].

وأخرج الإمام البيهقي نحوه من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حدِّثنا من شأن ساعة العُسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إنْ كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إنْ كان الرجل لينحر بعيره فيعصرُ فرْثهُ فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله! إن الله عز وجل قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال: «أتحبُّ ذلك؟»، قال: نعم، فرفع يديه فلم يُرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلتْ ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[4].

---

(١) أي: الماء الكثير.
(٢) أي: يصب بعضها في بعض.
(٣) مغازي الواقدي: ٣/ ١٠٠٨، ١٠٠٩، وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه، سيرة ابن هشام: ٤/ ١٠٨.
(٤) دلائل النبوة: ٥/ ٢٣١، وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٩٤، ١٩٥.

ويحتمل أن يكون الخبران لواقعة واحدة وروى كل صحابي بعض الخبر، ويحتمل أنهما واقعتان، وفيهما معجزة ظاهرة للنبي ﷺ في نزول المطر بشكل مفاجئ ببركة دعائه، وقد فهم الصحابة من ذلك أنه عبرة لأولي الأبصار، ففي آخر الخبر الأول يُخاطب عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه أحد المنافقين ويقيم عليه الحجة بذلك على صحة رسالة رسول الله ﷺ، ولكن المنافقين قد طبع الله على قلوبهم فلا يتذكرون ولا يعتبرون.

****

مثل من صبر رسول الله ﷺ على أذى المنافقين
(خبر زيد بن اللُّصَيت)

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له عمارة بن حزم، وكان عَقَبيًا بدريًا، وهو عمُّ بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيدُ بن اللُّصَيت القَيْنقاعي، وكان منافقًا[(1)].

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رجال من بني عبد الأشهل، قالوا: فقال زيد بن اللُّصَيت، وهو في رحل عمارة وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ -وعمارة عنده-: «إن رجلاً قال: هذا محمدٌ يخبركم أنه نبيٌّ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها»، فذهبوا، فجاؤوا بها، فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجبٌ من شيء حدَّثناه رسول الله ﷺ آنفًا، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا -للذي قال زيدُ بن لُصيت-، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عُمارة على زيد يجافي عُنقه ويقول: إليَّ عباد الله، إنَّ في رحلي لداهيةً وما أشعر، اخرُج أيْ عدوَّ الله من رحلي، فلا تصحَبني[(2)].

وهكذا كان المنافقون يؤذون رسول الله ﷺ ويغتنمون أي فرصة تمر بهم؛ لمحاولة التشكيك في صحة رسالته وخاصة اليهود منهم كهذا الرجل الذي قال هذه المقالة وهو زيد بن اللُّصيت القَيْنُقاعي، فقد أسلم هذا وأمثاله نفاقًا؛ ليكيد للمسلمين من داخل صفوفهم، وكان النبي ﷺ يصبر على أذاهم ولا يعاملهم معاملة الكفار؛ لاعتبارات دعوية مرَّ ذكرُها في غزوة بني المصطلق عند قوله ﷺ: **«لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمداً يقتل أصحابَه»**.

---

(1) قال ابن هشام: ويقال: ابن لُصيب بالباء.

(2) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠٩، ٢١٠، وأخرجه الواقدي وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ٣/ ١٠٠٩، ١٠١٠.

معجزة لرسول الله ﷺ وموقف سيئ للمنافقين

أخرج الإمام مسلم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمعُ الصلاة، فصلى الظُّهر والعصر جميعًا، والمغرب والعشاء جميعًا، حتى إذا كان يومًا أخَّر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك، فصلى المغرب والعشاء جميعًا، ثم قال: «إنكم ستأتون غدًا -إن شاء الله- عين تبُوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضحى النهارُ، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي»، فجئناها وقد سبقَنَا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبضُّ[(١)] بشيء من ماء، قال فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستُما من مائها شيئًا**»؟، قالا: نعم، فسبَّهما النبيُّ ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول، قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول اللهُ ﷺ فيه يديه ووجهَهُ، ثم أعاده فيها، فجرت العينُ بماء منهمر -أو قال غزير، شكَّ أبو علي أيهما قال- حتى استقى الناس، ثم قال: «**يوشكُ يا معاذُ إن طالتْ بك حياةٌ أن ترى ما ههنا قد مليءَ جنَانًا**»[(٢)].

وهذا الخبر أيضًا يشتمل على موقف سيئ للمنافقين؛ حيث خالف رجلان منهم أمر رسول الله ﷺ، وقد سبهما النبي ﷺ مع نهيه عن السب لكونهما قد استحقا ذلك.

كما أن فيه معجزةً ظاهرة للنبي ﷺ؛ حيث كانت عين تبوك ضعيفة جدًا، فجمع الصحابة من مائها شيئًا فشيئًا حتى اجتمع قليل من الماء فغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت بماء غزيرٍ أصبح يكفي لثلاثين ألفًا من المسلمين.

وإن في هذا لعبرة للمعتبرين وموعظة للمستبصرين.

****

(١) الشراك: هو سير النعل، وتبض: أي تسيل.

(٢) صحيح مسلم، الفضائل، رقم: ٧٠٦، ص: ١٧٨٤.

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا: وكان عبد الله ذو البجادين[1] من مزينة، وكان يتيمًا لا مال له، قد مات أبوه فلم يُورثه شيئًا، وكان عمُّه مَيِّلاً[2]، فأخذه وكفله حتى كان قد أيسر، فكانت له إبلٌ وغنمٌ ورقيق، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجعلت نفسه تتوق إلى الإسلام، ولا يقدر عليه من عمه، حتى مضت السنون والمشاهدُ كلُّها.

فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعًا إلى المدينة، فقال عبد الله لعمِّه: يا عم، قد انتظرتُ إسلامك فلا أراك تُريد محمداً، فائذن لي في الإسلام، فقال: والله، لئن اتبعت محمداً لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعتهُ منك حتى ثوبيك، فقال عبد العُزَّى، وهو يومئذ اسمه: وأنا والله متبع محمداً ومُسلم، وتاركٌ عبادة الحجر والوثن، وهذا ما بيدي فخُذه، فأخذ كلَّ ما أعطاه، حتى جَرَّده من إزاره، فأتى أمه فقطعت بجاداً لها باثنين فائتزر بواحد وارتدى بالآخر.

ثم أقبل إلى المدينة وكان بورَقان -جبل من حمى المدينة- فاضطجع في المسجد في السَّحر، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح، وكان رسول الله ﷺ يتصفَّح الناس إذا انصرف من الصبح، فنظر إليه فأنكره، فقال: «**من أنت؟**»، فانتسب له، فقال: أنت عبد الله ذو البجادين، ثم قال: «**انزل مني قريبًا**»، فكان يكون في أضيافه ويعلِّمه القرآن، حتى قرأ قرآنًا كثيراً، والناس يتجهَّزون إلى تبوك، وكان رجلاً صيِّتًا، فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة، فقال عمر: يا رسول الله، ألا تسمع إلى هذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة؟ فقال النبي ﷺ: «**دعه يا عمر، فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله**».

قال: فلما خرجوا إلى تبوك قال: يا رسول الله، ادعُ الله لي بالشهادة، قال: أبلغني لحاءَ سَمُرة[3]، فأبلغه لحاء سمرة، فربطها رسول الله على عضده وقال: «**اللهم إني أحرم دمه على الكفار!**»، فقال: يا رسول الله، ليس أردت هذا، قال النبي ﷺ: «إنك إذا خرجت غازيًا في سبيل الله، فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد، ووقصَتك دابتُك

---

(١) البجاد: الكساء الغليظ الجافي، كما ذكر ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٢١٩.
(٢) أي: ذا مال. (٣) أي: قشرها.

فأنت شهيد، لا تبالي بأية كان»، فلما نزلوا تبوكًا فأقاموا بها أيامًا تُوفي عبد الله ذو البجادين، فكان بلال بن الحارث يقول: حضرت رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شعلةٌ من نار عند القبر واقفًا بها، وإذا رسول الله ﷺ في القبر، وإذا أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- يُدليانه إلى النبي ﷺ وهو يقول: «**أدنيا إليَّ أخاكما**»، **فلما هيَّأه لشقه قال: «اللهم إني قد أمسيتُ عنه راضيًا فارض عنه»**، قال: فقال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد[1].

في هذا الخبر موقف لعبد الله ذي البجادين رضي الله عنه، وذلك فيما تحمله من أجل دخوله في الإسلام؛ حيث سُلب ماله كله حتى ثيابه.

لقد وقع بين خيارين: إما أن يدخل في الإسلام ويذهب منه كل شيء من الدنيا، وإما أن يبقى على الكفر وتبقى له حياته التي يعيش فيها وكل ما يملكه، ولكنه لقوة إيمانه وصدق توجُّهه لم يتردد بين الخيارين، بل عزم على الإسلام وإن فقد كل شيء.

لقد هاجر هذا الشاب إلى المدينة وكانت له مكانة عند رسول الله ﷺ؛ لما قدَّم من تضحية كبيرة من أجل إسلامه، وكان يعامله بلطف وحنان، ومن ذلك أنه لما اشتكاه عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بسبب رفع صوته بالقرآن قال له: «دعْه يا عمر، فإنه خرج مهاجرًا إلى الله ورسوله»؛ يعني فهو يحتاج إلى لُطف في المعاملة وتغاضٍ عما يصدر منه من أخطاء؛ لحداثة عهده بالإسلام.

لقد كان إيمان هذا الشاب قويًا حينما طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله تعالى له بالشهادة، إن الشهادة في سبيل الله تعالى غاية سامية لا يصل إليها إلا من ارتفع مستوى إيمانهم وعظُم يقينهم حتى أصبحوا كأنهم يشاهدون الجنة، فهم يتوقون إلى الوصول إليها بأسرع الطرق.

ولقد حصل عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه على الشهادة من غير أن يُقتل؛ وذلك حينما مات في تبوك، وكان النبي ﷺ بشَّره قبل ذلك بأن من مات وهو خارج في سبيل الله تعالى فهو شهيد.

مات شهيدًا وظفر برضَى رسول الله ﷺ عنه ودعائه له حتى تمنى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يكون مكانه.

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ١٠١٣، ١٠١٤، وأخرجه ابن إسحاق مختصرًا، سيرة ابن هشام: ٤/ ٢١٨، ٢١٩.

سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكيدر دومة[١]، وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة كان ملكًا عليها، وكان نصرانيًا، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**»[٢]، فخرج خالد، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطحٍ له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحكُّ بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قطُّ؟ قال: لا والله! قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل، فأمر بفرسه فأُسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخٌ له يقال له: حسان، فركب وخرجوا معه بمَطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخذته وقتلوا أخاه، وقد كان عليه قباء[٣] من ديباج مُخوَّصٌ بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: رأيت قباء أكيدر حين قُدم به على رسول ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم، ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»[٤].

قال ابن إسحاق: ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته، فقال رجل من طيء يقال له: بحير بن بجرة، يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته؛ لتصديق قول رسول الله ﷺ.

---

(١) دومة: تقع شمال بلاد نجد، وتسمى: دومة الجندل.

(٢) يعني: بقر الوحش.

(٣) القباء بفتح القاف: ثوب مفتوح من الأمام.

(٤) وأخرج قول النبي ﷺ هذا الإمام البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، صحيح البخاري، كتاب الهبة: ٥/ ٢٣٠، رقم: ٢٦١٥.

تبـــارك ســـائقُ البــقـــرات إني ... رأيتُ الـلـه يـهـــــدي كـلَّ هـاد

فـــمن يكُ حـــائدًا عن ذي تبـــوك ... فـــإنَّا قـــد أُمـــرنا بالجـــهـــاد(١)

في هذا الخبر عبرةٌ عظيمة، وآية باهرة؛ حيث أخبر النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه بأنه سيجد أُكيدر دُومة يصيد البقر، وفي حال وصول خالد إلى دومة ساق الله تعالى البقر حتى إنها لتحكُّ بقرونها باب قصر أكيدر، في مشهد أثار دهشة أكيدر وامرأته؛ حيث لم يسبق أن حدث مثل ذلك قط، ويخرج أكيدر؛ ليكون أسيرًا بيد خالد بن الوليد، ويتم ما قاله رسول الله ﷺ.

إن في هذا لعبرة لأصحاب العقول السليمة والآراء الحصيفة، إنها آية باهرة تقود من لم يُسلم إلى الإسلام ومن أسلم إلى الثبات على دينه.

إن المنتظر من أصحاب العقول الراجحة أمام هذا المشهد أن يتساءلوا: من الذي أعلم النبي ﷺ بأن خالدًا سيجد أكيدر يصيد البقر؟

ومن الذي ساق البقر في تلك الليلة؛ لتصل إلى باب القصر مع وصول خالد في مشهد لم يسبق له مثيل؟!

أليس العقل السليم يشهد بأن الذي أعلم النبي ﷺ بذلك هو الله تعالى، وأن الذي ساق البقر؛ لتكون أمام القصر مع وصول خالد هو الله جل وعلا؟

لقد أصبحت البقرُ تلك الليلة من جنود الله تعالى؛ لأنها هي التي استخرجت ملك دُومة من قصره وهيأته ومن معه لجيش المسلمين.

لقد أسهمت هذه الجنود في استيلاء المسلمين على قرى عامرة وحصون منيعة بأقل التكاليف؛ حيث أصبح ملكُها أسيرًا بيد المسلمين بدلاً من أن يكون آسرًا لجنود الله تعالى من البقر، وبأسْر ملك تلك القرى تم الصلح معه من غير قتال.

وأخيرًا: موقف تربوي جليل من رسول الله ﷺ لأصحابه، فحينما رآهم يتعجبون من قباء أكيدر، وحينما خاف على بعضهم الميل إلى متاع الدنيا صرفهم حالاً إلى الآخرة وتذكُّر الجنة؛ حيث قال: «**أتعجبون من هذا؟! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة**

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢١٥-٢١٧.

خير من هذا»، يعني : إن كنتم رأيتم شيئًا من فتنة الدنيا فإن ذلك لا يعادل شيئًا من نعيم الجنة .

واختيار سعد بن معاذ لضرب المثل به له إيحاء خاص ، فالميزة العظمى لسعد هي أنه قال كلمة الحق التي كرهها بعض قومه ولم يخْش في الله لومة لائم ، فضَرْب المثل بسعد يعني إحداث تساؤل بين الصحابة ، لماذا ضُرب المثل به؟ وسيكون الجواب حاضراً عند كبار الصحابة أهل البصيرة ؛ ليتحفوا به الذين أسلموا بعد موت سعد ولم يحظوا بمعرفته ولا بمعرفة موقفه العظيم حينما حكم على يهود بني قريظة .

****

موقف لرسول الله ﷺ في الحزم مع أعداء الإسلام
(أصحاب مسجد الضّرار)

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا** ﴾: وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنُوا مسجدكم، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم فأُخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي -عليه الصلاة والسلام-، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله فيه: ﴿ **لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ** ﴾، إلى قوله: ﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٧- ١٠٩][(١)].

وأخرج أيضًا من طريق ابن إسحاق، عن الزهري ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ، يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان؛ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلَّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحبُّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إني على جناح سَفر، وحال شُغل»، أو كما قال رسول الله ﷺ، «**ولو قدْ قدمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلَّيْنا لكم فيه**»، فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخشم أخا بني سالم بن عوف ومعين بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظَّالم أهلُه، فاهدماه وحرِّقاه»، فخرجَا سريعين، حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله فأخذ سعفًا من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدَّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله

(١) تفسير الطبري: ١١/ ٢٤، وهذا الإسناد من صحيفة عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقد صحَّح الحافظ ابن حجر إسنادها، فتح الباري: ١٣/ ٢٧١.

فحرقاه وهدماه وتفرَّقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا** ﴾، إلى آخر القصة[1]، وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً. . وذكر أسماءهم[2].

في هذين الخبرين موقفٌ عظيم لرسول الله ﷺ في الحزم مع أعداء الله المنافقين، والتخطيط الدقيق المحكم في القضاء على مؤامرتهم الخبيثة.

هؤلاء الأعداء الذين لبسوا لباس الإسلام، وحاولوا الكيد له برفع بعض شعائره والعمل تحت ظلالها. . . هؤلاء الأعداء يعملون تحت توجيهات أبي عامر الفاسق وهو عبد عمرو بن صيفي الأوسي، وهو من زعماء الأوس في الجاهلية، ولكنه خرج من المدينة مُغاضبًا إلى مكة حينما انتشر الإسلام في المدينة، وخرج مع المشركين في أُحُد كما سبق، وما زال معاديًا للمسلمين يؤلب عليهم حتى بعد أن ذهب إلى بلاد الروم وقد أوعز إلى عدد من المنافقين ببناء مسجد الضرار؛ ليكون وكرًا للإفساد، كما جاء في هذه الروايات.

وقد بيّن الله تعالى أهدافهم من بناء المسجد بقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا** ﴾؛ أي محادَّة للمسجد الذي بُني على التقوى وهو مسجد قباء ﴿ **وَكُفْرًا** ﴾، يعني: ولأجل خدمة الكفر باتخاذه معقلاً لمحاربة الإسلام: ﴿ **وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾؛ يعني بين جماعة المؤمنين في الصلاة؛ حيث كان أهل قباء جميعًا يصلون في مسجد واحد: ﴿ **وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ** ﴾، يعني: واستعدادًا وترقُّبًا لقدوم أبي عامر الفاسق الذي حارب الله ورسوله من قبل ذلك الوقت.

ومما يبين أهدافهم الخبيثة من بناء هذا المسجد: ما جاء في رواية الإمام البيهقي أن مجمع بن جارية وهو أحد الذين بنوا المسجد قال: إن هذا المسجد إذا بنيناه اتخذناه

---

(١) يعني: إلى آخر ما قصَّه الله عنهم في قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

(٢) تفسير الطبري: ١١/ ٢٣، وأخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق، وذكر مثله، سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢١.

لسرِّنا ونجوانا، ولا يزاحمنا فيه أحد، فنذكر ما شئنَا، ونُخيل إلى أصحاب محمدٍ أنما نَريد الإحسان[1].

ومن هذه الأهداف الخطيرة يتبين لنا أن ما قام به رسول الله ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل؛ لأن بقاء معالم الجاهلية التي أنشئت لنشر مبادئها سواء كانت معلنة أو خفية يعني بقاء الجاهلية، وإن مقاومة الجاهلية بمختلف الطرق مع بقاء معالمها قد يخفف من انتشارها، لكنه لا يقضي عليها من جذورها، وإنما يقضي عليها إزالة معالمها الظاهرة، خاصة ما يكون وسيلة أو مكانًا لاجتماع دعاة الضلال.

ولقد بين النبي ﷺ بهذا العمل السُّنة في القضاء على أي مشروع يراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم، فالداء العُضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج باستئصاله وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى.

وإن النتائج العملية التي ظهرت على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلُّنا على أن هذا العمل هو الرد الحاسم لهذا المكر الخبيث وأمثاله من أعداء الإسلام؛ حيث تفرق المنافقون بعد ذلك، وما زال أمرهم يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عددٌ قليل، ولم يعرف عنهم بعد فشل هذا العمل الماكر أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه؛ لمعرفتهم المؤكدة بنتائج العمل عند انكشافهم.

****

(١) دلائل النبوة: ٥/ ٢٥٩.

مواقف إيمانية وتربوية
(خبر كعب بن مالك وصاحبيه)

أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي، قال سمعتُ كعب بن مالك يُحدث حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها؛ إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكَرُ في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر حين تخلفتُ عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعتْ عندي قبلهُ راحلتان قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلَّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ -يُريد الديوان، قال كعبُ: فما رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمارُ والظِّلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا؛ لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممتُ أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلتُ، فلم يُقدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر اللهُ من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال -وهو جالس في القوم بتبوك-: «ما فعل كعبُ؟»، فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه، ونظرهُ في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت: والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّه قافلاً حضرني همِّي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول لله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكَّل سرائرهم إلى الله.

فجئته، فلما سلمتُ عليه تبسَّم تبسُّم المغضب، ثم قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»، فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليُوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ عليٌّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدَق، فقُم حتى يقضيَ الله فيك**»، فقمتُ.

وثار رجالٌ من بني سلمة فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، وقد كان كافيك ذنبُك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذب نفسي.

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ قالوا: مرارةُ بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتَنَبنا الناسُ، وتغيَّروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهدُ الصلاة مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتى رسول الله ﷺ فأُسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقهُ النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشُدُك بالله، هل تَعلمُني أُحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدتُ له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: اللهُ ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبَطيٌّ من أنباط أهل الشام[1] ممن قدم بالطعام يبيعهُ بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له: حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتابًا من ملك غسَّان، فإذا فيه: أما بعدُ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسك، فقلتُ لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضتْ أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلتُ: أُطلقها أَم ماذا أفعلُ؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعبُ: فجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخٌ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذُ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعضُ أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن

(١) الأنباط: هم الفلاحون، سمُّوا بذلك نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه.

لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ.

فلبثتُ بعد ذلك عشر ليال حتى كمُلتْ لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليتُ صَلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكر اللهُ: قد ضاقت على نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحُبت، سمعت صوت صارخ أوْفَى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال فخررتُ ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلَّى الفجر، فذهب الناس يُبشروننا، وذهب قبل صاحبيَّ مبشرون، وركَّض إليَّ رجلٌ فرسًا، وسعى ساع من أسلم فأوفى علىَ الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناسُ فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعبُ: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنَّاني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهه من السرور: «**أبشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك**»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجههُ حتى كأنه قطعة قمر، وكنَّا نعرفُ ذَلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «**أمسكْ عليكَ بعضَ مالكَ، فهو خيرٌ لك**»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجَّاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أُحدِّث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما أعلمُ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث -منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ- أحسن مما أبلاني، ما تعمدتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾، إلى

قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم -في نفسي- من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذَبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايَعَهم واستغفرَ لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه»[3].

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: ما تمت به صياغة هذا الحديث من الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع، وإنه ليُعدُّ مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك نماذج عالية للأدب العربي.

وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختارون هذه الأحاديث وأمثالها؛ لتنمية مدارك الطلاب وتكوين الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذبٌ فأجمعتُ صدقَه.

(١) وهي قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧: ١١٩].

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: ٩٥، ٩٦].

(٣) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ١١٣-١١٦، رقم: ٤٤١٨، وأخرجه الإمام مسلم من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، وذكر نحوه، صحيح مسلم، كتاب التوبة، رقم: ٢٧٧٩، ص: ٢١٢٠.

ثانيًا: موقف كعب حينما جلس بين يدي النبي ﷺ فنفَّذ ما عزم عليه من قول الصدق واستبعاد الأعذار الكاذبة، ولقد كان عقله السليم في هذا الموقف قد سيطر على نوازع النفس وعواطفها؛ وذلك لقوة إيمانه الذي برز على الساحة فدفع العقل السليم إلى حُسن التصرف وأخْمد أيَّ نداء للعواطف.

ويشاركه في هذا الموقف أخواه اللَّذان سلكَا هذا المسلك، وهما: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي -رضي الله عنهما-، ولقد تقوَّى بهما كعب على الصمود في هذا الموقف الصعب كما جاء في الخبر.

إن كعبًا وصاحبيه لو فعلوا كما فعل غيرهم من المتخلِّفين فاعتذروا بأي عذر لقبل منهم النبي ﷺ ظاهر أمرهم، ولظفروا براحة نفسيه مبعثها السلامة من نظرات العاتبين وإنكار المُنكرين، ولكنهم بعد ذلك سيبوؤون بهمٍّ طويل، وصراع نفسي بالغ مبعثه الشعور بالإثم، كيف لا وهم والحال هذه قد ارتكبوا خطيئة الكذب، وليس مجرد كذب في معاملة الناس، بل مع رسول الله ﷺ الذي يحبُّونه أكثر من سمعهم وبصرهم، ثم قبل ذلك يُعدُّون قد كذبوا على الله -جل جلاله- الذي لا يخطو رسول الله ﷺ خُطوة إلا بأمره.

لقد أدركوا إذًا خطورة هذا الكذب، فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصِّدق وإن عرَّضهم ذلك للتعب والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله تعالى كبيرًا في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه.

ثالثًا: ما قام به النبي ﷺ من تطبيق مبدأ الهجر التربوي؛ حيث نهى عن كلام هؤلاء الثلاثة حتى أصبحوا معزولين عن المجتمع تمامًا لمدة خمسين يومًا.

والهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع الإسلامي على الاستقامة، ومنع أفراده من التورُّط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات أو فعل شيء من المحرمات؛ لأن من توقَّع أنه إن وقع في شيء من ذلك يكون مهجورًا من جميع أفراد المجتمع فإنه لا يفكِّر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني؛ حيث توجد الدولة الإسلامية المهيمنة، والمجتمع الإسلامي القوي، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم.

وهذا الهجر التربوي ليس له حدٌّ مُعين، ولقد بلغ في هذه القصة خمسين يومًا حتى نزلت توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة، أما بعد ذلك فإن هذا الهجر يكون محدوداً بصلاح حال المهجورين وعودتهم إلى الاستقامة.

وهذا الهجر يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا؛ فهذا دُنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يُثاب عليه فاعله، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد على ثلاثة أيام فإنه يكون محرَّمًا؛ لقول رسول الله ﷺ: **«لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجُر أخاه فوق ثلاث؛ يلْتَقِيان، فيُعرِضُ هذا ويُعرِضُ هذا، وخيرُهما الذي يبدأُ أخاهُ بالسَّلام»**[1]، ولقولِه: **«من هجرَ أخاهُ سنةً فهو كَسفْكِ دَمِه»**[2].

رابعًا: في هذا الخبر تصويرٌ بليغ لإقبال الصحابة رضي الله عنهم على تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي؛ حيث امتنعوا جميعًا عن كلام هؤلاء الثلاثة.

وفيما حكاه كعب عن موقف ابن عمه أبي قتادة موقفٌ مؤثرٌ؛ حيث سلَّم عليه فلم يرد عليه السلام وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أُحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه.

إن أبا قتادة رضي الله عنه في هذا الموقف موزَّع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيزٍ عليه، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي، ولكن ليس هناك تردُّد بين الأمرين، فالذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر النبوي فظهر ذلك على سلوكه.

---

(١) صحيح البخاري، الأدب: ١٠/ ٤٩٢، رقم: ٦٠٧٧، صحيح مسلم، البر، رقم: ٢٥٦٠، ص: ١٩٨٤.
(٢) مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٢٠.

خامسًا: موقفٌ رائع لكعب بن مالك في الولاء التام لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين والبراءة التامة من أعداء الله الكافرين، وعبرةٌ ظاهرة فيما فعله ملك غسان من الكتابة لكعب يدعوه إليه؛ ليكون عنده موضع التكريم.

إن أعداء الإسلام يحرصون دائمًا على اغتنام الفُرص المناسبة، وتصيُّد الفجوات التي تحصل في الصف الإسلامي؛ لينفذوا منها، فيعملوا عملهم في تفريق المسلمين، واقتناص من يشذ عن جماعتهم؛ ليجعلوا منه بطلاً فيوجهوه لحرب المسلمين، ويكون تحت سمعهم وبصرهم فلا يتصرَّف إلا تحت إدارتهم.

ولقد اختار ملك غسَّان كعبًا من بين الثلاثة؛ لكونه شاعرًا كبيرًا ومن وجهاء المسلمين، ولكنَّ سهم هؤلاء الأعداء بالنسبة لكعب كان طائشًا، فلم يحقق لهم شيئًا من أغراضهم الدنيئة، بل عصمه الله تعالى بإيمانه، ولم يجد ردًّا على ملك غسان أوفق من أن يحرق كتابه بالتنُّور، وهكذا نجد الإيمان القويَّ يستعلي على جميع مطالب الحياة الدنيا؛ لأن صاحب هذا الإيمان لا يعدُّها شيئًا في ميزان الآخرة.

سادسًا: نزول توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة يوم عظيم من أيام المسلمين، ظهرت فيه الفرحة على وجه النبي ﷺ حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجه الصحابة رضي الله عنهم حتى صاروا يتلقَّون كعبًا وصاحبيه أفواجًا يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة.

وجاء كعبُ إلى النبي ﷺ، ووجهُه يبرُق من السُّرور، فقال له: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك»، وهذا يعني عظمة مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام.

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم، وبالتالي فإنه يُحظَى بحفظه -جل وعلا- في الدنيا وتكريمه في الآخرة.

وكانت فرحة كعب بالتوبة عظيمة عبَّر عنها بنزع ثوبيه اللَّذين لا يملك يومئذ غيرهما وإهدائهما لمن بشَّره.

ومما يدل على سرور كعب العظيم بهذه التوبة قوله لرسول الله ﷺ: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمسكْ عليكَ بعضَ مالكَ فهو خيرٌ لكَ**»، وقوله: «**يا رسول الله، إن الله إنما نجَّاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقًا ما بقيتُ**».

وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن كعبًا لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له، لكن جاء في رواية الواقدي: «وكان الذي بشَّر هلال بن أمية بتوبته سعيدُ بن زيد، قال: وخرجت إلى بني واقف فبشَّرته فسجد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه».

ذكره الحافظ ابن حجر: وقال: يعني لما كان فيه من الجَهد فقد قيل: إنه امتنع عن الطعام حتى كان يواصل الأيام صائمًا، ولا يفتر عن البكاء[1].

****

(١) فتح الباري: ٨/ ١٢٢.

مواقف وعبر
فيما بعد تبـوك

مثل من ضغط الجاهلية وعزّة الإسلام
(وفد ثقيف وإسلامهم)

قال الواقدي -فيما يرويه عن شيوخه- : قالوا : وكان عمرو بن أمية أحد بني علاج ، وكان من أدهى العرب وأنكرهم[1] ، وكان مُهاجرًا لعبد ياليل بن عمرو[2] ، وتمشَّى إلى عبد ياليل ظُهرًا حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه : إن عمرًا يقول : اخرج إليَّ! فلما جاء الرسول إلى عبد ياليل قال : ويحك! عمرو أرسلك؟ قال : نعم ، وهو واقفٌ في الدار ، وكان عبد ياليلَ يُحب صلحه ويكره أن يمشي إليه ، فقال عبد ياليل : إن هذا لشيء ما كنت أظنُّه بعمرو ، وما هو إلا عن أمر قد حدث وكان أمرًا سوءًا ما لم يكن من ناحية محمد ، فخرج إليه عبد ياليل ، فلما رآه رحَّب به ، فقال عمرو : قد نزل بنا أمرٌ ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، وقد أسلمت العربُ كلُّها وليست لكم بهم طاقةٌ ، وإنما نحن في حصننا هذا ، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تُصاب! ولا نأمن من أحد منا يخرج شبرًا واحدًا من حصننا هذا! فانظروا في أمركم ، قال عبد ياليل : قد والله رأيتُ ما رأيت ، ما استطعتُ أن أتقدم بالذي تقدمت به ، وإنَّ الحزم والرأي الذي في يديك .

قال : فائتمرتْ ثقيفُ بينها ، وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرْب[3] ولا يخرج منكم أحدٌ إلا اقتُطع؟ فائتمروا بينهم ، فأرادوا أن يرسلوا رسولاً إلى النبي ﷺ ، كما خرج عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ ، قال : فابعثوا رأسكم عبد ياليل .

فكلَّموا عبد ياليل بن عمرو بن حبيب ، وكان سنَّ عروة ، فأبى أن يفعل ، وخشي إن رجع إلى قومه مسلمًا أن يُصنع به إذا رجع من عند النبي ﷺ ما صُنع بعُروة حتى يبعثوا معه رجالاً ، فأجمعوا على رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكَم بن عمرو بن وهب بن مُعتِّب ، وشُرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتِّب ، وهؤلاء الأحلاف رهط عُروة ، وبعثوا في بني مالك : عثمان بن أبي العاص ، وأوس بن

(١) أي : أشدهم دهاء . (٢) أي : قد هجره فلا يكلمه .
(٣) أي : طريق .

عوف، ونُمير بن خرَشَة، ستَّة، ويقال: إن الوفد كانوا بضعة عشرَ رجلاً، فيهم سُفيان بن عبد الله.

قالوا: فخرج بهم عبد ياليل وهو رأسهم وصاحب أمرهم، ولكنه أحبَّ إن رجعوا أن يُسهِّل كل رجل رهطه، فلما كانوا بوادي قَناة مما يلي دار حُرُض[1]، نزلوا، فيجدون نشَرًا[2] من الإبل، فقال قائلهم: لو سألنا صاحب الإبل لمن الإبل، وخبَّرنا من خبر محمد، فبعثوا عُثمان بن أبي العاص، فإذا هو المُغيرة بن شعبة يرعى في نوْبته ركابَ أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رآهم سلَّم عليهم وترك الرِّكاب عندهم، وخرج يشتدُّ يبشِّر النبي ﷺ بقدومهم حتى انتهى إلى باب المسجد فيلقى أبا بكر الصديق رضي الله عنه فأخبره خبر قومه، فقال أبو بكر: أقسمتُ بالله عليك لا تَسبقني إلى رسول الله ﷺ بخبرهم حتى أكون أنا أُخبره، وكان رسول الله ﷺ ذكرهم ببعض الذكر، فأبشره بمقدمهم، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ فأخبره والمغيرة على الباب، فخرج إلى المغيرة، فدخل المغيرة على النبي ﷺ وهو مسرور، فقال: يا رسول الله، قد قدم قومي يريدون الدخول في الإسلام بأن تشْرط لهم شروطًا، ويكتبون كتابًا على من ورَاءهم من قومهم وبلادهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يسألون شرطًا ولا كتابًا أعطيتُه أحدًا من الناس إلا أعطيتهم، فبشِّرهم**».

فخرج المغيرة راجعًا فخبرهم ما قال لهم رسول الله ﷺ، وبشَّرهم وعلَّمهم كيف يحيُّون رسول الله ﷺ، فكلُّ ما أمرهم المغيرة فعلوا إلا التحية، فإنهم قالوا: أنعمْ صباحًا! ودخلوا المسجد، فقال الناس: يا رسول الله، يدخلون المسجد وهو مشركون؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الأرض لا ينجسها شيء!**» وقال المغيرة بن شعبة: يا رسول الله، أنزل قومي عليَّ.

وأنزل المغيرة ثقيفًا في داره بالبقيع، وهي خطَّة خطها النبي ﷺ له، فأمر النبي ﷺ بخَيمات ثلاث من جريد فضربت في المسجد، فكانوا يسمعون القراءة بالليل وتهجُّد أصحاب النبي ﷺ، وينظُرون إلى الصفوف في الصلاة المكتوبة، ويرجعون إلى منزل المغيرة فيَطعمون ويتوضؤون ويكونون فيه ما أرادوا، وهم يختلفون إلى المسجد.

---

(١) هو واد من أودية قناة بالمدينة.

(٢) أي: إبلاً منتشرةً.

وكان رسول الله ﷺ يجري لهم الضيافة في دار المغيرة، وكانوا يسمعون خُطبة النبي ﷺ فلا يسمعونه يذكر نَفْسه، فقالوا: أمرَنا بالتشهد أنه رسول الله ولا يشهد به في خطبته، فلما بلغ رسول الله ﷺ قولُهم قال: «**أنا أوَّل من شهد أني رسول الله! ثم قام فخَطَب وشهد أنه رسول الله في خُطبته**».

فمكثوا على هذا أيَّامًا يغدون على النبي ﷺ كلَّ يوم، يُخلِّفون عُثمان بن أبي العاص على رحالهم، وكان أصغرهم، فكان إذا رجعوا إليه وناموا بالهاجرة خرَج فعمد إلى النبي ﷺ فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآن، وأسلم سرًّا من أصحابه، فاختلف إلى النبي ﷺ مرارًا حتى فقه وسمع القرآن، وقرأ من القرآن سوراً من فيِّ رسول الله، فإذا وَجد رسول الله ﷺ نائمًا عمد إلى أبي بكر رضي الله عنه فسأله واستقرأه، ويقال: إذا وجد النبي ﷺ نائمًا جاء إلى أُبي بن كعب فاستقرأه، فبايع النبيَّ ﷺ على الإسلام قبل الوفد وقبل القضية، وكتم ذلك عثمان من أصحابه، وأُعجب رسول الله ﷺ به، وأحبَّه.

فمكث الوفد أيَّامًا يختلفون إلى النبي ﷺ والنبي يدعوهم إلى الإسلام، فقال له عبد ياليل: هل أنت مُقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتُكم، وإلا فلا قَضية ولا صُلح بيني وبينكم**».

قال عبد ياليل: أرأيتَ الزِّنى؟ فإنَّا قومٌ عُزَّاب بغَرْب[1]، لا بد لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العُزْبة، قال: «هو ممَّا حرَّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢].

قال: أرأيت الرِّبا؟ قال: «الرِّبا حرامٌ!» قال: فإنَّ أموالنا كلها ربًا، قال: «لكم رؤوس أموالكم، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنها عصير أعنابنا، لا بد لنا منها، قال: «فإن الله قد حرمها!»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠].

---

(١) أي: نذهب إلى بلاد بعيدة.

قال: فارتفع القوم، وخلا بعضهم ببعض، فقال عبد ياليل: ويْحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث! والله لا تصبر ثقيف عن الخمر أبدًا، ولا عن الزنى أبدًا، قال سفيان بن عبد الله: أيها الرجل، إن يُرد الله بها خيرًا تصبرْ عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا فصبروا وتركوا ما كانوا عليه، مع أنَّا نخاف هذا الرجل، قد أوطأ الأرض غَلَبَةً ونحن في حصن في ناحية من الأرض، والإسلام حولنا فاش، والله لو قام على حصننا شهرًا لمتنا جوعًا، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يومًا مثل يوم مكة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى كتبوا الكتاب، كان خالد هو الذي كتبه، وكان رسول الله ﷺ يُرسل إليهم بالطعام، فلا يأكلون منه شيئًا حتى يأكل منه رسول الله حتى أسلموا.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة، ما ترى فيها؟ قال: هَدْمَها، قالوا: هيْهات! لو تعلم الرَّبَّة أنا أوضعنا[1] في هدمها قتلت أهلنا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إن الربة حجر لا يدري مَنْ عَبَده ممن لا يعبده، قال عبد ياليل: إنَّا لم نأتك يا عمر.

فأسلموا، وكمل الصلح، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد، فلما كمل الصلح كلَّموا النبي ﷺ يدع الربة ثلاث سنين لا يهدمها، فأبى، قالوا سنتين! فأبى، قالوا: سنة! فأبى، قالوا: شهرًا واحدًا، فأبى أن يوقِّت لهم وقتًا، وإنما يريدون بترك الرَّبَّة؛ لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهدمها، فسألوا النبي ﷺ أن يُعفيهم من هدمها، قال رسول الله ﷺ: «**نعم، أنا أبعثُ أبا سفيان بن حرب والمغيرةَ بن شُعبة يهدمانها**»، واستعفوا رسول الله ﷺ أن يكسروا أصنامهم بأيديهم، وقال: «**أنا آمرُ أصحابي أن يكسروها**».

وسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «**لا خير في دين لا صلاة فيه**»، فقالوا: يا محمد، أمَّا الصلاة فسنصلي وأمَّا الصيام فسنصوم، وتعلَّموا فرائض الإسلام وشرائعه، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يصوموا ما بقي من الشهر، وكان بلال يأتيهم بفطرهم، ويُخيَّل إليهم أن الشمس لم تغب، فيقولون: ما هذا من رسول

(١) أي: أسرعنا السير في السفر.

الله ﷺ إلا استبارٌ لنا(١)، ينظر كيف إسلامنا، فيقولون: يا بلال، ما غابت الشمس بعدُ، فيقول بلال: ما جئتكم حتى أفطرَ رسول الله ﷺ، فكان الوفد يحفظون هذا عن رسول الله ﷺ من تعجيل فطره، وكان بلال يأتيهم بسحورهم، قال فأسترُهم من الفجر(٢).

فلما أرادوا الخروج قالوا: يا رسول الله، أمِّر علينا رجلاً منَّا يؤمنا، فأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص، وهو أصغرهم؛ لما رأى رسول الله ﷺ من حرصه على الإسلام، قال عثمان: وكان آخر عهْد عَهدَه إليَّ رسول الله ﷺ: «**أن اتَّخذ مؤذنًا لا يأخذ على أذانه أجرًا، وإذا أَمَمْت قومًا فَاقدُرهم بأضعفهم، وإذا صلَّيت لنفسك فأنت وذاك**».

ثم خرج الوفد عامدين إلى الطائف، فلما دنَوْا من ثقيف قال عبد ياليل: أنا أعلم الناس بثقيف فاكتُموها القضية، وخوِّفوهم بالحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً عظَّمناها فأبيناها عليه، يسألنا تحريم الزِّنا والخمر، وأن نبطل أموالنا في الربا، وأن نهدم الربة، وخرجت ثقيف حين دنا الوفد، فلما رآهم الوفد ساروا العَنَق(٣)، وقَطَروا الإبل(٤)، وتغشَّوا بثيابهم كهيئة القوم قد حزنوا وكربوا فلم يرجعوا بخير، فلما رأت ثقيف ما في وجوه القوم حزنوا وكربوا، فقال بعضهم: ما جاء وفدُكم بخير.

وأتى رجالاً منهم جماعةٌ من ثقيف فسألوهم: ماذا رجعتم به؟ -وقد كان الوفد قد استأذنوا النبي ﷺ أن ينالوا منه فرخَّص لهم- فقالوا: جئناكم من عند رجل فظٍّ غليظ، يأخذ من أمره ما شاء، قد ظهر بالسيف، وأداخ العرب، ودان له الناس، ورُعبتْ منه بنو الأصفر في حصونهم، والناس فيه إما راغبٌ في دينه، وإما خائف من السيف، فعرض علينا أموراً شديدة أعظمناها، فتركناها عليه؛ حرَّم علينا الزِّنى والخمر والرِّبا، وأن نهدم الربَّة، فقالت ثقيف: لا نفعل هذا أبدًا، فقال الوفد: لَعَمري قد كرهنا ذلك وأعظمناه، ورأينا أنه لم يُنصفنا، فأصلحوا سلاحكم، ورُمُّوا حصنكم، وانصبوا

(١) أي: اختبار.
(٢) يعني: يستر عنهم بوادر نور الفجر قبل طلوعه؛ لتحرُّجهم من الأكل خشية طلوع الفجر.
(٣) العنق من السير: المنبسط: لسان العرب، مادة: ع ن ق.
(٤) قطر الإبل، يقطرها قطرًا: قرب بعضها إلى بعض على نسق، لسان العرب، مادة: ق ط ر.

العرَّادات عليه والمنجنيق، وأدخلوا طعام سنة أو سنتين في حصنكم، لا يُحاصركم أكثر من سنتين، واحفروا خندقًا من وراء حصنكم، وعاجلوا ذلك فإنَّ أمره قد ظلَّ لا نأمنه.

فمكثوا بذلك يومًا أو يومين يريدون القتال، ثم أدخل الله -تبارك وتعالى- في قلوبهم الرعب، فقالوا: ما لنا به طاقة، قد أداخ العرب كلَّها، فارجعوا إليه فأعطوه ما سأله وصالحوه، واكتبوا بينكم وبينه كتابًا قبل أن يسير إلينا ويبعث الجيوش، فلمَّا رأى الوفد أن قد سلَّموا بالقضية، ورُعبوا من النبي ﷺ، ورغبوا في الإسلام، واختاروا الأمن على الخوف، قال الوفد: فإنا قد قاضيناه، وأعطانَا ما أحببناه، وشرط لنا ما أردنا، ووجدناه أتقى النَّاس، وأبرَّ الناس، وأوصل الناس، وأوفى الناس، وأصدق الناس، وأرحم الناس، وقد تركَنا من هدم الربة وأبينا أن نهدمها، وقال: «أبعثُ من يهدمُها»، وهو يبعث من يهدمها.

قال: يقول شيخ من ثقيف قد بقي في قلبه من الشرك بعدُ بقيَّةٌ، فذاك والله مصداق ما بيننا وبينه؛ إن قدَر على هدمها فهو محقٌّ ونحن مبطلون، وإن امتنعتْ ففي النفس من هذا بعدُ شيء! فقال عثمان بن العاص: منَّتك نفسك الباطل وغرَّتك الغرور! وما الرَّبة؟ وما تدري الربة مَنْ عبدها ومن لم يعبدها كما كانت العزى ما تدري من عبدها ومن لم يعبدها، جاءها خالد بن الوليد وحده فهدمها، وكذلك إساف ونائلة، وهُبل ومناة، وخرج إليها رجلٌ واحدٌ فهدمها، وسُواع خرج إليه رجل واحد فهدمه! فهل امتنع شيءٌ منهم؟ قال الثَّقفيُّ: إن الربة لا تشبه شيئًا مما ذكرت، قال عثمان: سترى!

وخرج أبو سفيان والمغيرة وأصحابهما؛ لهدم الربَّة، فلما دنوا من الطائف قال لأبي سفيان: تقدَّم فادخل لأمر النبي ﷺ، فقال أبو سفيان: بل تقدم أنت على قومك! فتقدم المغيرة، وأقام أبو سفيان بماله ذي الهَرْم(١).

ودخل المغيرة في بضعة عشر رجلاً يهدمون الرَّبة، فلما نزلوا بالطائف نزلوا عشاءً فباتوا، ثم غدوا على الربة يهدمونها، فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه: لأُضحكنَّكم اليوم من ثقيف، فأخذ المعْول واستوى على رأس الربة ومعه المعول، وقامَ، وقَام قومه بنو مُعتِّب دونه، معهم السلاح مخافة أن يصاب كما فُعل بعمه عُروة ابن مسعود، وجاء أبو سفيان وهو على ذلك، فقال: كلاَّ! زعمْتَ تقدمني أنت إلى

(١) يعني: في بستانه بذي الهرم، هو موضع بقرب الطائف، كما ذكر البكري: معجم ما استعجم: ٨٣٠.

الطاغية، تُراني لو قمت أهدمها كانت بنو مُعتِّب تقوم دوني؟ قال المغيرة: إن القوم قد واضعوهم هذا قبل أن تقدم، فأحبوا الأمْن على الخوف.

وقد خرج نساء ثقيف حُسراً[1] يبكين على الطاغية والعبيد والصبيان، والرجال منكشفون، والأبكار خرجْن، فلما ضرب المغيرة ضربة بالمعول سقط مغشيًّا عليه يرتكض، فصاح أهل الطائف صيحة واحدة: كلا! زعمتم أن الربة لا تمتنع، بلى والله لتمتنعن! وأقام المغيرة مليًّا وهو على حاله تلك، ثم استوى جالسًا، فقال: يا معشر ثقيف، كانت العرب تقول: ما من حيٍّ من أحياء العرب أعقل من ثقيف، وما من حيٍّ من أحياء العرب أحمق منكم؟ ويْحكُم، وما اللات والعزى، وما الربة؟ حجر مثل هذا الحجر، لا يدري من عبده ومن لم يعبده! ويحكم، أتسمع اللات أو تبصر أو تنفع أو تضر؟ ثم هدمها وهدم الناس معه، فجعل السادن يقول -وكانت سدَنَة اللات من ثقيف بنو العجلان بن عَتَّاب بن مالك، وصاحبها منهم عتاب بن مالك بن كعب، ثم بنوه بعده- يقول: سترون إذا انتهى إلى أساسها، يغضبُ الأساس غضبًا يخسف بهم، فلمَّا سمع بذلك المغيرة وليَ حفرَ الأساس حتى بلغ نصف قامة، وانتهى إلى الغَبْغَب خزانتها، وانتزعوا حليتها وكسوتها وما فيها من طيب ومن ذهب أو فضة[2].

ومن هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: موقف النبي ﷺ من وفد ثقيف؛ حيث جاؤوا مستسلمين لقوة دولة الإسلام، ولم يأتوا مقتنعين بالإسلام، فجاؤوا يشارطون النبي ﷺ على خضوعهم لدولة الإسلام في مقابل إسلام ناقص يتبعون فيه أهواءهم، فاشترطوا على النبي ﷺ أن يبيح لهم الزنى والربا، وشُرب الخمر، فأبان لهم أن كل هذه الأمور محرَّمات في الإسلام، ولا يملك أن يُحل شيئًا حرمه الله تعالى.

لقد جاء هؤلاء الوفد وهم يعرضون جاهليتهم معهم؛ ليخلطوها بالإسلام.

إنهم ما زالوا غرقى في أوْحال الجاهلية؛ فلذلك صعُب على نفوسهم أن يتخلوا من ساعتهم عن تلك الأوحال.

(١) حسراً: أي مكشوفات الوجوه: شرح أبي ذر: ٤٢٦.

(٢) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٢٦- ٩٧٢، باختصار، وأخرجه البيهقي من حديث موسى بن عقبة، وذكر نحوه، دلائل النبوة: ٥/ ٢٩٩-٣٠٤، وأخرجه ابن إسحاق باختصار من سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٣٨- ٢٤٦، وأخرجه ابن أبي شُبة من خبر غطيف بن أبي سفيان الطائفي، تاريخ المدينة المنورة: ٢/ ٤٩٩.

إن النفوس التي لم تتنور بالإيمان ولم تتحلَّ بالهداية لاتزال تهبط إلى الأسفل، وتجد شيئًا من الوحشة في الصعود إلى الأعلى؛ لأن عقولها مخنوقةٌ بخناق الشهوات البهيمية.

وحينما تحلُّ جذوة الإيمان في القلوب تتنور بها البصائر، ويضعف سلطان العواطف، ويقوى سلطان العقل، ويسترد حريته التي كانت مكبَّلة بخضوع الإنسان لعواطفه الجامحة، فيبدأ بالتفكير السليم، ويُصدر الأوامر الحكيمة التي ترفع من شأن الإنسان كحيٍّ عاقل؛ ليعيش في أجواء فكره المستنير الذي يدرك حالاً أن الحق كل الحق والحكمة كل الحكمة في تطبيق شريعة الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان العاقل، والذي هو أعلم -جل وعلا- بما يصلحه في حاضره وفي مستقبله بعد الموت.

ولقد أجاب النبي ﷺ هؤلاء بأن الله عز وجل هو الذي حرَّم هذه الأشياء، وكأنه يقول لهم: إذا كنتم تُقرُّون بأن الله -جل جلاله- هو الذي خلقكم، أفلا تهديكم عقولكم إلى أنه سبحانه أعلم بما يُصلحكم؟!

ومع هذا الجواب الذي رفع النبي ﷺ به عقولهم إلى الأعلى، فإنهم في مشورتهم ما زالوا يُفكرون في حتمية العيش في الدَّركات السفلى، ويرون صعوبة الارتفاع إلى الدرجات العُلَى.

ولما رأوا إصرار النبي ﷺ على ضرورة أخذ الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى رجعوا إلى التفكير في وضعهم الذي لا يسمح لهم بالبقاء منفصلين عن دولة الإسلام، فعادوا إلى الخضوع والاستسلام، ولكن بقي ما هو أكبر مما ذكروا في نظرهم وهو أن يعرفوا رأي النبي ﷺ في صنمهم اللات، فقالوا: أرأيت الرَّبة ما ترى فيها؟ قال: «هدمها»، قالوا: هيهات، لو تعلم الربة أنا أوضعنا في هدمها قَتَلت أهلنا.

وهذا يعني أنهم ما زالوا على شركهم واعتقادهم بأنَّ اللات تضر وتنفع من دون الله تعالى.

وهنا لم يصبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فشارك في الحوار، وقال: ويحك يا عبد ياليل، إن الربة حجر لا يدري من عبده ممن لم يعبده، قال عبد ياليل: إنَّا لم نأتك يا عمر.

لقد قالوا كلامًا في غاية النَّكارة، ولكن النبي ﷺ صمتَ صمْت الأنبياء -عليهم السلام-، وتكلَّم عمرُ كلام البشر مدفوعًا بحميته المعروفة للإسلام وشدته في إنكار الباطل.

لقد كان بينهم وبين النبي ﷺ جسورٌ رقيقة بالإمكان كسرها بنظرة ساخرة أو كلمة جارحة، وكان النبي ﷺ أحرص شيء على سلامة تلك الجسور؛ ليعبروا منها إلى الإيمان الحق.

لقد جاؤوا مستسلمين ولم يأتوا مسلمين، فما أعظم النبي ﷺ حينما اغتنم استسلامهم؛ ليكسب إسلامهم.

وبهذا كان الصمت وامتلاك المشاعر هو عين الحكمة.

إن المتأملَ لَيعجب من كلام هؤلاء عن حجر لا يُبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع، مع أنهم من سادة قومهم ولا يسود غالبًا في ذلك الزمن إلا أصحاب العقول الراجحة، ومع ذلك تدنَّى مستوى تفكيرهم حتى نسبوا إلى ذلك الصنم المقدرة على إبادة أهل الطائف لو علم أنهم سافروا؛ ليصالحوا الرسول ﷺ على هدمه.

إن من تصور واقع هؤلاء وأمثالهم في جاهليتهم وهم بهذا التفكير الساذج المحجوب بالظلمات، ثم تصور واقعهم بعد الإسلام وهم ينظرون إلى تفكيرهم السابق نظرة ازدراء وتهكُّم.. إن من تصور ذلك سيعرف جيِّدًا المستوى العالي الذي رفع الله تعالى به المسلمين، والذي يمثله قول عمر رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل إن الربة حجر لا يدري من عبده ممن لم يعبده.

وبعد أن أسلموا طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدع اللات ثلاث سنين فأبى، وما زالوا يطلبونه إلى أن طلبوا تأخيرها شهرًا فأبى أن يوقِّت لهم وقتًا، وهذا يبين لنا موقف النبي ﷺ الواضح الحازم من معالم الجاهلية الظاهرة، كما سبق في فتح مكة، فالأوثان قد تعلَّقت بها نفوس بعض الناس، وما زالوا في ذلك الوقت قبل زوالها يظنون أنها تضر وتنفع؛ فبقاؤها يعني بقاء الشرك ظاهرًا وباطنا عند بعض الناس وهم الذين يبقون على شركهم؛ حيث يقومون بعبادتها ظاهرًا ويخشونها باطنًا، أو باطنًا فقط عند بعض من

أسلموا إسلامًا ضعيفًا ؛ إذ رُبما بقي في قلوبهم شيء من الخشية منها ما دامت ماثلة أمامهم .

لهذا لم يوافقهم النبي ﷺ على إبقاء ذلك الصنم حتى مع ما ذكروا من مُسوغات ذلك ؛ من محاولة تأليف أبنائهم وسفهائهم ؛ لأن ما أراده هؤلاء من محاولة تأليف الجهال إلى الإسلام لن يتم مع بقاء رمز الجاهلية الأكبر في بلادهم ؛ لأن قناعتهم المتوارثة باستحقاقه للتعظيم والعبادة وخشيتهم منه تحُول بينهم وبين التفكير بسماع دعوة الحق ، ولهذا كان إصرار النبي ﷺ على عدم الموافقة على طلبهم هذا شديداً .

وأغرب من هذا طلبُهم من رسول الله ﷺ أن يعفيهم من الصلاة التي هي عماد الدين ، مما يدل على أنهم لم يفقهوا الإسلام بعدُ ؛ حيث لم يدركوا أنه الاستسلام الكامل لله تعالى من غير تردُّد ولا تخيُّر ، بل كانوا يظنون أن الأمر راجع لاختيار البشر ، ولقد بيّن لهم رسول الله ﷺ أنه لا خير في دين لا صلاة فيه .

ولا شك أنهم بعدما وقَر الإيمان في قلوبهم سيعلمون أن مطالبهم هذه غريبة وشاذة عند من عرف الإسلام وآمن به حقًا .

****

مثل من هيمنة قيم الجاهلية وعزّة الإسلام
(خبر وفد بني تميم وإسلامهم)

قال ابن إسحاق: فقدمَتْ على رسول الله ﷺ وفود العرب، فقدم عُطارد بن حاجب بن زُرارة بن عُدُس التميميُّ في أشراف بني تميم؛ منهم الأقرع بن حابس التميمي، والزِّبرقان بن بدر التميمي، أحد بني سعد، وعمرو بن الأهتم، والحَبحاب بن يزيد.

قال ابن إسحاق: ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفَزاري، وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن قد شهدا مع رسول الله فتح مكة وحُنينًا والطائف.

فلما قدم وفدُ بني تميم كانا معهم، فلما دخل وفدُ بني تميم المسجد، نادَوْا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جئناك نفاخرك، فأذَن لشاعرنا وخطيبنا، قال: «**قد أذنت لخطيبكم فلْيقُل**»، فقام عطارد بن حاجب، فقال:

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنُّ وهو أهله، الذي جعلنا مُلوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدَّة، فمنْ مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأُولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عدَّدْنا وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف بذلك، أقولُ هذا؛ لأنْ تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشِّماس، أخي بنيٍ الحارث بن الخزرج: «قمْ، فأجِب الرَّجلَ في خُطبته»، فقام ثابت، فقال:

الحمد لله الذي السمواتُ والأرضُ خلقه، قضى فيهن أمرَه، ووسع كرسيَّه[1] علمُه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قُدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً؛ أكرمه نسبا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتَابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن

(١) أي: إنَّ علم الله تعالى وسع كرسيه الذي هو محيط بالسموات والأرض.

برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكْرمُ الناس حسبًا، وأحسنُ الناس وجوهًا، وخيرُ الناس فعالاً. ثم كان أول الخَلق إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله مَنع منَّا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

فقام الزِّبْرَقان بن بدر فقال:

نحن الكرامُ فلا حيَّ يُعادلنا ... منا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البيعُ(١)

وكمْ قَسَرنا من الأحياء كلِّهم ... عند النِّهاب، وفضلُ العز يُتبعُ(٢)

ونحن يُطعم عند القحط مُطعمُنا ... من الشِّواء إذا لم يُؤنس القَزع(٣)

بما تَرى الناس تأتينا سَرَاتُهم ... من كلِّ أرض هُوِيًا ثم نصطنعُ(٤)

فننحر الكوم عُبطًا في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أُنزلوا شَبعوا(٥)

فلا ترانا إلى حيٍّ نُفاخرهم ... إلا استقادوا فكانوا الرأسَ يُقتطعُ

فمن يُفاخرُنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تُستمعُ

إنَّا أبيْنا ولا يأبى لنا أحدٌ ... إنا كذلك عند الفخر نرتفعُ

قال: فلما فرغ الزِّبرقان، قال رسول الله ﷺ لحسَّان بن ثابت: «قم يا حسان، فأجب الرجل فيما قال»: فقام حسان، فقال:

إن الذوائبَ من فهر وإخوتهم ... قد بيَّنوا سُنةً للناس تُتبع(٦)

يرضَى بهم كلُّ من كانت سريرته ... تَقوَى الإله، وكل الخير يَصطنعُ

(١) البيع: كَعِنَب، جمع بيعة بكسر الباء، وهي متعبد النصارى.

(٢) قسرنا: يعني جبرنا وأكرهنا، والنهاب: جمع نهب، وهو ما يؤخذ من الأعداء.

(٣) الشواء: اللحم المشوي، ويؤنس: أي يبصر، والقزع: جمع قزعة بفتحتين، وهي قطعة السحاب.

(٤) السراة: الأشراف والسادة، الهُوِي بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء: الإسراع، والاصطناع: صنع المعروف.

(٥) الكوم بالضم: القطعة من الإبل، الكوماء الناقة العظيمة السنام، وعبطا: جمع عبيط، وهو ما يُنحر من الإبل من غير علَّة، وهو سمينٌ فتيٌّ، والأرومة: بفتح الهمزة وتُضم: الأصل..

(٦) الذوائب: أي الأعلون، وذوو العزِّ والشرف.

قــوم إذا حــاربوا ضــرُّوا عــدوهــمُ أو حـاولوا النفع في أشْياعـهم نفعُوا
سـجـيَّـة تلك منهم غـيـرُ مُـحـدثة إن الخـلائق فـاعلم شـرُّها البـدعُ
إن كـان في الناس سبَّاقـون بعـدهم فكل سـبْق لأدنى سـبـقــهـم تبعُ
لا يَرقعُ الناس مـا أوهَت أكـفُّـهـمُ عند الدفـاع ولا يُوهون مـا رَقـعـوا
إن سـابقُوا الناس يومًا فـاز سبقُـهم أو وازنوا أهل مـجـد بالندى مَـتـعـوا
أعـفَّـةٌ ذُكـرت في الوحي عـفـتـهم لا يَطبـعُـون ولا يُرْديهم طَمعُ(١)
لا يبـخلون على جـار بفـضلهم ولا يمسُّـهُم من مَطْمع طَبعُ
إذا نَصـبْنا لحيٍّ لم ندبَّ لهـم كـمـا يدبُّ إلى الوحْشـيـة الذَّرعُ(٢)
نَسْـمـو إذا الحـرْب نالتنا مَـخـالبـهـا إذا الزعـانف من أظفارها خَشعوا(٣)
لا يفْـخـرُون إذا نالوا عـدُوهم وأن أُصـيـبوا فـلا خُـورٌ ولا هُلعُ(٤)
كــأنهم في الوغَى والموتُ مُكتنعٌ أُسـدٌ بحليـةَ في أرْسـاغـهـا فـدَعُ(٥)
خُـذْ منهم مـا أتى عـفْـوًا إذا غضبـوا ولا يكن همك الأمـر الذي منعـوا
فـإن في حـربهم فـاترك عـداوتهم شـرًّا يُخـاض عليـه السمُّ والسَّلعُ(٦)
أكـرمْ بقـوم رسـول الله شيـعَـتـهم إذا تفـاوتت الأهـواءُ والشِّـيـع
أهْدَى لهم مـدْحـتي قلبٌ يُوازره فـيـمـا أُحبُّ لسـانٌ حـائكٌ صنعُ(٧)
فـإنهم أفـضلُ الأحـيـاء كلهـم إن جد بالناس جدُّ القول أو شمعوا(٨)

(١) لا يطبعون، الطَّبع بكسر الباء: الدنيء الخلق اللئيم؛ أي إنهم لا يتصفون باللؤم، ولا يُرديهم طمع: أي لا يهلكهم الطمع في الدنيا.
(٢) نصبنا لحي: أي نهضنا لقتالهم، ولم ندبَّ لهم: يعني لم نمش إليهم في ضعف ووهن، والوحشية: أنثى الوحشي، والمراد بها البقرة الوحشية، والذَّرع محركةً: ولدها.
(٣) الزعانف: الضعفاء.
(٤) الخور: جمع خائر، وهو الضعيف، الهلع: جمع هلوع، وهو الشديد الجزع.
(٥) الوغى: الحرب، ومكتنع: أي دان قريب، وحلية: اسم موضع، والأرساغ: جمع رُسغ، وهو الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل، والفدع: اعوجاج الرُّسغ من اليد أو الرجل.
(٦) السلع: محركة شجر مرٌّ.
(٧) الحائك: اسم فاعل من حاك الثوب نسجه، والصنع بفتح النون: البليغ الحاذق، يقال: رجل صنع اللسان، ويقال: لسان صنع.
(٨) شمعوا: أي هزلوا ومزحوا.

قال ابن هشام: أنشدني أبو زيد:

يرضَى بها كلُّ من كانتْ سريرتُه ... تقوَى الإله وبالأمر الذي شرعوا

وقال ابن هشام: حدثني بعضُ أهل العلم بالشعر من بني تميم: أن الزِّبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما تعْلم الناسُ فضلَنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

بأنا فرُوعُ النَّاس في كل موْطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

وأنا نَذُود المعْلمين إذا انتحَوْا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم(١)

وأنَّ لنَا المرْباع(٢) في كل غارة ... نُغيرُ بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فأجابه، فقال:

هل المجد إلا السُّودَدُ العَوْد والندى ... وجاهُ الملوك واحتمال العَظائم

نَصرْنا وآوينا النبي محمدًا ... على أنْف راض من مَعدٍّ وراغم

بحيٍّ حَريد(٣) أصله وثراؤه ... بجَابية الجوْلان وَسط الأعاجم

نَصَرناهُ لما حل وسط ديارنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم

جعلنا بَنينَا دونه وبناتنا ... وطبْنا لهُ نفسًا بفيء المغانم

ونحن ضربنا الناس حتى تتَابعوا ... على دينه بالمرْهَفات الصوارم(٤)

ونحن ولدْنا من قريش عَظيمها ... ولدنا نبي الخير من آل هاشم(٥)

بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم

---

(١) نذود: أي ندفع، والمعلمين: من يجعلون لأنفسهم في الحرب علامات يعرفون بها، والأصيد: المستكبر المتعاظم، والمتفاقم: الأشر البطر.

(٢) هو ربع الغنيمة.

(٣) أي: منفرد، ويقصد بذلك قبيلة غسَّان التي انفردت في الشام من دون العرب، الروض الأنف: ٧/ ٤٣٤، وإنما ذكر غسَّان؛ لأن الأوس من الخزرج ينتسبون إليهم.

(٤) المرهفات الصوارم: يعني السيوف الرقيقة الحد القواطع.

(٥) يعني: أن الأنصار هم أخوال جدِّ النبي ﷺ.

هبلْتم علينا تفـــخـــرُون وأنتم　　　لنا خَـولٌ مـا بين ظئـر وخـادم[1]

فـإن كنتم جـئـتم لحـقن دمـائكم　　　وأمـوالكم أن تُقسـمـوا في المقـاسم

فـــلا تجـعلوا لله ندًا وأسلمـــوا　　　ولا تلبـســوا زيًا كـزيِّ الأعــاجم

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي، إن هذا الرجل لَمُؤَتَّى له[2]؛ لخَطيبُه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعْلى من أصواتنا.

فلما فرغ القوم أسلموا، وجوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

قال ابن إسحاق: وفيهم نزل من القرآن: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [الحجرات: ٤][3].

في هذا الخبر موقف مُهم لرسول الله ﷺ في مجال الدعوة؛ حيث اغتنم فرصة إقبال وفد بني تميم بخطيبهم وشاعرهم، فدعا خطيب المسلمين وشاعرهم، فكانت هذه المحاورة التي قامت على غرض مهم من أغراض الشعر والخطابة في ذلك العصر ألا وهو الفخر، ولكن حينما نتأمل المادة الكلامية التي دارت في هذه المفاخرة نجد أن وفد بني تميم قد سار في مفاخرته على تعداد المَفَاخر التي كان أهل الجاهلية يهتمون بها؛ من الغنى وكثرة العدد والمقدرة على الإغارة والنهب وإكرام الضيف حسب العرف السائد آنذاك، بينما نجد خطيب المسلمين قد ركَّز على توحيد الله تعالى واصطفائه لنبيه ﷺ من بين البشر، وذكر فضائل المسلمين التي ارتفعت عن حدود القبلية وسادوا بها العرب، كما ركَّز شاعر المسلمين على بيان قوة المسلمين التي لا تقوم لها قوة، وتخلُّقهم مع هذا بمكارم الأخلاق.

وإن اعتراف أحد زعماء الوفد بتفوق خطيب المسلمين وشاعرهم لَدليل على علو شأن الأمة الإسلامية آنذاك من الناحية الأدبية إلى جانب علوها في القوة الحربية.

---

(١) هبلتم علينا: يعني كذبتم كثيرًا، والخول بفتح الواو: الخدم، والظئر: المرضع ولد غيرها.

(٢) أي: مهيأ له أمره.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٨٤- ٢٩٥.

لقد جاء هذا الوفد -وهم على جاهليتهم- من أجل المفاخرة والمكاثرة كما قال شاعرهم: أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا.

ولقد كان رسول الله ﷺ مُوفَّقًا كل التوفيق حينما عاملهم بالأسلوب الذي يفهمونه، وردَّ عليهم بالمستوى الأدبي الذي يقدِّرونه، فأقام خطيبًا يرد على خطيبهم وشاعرًا يرد على شاعرهم ببيان مفاخر المسلمين التي لا يستطيع هؤلاء القوم أن يصلوا إليها.

واستطاع ﷺ بتوفيق من الله تعالى أن ينتزع من قلوبهم نخوة الجاهلية وكبرياءها، وأن يُنسيهم وساوس الشيطان بخطيبٍ هو أبلغ من خطيبهم وشاعر هو أشعر من شاعرهم.

فلما تبين لأفراد هذا الوفد أنهم ليسوا أفضل الناس، وأن الذين قدموا لمفاخرتهم يتفوقون عليهم بأمور لا يستطيعون بلوغها تطامنوا وتواضعوا وانتُزعتْ من قلوبهم نخوة الجاهلية وضعُف كيد الشيطان لهم، فأعلنوا إسلامهم.

وإن هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ ليُعدُّ من أوضح الأمثلة على تطبيقه للحكمة في الدعوة التي أمره الله -جل وعلا- بها بقوله: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: ١٢٥]، فلو أنه ﷺ صدَّهم وهجَّن أسلوبهم، ولم يفاخرهم كما فاخروه بالخطابة والشعر لنفخ الشيطان في روعهم وأوحى إليهم بأن المسلمين عاجزون عن مفاخرتهم، ولبقي الطغيان الذي كان مهيمنًا على مشاعرهم باعتقاد تفوقهم على غيرهم بما يعتقدونه مُثلاً عالية آنذاك، ولم تكن دعوة القرآن لتنفذ إلى قلوبهم إلا أن يشاء الله؛ لسيطرة هذه المفاهيم الجاهلية على مداركهم، فلما عرَفوا فضل المسلمين وعُلو شأنهم بدأوا بتفهُّم دعوة الإسلام فأعلنوا إسلامهم.

ثم كانوا في الفتوحات الإسلامية من أقوى جنود الإسلام، وحازوا على ثناء النبي ﷺ، كما أخرج الإمامان البخاري ومسلم -واللفظ له- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لا أزالُ أحب بني تميم من ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هُم أشد أمتي على الدَّجال**»، قال: وجاءت صدقاتهم فقال

النبي ﷺ: «**هذه صدقـاتُ قوْمِنا**»، وكانت سبيَّةٌ منهم عند عائشة، فقال رسول الله ﷺ: «**أعتقِيها فإنها من ولدِ إسماعيل**»[1].

وقوله: «**هم أشدُّ أمَّتي على الدجَّال**»، يدل على قوة دينهم في آخر الزمان.

وفي هذا الخبر موقفان لخطيب المسلمين ثابت بن قيس بن شماس وشاعرهم حسان بن ثابت -رضي الله عنهما-؛ حيث قاما بدورهما في تلك المحاورة خير قيام مع أن الأمر كان على البديهة، وكان هذا مما أذهل زعماء ذلك الوفد؛ حيث أقروا لخطيب المسلمين وشاعرهم بالتفوُّق على خطيبهم وشاعرهم.

وهكذا ينبغي للمسلمين في كل زمن أن يكون لديهم رجال أكفاء في كل المجالات الفكرية؛ ليكونوا على استعداد للقيام بما يلزمهم في المناظرات الأدبية مع أعداء الإسلام، وليكون لهم إسهامٌ في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه.

****

---

(١) صحيح مسلم، فضائل الصحابة: ٢٥٢٥، ص: ١٩٥٧.
صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٨٤، رقم: ٤٣٦٦.

موقف ضمام بن ثعلبة في إسلام قومه

أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: بعثتْ بنو سعد بن بكر ضمامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جَلْدًا أشعر ذا غديرتين[1]، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحَابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»، قال محمد؟ قال: «**نعم**»، فقال: ابنَ عبد المطلب، إني سائلك ومغلظٌ في المسألة فلا تجدنَّ في نفسك، قال: «**لا أجدُ في نفسي، فسلْ عمَّا بدَا لك**»، قال: أنشُدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك: آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «**اللهم نعم**»، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك: آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: «**اللهم نعم**».

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضةً؛ الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، قال: ثم انصرف راجعًا إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولى: «**إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة**».

قال: فأتى إلى بعيره، فأطلق [عقاله]، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعُزَّى، قالوا: مهْ[2] يا ضمام، اتَّق البرص والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعَان، إن الله عز وجل قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما

(١) أي: قويًّا شديداً طويل الشعر قد فرق شعره فرقتين.
(٢) أي: اكفف.

أمركم به ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا.

قال: يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[1].

في هذا الخبر مواقف، منها:

أولاً: موقفٌ لرسول الله ﷺ في الحلم والسماحة؛ فقد تحمل شدَّة هذا السائل وعامَلَه بلطف ورحمة؛ مما كان له أثر في اجتذابه وتهيئته لقبول الإسلام.

ثانيًا: موقف لضمام بن ثعلبة رضي الله عنه؛ حيث عرض الإسلام على قومه بقوة ووضوح، ولم يخش من تحذيرهم إياه بالإصابة بالبرص والجذام والجنون حينما ذم الأصنام، وحينما رآه قومه سليمًا معافى مع ما تفوَّه به من ذم الأصنام تهيأوا لسماع دعوته، فوافق منهم نفوسًا قد تجردت من التعلق بالأصنام فقبلوا دعوته وأسلموا جميعًا.

****

(١) الفتح الرباني: ٢١/ ٢٠٨، ٢٠٩، وأخرجه الإمامان البخاري ومسلم، صحيح البخاري، كتاب العلم، رقم: ٦٣، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم: ١٢، وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، وصحَّحه وأقره الذهبي، المستدرك: ٣/ ٥٤، ٥٥.

إسلام صُرَد بن عبد الله الأزدي وجهاده

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ صُرد بن عبد الله الأزدي، فأسلم وحسُن إسلامه في وفد من الأزد، فأمَّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قِبل اليمن.

فخرج صُرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجُرش وهي يومئذ مدينة مُغلقة، وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد ضوت إليهم خثعم، فدخلوها معهم حين سَمعوا بسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها قريبًا من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان إلى جبلٍ لهم يقال له: شكر، ظن أهل جُرَش أنه إنما ولى عنهم منهزمًا، فخرجوا في طلبه، حتى إذا أدركوه عطف عليهم، فقتلهم قتلاً شديدًا.

وقد كان أهل جُرَش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران، فبينا هما عند رسول الله ﷺ عشيَّةً بعد صلاة العصر، إذ قال رسول الله ﷺ: «**بأيِّ بلاد الله شكَر؟**»، فقام إليه الجُرشيان فقالا: يا رسول الله، ببلادنا جبل يقال له كَشر، وكذلك يسميه أهل جُرَش، فقال: «**إنه ليس بكَشر، ولكنه شكر**»، قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: «إن بُدْنَ الله لتُنحرُ عنده الآن»، قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما! إن رسول الله ﷺ لينعى لكما قومكما، فقوما إلى رسول الله ﷺ، فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فقاما إليه، فسألاه ذلك، فقال: «**اللهم ارفع عنهم**»، فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا يومَ أصابهم صُرد بن عبد الله، في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر.

وخرج وفدُ جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا(١).

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٢٦- ٣٢٨، وأخرجه ابن سعد من حديث عبد الله بن عكرمة بن الحارث عن أبيه، طبقات ابن سعد: ١/ ٣٣٩.

في هذا الخبر موقف لصرد بن عبد الله الأزدي والمسلمين الذين كانوا معه؛ حيث حاصروا المشركين في مدينة جرش، ثم لما طال الحصار قام صرد بانسحاب أوْهَمَ فيه الأعداء بأنه قد انهزم عنهم، وكان هو وجيشه في كامل استعدادهم لما خرج إليهم الأعداء فاقتتلوا ونصر الله المسلمين عليهم.

وفي هذا الخبر معجزةٌ لرسول الله ﷺ؛ حيث أخبر الرجلين الجرشيين بقتل قومهما في اليوم نفسه الذي قُتلوا فيه.

****

خبر زياد الصُّدائي

أخرج الحافظ البيهقي من حديث زياد بن الحارث الصُّدائي قال: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام، فأُخبرت أنه قد بعث جيشًا إلى قومي، فقلت: يا رسول الله ارْدُد الجيش وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم، فقال لي: «**اذهب فردَّهم**»، فقلت: يا رسول الله، إن راحلتي قد كلَّت، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فردَّهم.

قال الصدائي: وكتبت إليهم كتابًا، فقدم وفدهم بإسلامهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أخا صداء إنك لمطاع في قومك**»، فقلت: بل الله هداهم للإسلام، فقال: «**أفلا أؤمرك عليهم؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: فكتب لي كتابًا أمَّرني، فقلت: يا رسول الله مُرْ لي بشيء من صدقاتهم، قال: «نعم»، فكتب لي كتابًا آخر.

قال الصدائي: وكان ذلك في بعض أسفاره، فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون: أخذَنا بشيء كان بيننا وبين قومه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**أوفعلَ ذلك؟**» قالوا: نعم، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه -وأنا فيهم- فقال: «**لا خيرَ في الإمارة لرجُل مؤمن**»، قال الصدائي: فدخل ذلك في نفسي، ثم أتاه آخر، فقال: يا رسولَ الله أعطني، فقال رسول الله ﷺ: «**من سأل الناس عن ظهْر غنىً فصداع في الرأس وداء في البطن**»، فقال السائل: أعطني من الصدقة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولا غيره حتى حكم فيها هو، فجزَّأها ثمانية أجزاء، فإن كنت في تلك الأجزاء أعطيتك، أو أعطيناك حقك**»، قال الصدائي: فدخل ذلك في نفسي أني غني وأني سألته من الصدقة.

قال: ثم إن رسول الله ﷺ اعتشى -يعني سار في وقت العشاء- من أول الليل، فلزمتُه وكنت قريبًا، وكان أصحابه ينقطعون عنه ويستأخرون حتى لم يبق معه أحد غيري، فلما كان أول صلاة الصبح أمرني فأذَّنت، فجعلت أقول: أقيم يا رسول الله؟ فجعل ينظر ناحية المشرق إلى الفجر ويقول: «**لا**»، حتى إذا طلع الفجر نزل فتبرز ثم انصرف إليَّ وهو يتلاحق أصحابه، فقال: «**هل من ماء يا أخا صداء؟**» قلت: لا إلا

شيء قليل لا يكفيك، فقال: «اجعله في إناء، ثم ائتني به»، ففعلت، فوضع كفَّه في الماء، قال الصدائي فرأيت بين إصبعين من أصابعه عينًا تفور، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أني أستحي من ربي عز وجل لسقينا واستقينا، ناد في أصحابي من له حاجة في الماء»، فناديت فيهم، فأخذ من أراد منهم شيئًا، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إلى الصلاة**»، فأراد بلال أن يقيم، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن أخا صداء هو أذَّن فهو يقيم**»، فقال الصدائي: فأقمت الصلاة.

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة أتيته بالكتابين، فقلت: يا رسول الله، اعفني من هذين، فقال: «**ما بدا لك؟**»، فقلت: سمعتك يا رسول الله تقول: «**لا خيرَ في الإمارة لرجلٍ مؤمن**»، وأنا أؤمن بالله وبرسوله، وسمعتك تقول للسائل: «**من سأل الناسَ عن ظهر غنىً فهو صُداع في الرأس وداءٌ في البطن**»، وسألتك وأنا غني، فقال: «**هو ذاك، فإن شئت فاقبل وإن شئت فدع**»، فقلت: أدع، فقال لي رسول الله: «**فدلَّني على رجل أُؤمره عليكم**»، فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمَّره عليهم.

ثم قلنا: يا رسول الله، إن لنا بئرًا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قلَّ ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا، وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو، فادع الله لنا في بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليه ولا نفترق، فدعا بسبع حصيات فعركهن بيده ودعا فيهن، ثم قال: «**اذهبوا بهذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدةً واحدةً واذكرُوا الله عز وجل**».

قال الصدائي: ففعلنا ما قال لنا، فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها: يعني البئر[1].

وذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث، وقال: وهذا الحديث له شواهد في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه[2] وحسَّن إسناده ابن عساكر[3].

وذكره الهيثمي، وقال: رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وهو ضعيف، وقد وثَّقه أحمد بن صالح، وردَّ على من تكلم فيه، وبقية رواته ثقات[4].

---

(١) دلائل النبوة: ٥/ ٣٥٥.
(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٧٥.
(٣) كنز العمال: ١٦/ ١٢.
(٤) مجمع الزوائد: ٥/ ٢٠٤.

وذكر الحافظ ابن حجر أن الإمام أحمد أخرجه بطوله، وأخرجه أصحاب السنن وفي إسناده الأفريقي، يعني عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المذكور، لكن قال: وله طريق أخرى من طريق المبارك بن فضالة(١).

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ بهداية الناس عن طريق الدعوة، وعدم اللجوء إلى الجهاد إلا عند الضرورة، فقد ردَّ الجيش الذي بعثه إلى بني صُداء حينما تكفل له زياد بن الحارث الصدائي بإسلام قومه.

إن عدول القائد عن رأيه بعد بدء تنفيذ العمل فيه صعوبة على النفس، ولكن النبي ﷺ يسنُّ لأمته بهذا لزوم الاعتصام بالحق ولو بعد صدور القرار والبدء بتنفيذ الأمر.

ثانيًا: موقف لزياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه؛ حيث زهد بالإمارة خوفًا من التعرض لآثارها السيئة، مع أنه لم يسألها، وإنما ولاَّه النبي ﷺ على قومه؛ لما رأى من قوة تأثيره عليهم؛ حيث كان سببًا في إسلامهم.

كما أنه تورَّع عن الصدقة بعدما كتب له النبي ﷺ بشيء من صدقات قومه، ولعله ﷺ كتب له بذلك باعتبار أنه سيكون من العاملين على جباية الصدقات؛ حيث إنه قد ولاّه على قومه، وقد أخبر النبي ﷺ بعدم رغبته في الإمارة خشية أن يلحقه منها إثم، وبعدم رغبته في الأخذ من الصدقة لما سمع النبي ﷺ يشدد النكير على من أخذ من الصدقة وهو غني، وهذا دليل على قوة إيمان زياد بن الحارث على حداثة إسلامه رضي الله عنه، وقد قبل النبي ﷺ استعفاءه من الأمرين، ولعل ذلك لأنه أراد أن يغذي في نفسه هذا الشعورَ الإيماني، وذلك بميله إلى التنزه من الشبهات والبعد عن أسباب الفتنة.

ثالثًا: يشتمل هذا الخبر على معجزتين لرسول الله ﷺ.

أولاهما: نبع الماء من بين أصابعه حتى كأنه عينٌ تفور.

والثانية: وفرة الماء في بئر بني صداء طوال العام بعدما ألقوا فيها الحصيات السبع اللاتي دعا فيهن النبي ﷺ، وفي هاتين المعجزتين وأمثالهما عبرة لأولى الأبصار والعقول المتجردة من اتباع الهوى المنحرف.

(١) الإصابة: ١/ ٥٣٨.

وقول رسول الله ﷺ: «لا خيرَ في الإمارة لرجلٍ مؤمن» محمول على المؤمن الذي يخشى على نفسه من الفتنة بالإمارة، كما يفهَم من سِياق القِصة التي قال النبي ﷺ هذا القول بمناسبتها، أما إذا كان المؤمن لا يخشى على نفسه من الافتتان بالإمارة وكان عادلاً في ولايته فإنها تكون له عملاً صالحًا، كما جاء في قول رسول الله ﷺ: «**سبعةٌ يظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادلُ...**» الحديث[1]، وقوله: «**إن المقسطينَ عند الله على منابرَ من نُور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلُون في حكمهم وأهليهم وماولُّوا**»[2].

****

(١) صحيح البخاري، الأذان: ٢/ ١٤٣، رقم: ٦٦٠ .
صحيح مسلم، الزكاة: ٢/ ٧١٥، رقم: ١٠٣١ .
(٢) صحيح مسلم، الإمارة: ٣/ ١٤٥٨، رقم: ١٨٢٧ .

مثل من رحمة النبي ﷺ
(خبر ابن أبي عقيل الثقفي)

أخرج الحافظان الطبراني والبزَّار من حديث عبد الرحمن بن أبي عقيل قال: انطلقتُ في وفد إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنخنا بالباب وما في الناس أبغض إلينا من رجل نلج عليه، فما خرجنا حتى ما كان في الناس أحب إلينا من رجل دخلنا عليه، فقال قائل منا: يا رسول الله، ألا سألت ربك مُلكًا كمُلك سليمان؟ قال: فضحك، ثم قال: «فلعل لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان، إن الله لم يبعث نبيًّا إلا أعطاه دعوة؛ منهم من اتخذ بها دنياه فأعطيها، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأُهلكوا بها، وإن الله أعطاني دعوة فاختبأتها عند ربي شفاعة لأمتي يوم القيامة».

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه الطبراني والبزَّار ورجالهما ثقات(١).

في هذا الخبر موقف عظيم من مواقف رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم؛ حيث اختبأ دعوته التي خصصها الله سبحانه للأنبياء -عليهم السلام-؛ لتكون شفاعة لأمته يوم القيامة.

إنه لموقف كبير القدر، عظيم النفع، ألهمه الله تعالى نبيه ﷺ؛ ليستنقذ به من شاء الله إنقاذه من هذه الأمة من العذاب يوم القيامة، كما أخرجهم الله به في الدنيا من الظلمات إلى النور.

وإنه لفرق كبير بين نفعٍ يقدَّم في هذه الحياة الفانية مما يختص بها، ونفع يُسْدى في الدار الآخرة الخالدة.

****

(١) مجمع الزوائد: ١٠/ ٣٧٠، ٣٧١، وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية: ٤/ ٣٨٧، ونقل محققه عن البوصيري أنه قال: رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار والطبراني، ورواته ثقات.

إسلام فروة بن عمرو الجذامي وثباته على الدين

قال ابن إسحاق في بيان خبره: وبعث فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ثم النفاثي إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلةً بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله «معان» وما حولها من أرض الشام.

فلما بلغ الرومَ ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم، ثم ذكر بعض شعره في ذلك، وأن الروم أجمعوا على قتله وصلبه على ماء لهم يقال له: عفراء، بفلسطين.

قال: فزعم الزهري ابن شهاب أنهم لما قدَّموه؛ ليقتلوه قال:

بلِّغ سراة المسلمين بأنني ... سلْم لربي أعظُمي ومُقامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء، يرحمه الله تعالى(١).

إن في خبر فروة هذا مثلاً عاليًا للثبات على الدين الحقِّ والترفُّع عن جواذب الأرض ومتاع الحياة الدنيا؛ حيث جرَّ عليه إيمانه بالإسلام فقْد منصبه الكبير، ثم صبر على البلاء؛ حيث تعرض للحبس أوَّلاً، ثم القتل بعد ذلك.

وإنه لا يصل إلى هذا المستوى من الإيمان إلا من عَرَف منزلة الحياة الدنيا من الآخرة ففضَّل الأعلى على الأدنى، وضحَّى بالقليل الزائل من أجل الكثير الدائم.

****

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٣٣، وذكر الحافظ ابن إسحاق هذا، ثم نسب هذا الخبر إلى ابن شاهين وابن منده من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بسند ضعيف إلى الزهري، الإصابة: ٣/ ٣٠٧، رقم: ٧٠٢٢.

مواقف تربوية ودعوية

(بعث معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري في الدعوة إلى اليمن)

١- أخرج الإمام البخاري من حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كلَّ واحد منهما على مخلاف، قال: واليمنُ مخلافان[١]، ثم قال: «**يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفرا**»، فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كلُّ واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريبًا من صاحبه أحدثَ به عهدًا فسلم عليه، فسار معاذُ في أرضه قريبًا من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس، وإذا رجلٌ عنده قد جُمعت يداه إلى عنقه، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس أيْمَ هذا[٢]؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه، قال: لا أنزل حتى يُقتل، قال: إنما جيء به لذلك، فانزل: قال: ما أنزل حتى يُقتل: فأمر به فقتل، ثم نزل، فقال: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوَّقه تفوُّقًا[٣]، قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أوَّل الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي»[٤].

وأخرجه الإمام مسلم من حديث أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وذكر نحوه[٥].

٢- أخرج الإمام البخاري من حديث أبي معبد مولى ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادْعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمسَ صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً تُؤخذُ من**

(١) أي: إقليمان. (٢) أي: ما شأنه.

(٣) أي: أقرأه ساعة بعد ساعة، مأخوذ من فُواق الناقة، وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب.

(٤) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٦٠، رقم: ٤٣٤١ .

(٥) صحيح مسلم، الأشربة: ١٥٨٧، رقم: ٢٠٠١ .

أغنيائهم فتُردُّ على فُقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١) .

٣- أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «**يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري**»، فبكي معاذ جشعًا(٢)؛ لفراق رسول الله ﷺ، وفي لفظ: فقال النبي ﷺ: «**لا تبك يا معاذ، للبكاء أوان، إن البكاء من الشيطان**»، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون؛ من كانوا وحيث كانوا»(٣).

في هذه الأخبار مواقف، منها:

أولاً: في وصايا النبي ﷺ الدعوية؛ ففي الحديث الأول أمرَ معاذًا وأبا موسى -رضي الله عنهما- بالتيسير على الناس، ونهاهما عن التعسير عليهم، وأمرهما بالتبشير ونهاهما عن التنفير.

وهذا أصلٌ مهمٌّ في مناهج الدعوة إلى الله تعالى، فإن الناس من طبائعهم أن يعتزوا بعقولهم وإدراكهم، وأن يعتزوا بما ورثوه عن أسلافهم من أديان وعادات، فإذا جاءهم من يستسخفُّ عقولهم، أو يستفزُّهم في مقدساتهم التي يؤمنون بها فإن عنصر الدفاع عن النفس وعن المقدسات يبرزُ على الساحة فيغطي على ما أودعه الله تعالى في الإنسان من جوانب الذوق والوجدان والتفكير السليم، ويصبح الشيء الذي يهيمن على الإنسان هو إلى أيِّ مدًى سيكون نجاحه في الدفاع عن نفسه وحماية مقدساته.

وبهذا يكون هذا الداعية الذي بدأ بالهجوم واستعمل العنف في دعوته قد وضع بينه وبين المدعُوين سدًا منيعًا يحُول بينهم وبين التأثر بكلامه وقبول دعوته، وبالتالي يكون قد أساء إلى الدعوة الإسلامية، في الوقت الذي كان يظن أنه قد أجاد وأحسن.

---

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٨/ ٦٤، رقم: ٤٣٤٧ .

(٢) الجشع: هو الجزع.

(٣) الفتح الرباني: ٢١/ ٢١٥ .

لهذا كانت هذه هي وصية الرسول الله ﷺ لهذين الداعيتين الكبيرين ؛ لأن هذا الأمر هو الذي يشغل باله، والذي يتوقف عليه نجاح الدعوة بعد الأمور الأخرى التي هي متوافرة لدى الصحابة رضي الله عنهم ؛ من الإيمان القوي، والتجرد لله تعالى، والدار الآخرة، والعلم الراسخ .

وفي الحديث الثاني يوصي رسول الله ﷺ معاذًا بالتدرج في الدعوة والبدء بالأهم فالأهم، وهذا أيضًا عاملٌ مُهم من عوامل نجاح الدعوة، فالدعوة تكون أولاً بترسيخ الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ إيمانًا يثبتُ في القلوب ويُهيمن على الأفكار والسلوك، ثم تكون الدعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العملية التي تُرسخ هذا الإيمان وتنميه، ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات، فيتقبل الناس تكاليف الإسلام التي قد تكون مخالفة لهوى النفس ؛ لأن قلوبهم قد عمرت بالإيمان واليقين قبل ذلك .

ثانيًا: في الخبر الأخير مثلٌ من تواضع النبي ﷺ العظيم ؛ حيث كان يوصي معاذًا وهو على راحلته ورسول الله ﷺ يمشي على قدميه .

ولفتةٌ كريمة من رسول الله ﷺ حينما بكى معاذٌ جزعًا لفراق رسول الله ﷺ، فقال له : «**لاتبك يا معاذ، للبكاء أوان، إنما البكاء من الشيطان**»، ويقصد البكاء الذي يفتُّ في عضد المسلم ويحدُّ من إقدامه على القيام بالمهمات الجليلة .

ثم الإشادة من رسول الله ﷺ بالمتقين من كانوا في أنسابهم وأجناسهم وألوانهم، وحيثما كانوا في أي صقع من الأرض .

وفي هذا تذكير لمعاذ بأن يهتم بهذا الأصل العظيم من أصول الإسلام الذي يكسب به الدعاة قطاعًا ضخمًا من البشر قَعَدتْ بهم أنسابهم أو أجناسهم أو ألوانهم ؛ ليكونوا جنود الدعوة الإسلامية إذا حازوا على هذا الشرف الكبير شرف التقوى، وليصلوا إلى مستوى تكريم الله تعالى لهم بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ثالثًا: مواقف للصحابيين الجليلين أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهما-، ومن ذلك اهتمامهما بإنكار المنكر وتنفيذ الحدود ؛ حيث أقاما حدَّ الردة على رجل كفَرَ بعد إسلامه .

والرِّدَّة عن الإسلام من الناحية الدعوية لها ضررٌ كبير على الدعوة؛ حيث يتوهم البسطاء والسُّذج من ارتداد الناس عن الإسلام عدم صلاحيته لإصلاح الناس وتنظيم أمور حياتهم، ولقد حاول اليهود أن يُثيروا الشبهات حول الإسلام من هذا الجانب بقولهم -فيما حكاه الله تعالى عنهم-: ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ولهذا المقصد وغيره كان إنكار معاذٍ بالغًا، حتى قال: لا أنزل حتى يُقتَل.

ومن مواقفهما التي جاءت في هذه الأخبار: اهتمامهما بالمناصحة في أمور العبادة؛ حيث جرى منهما التساؤل عن قراءة القرآن وصلاة الليل، فأخبر كل واحد أخاه بطريقته في ذلك، وهذه المناصحة مطلوبة بين المؤمنين، فقد يغفل المسلم عن بعض الأعمال الصالحة، سواء في ذلك العبادات الخاصة؛ كالصلاة والصيام وتلاوة القرآن، أو المتعدية التي يتعدى نفعها للآخرين؛ كالدعوة وبذل المعروف وتعليم العلم، فإذا حصل التساؤل بين المسلمين عن ذلك تذكَّر الغافل، وتعلم الجاهل، وتقوّى المتكاسل.

****

خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع

أخرج الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- خبر حجة النبي ﷺ، وقد جاء فيه: فخطب الناس، وقال: «**إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم، كحرمةِ يومِكم هذا**[١] **في شهرِكم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوعٌ، ودماء الجاهلية موضوعةٌ، وإن أولَّ دم أضعُ من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث**[٢]**؛ كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيلٌ، وربا الجاهلية موضوعٌ، وأول ربًا أضع ربانا؛ ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوعٌ كلهُ، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتُم فروجهن بكلمة الله**[٣]**، ولكم عليهن أن لا يُوطئن فُرُشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبرِّح، ولهُن عليكم رزقهنَّ وكسوتهن بالمعروف، وقد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتُم به: كتابُ الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟**»، قال: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهمَّ! اشهدْ، اللهمَّ! اشهدْ**» ثلاث مرات[٤].

وأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي حرَّة الرقاشي عن عمه.. وزاد فيه: «**ألاَ لاَ ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضُكم رقابَ بعضٍ، ألا إن الشيطان قد أيِسَ أن يعبده المصلون، ولكنه في التحريش بينكم**»[٥].

في هذه الخطبة النبوية مثلٌ من قوة النبي ﷺ في إظهار شريعة الله تعالى وتنفيذ أوامره، فقد أبطل أمور الجاهلية التي يعتزُّ بها الكفار ويتفاخرون في إبرازها.. أبطلها بأسلوب يتسم بإهانتها في مقابل إعزاز الكفار لها.

---

(١) يعني: يوم عرفة.

(٢) هو إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

(٣) رجَّح الإمام النووي أن كلمة الله هي قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، شرح النووي على مسلم: ٨/ ٨٣.

(٤) صحيح مسلم، الحج: ٨٨٦- ٨٩٢، رقم: ١٢١٨.

(٥) الفتح الرباني: ٢١/ ٢٧٩، ٢٨٠.

ولا شك أن مقاومة الناس في معتقداتهم وقناعاتهم الفكرية أمرٌ يحتاج إلى شجاعة عالية وإيمان راسخ بالمعتقد المخالف لمعتقدات هؤلاء الناس، ولقد كان النبي ﷺ في منتهى القمة في الإيمان بالحق، والشجاعة في إزهاق الباطل.

وتظهر عظمة النبي ﷺ في التمثيل لإزهاق الباطل والقضاء على مبادئ الجاهلية بتطبيق ذلك على بعض أقاربه؛ حيث أعلن وضع دم ابن عمه إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، ووضع ربا عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فهو بهذا يعلن لعموم الناس أن أقاربه هم أول من تُطبق عليهم أحكام الإسلام، وذلك أدعى لقبول هذه الأحكام والتسليم بها.

****

أخرج الإمام البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كنَّا في سفر مع النبي ﷺ، وإنا أسرينا حتى إذا كنا في آخر الليل وقعنا وقعة -ولا وقعة أحلى عند المُسافر منها- فما أيقظنا إلا حرُّ الشمس، وكان أول من استيقظ فلان ثم فلان ثم فلان، -يسميهم أبو رجاء فنسي عوفٌ- ثم عمر بن الخطاب الرابعُ، وكان النبي ﷺ إذا نام لم يُوقَظ حتى يكون هو يستيقظ؛ لأنا لا ندري ما يحدث له في نومه، فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس، -وكان رجلاً جليداً(١)-، فكبَّر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يُكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ بصوته النبيُّ ﷺ، فلما استيقظ شكوا إليه الذي أصابهم، قال: «**لا ضير، أو لا يضير، ارتحلوا**»، فارتحل، فسار غير بعيد، ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ ونُودي بالصلاة فصلى بالناس، فلما انفتَل من صلاته إذا هو برجلٍ معتزل لم يصلِ مع القوم، قال: «**ما منعكَ يا فلانُ أن تصلِّي مع القوم؟**». قال: أصابتني جنابة ولا ماء، قال: «عليك بالصعيد، فإنه يكفيك».

ثم سار النبي ﷺ فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلانًا -كان يسميه أبو رجاء نسيه عوفٌ(٢)-، ودعا عليًا، فقال: «**اذهبا فابتغيا الماء**»، فانطلقا، فتلقَّيا امرأة بين مزادتين(٣)، -أو سطيحتين- من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونَفَرُنا خلوف(٤).

قالا لها: انطلقي إذًا، قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يُقال له الصابيء، قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي، فجاءا بها إلى النبي وحدَّثاه الحديث.

---

(١) أي: صلبًا قويًا، وفي رواية لمسلم: «وكان أجوف جليدًا»، والأجوف: رفيع الصوت، كأن صوته يخرج من جوفه.

(٢) في رواية لمسلم أنه عمران بن حصين، كما ذكر الحافظ ابن حجر، الفتح: ١/ ٤٥١، ٤٥٢.

(٣) المزادة: قربة كبيرة يُزاد فيها جلد من غيرها، وتسمى سطيحة.

(٤) أي: قومنا قد تخلفوا؛ لطلب الماء.

قال: فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين -أو السَّطيحتين-، وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالي[1]، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء قال: «اذهبْ فأفرِغْه عليكَ»، وهي قائمة تنظر إلى ما يُفعل بمائها، وايمُ الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشدُّ ملأة منها حين ابتدأ فيها.

فقال النبي ﷺ: «**اجمعوا لها**»، فجمعوا لها، -من بين عجوة ودقيقة وسويقة- حتى جمعوا لها طعامًا، فجعلوها في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها، قال لها: «تعلمين مارزَئْنا[2] من مائك شيئًا ولكن الله هو الذي أسقانا».

فأتتْ أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابيء، ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه -وقالت بإصبعيها والوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض-، أو إنه لرسولُ الله حقًا، فكان المسلمون بعد ذلك يُغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرم[3] الذي هي منه، فقالت يومًا لقومها: ما أرى؟ إن هؤلاء القوم يدعونكم عمدًا[4]، فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها، فدخلوا في الإسلام.

قال أبو عبد الله: صبأ: خَرَجَ من دين إلى غيره.

وقال أبو العالية: الصابئين -وفي نسخة الصابئون-: فرقةٌ من أهل الكتاب يقرأون الزبور[5].

وأخرجه الإمام مسلم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وذكر نحوه[6].

(١) جمع عزلاء، وهي مصبُّ الماء من القربة.
(٢) أي: ما نقصْنا.
(٣) الصرم: الأبيات المجتمعة.
(٤) يعني: ما الذي أراه في أمر هؤلاء المسلمين؟ إنهم يتركون قتالكم عمدًا.
(٥) صحيح البخاري، كتاب التيمم، رقم: ٣٤٤، وبيان ألفاظ الحديث مستفاد من شرح الحافظ ابن حجر، فتح الباري: ١/ ٤٨٨- ٤٥٤.
(٦) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب قضاء الفائتة، شرح النووي: ٥/ ١٨٩- ١٩٢.

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: فيه مثل من أدب الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ؛ حيث كانوا يلزمون الصمت والهدوء إذا كان نائمًا حتى لا يوقظوه، ولقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل هذا الشعور، إلا أنه رأى ضرورة تنبيهه ﷺ للصلاة، فكان التكبير أفضل وسيلة لإيقاظ النبي ﷺ، مع الحفاظ على لزوم الأدب معه.

ثانيًا: فيه مثل من حياة الأمن الكامل والطمأنينة التامة عند المسلمين لغير الأعداء المحاربين، فالمرأة المذكورة في الخبر قد واجهت جيشًا كبيرًا، فظلَّت في حمايتهم وأمانهم، بل نالت من رفدهم وعطائهم مع أنهم لم ينقصوها شيئًا من مائها، وإذا كان الكفار يعيشون بهذه الحياة الآمنة في وسط المسلمين، فكيف بالأمن لأفراد المسلمين أنفسهم؟!

ثالثًا: في هذا الخبر مثلٌ مما يتصف به المسلمون من خُلق الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ولو بعد عهد طويل، فهذه المرأة بسبب فضلها عليهم بذلك الماء ظل قومها آمنين في بلادهم من غزو المسلمين الذين كانوا يُغيرون على من حولهم، ولقد قادهم هذا الخلق النبيل من المسلمين إلى الدخول في الإسلام استجابة لدعوة تلك المرأة التي ذكَّرتهم بفضل المسلمين عليهم.

رابعًا: يشتمل هذا الخبر على بيان معجزة عظيمة للنبي ﷺ؛ حيث نزلت البركة في ذلك الماء القليل حتى كفى جميع أفراد ذلك الجيش.

****

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ مرَّ بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي، فمرَّ وعليه حلة حمراء، فسمعته يقول: «**يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا**»، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه، وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوا هذا فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ فقيل: غلامٌ من بني عبد المطلب.

فلما أظهر الله تعالى الإسلام خرجنا من الرَّبذَة ومعنا ظعينة لنا[1] حتى نزلنا قريبًا من المدينة، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان فسلم علينا، فقال: «**من أين القوم؟**»، فقلنا: من الربذة، ومعنا جمل أحمر فقال: «**تبيعوني هذا الجمل؟**»، فقلنا: نعم، فقال: بكَمْ؟ فقلنا: بكذا وكذا صاعًا من تمر، قال: أخذته، وما استقْصَى[2]، فأخذ بخطام الجمل فذهب به حتى توارى في حيطان المدينة، فقال بعضنا لبعض: تعرفون الرجل؟ فلم يكن منّا أحد يعرفه، فلام القوم بعضهم بعضًا، فقالوا: تعطون جملكم من لا تعرفون! فقالت الظعينة: فلا تلاوموا، فقد رأينا وجه رجل لا يغدُر بكم، ما رأيت شيئًا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه.

فلما كان العشيُّ أتانا رجل، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنتم الذين جئتم من الرَّبذة؟ قلنا: نعم، قال: أنا رسولُ رسول الله ﷺ إليكم، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفَوا، فأكلنا من التمر حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا، ثم قدمنا المدينة من الغد فإذا رسول الله ﷺ قائم يخطب الناس على المنبر، فسمعته يقول: «**يدُ المعطي العُليا، وابدأ بمن تعُول، أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك**»، وثَمَّ[3] رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة ابن يربوع الذين قتلوا فلانًا في الجاهلية، فخذ لنا بثأرنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه، فقال: «**لا تجني أمٌّ على ولد، لا تجني أمٌّ على ولدٍ**».

---

(١) أي: امرأة.

(٢) أي: لم يطلب تخفيض الثمن.

(٣) أي: وكان في ذلك المكان.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه وأقرَّه الذهبي(١).

ففي هذا الخبر يبين رسول الله ﷺ عدالة الإسلام في رفع الظلم والمنع من الاعتداء على الأبرياء، وإقرار حياة الأمن، وعدم أخذ الإنسان بذنب غيره، فقد طلب ذلك الرجل الأنصاري من رسول الله ﷺ أن يمكِّن الأنصار من أخذ ثأرهم من قبيلة بني ثعلبة، فلم يجبه إلى ذلك، وبيَّن له أن الأبرياء لا يؤخذون بجريرة المعتدين.

وقوله ﷺ: «**لا تجني أم على ولد**»، تشبيه للقبيلة بالأم، أي أن ما كان من فرد من أفراد القبيلة من الاعتداء يكون مسؤولاً عنه وحده، ولا تسري الجريمة على جميع أفراد القبيلة.

وكان العرب في الجاهلية يأخذون بثأرهم من أي فرد من أفراد القبيلة المعتدية؛ فكانوا لذلك يعيشون في رُعب دائم فيما إذا اعتدى منهم أحد، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة الجاهلية الجائرة، وأبدلها بالقصاص العادل؛ حيث يؤخذ كل إنسان بذنبه ويعيش الأبرياء بطمأنينة وأمان.

****

(١) المستدرك: ٢/ ٦١١، ٦١٢.

مثل من اهتمام النبي ﷺ بالأتقياء المغمورين
(خبر جليبيب وامرأته)

أخرج الإمام أحمد بإسناده من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: أن جليبيبًا كان من الأنصار، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا كان لأحدهم أيِّمٌ لم يزوجها حتى يعلم أللنبي ﷺ فيها حاجة أم لا، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم لرجل من الأنصار: «**زوِّجني ابنتك**»، فقال: نعم ونعمة عين، فقال: «**إني لست لنفسي أريدها**»، قال: فلمن؟ قال: «**لجليبيب**»، قال: حتى أستأمر أمها، فأتاها فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك، قالت: نعم ونعمة عين، زوِّج رسول الله ﷺ، قال: إنه ليس يريدها لنفسه، قالت: فلمن؟ قال: لجليبيب، قالت: حلقَى، أجليبيب؟! -مرتين-، لا لعمر الله لا أُزوج جليبيبًا.

قال: فلما قام أبوها؛ ليأتي النبي ﷺ قالت الفتاة لأمها من خدرها: من خطبني إليكما؟ قالت: النبي ﷺ، قالت: فتردون على النبي ﷺ أمره!! ادفعوني إلى النبي ﷺ فإنه لا يضيعني، فأتى أبوها النبي ﷺ، فقال: شأنك بها، فزوَّجها جُليبيبًا.

فبينما النبي ﷺ في مغزًى له وأفاء الله -تبارك وتعالى- عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**هل تفقدون من أحد؟**» قالوا: نفقد فلانًا ونفقد فلانًا، فقال النبي ﷺ: «**لكني أفقد جليبيبًا فانظروه في القتلى**»، فنظروه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، قال: فوقف ﷺ، فقال: «**قتل سبعةً، ثم قتلوه! هذا منِّي وأنا منه**»، ثم حمله رسول الله ﷺ على ساعديه ماله سرير غير ساعدي رسول الله ﷺ حتى حفر له، ثم وضعه في لحده وما ذكر غسلاً[(١)].

وأخرج الإمام مسلم آخر الخبر المتعلِّق بالغزو[(٢)].

وقوله: «**حتى يعلم أن للنبي ﷺ حاجةً أم لا**»؛ يعني في خطبتها لمن يريد.

وقال الحافظ ابن حجر: جليبيب غير منسوب، وذكر هذا الخبر[(٣)].

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٤٢٥.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٤٧٢، كتاب فضائل الصحابة، ص: ١٩١٨.

(٣) الإصابة: ١/ ٢٤٤، رقم: ١١٧٩.

في هذا الخبر موقف عظيم لرسول الله ﷺ؛ حيث كان لا ينسى أصحابه رضي الله عنهم حتى المغمورين منهم الذين لا يُؤبه بهم إذا حضروا ولا يُفقدون إذا غابوا، فقد سأل ﷺ عمَّن استُشهد من أصحابه وكان في باله «جُليبيب» رضي الله عنه، فلما لم يذكره أصحابه؛ لعدم شهرته فيهم ذكره لهم وكلَّفهم بالبحث عنه، فلما رأى آثار بذله طاقته وتضحيته بنفسه في سبيل الله تعالى أثنى عليه بذلك الثناء العظيم؛ حيث حكم له بالاستقامة التامة على منهجه وأعلن الرضى عنه، وقبل ذلك اهتم بالخِطبة له.

أما جليبيب: فإن هذا الخبر يدل على شجاعته واستبساله في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

وأما زوجته: فإن هذا الخبر يدل على تقواها وصلاحها؛ حيث آثرت رضا النبي ﷺ واختياره، ولم تلتفت إلى ما بينها وبين جُليبيب من فارق النَّسب، بل رضيت بما رضي لها رسول الله ﷺ من كفاءة الدِّين.

****

موقف في الثبات والتضحية
(خبر حبيب بن زيد الأنصاري)

ذكر المؤرخ ابن الأثير في ترجمته أن رسول الله ﷺ أرسله إلى مسيلمة الكذّاب الحنفي صاحب اليمامة، فكان مسيلمة إذا قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمع، ففعل ذلك مرارًا، فقطّعه مسيلمة عضواً عضواً، فمات شهيدًا رضي الله عنه[1].

فهذا مثلٌ عالٍ في الثبات على الشدائد والتضحية بالنفس في سبيل الله تعالى، فلقد كان بإمكان حبيبٍ بن زيد رضي الله عنه أن يسلك طريق التُّقية؛ لينقذ نفسه من التعذيب والقتل، فإنه من المعلوم أن المسلم في مواجهة الإكراه على الكفر مخيَّر بين أمرين، الأول: أن يثبت على إظهار الإسلام وأن يرفض النطق بالكفر وإن أوْصله ذلك إلى التعذيب أو القتل، وهذا هو الأفضل، وقد سار على ذلك بلال بن رباح رضي الله عنه.

والثاني: أن يتظاهر بالكفر من باب التُّقية؛ لينقذ نفسه من التعذيب أو القتل، وقد سار على ذلك عمَّارُ بن ياسر -رضي الله عنهما-، وأقرَّه النبي ﷺ على ذلك، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٦].

ولا شك أن الإقرار بأن مسيلمة رسولٌ من الله فيه خطورة؛ حيث سيترتب عليه إضلالُ بني حنيفة؛ ولهذا فإنه قد يكون الخيار الأول متعيّنًا في تلك الحال وما يماثلها، ولقد اختار حبيب بن زيد طريق الفضل والكمال حينما باع نفسه لله تعالى.

ولقد كان مسيلمة عنيفًا جبَّارًا شاذًا في سلوكه؛ حيث خالف جميع القوانين والأعراف السياسية المعروفة عند الدُّول والقبائل، من أنَّ الرسل لا تُقتل، وإمعانًا منه في الجبروت والطغيان فإنه قطَّع جسد حبيب بن زيد عضواً عضواً؛ ليحصل منه على الاعتراف بنبوته ولو بهذه الطريقة العنيفة الشاذَّة، ولكن آماله تحطَّمت أمام ثبات حبيب الراسخ على دينه، واستهانته البالغة بما دعاه إليه مسيلمة الكذاب.

---

(١) أسد الغابة: ١/ ٣٧٠، وقد ذكر أن حبيب بن زيد من بني مازن بن النجار من الخزرج رضي الله عنه.

كانت ولاية اليمن في عهد النبي ﷺ للأبناء وهم أبناء الفرس الذين قدموا؛ لنصرة سيف بن ذي يزْن على أُمراء الحبشة الذين سيطروا على اليمن، وكان عاملَ كسرى على اليمن آنذاك، «باذام»، ذكر ذلك الحافظ ابن كثير، وذكر أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، وأن كسرى مزّق الكتاب وكتب إلى «باذام»: أما بعد، فإذا جاءك كتابي فابعث من قبَلك أميرين إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب الذي يزعم أنه نبي، فابعثه إليَّ في جامعة[1]، فلما جاء الكتاب إلى باذام بعث من عنده أميرين عاقلين قال: اذهبا إلى هذا الرجل فانظرا ما هو؛ فإن كان كاذبًا فخُذاه في جامعة حتى تذهبا به إلى كسرى، وإن كان غير ذلك فارجعا إليَّ فأخبراني ما هو حتى أنظر في أمره، فقدما على رسول الله ﷺ إلى المدينة، فوجداه على أسدِّ الأحوال وأرشدها[2]، ورأيَا منه أمورًا عجيبة يطول ذكرها، ومكثَا عنده شهرًا حتى بلَّغا ما جاءا له، ثم تقاضياه الجواب بعد ذلك، فقال لهما: «**ارجعَا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربِّي قتل الليلة ربَّه**»، فأرَّخا ذلك عندهما، ثم رجعا سريعًا إلى اليمن فأخبرا باذام بما قال لهما، فقال: أحْصُوا تلك الليلة، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبيٌّ، فجاءت الكتب من عند ملكهم أنه قد قُتل كسرى في ليلة كذا وكذا، لتلك الليلة.

وقام بالمُلك بعده ولده يزدجرد وكتب إلى باذام: أنْ خذ لي البيعة من قبلك، واعْمد إلى ذلك الرجل فلا تُهنه وأكرمه، فدخل الإسلام في قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن، وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، فبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها، فلم يعزله عنها حتى مات، فلما مات استناب ابنه شهر بن باذام على صنعاء وبعض مخاليف[3]، وبعث طائفة من أصحابه نُوَّابًا على مخاليف أخر، فبعث أولاً في سنة عشر عليًّا وخالدًا، ثم أرسل معاذًا وأبا موسى الأشعري وفرَّق عمالة اليمن بين جماعة من الصحابة، وبعث معاذ بن جبل معلمًا لأهل البلدين -اليمن وحضرَموت-،

(١) أي: في قيد.

(٢) أسدُّ الأحوال: من السداد، وهو الرأي المصيب والحال الحَسن.

(٣) أي: بعض الأقاليم.

يتنقَّل من بلد إلى بلد، قال: ذكره سيف بن عمر، وذلك كله في سنة عشر، آخر حياة رسول الله ﷺ[1].

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: ما كان من عامل كسرى على اليمن «باذام الديلمي» من الإسراع إلى الدخول في الإسلام لما تبين له أنه دين الحق بدون أن يدخل مع المسلمين في حرب ولا تعرض لتهديد بذلك، وهذا يدل على تجرده من هوى النفس المنحرف، ولقد كان إسلامه سببًا في اتجاه كثير من أهل اليمين إلى الإسلام.

ثانيًا: في هذا الخبر عبرةٌ عظيمة؛ وذلك في إخبار النبي ﷺ الرجلين المبعوثين من باذام بأن الله تعالى قد أهلك كسرى تلك الليلة، فكان الأمر كما أخبر به، وهذه معجزة بالغة، وبسببها كان إسلام أمير اليمن باذام.

ثالثًا: مواقف للصحابة رضي الله عنهم في نشر الإسلام في اليمن، ومنهم علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري، وقد كان لمعاذ أثرٌ كبير في الدعوة والتعليم والتربية؛ حيث لم يبق في مكان واحد، وإنما كان يتنقل بين أقاليم اليمن وحضْرَموْت.

****

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣١٠، ٣١١.

مواقف فدائية
(القضاء على الأسْود العنسي)

في أواخر حياة النبي ﷺ خرج عبهلة بن كعب، المعروف بالأسود العنسي في اليمن وادَّعى النبوة، وكان مخرجه من بلدة «كهف حنان» في سبعمائة مقاتل، وكتب إلى عمَّال النبي ﷺ: أيها المتمردُّون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفِّروا ما جمعتم فنحن أولى به، ثم توجه إلى نجران فأخذها بعد عشر ليال، ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذام(١) فتقاتلا، فغلبه الأسود وقتله وكسر جيشه من الأبناء واحتلَّ صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه.

وخرج معاذ بن جبل ومرَّ بأبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما-، فذهبا إلى حضرموت، وانحاز عمال النبي ﷺ إلى الطاهر بن أبي هالة، ورجع عمرو بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي(٢).

وقد أخرج الإمام ابن جرير الطبري بإسناده عن جُشَيْش بن الديلمي قال: قدم علينا وبرُ بن يُحَنَّس بكتاب النبي ﷺ يأمرنا فيه بالقيام على ديننا، والنهوض في الحَرب، والعمل في الأسْوَد: إمَّا غيلة وإما مصادمة، وأن نبلِّغ من رأينا أن عنده نجدة ودينًا، فعملنا في ذلك، فرأينا أمرًا كثيفًا، ورأيناه في تغير لقيس بن عبد يغوث -وكان على جنده-، فقلنا: يخاف على دمه فهو لأول دعوة، فدعوناه وأنبأناه الشأن، وأبلغناه عن النبي ﷺ، فكأنما وقعنا عليه من السماء، وكان في غمٍّ وضيق بأمره، فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك، وجاءنا وبر بن يحنس، وكاتَبْنا الناس ودعوناهم، وأخبره الشيطان بشيء(٣)، فأرسل إلى قيس وقال: يا قيس، ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول عَمدت إلى قيس فأكرمته، حتى إذا دخل منك كل مدخل، وصار في العزِّ مثلَك، مال ميل عدوك، وحاول ملكك وأضمر على الغدر! إنه يقول: يا أسود يا أسود! يا سوءة ياسوءة! اقطف قُنَّته، وخذ من قيس أعلاه، وإلا سلبك أو قطف قُنَّتَك، فقال قيس -

---

(١) هو أحد عمال النبي ﷺ على اليمن.

(٢) البداية والنهاية: ٦/ ٣١٢.

(٣) أي: أخبرَ الأسودَ شيطانُه، وكان معه شيطانٌ من الجن.

وحلف به- : كذب وذي الخمار(١)، لأنت أعظمُ في نفسي وأجلُّ عندي من أن أحدِّث بك نفسي، فقال: ما أجفاك! أتكذب المَلكَ! قد صدق الملك، وعرفت الآن أنك تائبٌ مما اطَّلع عليه منك.

ثم خرج فأتانا، قال: يا جُشَيْش، ويا فَيروز، ويادَاذَوَيه، إنه قد قال، وقلت، فما الرأيُ؟ فقلنا: نحن على حذر، فإنَّا في ذلك، إذ أرسل إلينا، فقال: ألم أشرِّفكم على قومكم، ألم يبلغني عنكم!، فقلنا: أقلْنا مرَّتنا هذه، فقال: لا يبلغني عنكم فأقتلكم، فنجونا ولم نكَدْ، وهو في ارتياب من أمرنا وأمر قيس، ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم؛ إذ جاءنا اعتراض عامر بن شهر وذي زود وذي مران وذي الكلاع وذي ظُلَيم عليه، وكاتبونا وبذلوا لنا النصر، وكاتبناهم وأمرنا ألا يحركوا شيئًا حتى نبرم الأمر، - وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتاب النبي ﷺ، وكتب النبي ﷺ إلى أهل نجران، إلى عربهم وساكني الأرض من غير العرب، فثبتوا فتنحَّوا وانضموا إلى مكان واحد- وبلغه ذلك(٢)، وأحسَّ بالهلاك.

وفَرَق لنا الرأيُ(٣)، فدخلتُ على آذاد، وهي امرأته، فقلت: يا ابنة عم، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك؛ قتلَ زوجك، وطأطأ في قومك القتل(٤)، وسفل بمن بقي منهم، وفضح النساء، فهل عندك من ممالأة عليه! فقالت: على أي أمره؟ قلت: إخراجه، قالت: أو قتله، قلت: أو قتله، قالت: نعم، والله ما خلق الله شخصًا أبغض إليَّ منه، ما يقوم لله على حق، ولا ينتهي له عن حُرمة، فإذا عزمتم فأعلموني أخبركم بمأتَى هذا الأمر، فأخرجُ فإذا فيروز وداذويه ينتظراني، وجاء قيس ونحن نريد أن نناهضه، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا: المَلك يدعوك، فدخل في عشرة من مَذْحج وهَمْدان، فلم يقدر على قتله معهم.

إلى أن قال: فأرسلنا إلى قيس، فجاءنا، فأجمع ملؤهم أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا؛ لتخبرنا بما تأمر، فأتيتُ المرأة وقلت: ما عندك؟ فقالت: هو متحرِّز متحرِّس، وليس من القصْر شيء إلا والحرسُ محيطون به غير هذا البيت، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه، فإنكم من دون الحرس، وليس دون قتله

(١) هذا لقب الأسود العنْسي.
(٢) أي: بلغ الأسود العنسي.
(٣) أي: ظهر واتضح.
(٤) أي: أسرع فيهم بالقتل.

شيء، وقالت: إنكم ستجدون فيه سراجًا وسلاحًا، فخرجتُ فتلقَّاني الأسود خارجًا من بعض منازله، فقال لي، ما أدخلك عليَّ؟ ووجأ رأسي حتى سقطتُ -وكان شديدًا- وصاحت المرأة فأدهشته عنِّي، ولولا ذلك لقتلني، وقالت: ابن عمتي جاءني زائرًا، فقصَّرْتَ بي! فقال: اسكتي لا أبالك، فقد وهبته لك! فتزايلتْ عني.

فأتيت أصحابي فقلت: النَّجاء! الهرب! وأخبرتهم الخبر، فإنا على ذلك حيَارى؛ إذ جاءني رسولُها: لا تدعَنَّ ما فارقتُك عليه، فإني لم أزل به حتى اطمأنَّ. فقلنا لفيروز: ائتها فتثبتْ منها، فأما أنا فلا سبيل لي إلى الدخول بعد النهي، ففعل، وإذا هو كان أفطن مني، فلما أخبرتُه قال[1]: وكيف ينبغي لنا أن ننقُب على بيوت مبطنة! ينبغي لنا أن نقلع بطانة البيت، فدخلا فاقتلعا البطانة، ثم أغلقاه، وجلس عندها كالزائر، فدخل عليها الأسود فاستخفَّتْه غَيْرة، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم، فصاح به وأخرجه.

وجاءنا بالخبر، فلما أمسينا عملنا في أمرنا، وقد واطأنا أشياعُنا، وعجلنا عن مراسة الهمدانيِّين والحِمْيريِّين، فنقبنا البيت من خارج، ثم دخلنا وفيه سراج تحت جفنة، واتقينا بفيروز -وكان أنجدنا وأشدنا- فقلنا: انظر ماذا ترى! فخرج ونحن بينه وبين الحرس معه في مقصورة، فلما دنا من باب البيت سمع غطيطًا شديدًا، وإذا المرأة جالسة، فلما قام على الباب أجلسه الشَّيْطان فكلَّمه على لسانه، وإنه ليغُطُّ جالسًا، وقال أيضًا: مالي ولك يا فيروز! فخشيَ إن رجع أن يهلك وتهلك المرأة، فعاجله فخالطه وهو مثل الجمل، فأخذ برأسه فقتله، فدقَّ عنقه، ووضع ركبته في ظهره فدقه، ثم قام ليخرج، فأخذت المرأة بثوبه وهي ترى أنه لم يقتله، فقالت: أين تدعُني! قال: أُخبر أصحابي بمقتله، فأتانا فقمنا معه، فأردنا حزَّ رأسه، فحرَّكه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه، فقلت: اجلسوا على صدره، فجلس اثنان على صدره، وأخذت المرأة بشعره، وسمعنا بربرةً[2]، فألجمتُه بمئلاة[3]، وأمرَّ الشفرة على حلْقه فخار كأشدِّ خوار ثور سمعته قط، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا، ما هذا! فقالت المرأة: النبيُّ يوحى إليه! فخمد.

---

(١) جاء في تاريخ الطبري: «قالت»، وهو غير منسجم مع سياق الكلام، والصواب: «قال»، كما جاء في الكامل، لابن الأثير: ٣/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) البربرة: الصياح.

(٣) المئلاة: الخرقة التي تمسكها المرأة عند النوح تشير بها.

ثم سمرنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبرُ أشياعنا، وليس غيرنا ثلاثتنا؛ فيروز وداذويه وقيس[١]، فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا وبين أشياعنا، ثم يُنادى بالأذان، فلما طلع الفجر نادى داذويه بالشِّعار، ففزع المسلمون والكافرون، وتجمع الحرس فأحاطوا بنا، ثم ناديت بالأذان، وتوافت خيولُهم إلى الحرس، فناديتهم: أشهدُ أنَّ محمدًا رسول الله، وأن عَبْهلة كذَّاب! وألقينا إليهم رأسه، فأقام وَبَر الصلاة[٢]، وشنَّها القوم غارةً، ونادينا: يا أهل صنعاء، من دخل عليه داخل فتعلقوا به، ومن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به، ونادينا بمن في الطريق: تعلَّقوا بمن استطعتم! فاختطفوا صبيانًا كثيرين، وانتهبوا ما انتهبوا، ثم مضوا خارجين، فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارسًا ركبانًا، وإذا أهل الدور والطُّرق وقد وافونا بهم، وفقدنا سبعمائة عَيِّل فراسلونا وراسلناهم أن يتركُوا لنا ما في أيديهم، ونترك لهم ما في أيدينا، ففعلوا فخرجوا لم يظفروا منا بشيء، فتردَّدوا فيما بين صنعاء ونجران، وخلصت صنعاء والجَنَد، وأعزَّ الله الإسلام وأهله، وتنافسنا الإمارة، وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم، فاصطلحنا على معاذ بن جبل، فكان يصلي بنا، وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، وذلك في حياة النبي ﷺ، فأتاه الخبر من ليلته، وقدمت رُسُلنا، وقد مات النبي ﷺ صبيحة تلك الليلة، فأجابنا أبو بكر رحمه الله.

وأخرج الإمام الطبري من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: أتى الخبر النبي ﷺ من السماء الليلة التي قتل فيها العَنْسيُّ؛ ليبشرنا، فقال: «**قُتل العنسي البارحة، قتله رجلٌ مباركٌ من أهل بيت مباركين**»، قيل: ومن هو؟ قال: «**فيروزُ، فازَ فيروز!**».

وأخرج أيضًا من حديث فيروز الديلمي قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا كما كان، إلا أنا أرسلنا إلى معاذ، فتراضينا عليه، فكان يصلِّي بنا في صنعاء، فوالله ما صلى بنا إلا ثلاثة ونحن راجون مؤمِّلون، لم يبق شيء نكرهه إلا ما كان من تلك الخيول التي تردَّد بيننا وبين نجران، حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيرًا مما كنَّا نعرف، واضطربت الأرض[٣].

---

(١) يعني: إضافة إلى راوي الخبر جُشيش الديلمي.

(٢) يعني: وبر بن يحنس الأزدي الذي قدم بكتاب النبي ﷺ.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣١- ٢٣٦، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام الطبري، البداية والنهاية: ٦/ ٣١٢-٣١٤.

في هذا الخبر مواقف وعبر، منها:

أولاً: ما جرى من هؤلاء الذين استجابوا لدعوة النبي ﷺ في محاربة الأسود العنسي والقضاء عليه مع خطورة هذا الأمر، ومنهم جُشَيش وفيروز وداذويه وآذاد امرأة شهر بن باذام، وهم من أبناء الفرس، وقيس بن عبد يغوث الذي كان قائد جند الأسود العنسي، وأهل نجران الذين ثبتوا واجتمعوا استعداداً لحرب الأسود العنسي.

وقد تبين من الخبر التخطيط المحكم الذي دبَّره فيروز الديلمي ومن معه لقتل الأسود، ويظهر في هذا العمل شجاعة فيروز وجسارته؛ حيث أقدم على قتل رجل يحرسه شيطانه، وقد حاز بذلك ثناء النبي ﷺ عليه، كما يبرز دور آذاد امرأة شهر؛ حيث شجعت على هذا الأمر ودبَّرت الخطة لدخول فيروز وأصحابه.

ثانيًا: في هذا الخبر عبرة جليلة؛ وذلك بوصول خبر مقتل الأسود العنسي إلى رسول الله ﷺ ليلة مقتله عن طريق الوحي، وهذه معجزة له ﷺ حصل بها اطمئنانه على زوال فتنة ذلك المتنبئ الكذاب قبل أن يفارق الحياة.

ثالثًا: دور معاذ بن جبل رضي الله عنه الكبير في جمع الشمل والإصلاح بين الإخوة الذين تنافسوا على الإمارة؛ حيث وجدوا أنه أصلح رجل لتولي أمر المسلمين في اليمن؛ لكونه صحابيًا، ولما يتمتَّع به من العلم الراسخ والعقل الوافر والرأي السديد والخلق الحسن، وبهذا دفع الله به ما يحتمل أن يكون من فتنة بين زعماء المسلمين في اليمن.

****

المصادر والمراجع

١- البداية والنهاية: للحافظ أبي الفداء ابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- الخصائص الكبرى: للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. محمد خليل الهراس، دار الكتب العلمية، القاهرة.

٣- دلائل النبوة: للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤- دلائل النبوة: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، عالم الكتب، بيروت.

٥- ديوان الحماسة: لأبي تمَّام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، المجلس العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٦- الروض الأُنف في شرح سيرة ابن هشام: للمؤرخ عبد الرحمن السهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٧- زاد المعاد من هدي خير العباد: للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي: «ابن قيم الجوزية»، تحقيق: شعيب، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية.

٨- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلى معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩- سنن الترمذي: للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة الإسلامية.

١٠- سنن أبي داود: للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: عزت عبيد الدعَّاس، الناشر: محمد على السيد، حمص.

١١- سنن الدارمي: للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فؤاد زمرلي وخالد العلمي، دار الريان، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٢- سنن ابن ماجه: للحافظ محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

١٣- سنن النسائي بشرح السيوطي والسندي: المكتبة التجارية الكبرى في مصر.

١٤- سيرة ابن إسحاق: كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، لمحمد بن إسحاق المدني، تحقيق: محمد حميد الله.

١٥- السيرة النبوية: لأبي محمد عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق: د. محمد خليل الهراس، مكتبة الجمهورية، مصر.

١٦- شرح صحيح مسلم: للإمام يحيى بن شرف النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها.

١٧- شرح المواهب اللدنية: لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار المعرفة، بيروت.

١٨- شمائل الرسول ﷺ: للحافظ ابن كثير، دار القبلة، جدة ومؤسسة علوم القرآن، بيروت.

١٩- صحيح البخاري: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري مع شرحه فتح الباري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة.

٢٠- صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

٢١- عيون الأثر في فنون المغازي والسِّير: للحافظ ابن أبي الفتح محمد بن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت.

٢٢- فقه السيرة: للشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٢٣- القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٥- مختصر الشمائل المحمدية : للحافظ أبي عيسى الترمذي ، اختصار وتحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتبة الإسلامية ، عمان .

٢٦- معجم البلدان : لشهاب الدين ياقوت الحموي ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت .

٢٧- معجم معالم الحجاز : لعاتق بن غيث البلادي ، دار مكة للنشر والتوزيع .

٢٨- المغازي : لمحمد بن عمرو الواقدي ، تحقيق : د . مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت .

٢٩- المنافقون في القرآن الكريم : د . عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ، دار المجتمع ، جدة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مواقف وعبر في غزوة أُحُد	٥
اجتماع قريش وأحلافهم على غزو المسلمين	٧
بعث الحُباب بن المنذر لمعرفة جيش المشركين	٩
موقف ثبات لسلمة بن سلامة بن وقش	١١
مواقف إيمانية فدائية (خبر رؤيا رسول الله ﷺ)	١٢
خروج النبي ﷺ إلى أُحد	١٨
موجز في تلخيص أحداث المعركة	٢٦
مثل من الحرص على الشهادة (عمر بن الخطاب وأخوه زيد)	٤١
موقف إيماني جليل (الأنصار يردون عرض أبي سفيان)	٤٢
مثل من الأماني السامية (خبر عبد الله بن جحش)	٤٣
مواقف قيادية وبطولية (رسول الله ﷺ يعطي سيفه أبا دجانة)	٤٤
موقف للأنصار في البراءة من الكفار (الأوس يردون على أبي عامر)	٤٧
مواقف جهادية لعدد من الصحابة	٤٨
موقف لأبي بكر في الولاء والبراء	٤٩
مثل من شجاعة الحُباب بن المنذر	٥٠
أخبار عمرو بن الجموح واليمان وثابت بن وقش	٥١
موقف جهادي لعاصم بن ثابت	٥٤
مثل من أثر الجهاد في الإيمان (إسلام الأصيرم وجهاده)	٥٥
إسلام مخيريق وجهاده	٥٧
مثل من تعظيم الشهادة والشوق إليها (خبر حنظلة الغسيل)	٥٩
موقف جليل في ثبات عبد الله بن جبير وأصحابه	٦٢
ثبات النبي ﷺ العظيم	٦٤
مواقف من جهاد حمزة واستشهاده	٦٦

من مواقف النساء الجهادية (أخبار أم عمارة) ٧٢
موقف جهادي لوهب المزني وابن أخيه ٧٧
موقف جهادي للحارث بن الصمة وأبي دجانة ٨٠
موقف جهادي لطلحة وعدد من الصحابة ٨٢
ضرار بن الخطاب يصف شجاعة الأنصار ٨٦
مثل من شجاعة النبي ﷺ ومعجزة ظاهرة (مقتل أُبي بن خلف) ٨٨
من مواقف سعد بن أبي وقاص الجهادية ٩٠
موقف جهادي لأبي طلحة ٩٣
موقف جهادي لعمارة بن زياد وعدد من الأنصار ٩٥
موقف لسهل بن حنيف ٩٦
موقف لشماس بن عثمان المخزومي ٩٧
مواقف جهادية لأبي دُجانة ٩٨
موقف في الثبات والتضحية من سعد بن الربيع ١٠٠
موقف ثبات لثابت بن الدحداحة وجماعة من الأنصار ١٠١
مواقف لثلاثة من الأنصار في الثبات ١٠٢
مواقف جهادية لعمر بن الخطاب وبعض المهاجرين ١٠٣
موقف ثبات وتضحية لأنس بن النضر ١٠٤
حوار أبي سفيان ومواقف للمسلمين ١٠٥
مواقف لرسول الله ﷺ في عودتهم إلى المدينة ١٠٧
مواقف لبعض النساء ١٠٩
مثل رفيع من خلق الوفاء (هذا جبلٌ يُحبُنا ونُحبه) ١١٢
من مواقف شعراء المسلمين ١١٣
مواقف وعبر بين أُحد والخندق ١٢١
مواقف الصحابة بعد أحد في الرد على المنافقين واليهود ١٢٣
مواقف لرسول ﷺ وأصحابه في غزوة حمراء الأسد ١٢٥
مثل من نفاق ابن أُبي ومواقف لبعض الأنصار ١٣٠

مواقف في سرية أبي سلمة إلى بني أسد ١٣٢
سياسة حازمة وفدائية نادرة (خبر ابن أنيس مع خالد الهذلي) ١٣٦
مواقف في سرية الرجيع ١٤٠
مواقف في سرية بئر معونة ١٥٠
مواقف في إجلاء بني النضير ١٥٦
مواقف في التوكل على الله والشجاعة والعفو والصبر (غزوة ذات الرقاع) ... ١٥٩
مواقف في غزوة بدر الموعد ١٦٢
مواقف في غزوة دومة الجندل ١٦٧
مواقف في غزوة المريسيع ١٦٩
حدثان مهمان في هذه الغزوة ١٧٦
أ- دعوة إلى العصبية ومواجهة حكيمة ١٧٦
ب- حديث الإفك وما فيه من المواقف والعبر ١٨١
مواقف وعبر في غزوة الخندق ١٩١
تحزب الأحزاب ضد المسلمين ١٩٣
حفر الخندق وما جرى فيه من مواقف وعبر ١٩٦
غدر يهود بني قريظة ومواقف للصحابة ٢٠٤
مواقف في خبر المفاوضة مع غطفان ٢٠٩
صور من العركة ومواقف لرسول الله ﷺ وأصحابه ٢١٢
إصابة سعد بن معاذ ٢٢١
موقف نُعيم بن مسعود في تفريق الأحزاب ٢٢٣
موقف لحذيفة ووصف لوضع المسلمين ٢٢٦
نماذج من مواقف شعراء الصحابة ٢٣٠
مواقف غـزوة بني قريظة ٢٣٣
حصار بني قريظة ٢٣٥
مثل من الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح (أبو لبابة وإفشاء السر الحربي) ٢٤١
مثل من الجرأة في قول الحق (سعد بن معاذ يحكم في بني قريظة) ٢٤٤

مواقف وعبر ما بين قـريظة إلى نهاية الحديبية ٢٤٩
مغامرة فدائية (قتل ابن أبي الحقيق اليهودي) ٢٥١
مواقف في سرية دومة الجندل ٢٥٥
سرية بني سعد بفدك ٢٥٨
مواقف في سرية بني فزارة ٢٦٠
مواقف في الصبر والسخاء (سرية العنبر) ٢٦٢
مواقف وعبر في صلح الحديبية ٢٦٥
مواقف وعبر في صلح الحديبية وفتح خيبر ٢٧٧
مواقف جهادية في خبر أبي بصير ٢٧٩
مغامرة جريئة وتضحية خالدة (غزوة ذات القرَد) ٢٨٢
مواقف وعبر في غـزوة خيبر ٢٨٩
الخروج إلى خيبر وأخبار بعض الفقراء ٢٩١
مثل من اللجوء إلى الله تعالى وتعظيم شعائر الإسلام (الوصول إلى خيبر) .. ٢٩٣
مثل من حصانة الصحابة في الحروب النفسية (إرجاف اليهود بالمسلمين) ٢٩٥
موقف حزم وخبرة من عباد بن بشر ٢٩٦
بدء القتال وفتح حصن النَّطاة ٢٩٨
إسلام يسار الحبشي ٢٩٩
فتح حصن ناعم وموقف لعلي بن أبي طالب ٣٠٠
فتح حصن الصعب بن معاذ ٣٠٣
فتح حصن قلعة الزبير ٣١٠
فتح حصن أبَي ٣١٢
فتح حصون الكتيبة والوطيح والسلالم ٣١٣
مثل من تواضع النبي ﷺ (خبره مع صفية بنت حُيي) ٣١٥
مثل من قوة الإيمان (خبر الأعرابي المجاهد) ٣١٨
مواقف وعبر بين خـيبر ومؤتة ٣١٩
فتح فدك وموقف لمحيِّصة بن مسعود، وموقف آخر لعبد الله بن رواحة ٣٢١

فتح وادي القرى وتيماء ٣٢٤
مثل من سماحة النبي ﷺ وإعزاز دولة الإسلام (سرية إلى رعية السحيمي) .. ٣٢٦
سريتان إلى فروع من قبيلة هوازن ٣٢٨
سريتا بشير بن سعد وغالب الليثي إلى بني مرَّة بفدك ٣٣٠
سرية غالب الليثي إلى الميْفَعة ٣٣٢
سرية بشير بن سعد إلى الجناب ٣٣٤
عمرة القضاء ٣٣٦
إسلام عمرو بن العاص ٣٣٩
إسلام خالد بن الوليد ٣٤٢
سرية غالب الليثي إلى بني الملوَّح ٣٤٦
سرية شجاع بن وهب إلى السِّيِّ ٣٤٩
سرية قطبة بن عامر إلى خثعم ٣٥٠
مواقف وعبر في سرية مؤتة ٣٥١
سبب غزوة مؤتة ٣٥٣
وقفات إيمانية من عبد الله بن رواحة ٣٥٥
خروج المسلمين ووصولهم ومشورتهم ٣٥٧
ابتداء المعركة ومواقف للقادة الثلاثة ٣٦١
موقفان لثابت بن أرقم ٣٦٥
نهاية المعركة وموقف لخالد بن الوليد ٣٦٦
موقف إداري لرسول الله ﷺ ٣٦٩
مواقف وعبر في سرية ذات السلاسل ٣٧١
مثل من إخلاص عمرو بن العاص ٣٧٣
موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص ٣٧٤
خبر رافع الطائي مع أبي بكر ٣٧٦
خبر عوف بن مالك مع أبي بكر وعمر ٣٧٨
موقف قائد السرية وأصحابه في جهاد الأعداء ٣٧٩

مواقف وعبـر بين ذات السلاسل وفتح مكة ٣٨١
مـثل من الفـدائيـة ونصر الله تعـالى أوليـاءه (سـرية ابن أبي حدْرَدْ إلى رفاعـة الجُشمي) ٣٨٣
مثل من المعاملة الكريمة في الدعوة (أسر ثمامة بن أثال وإسلامه) ٣٨٦
إسلام أبي العاص بن الربيع ٣٨٨
مواقف وعبر في فتح مكة ٣٩١
سبب مسير الجيش الإسلامي إلى مكة ٣٩٣
وفد خزاعة إلى النبي ﷺ ٣٩٤
إيذان قريش بالحرب ٣٩٦
موقف جهادي لحسان بن ثابت ٣٩٧
سفارة أبي سفيان ومواقف للصحابة ٣٩٩
أمر النبي ﷺ بالتجهز ٤٠١
موقف تربوي للنبي ﷺ (خبر حاطب بن أبي بلتعة) ٤٠٣
موقف لرسول الله ﷺ ولأبي بكر ٤٠٦
مثل من رحمة النبي ﷺ (إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية). ٤٠٧
مثل من التخطيط الحربي الدقيق ٤٠٩
مثل من رحمة النبي ﷺ بالحيوان ٤١٠
مثل من حزم الصحابة ودقة رصدهم ٤١١
خبر مسيرة النبي ﷺ إلى مكة ٤١٣
أمثلة من تواضع النبي ﷺ ٤١٦
دخول المسلمين مكة ٤١٩
مثل من أمانة النبي ﷺ ووفائه (رد مفتاح الكعبة لبني شيبة) ٤٢٢
مثل من إعزاز الإسلام والمسلمين (أذان بلال في الكعبة) ٤٢٥
مثل من وفاء النبي ﷺ (إشفاق الأنصار من بقاء النبي ﷺ بمكة) ٤٢٧
تحطيم الأصنام في مكة وخارجها ٤٢٨
مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه ودعوته (خبر فضالة بن عمير وإسلامه) ٤٣٢

مواقف عالية لرسول الله ﷺ في الدعوة ٤٣٤
١- إسلام سهيل بن عمرو ٤٣٤
٢- إسلام صفوان بن أمية ٤٣٦
٣- إسلام عكرمة بن أبي جهل ٤٣٩
٤- إسلام هبَّار بن الأسود ٤٤٣
٥- موقف لهند بنت عتبة ٤٤٤
اهتمام النبي ﷺ بإقرار العدالة (خبر المخزومية التي سرقت) ٤٤٥
مواقف وعبر في غزوة حُنين وحصار الطائف ٤٤٧
اجتماع الأعداء من هوازن وأحلافها ٤٤٩
عبرة فيما أصاب جواسيس المشركين ٤٥١
موقف لابن أبي حدْرد السُّلمي ٤٥٢
موقف لأنيس الغنوي ٤٥٣
ابتداء المعركة والمفاجأة، ومثل من شجاعة النبي ﷺ ٤٥٤
موقفان جهاديان لعلي وأبي دجانة ٤٦٠
موقف جهادي لأبي قتادة ودفاع من أبي بكر ٤٦١
مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه (خبر شيبة بن عثمان الحجبي) ٤٦٢
بعث أبي عامر إلى المنهزمين في أوطاس ٤٦٤
مواقف جهادية في حصار الطائف ٤٦٦
نماذج من عدالة النبي ﷺ وورعه ٤٦٩
مثل من وفاء النبي ﷺ ٤٧١
مثل من رحمة النبي ﷺ ٤٧٣
نماذج من منهج النبي ﷺ في الدعوة ٤٧٤
مثل من أخلاق النبي ﷺ وورع الصحابة ٤٧٦
أمثلة من أخلاق النبي ﷺ وأصحابه (وفادة هوازن وإطلاق الأسرى) ٤٧٨
نموذج من دعوة النبي ﷺ وسياسته العالية (إسلام مالك بن عوف) ٤٨٢
مثل من مقدرة النبي ﷺ على الإقناع (خبر شكوى الأنصار) ٤٨٧

مثل من أثر الجهاد في الدعوة وتصحيح الاعتقاد ٤٩٠
مواقف وعبر ما بين حُنين وتبوك ٤٩١
إسلام كعب بن زهير ٤٩٣
مثل من الفداء والتضحية في سبيل الدعوة (إسلام عروة بن مسعود) ٤٩٦
سرية علي بن أبي طالب؛ لهدم صنم الفُلس في طيء ٥٠٠
نموذج من دعوة النبي ﷺ الحكيمة (إسلام عدي بن حاتم) ٥٠٤
مثلان من هدي النبي ﷺ في إكرام الكرماء (وفادة جرير البجلي، ووائل بن حُجْر) ٥٠٩
سرية جرير بن عبد الله إلى ذي الخلصة ٥١١
مواقف وعبر في غزوة تبوك ٥١٣
سبب غزوة تبوك وتجهيز الجيش لذلك ٥١٥
مواقف عالية للصحابة في الإنفاق ٥١٦
موقف لعبد الله بن الجد بن قيس (امتناع الجد بن قيس من الخروج) ٥٢١
مثل من رغبة الصحابة في الجهاد مع عذرهم بالفقر ٥٢٣
مثل من الشوق البالغ إلى الجهاد (خبر البكائين) ٥٢٤
موقف لعُلبة بن زيد بن حارثة ٥٢٥
صبر الصحابة على الشدائد ومعجزة لرسول الله ﷺ ٥٢٦
مثل من انتصار الإيمان على هوى النفس (خبر أبي خيثمة) ٥٢٧
مثل من قوة الإيمان وتحمل الشدائد (خبر أبي ذر الغفاري) ٥٢٩
معجزة لرسول الله ﷺ ومثل من قسوة المنافقين ٥٣١
مثل من صبر رسول الله ﷺ على المنافقين (خبر زيد بن اللصيْت) ٥٣٣
معجزة لرسول الله ﷺ، وموقف سيئ للمنافقين ٥٣٤
إسلام ذي البجادين وجهاده ٥٣٥
سرية خالد بن الوليد إلى أُكَيدر دومة ٥٣٧
موقف لرسول الله ﷺ في الحزم مع الكفار (أصحاب مسجد الضرار) ٥٤٠
مواقف إيمانية وتربوية (خبر كعب بن مالك وصاحبيه) ٥٤٣

مواقف وعبر فيـما بعد تبوك ٥٥٣
مثل من ضغط الجاهلية وعزَّة الإسلام، وفد ثقيف وإسلامهم ٥٥٥
وفد من هيمنة قيم الجاهلية، وعزة الإسلام، خبر وفد تميم وإسلامهم ٥٦٥
موقف ضمام بن ثعلبة في إسلام قومه ٥٧٢
إسلام صُرَد بن عبد الله الأزدي وجهاده ٥٧٤
خبر زياد الصدائي ٥٧٦
مثل من رحمة النبي ﷺ (خبر ابن أبي عقيل الثقفي) ٥٨٠
إسلام فروة بن عمرو الجذامي ٥٨١
مواقف تربوية ودعوية (بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن) ٥٨٢
خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع ٥٨٦
مثل من حياة الأمن في الإسلام ٥٨٨
بيـان النبي ﷺ لعدالة الإسلام ٥٩١
موقف جُلَيْبيب وامرأته ٥٩٣
موقف في الثبات والتضحية (خبر حبيب بن زيد الأنصاري) ٥٩٥
مواقف دعـوية في إسلام أهل اليمن ٥٩٦
مواقف فدائية (القضاء على الأسود العنسي) ٥٩٨
فهرس المصادر والمراجع ٦٠١
فهرست الموضوعات ٦٠٧

تم بحمد الله وتوفيقه